أصول العقيدة الإسلامية

من الكتاب والسنة

تأليف

الأستاذ الدكتور
محمد عبد الستار نصار
أستاذ العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر

الدكتورة
عائشة يوسف المناعي
أستاذ العقيدة والأديان المساعد - جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

الإهداء

إلى الذين : يحبون دراسة أصول العقيدة الإسلامية من الكتاب والسنة قبل أن تتحول إلى منهج جدلي هش .

إلى الذين : يرومون معرفة أثر العقيدة الصحيحة في النفوس والقلوب ثم في السلوك والممارسات .

إلى الذين : يتطلعون إلى يوم تعود فيه شمس الإسلام لتنير الدنيا في يوم الناس هذا كما أنارتها من قبل .

إلى الذين : يطلبون العلوم الدينية في جامعتنا العربية والإسلامية بمنهج صحيح .

نهدي هذا الكتاب

المؤلفان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد .

فما أحوج المسلمين اليوم ، إلى تجديد صلتهم بعقيدتهم ، وارتباطهم بأصول دينهم ، واستذكارهم دروس ماضيهم التالد ، الذي صنعت فيه العقيدة الإسلامية ، يوم أن كانت حية في القلوب عامرة بها الصدور مستنيرة بها الأفئدة ، مهتدية بها النفوس ، أعظم حضارة ، وأفضل تاريخ ، وما أحوجهم – أيضاً – إلى الاعتبار بما حدث لأمتنا يوم أن انطفأت أنوار العقيدة في القلوب ، وضاع أثرها في النفوس ، فانعكس هذا في واقع أليم مرير ، صنعه المسلمون بأنفسهم ، والإسلام منه براء ، وهاتان الصورتان – الصورة الإيجابية المشرقة والصورة السلبية القاتمة – يمثلان العلة الحقيقية لقيام النهضات أو انحسارها، ليدرك كل ذي لب أن سنن الله الكونية والاجتماعية ، ليست سنناً جبرية ولا تخطيطات مرسومة ، تتجاوز قدرة الإنسان وإرادته بل إنها – في الحقيقة – ذات صلة وثيقة بفعالية الإنسان ونشاطه ، وكيف لا تكون كذلك ، وفي الإنسان من الحق تبارك وتعالى نفخة روحية حية ، المفروض فيها أن تكون في نفسه طاقة فاعلة مؤثرة في حياته ووجوده .

لقد قرر القرآن الكريم أن فعالية الإرادة الإلهية في الإنسان ، إنما تكون انعكاساً لواقعه الاجتماعي ، ليظل واعياً لقيمة وجوده ورتبته الحقيقية في هذا الوجود الكوني الهائل ، ففي معرض بيان تلك السنة الإلهية ، يقرر الحق سبحانه أن تغيير الواقع ، إنما

يكـــون تبعاً لتغيير النفوس ، في حالتي الإيجاب والسلب على السواء ، قال تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...** ﴾ (الرعد : ١١) وقال ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...** ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

إن العقيدة بالنسبة لصاحبها هي التي توجه سلوكه، وترسم له طريقه في الحياة وبقدر ما فيها من حق وبفضل ما لها من عمق في النفس، يكون عمل الإنسان وسلوكه، ومنهجه في الوجود .

والعقـــيدة الإســـلامية في صفائها ونقائها، تلك التي جاء بها كتاب الله الخالد ، وشاركته في بيانها وإيضاحها السنة المطهرة، هي التي ينبغي أن تسمى عقيدة بالمعنى الحقيقـــي ، ذلكـــم لأنهـــا تربط القلوب على الهدى، وتقيم النفوس على الحق، وتتضح معالمها في ارتباطها بالفطرة النقية السليمة، واتساقها مع العقل الصريح، وفعاليتها في الواقـــع والوجـــود ..... إننا نلمح تلك الخصائـــص في بعض النصـــوص القرآنية التي تقـــرر: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام..** ﴾ (آل عمران : ١٩) وترفض كل معتقد سواه ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.** ﴾ (آل عمران:٨٥).

إن الإســـلام بمعناه الأعم الشامل، إنما تمثل العقيدة فيه لحمته وسداه، وأصوله التـــي تبـــنى علـــيها كل الأحكام العملية، في العبادات والأخلاق والمعاملات، من ثم كان الوعي بحقائقها وآثارها وعياً بالإسلام كله، كما أن أثرها في النفوس والقلوب، يكون ذا مـــردود إيجابي في السلوك والحياة ، وإذا كانت الظروف التاريخية قد ألجأت المسلمين فـــي بعـــض فترات التاريخ الإسلامي، إلى أن يتحولوا بدراسة العقيدة إلى منهج يقترب بدراسة العلوم الفلسفية، بل إلى منهج يقوم على تأكيد الخصومات واعتقاد كل فرقة أنها هـــي وحدهـــا الناجية، وأن غيرها ليست كذلك، وإذا كان الواقع الإسلامي قد تجرع من وراء ذلك تفرقاً في الصفوف بعد تفرق القلوب والعقول، وإذا كنا نريد لواقعنا أن يستلهم تلـــك النصـــوص الداعـــية إلـــى وحـــدة الأمة ، وتأليف قلوب أبنائها ، مثل قوله تعالى

﴿ ولا تكونـوا كـالذين تفـرقوا واخـتلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (آل عمران :١٠٥) .

وقوله: ﴿ واعتصـموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا.... ﴾ (آل عمران:١٠٣) . أقول :

إذا كـان الأمـر هكذا فإننا نسوق هذا الكتاب للدارسين فى ثوب واضح جلى ، وضوح العقيدة وجلائها ، معتمدين أساسا على أصول العقيدة فى ضوء الكتاب والسنة ، بعيدين عـن تأويلات الفرق الكلامية المختلفة ، اللهم إلا إذا دعت الحاجة إلى بيان ما تتميز به المنهجية القرآنية فى إرساء قواعدها وأصولها.

ونـرجو مـن القارئ الكريم ألا يتسرع فيصف الكتاب بالبساطة والسهولة .فقد تعمدنا أن يكون كذلك ، لقد تعبت العقول وملت النفوس من المنهجية الجدلية، والتولدات والإلـزامات ، كمـا سـئمت مـن تحويـل العقـيدة من مقامها العالي المنير فى قلوب المؤمنيـن،إلـى جـدل عقـيم هش، ليس وراءه عمل مثمر أو آثار إيجابية، تصلح بها مجتمعاتـنا . بعد أن أضناها الشقاق والخلاف، وهز كيانها التفرق والتحزب، وكل حزب بما لديهم فرحون .

وقد توزعت فصول الكتاب بين المؤلفين على النحو الآتى :

أولا: الدكتورة/ عائشة يوسف المناعى : تكفلت بكتابة البحوث الآتية :

١-التعريفات والمصطلحات.

٢-الغيب (المعاد – الملائكة – الجن – الشياطين – الحياة الآخرة)

٣-القدر وأثره فى حياة الفرد والمجتمع.

ثانيا :الاستاذ الدكتور / محمد عبد الستار نصار : كتب البحوث الآتية :

١- منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الإيمان.

٢- الإيمـان بـالله تعـالى (أدلـة وجـود الله تعـالى، ووحدانيته، وتوحيد الربوبية،وتوحيد العبودية والصفات الإلهية وأثرها التربوي والسلوكي).

٣- النـبوة والوحـى : (حاجـة البشر إلى الرسالة – الوحي والعقل – حدود العقـل– طبيعة الوحي وأنواعه – المعجزة – صفات الأنبياء وعصمتهم–

نـــبوة ســـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- دلالتها وخصائصها- إعجاز القرآن الكريم).

والله العلي القدير نسأل أن يفيد منه الدارس ، بقدر ما أخلصنا فى إخراجه على هذه الصور الملائمة لأهداف هذا الكتاب والغاية منه .

المؤلفـــــــان.

الباب الأول

الإلهيات

ويشتمل على :

الفصل الأول : التعريفات والمصطلحات.

الفصل الثانى : منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الإيمان.

الفصل الثالث : الإيمان بالله تعالى.

الفصل الرابع : الصفات الإلهية وأثرها فى الفرد والمجتمع.

الفصل الأول

التعريفات و المصطلحات

لقــد حصــر الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الدين في عناصــر ثلاثــة، وذلــك من خلال إجابته على سيدنا جبريل عليه السلام، حيث قدم إلى مجلســه وهو بين صحابته، وقد كان على صورة إنسان حسن الهيئة و المظهر، فأسند ركبتــيه إلى ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم، ووضع كفيه على فخذيه صلى الله عليه وســلم وســأله: ما الإيمان؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله وملائكته وكتــبه ورســله والــيوم الآخــر وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه و مره، وسأله : ما الإســلام؟ فقــال الرســول صلى الله عليه وسلم : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رســول الله ،وتقيم الصلاة و تؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه ســبيلا،وســأله : ما الإحسان ؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وفى نهاية الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)[1] .

نســتخلص مــن الحديث الشريف أن دين الإسلام في مجمله يتكون من جوانب ثلاثــة :جانــب الإيمان وهو الجانب النظرى، وجانب الإسلام أو الشريعة، وهو الجانب التطبيقــي، وجانب الإحسان وهو الرتبة العليا من الإسلام، وهو يهدف إلى الإخلاص في الجانبين الأولين والزيادة عليهما .

ولأهمــية الإيمــان جــاء السؤال عنه أولا حيث إنه الركيزة والأساس الذى يقام عليه

[1] لخرجه البخاري في صحيحه – كتاب الإيمان – باب ٣٧ . وما نكر من باب الجمع بين الروايات، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه عنه جمع من الصحابة: وكذا في مسلم من رواية عمارة بن القعقاع .

بـــناء كــل مـــن الإسلام والإحسان ، وهو الإيمان الذي عبر به القرآن، وأيضاً الحديث النبوي، عن العقيدة ، كما عبر عن الشريعة بالعمل الصالح .

والعقـيدة : هـــي مجموع الإيمان بأركانه الستة، وهي كما يقول الإمام محمود شــلتوت : الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شئ. إيماناً لا يرقى إليه شــك ولا تؤثـــر فـــيه شبهة، ومن طبيعتها : تضافر النصوص الواضحة على تقريرها وإجماع المسلمين عليها، من يوم أن ابتدأت الدعوة، مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلــك فـــيما وراءهـــا، وهـــي أول ما دعا إليه الرسول، وطلب من الناس الإيمان به في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهي دعوة كل رسول جاء من قبل الله (١) .

وإذن فالإيمـــان هـــو العقيدة، ومعنى العقيدة – في اللغة – مأخوذ من (العقد) بمعـــنى الـــربط أو الشـــد أو العزم، وهذا الربط يتعلق بالأشياء المادية والمعنوية على الســـواء. فيقال : عقد الحبل أي بمعنى أحكمه ربطه وشده ، ويقال : عقد قلبه على كذا بمعـــنى : اعـــتقده وصـــدق به ولزمه ، وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الخيل معقود في نواصيها الخير) (٢) أي ملازم لها كأنه معقود فيها .(٣) .

وأما المعنى الاصطلاحي للعقيدة فهي : (ما يجب اعتقاده على المكلف كوجوب وجود الله تعالى ووجوب قدرته) (٤) .

فالعلاقـــة بيـــن المعـــنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للعقيدة ، علاقة خصوص وعمـــوم. حيـــث إن المعـــنى اللغوي يدل على ثبوت الاعتقاد ورسوخه وتمكنه في قلب المعـــتقد، سواء أكان ذلك اعتقاداً بالحق أم بالباطل ، وأما العقيدة بالمعنى الاصطلاحي، فهو خاص بالعقيدة الحقة الصحيحة فقط .

ولفـــظ العقـــيدة لا نجده في تعبير القرآن الكريم ، وكذلك لفظ الشريعة ، وإنما يعبر القرآن عن العقيدة بالإيمان ، وعن الشريعة بالعمل الصالح ، كما في قوله تعـــالى :

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة – دار الشروق – القاهرة – ص ٩-١٠ .
(٢) صحيح البخاري – كتاب القيامة – ج٤ – ص١٤٣ .
(٣) التفتازاني – أشرف المقاصد – المطبعة الخيرية – القاهرة ١٣٢٥هـ - ج١ – ص٨ .
(٤) لسان العرب – مادة عقد – دار صادر – بيروت – ج٣ – ص٢٩٨ .

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾(١٠٧ الكهف)

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ (٩٧ النحل) .

ويؤخذ من كل ذلك أن العقيدة هي إيمان جازم، وتصديق عقلي وقلبي بكل تلك الأركان، التي ذكرها القرآن، وفصلتها السنة المطهرة. والإيمان في اللغة هو : مطلق التصديق، وأما في الاصطلاح فهو : تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة أي : فيما اشتهر بين المسلمين وصار العلم به يطابق العلم الحاصل بالضرورة، بحيث يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال ، كوجود الله تبارك وتعالى وعلمه وحياته .

حقيقة الإيمان :

فأما حقيقة الإيمان فهي : الإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، وهذا ما يقرره جمهور السلف من الأئمة : مالك والشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهم ، وغيرهم. وقد استدل شارح الطحاوية على تركب حقيقة الإيمان من الأمور الثلاثة بانقسام الإيمان إلى شعب مختلفة، تحتوي على عمل اللسان والقلب والجوارح ، أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) . وقوله صلى الله عليه وسلم (الحياء شعبة من الإيمان) وقوله صلى الله عليه وسلم (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) (١) .

وقد نفهم من تشعب الإيمان إلى هذه الأمور، استلزامه للزيادة والنقصان ، وهذا ما يفهم من آيات القرآن الكريم في هذا الصدد ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٢ الأنفال) ، ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ (٤ الفتح) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي – ج٢ – ص٢٢ .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١٧٣ / آل عمران) . كما يفهم أيضاً من قوله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (١) .

وللصحابة رضي الله عليهم في موضوع زيادة الإيمان ونقصه أقوال كثيرة : فأبو الدرداء رضي الله عنه يقول : من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه ومانقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص . وعمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله عز وجل . وابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقها (٢) .

والدليل على زيادة ونقصان الإيمان، زيادة ونقصان العمل، فكثرة الأعمال الصالحة والالتزام بالعبادات دليل على زيادة الإيمان والعكس صحيح، بل يرى بعض العلماء أن الاجتهاد في الإكثار من العمل الصالح، هو سبب من أسباب زيادة الإيمان، ويشبه أن تكون العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح علاقة مطردة، يزداد العمل فيزداد الإيمان ويزداد الإيمان فيزداد العمل. وهكذا (٣) .

يقول الإمام الغزالي في هذا المعنى : (الإيمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات في القلب، وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب، مع أوقات الفتور، وأدرك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال، حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل ... وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح، ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها.(٤).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي – ج١ – ص٢٢ .
(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية – ص٣٤٣ – المكتب الإسلامي .
(٣) انظر د / محمد نعيم ياسين – الإيمان – دار الفرقان – الأردن ١٩٩٧م – ص١٣٢ .
(٤) قواعد العقائد – تحقيق موسى محمد – عالم الكتب – بيروت ١٩٨٥م – ط٢ – ص٢٦٣.

هــذا الجانــب – العقــيدة أو الإيمان – من جوانب الإسلام دعى إليه جميع الرسل والأنبــياء فــي شــرائعهم، وهو واحد في جميع الأديان لا يختلف باختلافها، قال تعالى **﴿ شـرع لكـم مـن الديـن ماوصـى بـه نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسـى وعيسـى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** (١٣ / الشورى) فأساس الدين وأصله الذي اتفقت عليه سائر الأديان السماوية هو : جانبي الإيمان بأركانه الستة وهي تــتعلق بأعمال القلوب، وأما الشريعة بأركانها الخمسة وهي ما تتعلق بأعمال الجوارح، فإنهــا تختلف باختلاف الأديان، ونفهم ذلك من الآية الكريمة **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومـنهاجا ﴾** (٤٨ / المــائدة) فلكــل أمــة من الأمم شريعة خاصة تتفق مع ظروفها وطبيعتها، وقد استمر أمر الشرائع هكذا حتى الدين الخاتم وهو الدين الإسلامي بصورته النهائية كما قال تعالى **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسـلام ديناً ﴾** (٣ / المائدة) فالدين بمفهومه الشامل عقيدة وشريعة وأخلاق، أكمله الله تعالى بالدين الإسلامي، ومن هنا سماه الله تعالى نعمة وارتضاه لعباده، فعقيدته هي نفــس عقائد الأنبياء السابقين، وشريعته هي الشريعة الكاملة التامة وهي المطلوبة من الــناس ولا يقــبل الله غــيرهما **﴿ ومـن يبـتغ غـير الإسـلام ديـنا فلـن يقبل منه ﴾** (٨٥ / آل عمران) **﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾** (١٩ / آل عمران) .

مصطلحات العلم :

يشرف هذا العلم بشرف موضوعه، وهو الإيمان بالله تعالى ووجوده ووحدانيته وما يــدور حــول هــذا الموضــوع من أصول وفروع ومسائل، وقد أطلق على دراسة تلك الأصــول عــدة أســماء منها : (علم العقيدة) (علم التوحيد) (علم الإيمان) (علم أصول الدين) (علم التوحيد والصفات) (علم الفقه الأكبر) (علم الكلام) .

وأما الجانب التطبيقي لهذه الأصول والذي تمثله الشريعة، فيسمى العلم المتعلق بها (علــم الفــروع) أو علــم (فروع الدين) أو (علم الفقه) أو (علم الشرائع والأحكام ..

وهكــذا . والـــذي يعنيـــنا في هذا المقام مصطلحات العلم الذي سميت به دراسة أصول الإيمان الستة .

١- علم العقيدة :

وهــذا المصـــطلح أكـــثر المصطلحات استخداماً وأشهرها، وذلك لما يمثله من دلالة انعقــاد القلب على موضوع الإيمان ذلك الانعقاد الذي يشكل الرابط المعنوي بين المعتقد وموضـــوع الاعتقاد (١) . وهناك استخدامات أخرى اشتقت من العقيدة لا يختلف معناها عـــن معـــنى العقيدة، مثل الاعتقاد – العقائد – العقدي ، والقرآن الكريم لم يستخدم هذه اللفظـــة وإن كانـــت مادتهـــا موجودة فيه مثل قوله تعالى ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان**﴾ (٨٩ / المائدة) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ (١ / المائدة) . – وقد ذكرنا سابقاً المقصود من لفظ العقيدة .

٢- علم الإيمان :

وهـــو العلـــم الـــذي يدرس الإيمان بمعناه اللغوي والشرعي، وهو مطلق التصديق وبخاصة المعنى الشرعي الذي (كثيراً ما يراد به معنى أخص صار في العرف الشرعي حقـــيقة جديـــدة فيراد به (الإيمان) أي : خصوص التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبـــياء، وضبط ذلك : أن ننظر في استعمالها فإن كانت متعلقة بشيء بأن قيل : إيمان بكـــذا : كانـــت بمعناها اللغوي البحت، أي مطلق التصديق، وأما إذا ذكرت بدون متعلق فالمراد بها تلك الحقيقة الشرعية الخاصة، وهي التصديق بالحق والانقياد له (٢) .

٣- علم التوحيد :

وقـــد نظـــر فيه إلى أن التوحيد أساس الإسلام، وهو الأصل الذي تنبني عليه سائر الأصول الأخرى من الإيمان بالرسل وباليوم الآخر والملائكة .. الخ . والتوحيد المضاف إلى العلم في هذه التسمية هو : اعتقاد وتصديق أن الله تعالى واحد لا شريك له وإفراده تعـــالى فـــي ذاته وصفاته وأفعاله، وإفراده بالطاعة والعبادة . ومن هنا عرف هذا العلم – فـــيما يقـــول الإمـــام محمـــد عـــبده – بأنه (علم يبحث فيه عن وجود الله تعالى ، وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن

---

(١) د / محمد نصار – المدخل إلى دراسة العقيدة والأديان – ط – القاهرة ١٩٩٥م – ص١٣ .

(٢)عثمان جمعة ضميرية – مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية – مكتبة السوادي – جدة ط٢ – ١٩٦٢م – ص ٨٦-٨٧ .

الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم) (١) .

وكلمـــة التوحيد لها دلالة عظمى على العقيدة (فشهادة أن لا إله إلا الله تشير إلـــى كـــل جوانب العقيدة ومسائلها لأنه إذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح اســـتتبع ذلـــك – قطعاً – الإيمان بسائر العقائد من إلهيات ونبوات وسمعيات) (٢) وقد عـــرفه ابـــن خلدون بقوله : (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والـــرد علـــى المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد (٣) .

وهـــذا الـــتعريف يشـــبه أن يكون تعريفاً للعلم باعتبار فائدته وغايته أوثمرته المرجوة منه .

٤- علم أصول الدين :

وهـــذا الـــتعريف منظور فيه إلى أن مباحث هذا العلم هي أصول الدين وأركانه وهـــي مســـائل الاعـــتقاد، ســـواء تعلق ذلك الاعتقاد بالألوهية، أم بالنبوة، أم بالأمور الســـمعية، وذلـــك في مقابل علم الشريعة أو الفقه المتعلق بمسائل الفروع، أو المسائل العملية التي هي فروع الدين .

٥- علم الفقه الأكبر :

والفقـــه معـــناه : (العلـــم بالشيء والفهم له . وغلب على علم الدين لسيادته وشـــرفه وفضـــله على سائر أنواع العلم كله) (٤) . وقد اقتصرت التسمية بالفقه عرفاً على أحكام الشريعة فيقال : فقيه إذا كان متخصصاً في أمور الدين العملية .

---

(١) محمد عبده – رسالة التوحيد – دار احياء العلوم – بيروت ١٩٨٥م ط٥ – ص٤٣ .
(٢) عثمان جمعة – المرجع السابق – ص١٠٦ .
(٣) المقدمة – تحقيق د / على عبد الواحد وافي – دار نهضة مصر – ص ١٠٦٩ .
(٤) لسان العرب – (مادة فقه) – ج١٣ – ص٥٢٢ .

وأمـــا الإمـــام أبو حنيفة فقد جعل مصطلح الفقه عاماً لمعرفة الدين عقيدة وشريعة، واســـتخدم للعقـــيدة مصـــطلح الفقه الأكبر في مقابل الفقه الأصغر، وهو معرفة الأحكام الشرعية والفتاوى، وقد كتب في ذلك كتابه القيم (الفقه الأكبر) ويؤيده الإمام الغزالي فـــي تلك التسمية، ويرى أن الفقه (كان يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة ومعـــرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا – بالنسبة للآخـــرة – وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك على هذا المعـــنى قـــول الله تعالى ﴿ ليـتفقهوا في الدين ولينـذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ (١٢٢ / التوبة) وما يحصل به الإنذار والتخويف. هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعـــتاق واللعان والسلم والإجارة .. فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف .. ولست أقول إن اســـم الفقـــه لم يكتب متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشـــمول أو بطـــريق الاســـتتباع، فكان إطلاقهم على علم الآخرة أكثر .. وقد تصرفوا (المـــتأخرون) فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها) (١) .

وينسب حاجى خليفة في كشف الظنون كتاباً للإمام الشافعى يسمى (الفقه الأكبر) . والمقصود به علم التوحيد أيضاً على غرار الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة.

٦- علم الكلام :

ســـمي بذلـــك (لأن أشـــهر الاختلافات فيه كانت مسالة كلام الله تعالى أنه قديم أو حـــادث، ولأنـــه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات ، ولأنـــه كـــثر فيه من الكلام مع المخالفين والرد عليهم ما لم يكثر في غيره (٢) . وقيل سمي بذلك لأن (مباحثه كانت مصدرة بقولهم : الكلام في كذا وكذا) (٣) .

وقد عرفه التفتزاني بأنه : (العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية ، مناسباً

---

(١) إحياء علوم الدين – ج١ – ص٣٨ .

(٢) سعد الدين التفتازاني – شرح المقاصد – مكتبة الكليات الأزهرية – تحقيق د / عبد الرحمن عميرة ج١ – ص١٧٩ .

(٣) نفس المرجع – ونفس الصفحة .

لقولهم في الفقه، إنه العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية) (١) .

ونفهـم من تعريف التفتازاني لعلم الكلام وتعريف ابن خلدون للتوحيد أن مصطلح علـم الكـلام مرادف لمصطلح علم التوحيد. وقد عرفه الجرجاني بأنه :(علم يبحث فيه عن ذات الله تعالي وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام(٢).

ونلاحـظ أن كل مصطلح من هذه المصطلحات الستة يراعى جانبا معينا من جوانب العقيدة بمعناها الشرعى .

فالمصـطلح الأول (العقيدة) يلحظ جانب الربط بين قلب المعتقد وموضوع الاعتقاد. وهـذا أمر هام فى هذا المقام . وكأنه يعنى أيضا : أن الذى وصلت به عقيدته إلى هذه الحالـة، فـلا خـوف عليه من الشكوك والأوهام . التى تثار من قبل أصحاب المذاهب الهدامة التى تقف للدين الصحيح بالمرصاد .

والمصطلح الثاني (الإيمان) يراعى- بجانب المعنى السابق – الأمر الباطني القلبى الذي تعمر به القلوب وتزكو به النفوس ، والذى يكون أساسا تنبنى عليه كل سلوكيات المؤمـن ، بـل قـد يكون هذا المصطلح أولى بالقبول، حيث يلاحظ البعد القلبي الذي ينعسـاب في كيان المؤمن ، فيجعل نشاطه الخارجى كله منطلقا من هذا البعد، وخاضعا لرقابـته ، بحيث لا يصدر من المؤمن عمل صالح أو ترك عمل طالح إلا ولابد أن يكون واقعا تحت تأثير ذلك الإيمان .

والمصـطلح الثالـث (التوحيد) يراعى جانب تفرد الخالق سبحانه وتعالى من جميع الجوانب : تفردا في الذات – تفردا فى الأفعال ، تفردا فى الصفات ، تفردا فى العبودية والخالقية ، بحيث لا يشاكله فى ذاته وصفاته وأفعاله شئ ، ولا يكون له ند ولا ضد ولا ممـاثل ولا معيـن ولا معبود بحق سواه ، كما يراعى أيضا : ما يستلزمه هذا المعنى فى نفوس المؤمنين من تماسك وترابط، بحيث يصيرون وكأنهم -جميعا – في كل زمان

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٢) التعريفات :ص٢٧.

ومكــان حقــيقة واحــدة وان اختلفت ذواتهم ، فإذا كان الإله الذي يؤمنون به واحدا ، فمقتضى هذا أن تكون قلوبهم واحدة وصفوفهم واحدة كذلك .... الخ ، وهكذا ، فى بقية المصطلحات.

ونقــف أمــام فقــرة هامة جاءت فى تعريف الجرجانى . حيث جعل دراسة أحــوال الممكــنات من المبدأ والمعاد ، داخلة فى موضوع هذا العلم . وأعتقد أن هذه العــبارة لم تذكر فى هذا المقام إلا لغرض واضح جلي فى ذهن صاحب التعريفات ، وفــى أذهانــنا نحن الدارسين ، فدراسة أحوال الممكنات لا يكون لذاته، بقدر ما يكون مقصــوداً بــه دلالتها على المؤثر فى أحوالها بالإيجاد والإعدام وما بينهما من تغيرات وتطــورات ، إن الــروح الكونية شاهدة على أن المؤثر فى الكون كله إله واحد ، قادر حكيم ، ولا يزاحم هذه النتيجة الحتمية التى أصبحت قانونا انتهى إليه العلم التطبيقي فــى جميع مجالاته ، تلك التصورات المتهافتة التى ترى أن الكون قد وجد بالصدفة العمــياء بلا سبب ولا علم ، أو أنه قد أوجد ذاته ، فهذه وتلك لا تملك مبررات طرحها فى مجال الفكر ،لأن هذا المجال لا يحترم من الأفكار والآراء إلا ما كان مدللا عليه ، وإذا كــان هــؤلاء لا يملكون شيئا. اللهم إلا تصوراتهم المريضة ، فإن دراسة الممكنات لمعــرفة أحوالهــا ، بمــنهج علمي صحيح يجعل لعلم الكلام صلة ، بل صلات بالعلم التطبــيقى ، وكــيف لا يكــون كذلك والكون كله آثار بادية للعيان وأسراره الكامنة فى أعماقــه ، والــتى يسعى العلم إلى اكتشاف القوانين التى تحكمه، كل ذلك مجلى لعظمة الخالق ووحدانيته ، وكل تقدم واطراد فى هذا السبيل يجعلنا نقرر فى اطمئنان أن العلوم التجريبــية ، إذا التزمت بالمنهج الصحيح للبحث ، والإطار الأخلاقي للعلم ، يكون التقدم فيها فتحا جديدا لتعانق العلم والإيمان ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول فى رد شبهات المعارضين : ﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون** ﴾ (الطور:٣٥).

كلمة أخيرة في هذا الفصل :[1]

نــرى فــي واقعــنا الإســلامي ظواهــر تدل دلالة واضحة على مرض في النفوس والقلوب، وقد يتعلل هؤلاء الذين يمثلون تلك الظواهر ببعض النصوص الشرعية دون فقه صحيح لها ، تلك التى تظهر عموم المغفرة الإلهية لكل خطاء من مثل قوله تعالى : ﴿ **قـل ياعـبادى الذيـن أسـرفوا علـى أنفسـهم لا تقـنطوا مـن رحمة الله إن الله يغفر الذنـوب جميـعا إنـه هـو الغفـور الرحـيم** ﴾ (الزمر :٥٣) وقوله صلي الله عليه وسلم (مــن قــال لا إلـــه إلا الله دخل الجنة) ويستوي في نظر هؤلاء ، الفكرة التى يدركها العقــل ويــنطقها اللسان، والإيمان القوي الذى ينساب فى كيان الإنسان فيحول وجوده إلي طاقه خلاقة .

من ثم يلزم أن نفرق بين مصطلحات ثلاثة :

١- الإيمان:

٢- المعرفة :

٣- الفكرة أو الرأي :

وتظهر التفرقة بين هذه المصطلحات الثلاثة بمعرفة خصائص كل منها . وذلك على النحو الآتي:

خصائص الإيمان:

لعــل أبرز خصائص الإيمان بمعناه الحقيقي ، أنه متي عمر به القلب ، انساب فـــى كيان الإنسان كله ،وحين يصبح كذلك فإن صاحبه يتميز عن سواه في الفكر والعمل والسلوك، فهو فى فكره متوازن لا يقبل من الأفكار إلا ما صح منها ، وقام الدليل عليها، ولا يصــدر عنه من الأفعال إلا ما كان خيرا ، ولا يسلك فى حياته إلا الطريق القويم ، وتــتحدد نظــرته إلى الكــون والحياة فى ضوء هذا الإيمان ، بحيث لا يقول إلا صدقا ولا يعمل إلا حقا ، ولا يحكم إلا صوابا .

---

(١) هذا المبحث كتبه أ. د. / محمد نصار حتى آخر الفصل .

إن الإيمـــان الــذي يسرى في جوانب المؤمن يملك عليه أقــطار نفسه ، ولا يتصـــرف إلا مـــن خلاله ،إنه بهذا الإيمان الواثق ، يكون سعيدا فى نفسه ، كما يسعد الآخرون به . ثم إنه من جانب آخر يجعل صاحبه مطمئنا دائما لأنه واثق بأن ما أصابه لــم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، من ثم تستوي لديه المنح والمحن لأن هــذا قدره ،وهو يردد دائما قوله الله تعالى ﴿ لكـي لا تأسـوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بمـا آتـاكم ﴾ (الحديــد:٢٣) ، إن حاله كله لهو خير له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، إنه فى ميدان الحياة ، مكافح شديد المراس ، يكابد كل المكابدة ، وبين جنبيه قلب عامر بالإيمان ونفس راضية بما يقع .

وأما من حيث المعنى الداخلى لهذا المظهر ، الذى يحدد علاقة المؤمن بالحياة ، فــإن الإيمان معنى يسرى في النفس ، فيكسبها وثوقا ورسوخا ويحدد معالم سيرها فى هــذه الحياة، يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين فى هذا المقام : (فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقده ، فإذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك وأما إذا اعتقدته فقد جــرى فى دمك ، وسرى فى مخ عظامك وتغلغل فى أعماق قلبك .. ذو الرأى فيلسوف، يقـــول إنـــى أرى صوابا ما قد يكون فى الواقع باطلا ... وأما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هى الحق لا محالة، هى الحق اليوم، وهى الحق غدا، خرجت عن أن تكون مجالا للدليل، وسمت عن معترك الشكوك والأوهام (١) .

والإيمـــان يفعـــل بصاحبه الأعاجيب حين تتجه العلاقة بينه وبين الحق سبحانه وتعـــالى، فالمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته زادته إيمانا، وهو دائما وأبـــدا آخذ بالأسباب متوكل على الله ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهـم وإذا تليـت عليهم آياتـه زادتهـم إيمانـا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم دراجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (الانفال : ٢-٤).

---

(١) أمين (د / أحمد) فيض الخاطر ج١ –ص١٢٠ .

إن المؤمن الصادق هو الذى إذا سمع دعوة الحق سبحانه وتعالى هرع إليها ملبيا لأحكامها، واجدا فى نفسه فرحا واستبشارا، لأنه أدرك وثاقة مصدر هذه الأحكام، إنه يفنى ذاته فى تنفيذ أمر الله ، بحيث لا يكون له رأى ذاتى يعتد به، بجانب قول الله تعالى . قال سبحانه ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعو إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ (النور : ٥١).وقال ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (الأحزاب : ٣٦) ، ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (النساء : ٦٥) .

إن خصائص الإيمان كثيرة ومتعددة ، يجمعها معنى واحد، هو شعور غامر ينساب في كل كيان المؤمن يحدد علاقته تحديد دقيقا بالله سبحانه وتعالى ، خالق الوجود وبالوجود نفسه، هذا الشعور يزكيه مركز المؤمن نفسه بين مراتب الوجود كلها. إنه يمثل الخلافة الحقيقية عن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، تلك التي جعلت مبرراتها : إيمان صادق وعمل صالح ، كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ (النور : ٥٥) .

خصائص المعرفة (١) .

وأما المعرفة فإن أهم خصائصها أنها تقوم على إدراك ما لم يكن مدركا، أي أنها علم بعد جهل وتتراكم عناصرها وتترابط وتتنوع بفضل ذكاء العارف، وقد يكون له

---

(١) يقول الجرجاني في التعريفات ص٢٣٢ ج١ دار الكتاب المصري اللبناني : والمعرفة ادراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم بخلاف العلم.ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف،وللصوفية فرق واضح بين مفهومي العلم والمعرفة وبالتالي بين العالم والعارف لأن معرفة الله أولى من مجرد العلم به ،ولذا يطلقون على متقدميهم في الطريق الصوفي اسم "العارف بالله"مضافا إلى الحق تبارك وتعالى حيث تكون معرفته سبحانه وتعالى لديهم اسمى درجة من العلم به ولعل احساسهم بالفرق بين المشاهدة والمعاينة التي يستشعرونها للذات الالهية هو الذي جعلهم يقولون بهذا الفرق .

مـــنها أو مـــن بعـــض عناصـــرها موقف أو مواقف، والظاهر فيها أنها لا تتجاوز عقل الإنســـان إلـــى قلـــبه فضـــلا عن كيانه وشعوره، وكلما ظلت في هذه الدائرة لا يزايلها الوصـــف الخاص بها (معرفة) . وفرق بعيد بينها وبين العقيدة والإيمان . والواقع يرينا أن هـــناك أناساً كثيرين يعرفون عن أمر معين كل أو بعض جوانبه المعرفية . ولكنهم لا يؤمـــنون بـــه. ولا يعـــتقدون فـــي صحته، وأقرب مثال لذلك، ما نشاهده من كثير من الباحثيـــن من مستشرقين وغير مستشرقين، يعرفون كثيراً عن حقائق الإسلام، من حيث أصوله وفروعه وآدابه وأخلاقه، ولكنهم في نفس الوقت لم ترق نفوسهم إلى الإيمان به والاعتقاد في صحته. وهذه حقيقة لاتتخلف في أي عصر. وقد أشار إليها القرآن الكريم، حيـــن قـــص علينا موقف أهل الكتاب، من القرآن الكريم ، والنبي محمد صلى الله عليه وســـلم، فقـــد ذكـــر أنهم كانوا يعرفون أن نبياً سيبعث آخر الزمان بأوصاف مفصلة في كتـــبهم، وســـينزل عليه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكانوا من قبل ذلـــك يســـتفتحون على الكافرين، أي يطلبون لهم أن يفتح الله عليهم ويؤمنوا بالرسول المنـــتظر والكـــتاب الـــذي سينزل عليه، فحين جاء الرسول ونزل الكتاب، - وهم الذين يعـــرفون ذلك من قبل- أعرضوا عنه وكفروا به، قال تعالى : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ (البقرة : ٨٩) .

إن المعـــرفة لم تزد صاحبها إلا تحصيلا لما كان مجهولا من قبل، فإذا تجاوزت به مجرد الإدراك إلى التأثير بسلوكه – إيجاباً أم سلباً – كانت هذه الحالة أشبه ما تكون بالعقـــيدة. وأما إذا تحولت في نفس صاحبها إلى طاقة مبدعة مؤثرة، بحيث تملك عليه أحكـــام نفســـه، وتسري في كيانه، ويحيا حياته من أجلها فهي العقيدة بعينها، تلك التي تحدثنا عنها في المبحث السابق .

مـــن ثم يصبح الفرق واضحاً بين كل من العقيدة (الإيمان) والمعرفة، نعم !! إن المعـــرفة قـــد تحـــدث لدى العارف لذة عقلية نظرية، وقد تقف به عند هذا الحد، ومهما كثرت وتنوعت فإنها لا تعدو أن تكون إدراكا لمعارف تحصلت بطرق الإدراك المختلفة .

خصائص الفكرة أو الرأي :

الفكـــرة تـــتكون لـــدى صـــاحبها حيال مسألة أو مسائل. يكون له منها موقف مخـــالف، أو موافـــق لما سبق، ولكن بمبررات جديدة. وقد تكون هذه المبررات واضحة لـــدى صـــاحبها فتظل الفكرة لديه محل تقدير، حتى يطرأ عليه ما يغيرها، وذلك بظهور أدلـــة مخالفـــة لم تكن مدركة لديه من قبل، أو بوضوح جانب لم يكن واضحاً فيها لديه، وهي في كل حال لا ترقى إلى مستوى العقيدة، لأن مستقرها العقل والمؤثر فيها الدليل . والعقـــل كطـــريق للمعرفة ، والدليل كمنهج للإثبات أو النفي، ليس لهما صفة الاستمرار فـــي كـــل الأحوال . والواقع يرينا أن الأفكار ليست الاخلسات من نور العقل ، تظهر ثم تغيـــب ثم تظهر مرة ثانية ... وهكذا ، أعني : انها لا تمتاز بالثبات .كما تمتاز العقيدة . وهذا هو الفرق الواضح بينهما .

وأمـــا من حيث العلاقة بين تأثير كل من العقيدة والفكرة في نفس صاحبها. فقد ذهـــب كثـــير من علماء النفس إلى التاكيد على الفرق الواضح بينهما في هذا السبيل ، فصـــاحب الرأي أو الفكرة فاتر بارد، ان تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لـــم يـــتحقق مـــا رأى فلا بأس، لأن رأيه صواب يحتمل الخطأ. ورأي غيره خطأ يحتمل الصـــواب . وأمـــا ذو العقـــيدة فحار متحمس، لا يهدأ إلا إذا تحققت عقيدته. كما أن ذا الـــراي من السهل عليه أن يتحول ويتحور، هو عند الدليل أو عند المصلحة، التي تظهر فـــي شكل دليل، وأما ذو العقيدة فلا يتحول عن موقفه حتى لو أعطي مثل الأرض ذهباً، والرأي كهف مظلم والعقيدة نجم يتألق. الراي يخلق المصاعب ويضع العقبات، ويصغي لأمانـــي الجســـد، ويثير الشبهات، ويبعث على التردد، والعقيدة تقتحم الأخطار وتزلزل الجـــبال، وتلفـــت وجه الدهر وتغير مجرى التاريخ، وتنسف الشك والتردد وتبعث الحزم واليقين ، ولا تسمح إلا لمراد الروح (١) .

---

(١) د / يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص٢٥ .

واقع المسلمين اليوم :

لا يشك عاقل في أن حال المسلمين اليوم لا يسر، وأنهم ينتقلون من ضعف إلى ضـعف وحسبهم أنهم مصنفون في المعترك الدولي ضمن العالم النامي وأن ما يملكون مـن ثـروات وعقول لم تغن عنهم شيئاً ، وإذا سألنا أنفسنا : أين الخلل ؟ لكان الجواب هـو : موقفهم المزري حيال عقيدتهم ، تلك العقيدة القوية الرابطة المجمعة، التي جعلت مـن أعـراب الجاهلية سادة الدنيا، إيماناً صادقاً وحضارة إنسانية في أقل من قرن من الزمان . تلك التي أخرجتهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، والتي تفتحـت لها القلوب الغلف والآذان الصم . فكان من ثمار ذلك نصر مبين في كل جوانب الحياة . تلك العقيدة التي صنعت رجالاً آثروا الحق على الباطل والآخرة على الدنيا .لأن ما عند الله خير وأبقى .

إن الإسلام الذي حول مسار التاريخ لصالح الإنسان من حيث هو إنسان ، رفعا لكرامـته ، وتقديرا لمنزلته، وتسخيرا لطاقات الأرض والسماء له .حتى تسعد به الدنيا هـو الإسـلام اليوم وبعد اليوم ، الذي يمكن أن تستعيد به الأمة مجدها التالد وتاريخها الناصع. وذلك بالعودة إلى ينابيعه الصافية وموارده العذبة، ولن يكون ذلك إلا إذا تغيرت الـنفوس حتى تكون مستعدة لتقبل نصر الله، فيرث المؤمنون الأرض كما كانوا من قبل، ويمسـكون بـزمام الحضارة كأسلافهم. وقد قرر القرآن تلك الحقيقة الباهرة التي تؤكد صـدق ما نذهب إليه. ولم تذكر تلك الحقيقة في القرآن وحده ، بل احتوتها بعض الكتب السـابقة وهـي أن ميراث الحضارة بالمعنى الحقيقي لن يكون إلا لعباد الله الصالحين، وصـدق الله العظيم حيث يقول ﴿ **ولقـد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٥ ، ١٠٦) .

الفصل الثاني

منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان

ويشتمل على

أولاً : الإنسان والإيمان .

ثانياً : ما المنهج ؟

ثالثاً : خصائص المنهج القرآني في الدعوة إلى الإيمان .

رابعاً : العقائد الإيمانية وأدلتها .

أولاً : الإنسان والإيمان :

في القرآن الكريم آية بينة أطلق عليها جمهور المفسرين والباحثين في الإسلام اسم : [آية الميثاق] . وهي قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ (الأعراف : ١٧٢ : ١٧٣) فالآية الأولى من هاتين الآيتين تفيد أن الحق تبارك وتعالى – وهو القادر المطلق – قد استحضر في مرتبة وجودية سابقة على هذه المرتبة التي تعيشها ذرية آدم هي : عالم الذر جميع أفراد بني آدم في شكل يناسب تلك المرتبة، ليستنطقهم ويشهدهم على أنفسهم بأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم فشهدوا بذلك . وفي هذا تنبيه لهم حتى لا يتذرعوا بالغفلة حين يوقفهم الحق تبارك وتعالى للسؤال يم القيامة. وبهذا الموقف – أيضاً – تسقط عملية التقليد، التي يذوب فيها المقلد فيمن يقلده، وهذا ما تفيده الآية الثانية .

إن الآية الأولى صريحة في فطرية الإيمان بالله تبارك وتعالى وأنه عملية مركوزة في النفس البشرية، في أصل الخلقة والطبع، يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (الروم : ٣٠) وقوله سبحانه في مقام إزالة كل شك عن هذه القضية، ليتأكد كل ذي لب فطرية الإيمان بالله رب العالمين ﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين** ﴾ (إبراهيم : ١٠) .

وقـد جاءت السنة الصحيحة بما يوضح حديث القرآن الكريم عن فطرية الإيمان بـالله رب العالمين. من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه] [1] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن رب العزة أنه قال [خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين] [2] .

وتعنـي فطـرية (الإيمان) التي جاءت بها النصوص الشرعية المعني الصحيح والحقيقـي لهذا المصطلح الشرعي ،أي :التصديق الجازم الذي لا يخالطه شك بأي حال مـن الأحـوال ، بحيث لا تقدح فيه الشبهات ولا تنال منه أعاصير الأوهام والظنون . ويـتوزع هذا الإيمان بالمعني الشرعي علي موضوعاته التي بينها الحديث الصحيح – حديـث جـبريل عليه السلام – حين سأل رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الإيمان فقـال:[الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره [3].

والقـرآن الكـريم يقرر تلك القضية – مره أخرى – بالكشف عن طبيعة النفس البشـرية ، حيـن تواجه حالة من الابتلاء – الضراء – إنه يبين أن الإنسان أمام هذا الموقـف لا يملـك أن يواري مكنون نفسه وراء القشرة الظاهرة التي تتلبسه في حالة السراء ، فيقول سبحانه :﴿ **هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموت من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ (يونس : ٢٢) .

---

[1] رواه أبو هريرة : وهو متفق عليه .
[2] رواه الإمام أحمد والإمام مسلم من حديث عياض بن حماد .
[3] هذا الحديث مخرج في بابه من هذا الكتاب .

وهـذه الحقيقة التي بينها القرآن الكريم وأكدتها السنة الصحيحة – كما بينا – تؤكدهـا – أيضاً – البحوث الجادة التي تفرزها عقلية المحايدين من الباحثين في العلوم الإنسـانية والتطبيقية على السواء . ونخص منهم : الباحثين الأثبات في مجال الأديان ، فهم يذهبون إلى أن تاريخ الإنسان يوازي تاريخ الدين والتدين، ويرون أنه – كما يقول بلوتارك – من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار وبلا ثروة وبلا آداب وبلا مسارح، ولكن لم يرى إنسان قط مدينة بلا معبد ، أو لا يمارس أهلها الصلاة .

ويذهـب فيلسـوف الحضارة في هذا القرن ، وأعني به : " توينبي " إلى أن : جوهـر الديـن ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها ، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية، فهو الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الطبيعة، هذا التحدي هو الذي يواجه الكائن البشري بسبب أنه يملك القدرة الفريدة : قدرة الوعي .[1]

إن قضـية الوعـي التـي أشار إليها " توينبي " تعني ما عناه غيره بضرورية "الإيمان "[2] ذلكم لأن الإنسان هو الكائن الفريد الذي منح العقل والتمييز وبالتالي الوعي، ومن ثم " التكاليف " إنه ضروري لحياة الإنسان في جوانبها المتعددة : نفسية وعقلية ووجدانية واجتماعية وأخلاقية ، ومن ثم نلاحظ أن الروح التي تسري في القرآن الكريم إنمـا اسـتهدفت تغذية هذه الجوانب في الإنسان .حيث أحدثت علاقة ترابطية بينه وبين الكون الفسيح . وأعماق النفس البشرية على غرار قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (يونس : ١٠١) وقوله تعالى :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (فصلت : ٥٣) .

---

[1] انظر : توينبي : تاريخ البشرية ص١٧ ترجمة د / نقولا زيادة – ط بيروت .
[2] انظر : وليم جيمس . إرادة الاعتقاد ص١٧٥ .

ولسنا الآن في حل من سرد أقوال العلماء في نشأة التدين المعبر عن الإيمان ، فهذا المقام لا يطيق ذلك وإنما الذي نريد أن ننتهي إليه هو : أن الإنسانية ولدت متدينة مؤمـــنة ، وأن الإلحاد بكل مظاهره أمر طارئ على الأصل . وكل ما يخالف ذلك لا يملك أدلـــة صحته ، وحسبنا أن نقرر هنا أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم ، وهو المعصوم مـــن كـــل خطأ وأن قوله الفصل في كل خطاب ، وأنه قد حسم القضية على الوجه الذي بيـــنا. ولكن هذا لا يعني أن استجابة الإنسان لرصيد الفطرة ، أو لتوجيهات السماء فيما جـــاء بـــه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . منذ آدم عليه السلام وحتى محمد صلي الله علـــيه وسلم وما جاءت به الكتب السماوية . كانت دائما تامة كاملة ، وإلا تعارضت مع طبيعة الإنسان ذاته ثم مع قضية الثواب والعقاب ، المؤسسة علي صحة "التكليف " الذي حمل أمانته الإنسان وحده .

الكون كله مؤمن بالله رب العالمين :

ولعل مما يؤكد ما نحن بصدده أن الكون كله في المنظور الإسلامي مؤمن بالله ســبحانه وتعالى ،ومظهر هذا الإيمان هو السجود له سبحانه ،وهو قمة العبودية ، وذلك مـــا تشـــير إلـــيه الآيـــات المتعددة مثل قوله تعالى :﴿ **ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ (الرعد : ١٥) وقوله تعالى : ﴿ **تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا** ﴾ (الإسراء :٤٤) .

إن الإنســـان فـــي سلم الوجود الكوني يحتل المرتبة الأولي ؛ لأن الحق سبحانه وتعـــالى جعله خليفته في أرضه ، وأسجد له ملائكته وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جمـــيعا مـــنه ، وحملـــه أمانـــة التكاليف . وفي ضوء هذا كله لا يتصور العقل الصريح ألا يكون الإيمان في أصل فطرته ، ويستحيل في نظر العقل كذلك أن يكون من دونه في مراتب الوجود الكوني يتمتعون بهذه الغريزة وهو فاقد لها .

لكل ما تقدم نقول : إن غريزة الإيمان واحدة في جميع البشر ، وما جهاد كتيبة الأنبياء والمصلحين على مدار تاريخ النبوات إلا التذكير بهذه الغريزة ، والعود بها عند انحرافها إلى نقائها وصفائها وإزالة جميع أنواع الضلالات من سبيلها .

أقسام الإيمان :

يعني هذا المبحث تنوع الإيمان وانقسامه ، لا من حيث موضوعاته ، بل من حيث الدليل عليه ، ودرجة تمكنه من قلب المؤمن ، ذلكم لأن التصديق القلبي – الذي هو حقيقة الإيمان – إما أن يكون عن دليل صحيح ، وإما أن يكون عن تقليد ، والأول يختلف باختلاف طريقة إدراك موضوع الإيمان . من ثم انقسم إلى الأقسام الآتية ، كما عليه المحققون .

الأول : إيمان عن تقليد ، وهو الذي يعتمد فيه المؤمن على الأخذ بقول الغير حتى ولو طابق ذلك الإيمان الحقيقة والواقع ، وهناك خلاف بين العلماء في حكم إيمان المقلد ، لعل أظهر الأقوال في هذا المقام هو : أن صاحبه ناج إذا كان غير قادر على إدراك الدليل ، وأما إذا كان قادراً على ذلك ، ولكنه ظل على التقليد حتى مات ، فأخف الأقوال أنه مؤمن عاص ، لأنه طولب بالنظر مع القدرة عليه ولكنه آثر التقليد . ومن المعروف أن الروح العامة التي تسري في القرآن الكريم ، إنما تحض على النظر وتحارب التقليد ، الذي كان مرتكز أمم الأنبياء في الإعراض عما جاءوهم به . على غرار ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ (الزخرف : ٢٣ ، ٢٤)

الثاني : الإيمـــان القائم على العلم ، وهو ضد النوع الأول ، وهذا القسم هو الأعـــم والأشـــمل لغالـــب المؤمنين وهو المطلوب شرعاً ، في حق القادرين على الفهم وإمعـــان النظر ، وإدراك أدلة العقائد على أصولها ، وهذا ما توحي به الروح القرآنية ، حين يقيم هذا الكتاب العظيم على العقائد ، أدلتها الواضحة حتى تكون تلك العقائد أرسخ فـــي القلب ، وأثبت في النفس فلا يعتريها شك ، ولا يقرب منها ريب وكان ذلك المنهج واضحاً في مقام الرد على المنكرين لكل عقيدة جاء بها القرآن الكريم ، وهذا ظاهر جداً في عقيدة (التوحيد) ضد (الشرك) و(بعثة الأنبياء والرسل) ضد (الرافضين لها) و (اليوم الآخر) ضد (الذين يستبعدون ذلك) وهكذا .

إن الـــناظر فـــي القرآن الكريم يرى أن القدر المشترك بين الأنبياء جميعاً هو : الدعوة إلى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك والإلحاد على غرار ما جاء في قوله تعالى :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (النحل : ٣٦) .

وهـــذا القسم من أقسام الإيمان قد جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى ، في المقام الـــذي نحـــن بصـــدده – مقام الوحدانية – **﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾** (محمد : ١٩) حيث جعل العلم هو أساس عقيدة التوحيد ، وهكذا في كل موضوعات العقيدة .

الثالث : الإيمـــان عن عيان وهو الناشئ عن مراقبة القلب لله تعالى ، بحيث يملك على المؤمن حياته كلها، فلا يغيب عنه ذكر الله تعالى طرفة عين، وهذا إنما يكون لبعض المؤمنين الذين تتمحض قلوبهم لذكر الله تعالى . فلا يشغلـــهم عن ذلك أي شاغل

مـــن شـــواغل الدنـــيا، ولعـــل هذا الصنف من المؤمنين هم الذين عناهم الحق ســـبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **والذيـن جـاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسـنين** ﴾ (العنكــبوت : الآية الأخيرة)، وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه ...

الـرابع : الإيمـــان القائم على الحق وهو الإيمان الناشئ عن مشاهدته سبحانه وتعالى بالقلب، والفرق بينه وبين النوع السابق واضح، لأن هذا يقوم على الشعور التام بمشـــاهدة الحـــق تبارك وتعالى بعين القلب، وذلك يعني : دوام مراقبة القلب لله تعالى، وانشغاله بالذكر وهذا يكون لبعض خواص المؤمنين .

الخـامس : الإيمـــان القـــائم علـــى الحقيقة الإلهية وحدها – وهذا أعلى أنواع الإيمـــان لدى عامة البشر – لأنه قائم على كون المؤمن لا يشهد إلا الله سبحانه وتعالى، وهـــو المسمى عند الصوفية بحالة " الفناء عن السوى " وهذا يكون لخواص الخواص . وأمـــا إيمـــان الأنبـــياء علـــيهم الصلاة والسلام، فيسمى الحقيقة، كما يذكر ذلك بعض الكاتبين[1] وهو ذروة الإيمان ورأس سنامه .

ولا شـــك فـــي أن الســـبب وراء تنوع الإيمان على الذي ذكرنا، إنما يرجع إلى اخـــتلاف درجات الإنسان من حيث استعداده، وبالتالي إدراكه للقضايا التي تشكل إيمانه، والقرآن الكريم قد راعى في منهجه تنوع الخطاب، حتى يمكن أن يقال : إنه غطى جميع المـــدارك البشـــرية، بحيث لم يترك سبيلا من سبل الإدراك الإنساني إلا وقد استخدمه . حتى يقيم بذلك الحجة على المخاطبين بالقدر الذي به يدركون حجية الأدلة التي ساقها، وهذا ما سنبينه في مقامه من هذا الفصل.

---

[1] انظر : تحفة المريد على الجوهرة للشيخ البيجوري ص٤٦ ط القاهرة سنة ١٩٧٠ .

ثانياً : ما المراد بالمنهج ؟

يـــراد بالمـــنهج : الطريقة التي تسلك حين معالجة أمر من الأمور العقدية أو الفكرية، وهو يختلف باختلاف طبيعة الموضوع الذي يعالجه وطبيعة المخاطبين به ، ولا يمكــن أن يؤتـــي ثمـــاره ما لم يراع فيه هذان الأمران معاً . ويقرر علماء المناهج أن المســـتعمل للمنهج ينبغي أن يكون على دراية تامة بطبيعة المخاطبين ونفسياتهم ، وأن تأثـــير المـــنهج أو عدم تأثيره إنما تتحدد درجاته حسب التطبيق والاستخدام . وإذا كان القصـــور البشري أمرا مسلما به لدى الباحثين ، فإن المناهج البشرية يلازمها القصور كذلك ، حتى فيما كان منها بعيدا عن الخطأ والزلل في بادي الرأى كالمنطق والرياضيات وغيرهما ، ولعل هذه المقدمة تعطينا الحق في أن نقول : إذا كان الحق ، تبارك وتعالى هـــو وحده الأعلم بما يصلح به البشر، على اعتبار أنه خالقهم ، فإن منهجه الذي يعالج بـــه قضاياهم ، لابد أن يكون في مستوى علمه هذا ، ومن يتأبى على فهم هذه القضية فعليه أن يراجع نفسه في قضية " الخلق " التي تفرد بها الحق سبحانه وتعالى .

والنتيجة الطبيعية لما تقدم ، أن الفكر البشري بكل مستوياته وتنوعاته إذا تعلق بأمـــر من الأمور التي تعرض لها الوحي الإلهي بالبيان والتوضيح ، ينبغي أن تقف منه موقف المسترشد ، لا موقف الحاكم ، ولعل السر وراء تأكيد هذه القضية أنه في ثقافتنا الإسلامية ، فهم بعض من الباحثين القاعدة الشرعية التي استوحيت من نصوص الوحي الإلهـــي ، قـــرآنا كـــان أم سنة صحيحة ، وهي : أن العقل أساس التكليف ، على غير وجههـــا الصحيح ، حيث ظنوا أن العقل هو الحاكم على النص لأنه الفاهم له ، أو بمعنى آخـــر : جعلوا من العقل أساسا تفهم النصوص الشرعية في ضوئه . والحق أن في هذا الموقـــف حقـــا وباطلا في نفس الوقت وليس في ذلك أدنى تناقض ، لأن جهة الحق فيه غـــير جهـــة الـــباطل، ونظرا لما لهذه القضية من أهمية فإننا سنوليها شيئا من العناية والتوضيح فنقول :

يطلق العقل ويراد به معنيان :

المعـــنى الأول : الغريزة الفطرية التي زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بها والتي بها تميز عن بقية الكائنات غير العاقلة ومن ثم كانت أساس التكليف الشرعي كما جـاء فـي قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

المعـــنى الثاني : المعارف العقلية المكتسبة بالتحصيل والدراسة ، وهي في الحقـيقة ثمرة العقل الفطري ، وليست عقلا على الإطلاق ، وقد أطلق عليها اسم "العقل" بشيء من التوسع ، ويطلق عليها بعض الفلاسفة اسم "العقل المكتسب" [1] ويجعلون من هـذا العقـل أصـلا للشرع ، وهذه هي الطامة الكبرى ، بل إنها أكبر خدعة في تراثنا الإسلامي، وقد ظهر هذا الخداع بشكل واضح في الأوساط التي تشكلت عقليتها المكتسبة من خلال دراستها لعلوم الأوائل ، وكان أصحاب الاتجاه التقليدي في الفلسفة الإسلامية ، – أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد – خير ممثل لهذا العقل ، ولما كانوا منتمين لدين إلهـي هو الإسلام فكانت قلوبهم معه – إن صح ذلك – ولما كانوا – في نفس الوقت – ممثليـن للفكـر البشـري ، الذي شكل ثقافتهم أو إن شئت فقل : شكل عقولهم بطريقة جعلـتهم واقعيـن فـي قلق بين حقائق الوحي ومعطيات العقل، فقد وجهوا عنايتهم إلى إيجـاد نـوع مـن الانسـجام والـتلاؤم بيـن الديـن والفلسـفة ، بطـريقة تجعلنا نقرر في اطمئنان انـهم كانوا إلى الفلسفة أميل، وهذا حكم مخفف إلى حد كبير ،

---

[1] انظر أقسام العقل عند الكندي في كتابنا في الفلسفة الإسلامية ج١ ص٦٧ ط القاهرة سنة ١٩٨٢.

لأنهم جعلوا مما أشربوا حبه من التراث الفلسفي أساساً تفهم حقائق الوحي في ضوئه . وما تفسيراتهم للعلاقة بين الله والعالم وكيفية صدور الثاني عن الأول – نظرية الفيض أو الصدور – إلا دليل واضح على صدق ما نذهب إليه.[١]

لقــد ظهرت في تراثنا الإسلامي مسألة المعارض العقلي[٢]كرد فعل لهذه الثقافة الوافدة ، إذا كان الفلاسفة الإسلاميون التقليديون – الذين ذكرناهم قبلا – قد أخفوا على استحياء فكرة المعارض العقلي كمصطلح مستقر في كتبهم فإنهم عنوا بتطبيقه أكثر من عنايتهم بتنظيره ، حتى جاء الإمام الرازي وجعل من هذا المصطلح قاعدة تقوم في وجه النصوص الدينية ، أيا كان نوعها ولا شك في أن هذا كله إنما نشأ من عدم التفرقة بين العقــل بالمعــنى الفطــري ومعناه بالمعنى المكتسب كما ذكرنا . والنتيجة التي نريد أن ننتهــي إلــيها هــنا هي : أن القرآن الكريم لا يحجر على العقل إطلاقا ، وما كان له أن يكــون كذلــك ، إلا لأن الحــق ســبحانه قد وهب الإنسان تلك الغريزة الفطرية ، ومن التــناقض بمكان أن يمنح الإنسان شيئاً ثم توضع في سبيله العقبات التي تشل وجوده ، ولكنه في نفس الوقت لم يترك القرآن للعقل وليس حجراً عليه .

---

(١) انظر : د/ محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ص٢٩١ ط.القاهرة سنة ١٩٦٦.

(٢) انظر : ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، حيث رد على أصحاب هذه الفكرة ، وبخاصة الفخر الرازي ، بطريقة أطال فيها النفس كثيرا حتى استوعبت أجزاء الكتاب ، وهو من عدة مجلدات حققه وعلق عليه د / محمد رشاد سالم – نشرة المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٦ .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن العقل الذي هو أساس التكليف الشرعي هو العقل الفطـري الغرزي ، لا العقل النظري المكتسب ، ولو كان الأمر بخلاف ذلك ، لكان العوام – وهـم أكـثر اتـباع الأنبـياء – غير مكلفين ، لأنهم ليسوا من أرباب العقل النظري المكتسب .

وحسـبنا هذا القدر الذي تأكدنا معه أن " العقل " المخاطب بالنص الشرعي. هو تلـك الملكـة التـي جاءت لتفهم هذا النص بطريقة طبيعية . وتدرك العلاقة بين الدليل والمسـتدل علـيه وتحكم على الدعوى بالصدق أو بالكذب بناء على إدراك تلك العلاقة وهـذه هـي الطريقة التي جاء بها القرآن الكريم . كما يوضح ذلك قوله تعالى في مقام تـبرير الألوهـية الحقيقية لله رب العالمين ونقض ما ليس كذلك من التأليه المزعوم : **﴿ قـال فمـن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بـال القـرون الأولى ، قـال علـمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكـم الأرض مهـدا و سـلك لكـم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نـبات شـتى ، كلـوا وارعـوا أنعـامكم إن في ذلـك لآيـات لأولى الـنهى ﴾** (طه : ٤٩ – ٥٤) .

إن الآيات في مجملها تبين الأدلة البادية في هذا الكون الفسيح على الإله الحق، وهي في نفس الوقت تبين أن العلم البشري – والعقل الفطري أداته – محدود كمحدودية تلك الأداة ، وقد ظهر هذا واضحا في الإجابة التي أجاب بها نبي الله موسى عليه السلام فـرعون حيـث قـال " علمها عند ربي " وسنزيد هذا الأمر وضوحا حين نتعرض لأدلة أصول العقيدة بشيء من التفصيل فيما سيأتي .

ثالثاً : خصائص المنهج القرآني في الدعوة إلى الإيمان :

يتفرد المنهج القرآني حين يتعرض لقضايا العقيدة بخصائص أهمها :

أولاً : أنــه يغطي جميع مدارك الإنسان ، عقلية ونفسية وشعورية ووجدانية وحســية ، بحيـث لا يمكــن أن يغــادر وســيلة من وسائل الإدراك الإنساني ، إلا وقد استعملها، وفي مقامه المناسب .

ثانــياً : أنــه يشــتق من الواقع البادى في النفس وفي الكون مادة استدلاله بطريقة لا ترهق العقل، فضلاً عن أي وسيلة أخرى من وسائل الإدراك .

ثالثاً : أنه يأخذ من افتراض صدق ما عليه الخصوم مادة للرد عليهم . وبيان خطــأ دعواهــم ، وفــي نفس الوقت يثبت صدق ما يدعو إليه، بطريقة أشبه ما تكون بقياس الخلف المنطقي .

رابعــاً : أنه جعل البرهان الصحيح هو الفيصل في الدعوى يبين صدقها حين تكــون كذلــك، وكذبها حين تكون كذلك أيضاً، وبمعيار من العقل الفطري الصريح، الذي تنتهــي فــيه الأدلة إلى المرتكزات البدهية، وهذا يعني : أن المثبت عليه الدليل، كما أن النافــي علــيه الدليل كذلك، وهذا قمة العدل أمام المعتقدات والآراء فإذا طبق هذا المبدأ فــإن النتيجة الطبيعية لذلك أن يتساوى التصديق بلا علم أو دليل مع التكذيب بلا علم أو دليل، من ثم نلاحظ أن القرآن الكريم يطلب من أصحاب الدعاوى الباطلة ، الذين يريدون لها أن تعلو على الحق أن يقدموا البرهان على دعواهم ، على غرار ما يشير إليه قوله تعــالى ﴿ **وقــالوا لــن يدخــل الجــنة إلا مــن كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا**

برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (البقرة : ١١١) وقوله .. ﴿ **وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾ (الجاثية : ٢٤) .

وفي مقام التكذيب بلا علم يقول الله تعالى :﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ...** ﴾ (يونس : ٣٩) لينتهي إلى نتيجة حاسمة هي : أن الظن أو الوهم هو الذي يسيطر على عقول خصوم الحق . وهذا ناشئ من استمراء العادات والتقاليد، التي حالت بينهم وبين رؤية الحق الواضح، الذي يحمل معه أدلة صدقه فضلاً عن وضوحه في ذاته . كما تنطق به الفطر السليمة، قال تعالى : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ (يونس : ٣٦) .

خامساً : أنه قد يستخدم في القضية الواحدة طرائق متصاعدة متدرجة من الاستدلال ، تتعانق فيها معطيات الحس ، مع قياس العقل ، وفي هذا النوع من الترقي في الاستدلال ، تظهر عظمة القرآن الكريم حين يجعل من الأعلى – في درجة الخلق والتقدير – دليلاً على ما دونه في هذا السياق[1].

سادساً : أن مبدأ العلية أو السببية واضح جداً في منهجية القرآن الكريم ، ولا يستثنى هذا المبدأ إلا حين يقتضي الأمر هذا الاستثناء . وذلك واضح في قضية خوارق العادات . من المعجزات وغيرها . على أن هذا الكتاب المبين في هذا المقام، يبرز أن هذا الاستثناء إنما هو من الحق سبحانه وتعالى، والأمر يقتضيه، ليتأكد لكل ذي عقل أن الذي وضع المبدأ أو السنة الإلهية هو نفسه الفاعل في هذا الاستثناء، وينطوي على أمر هام هو : أن صفات الحق تبارك وتعالى تتناغم كلها معاً، أو على الأقل ما يتصل منها بموضوع هذا الخارق، ليدل ذلك كله، على أنه الواحد في كل شيء لا معقب

---

[1] وهذا ظاهر في قوله تعالى (......قال من يحيي العظام وهي رميم) إلى آخر سورة يس .

لحكمــه، وأنـــه فعال لما يريد. ولنا أن نسوق هنا بعض الشواهد على ما نقول، فالقرآن الكريم يرينا أن الأمر الإلهي للنار حين ألقي إبراهيم عليه السلام فيها من قبل قومه، هو الذي ابطل أهم خصائصها، وهو الإحراق كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **قلنا يا نار كونــي بـردا وسلاما على إبراهيم** ﴾ (الأنبياء : ٦٩) وفي قصة الإسراء ما يطوى – مؤقــتا – قـــانون الســـرعة. وفـــي المعراج ما يطوي – مؤقتا كذلك – قانون الضغط الجـــوي إلـــخ. كمـــا في قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا منه المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير** ﴾ (الإســـراء : الآية الأولى) وقوله ﴿ **وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ (النجم : ٧ – ٩) .

سابعاً : فـــي بعض طرائق الاستدلال القرآني ، رأينا مشهداً انتهى فيه الكتاب العزيز إلى طريقة أطلق بعض المفكرين عليها اسم طريقة "الصديقين".[1]وهي الاستدلال بـــالحق ســـبحانه وتعـــالى علـــى مخلوقاته ، إنها في حقيقتها تغاير المألوف من طرق الاســـتدلال الأخـــرى، التـــي تجعـــل من الأثر دليلاً على المؤثر ومن المسبب دليلاً على الســـبب، كمـــا جاء في قوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ {فصلت : ٥٣} فظاهر الآية يدل على أن الله سبحانه وتعالى شاهد ودليل على مخلوقاته، لا أنها شاهدة ودلـــيل علـــيه، كما هو الحال في أكثر الأدلة التي ساقها القرآن الكريم في تثبيت العقائد الصحيحة في قلوب وعقول المؤمنين، والرد على كل ما يخالف ذلك، وسنزيد الموضوع شـــيئاً مـــن التفضـــيل فـــيما يأتي، بازاء كل أصل من أصول العقيدة التي بينها الحديث الصحيح، حديث جبريل عليه السلام.

---

[1] هو الفيلسوف ابن سينا : انظر كتابنا في الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات ج١ ص١٤٤ ط.القاهرة سنة١٩٨٢ .

ويمكن أن يقال: إن الآية الكريمة جمعت بين الطريقتين، فأولها يلفت النظر إلى الآيات الكونية والأنفسية، التي تدل على خالقها، وآخرها يجعل من الحق سبحانه وتعالى شاهداً ودليلاً على مخلوقاته.

وهــناك قضـــية هامة في هذا المقام، تظهر واضحة في منهجية القرآن الكريم، حيــن يعالج قضية العقيدة هي: أن الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وإلى غيره من أصول العقيدة الأخرى إنما ينبغي أن تأخذ صوراً ثلاثاً هي:

١- الحكمة :

٢- الموعظة الحسنة :

٣- الجدال بالتي هي أحسن :

إن هذه الصور في مجموعها، إنما تشكل الإطار العام، للمنهجية القرآنية، وفي هــذا الإطار ينبغي أن تراعى مقامات الخطاب والمخاطبين، مع ضميمة موضوع العقيدة، مــن حيــث وضـــعها داخل النسق العام لموضوعات الإيمان. إن هذا الإطار يمثل عاملاً نفســياً وشعورياً ووجدانياً لدى المخاطبين بالدعوة، ويمس جوهر الإنسان ذاته. ويمكن أن يصـــور هذا الإطار مجموعة من الآيات القرآنية، التي توجه أنظار الدعاة إلى الإيمان حيــن يواجهون المدعوين، حتى يكون لدعوتهم أثرها لدى المخاطبين، في حدود الطاقة البشـــرية. مـــن تلـــك الآيات قوله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ { الـــنحل : ١٢٥ } وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ { العنكبوت : ٤٦ }.

ويمكــن أن يضـــاف إلـــى ما تقدم، أن القرآن الكريم في مقام الحجاج مع أهل الكـــتاب يدعو إلى طريقه يستخدمها علماء المناهج في عصورنا الحاضرة، وهي طريقة الحياد والموضوعية، وطرح كل أحكام سابقة، حين الدخول إلى دائرة البحث، حتى تسلم

النـــتائج مـــن أي مؤثر عليها، من ذلك قوله تعالى مخاطباً أهل الكتاب : ﴿ قُـلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُـنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّـن دُونِ اللّـهِ فَـإِن تَوَلَّـوْاْ فَقُولُـواْ اشْـهَدُواْ بِأَنَّـا مُسْـلِمُونَ ﴾ {آل عمران : ٦٤}.

وجميع الآيات التي شكلت المواجهة بين العقيدة الصحيحة التي جاء بها القرآن الكـــريم، والعقـــائد الســـابقة وبخاصة لدى أهل الكتاب كما جاء في سورتي آل عمران والمـــائدة، إنما تصب في هذا الإطار الذي أشرنا إليه، إنها مواجهة بين الحق وما يقدمه مـــن أدلـــة علـــى وجـــوده، وبين الباطل العاري عن أي مبرر أو دليل، وكان ذروة هذا التحدي في أمرين واضحين جداً بينتهما الآيات القرآنية .

أولاً: آيـــة المـــباهلة، وهي التي قال الحق تبارك وتعالى فيها : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِـيهِ مِـن بَعْـدِ مَـا جَـاءكَ مِـنَ الْعِلْـمِ فَقُـلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَـنَا وأَنفُسَـكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ { آل عمران : ٦١ }. إن هـــذه الآيـــة الكريمة إنما تمثل الرد العملي على أكاذيب أهل الكتاب، في عيسى عليه الســـلام، وحقيقـــته، وحقيقة ما جاء به من عند الله تبارك وتعالى، إنها كشفت بطريقة عملـــية واقعية حقيقة التزييف والكذب الذي كان عليه أهل الكتاب آنذاك لتنتهي إلى أن الحـــق في قضية عيسى عليه السلام أنه وجد من غير أب. وليس ابن الله فضلاً عن أن يكـــون إلهـــاً. وأن ذلـــك لـــيس بدعا، فمقام الألوهية أرفع من أن تتحكم فيه النواميس الطبيعية لأنها سننه التي وضعها، وهو يخرقها كيف يشاء، ولأي سبب يشاء على الوجه الـــذي ذكـــرناه سلفاً، وليس قضية "عيسى" عليه السلام بأدخل في ذلك من قضية "آدم" عليه السلام، فقد خلقه الله من تراب، من غير أب ولا أم. كما هو سياق الآيات.

ثانياً : آيـــة الحجاج في إبراهيم عليه السلام، ودعوى أصحاب كل من التوراة والإنجـــيل انتسابه إليهم، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـا أَهْـلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِـي إِبْرَاهِيمَ وَمَـا أُنزِلَـتِ التَّوراةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ { آل عمران : ٦٥ }. إن هذه

الآيــة الكريمة كشفت – بجانب ما كشفت – عن تزييف أهل الكتاب : اليهود والنصارى للتاريخ، ذلكم لأن إبراهيم عليه السلام هو أب لأنبيائهم السابقين عليهم : "إسحق" عليه السلام – "يعقوب" عليه السلام – "يوسف" عليه السلام، وغيرهم ممن لم يذكرهم القرآن الكــريم علــى سبيل التفصيل وهم كثيرون يبلغ عددهم كما جاءت به بعض الآثار أربعة آلاف نبــي. ويختم القرآن الكريم هذا المشهد القاطع لكل آراء أهل الكتاب بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ { آل عمران : ٦٧ – ٦٨ }.

ولنا أن نلاحظ ما جاء في عجز الآية الأولى وهي قوله تعالى "... **أفلا تعقلون** " لــندرك إلــى حد كان موقف هؤلاء للعقل بجانب مخالفته للحق والواقع، ولنا أن نلاحظ – كذلــك – ما جاء في آخر الآية الثانية " ... **وما كان من المشركين** " لندرك أن موقفهم هــذا، الذي به أرادوا أن ينسبوا إبراهيم عليه السلام إلى عقيدتهم، إنما هو " والشرك " ســواء، إن لــم يكن هو " الشرك " بعينه، لينتهي الموقف إلى بيان أن أولى الناس بأن ينتســبوا إلى إبراهيم أو أن ينسب إليهم، إنما هم أتباعه من المؤمنين – منذ جاء عليه الصلاة والسلام – حتى محمد صلى الله علي وسلم ومن اتبعه من المؤمنين.

وبالجملة فإن منهجية القرآن الكريم في الدعوة إلى الإيمان، تستثير في الإنسان أعلى درجة الانتباه والوعي. ثم تبين أن الدعاة – بكل مستوياتهم من أنبياء وأتباع لهم – لا يملكون أن يشقوا قلوب المدعوين ليزرعوا فيها الإيمان. فرسالتهم لا تتجاوز دائرة البلاغ.

ويــتأكد هذا المعنى إذا استعرضنا بعض الآيات التي تبرز هذه القضية، بتناول مــتعدد الجوانب، فتارة يؤكد القرآن أن الإيمان والكفر أمر متعلق بمشيئة الإنسان، قال تعــالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ { الكهــف : ٢٩ } ، وأخــرى ببــيان أن الهدايــة إلى طريق الحق إنما هي لله سبحانه

وتعـــالى وحده، لا على أساس من الجبرية، كما يفهم بعض الأغرار، وإنما على أساس مـــن علـــم الله الســـابق بما سيكون عليه الإنسان بعد أن يطرح أمامه موضوع الإيمان، وذلـــك مـــا تشـــير إليه الآيات : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ { الغاشـــية : ٢١-٢٢ } ، ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ { القصص : ٥٦ }. بل تصرح بعض الآيات بما هو أدخل في رفع الحـــرج عـــن الدعاة حين يبذلون جهودهم في دعوة أقوامهم إلى الإيمان، ثم لا يجدون الصـــدى المكافـــئ والملائـــم لما يبذلون، فتذهب نفسهم حسرات على ذلك، قال تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ...... ﴾ { فاطر : ٨ } ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ { الكهف : ٦ }.

رابعاً : العقائد الإيمانية وأدلتها :

وإذا كان حديثنا السابق يمثل الخطوط العامة لمنهجية القرآن الكريم في الدعوة إلـــى الإيمان بصفة عامة، تلك التي تغذي كل ملكات الإنسان – كما ذكرنا – فيحسن بنا هـــنا أن نســـتعرض هـــذه المنهجـــية مع تفصيلاتها بازاء موضوعات العقيدة وأصولها المعـــروفة، مرجئيـــن موضوع " الذات الإلهية وصفاتها " وهي أصل الأصول إلى مبحث مستقل، وسنسير في تناول بقية الأصول بنفس الترتيب الذي جاء في حديث جبريل عليه السلام.

أولاً : الملائكة :

والحديـــث هـــنا يتصل بكيفية خطاب القرآن الكريم لقوم قالوا في الملائكة بغير علم فأوقعهم ذلك في خطأ شديد من الناحية العقلية، وفي شرك بالله سبحانه وتعالى من الناحـــية العقدية. فأما عن الجانب الأول فقد حكم هؤلاء على الملائكة بالأنوثة، وفي رد

هـذه الدعوة يبين القرآن الكريم أن هذا حكم غير صحيح، وتبريره أنه لم يرد بذلك نص صحيح، كما لم يشهد هؤلاء طبيعتهم يوم خلقهم الله حتى يحكموا هذا الحكم. قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾ { الزخرف : ١٩ }. إن المستقر في أذهان العقلاء من البشر أن وسائل المعرفة ثلاث : حس صادق وعقل صريح ونص صحيح، وكل ما جاء على خلاف ذلك لا يسمى علماً ولا معرفة، فإذا كانت القضية التي معنا – طبيعة الملائكة من حيث الذكورة والأنوثة – لم يرد بها نص صحيح، وليست في متناول العقل، لأن ذلك أمر من قبيل الغيب، كما أنه يستحيل أن يكون للحس طريق إلى ذلك، وهذا ما يؤكده الاستفهام الإنكاري في قوله " **أشهدوا خلقهم** ... ؟ " فإن المحصلة لذلك كله هي أن كلام القائلين بأنوثة الملائكة نازل عن درجة الكلام الصحيح. فلا وزن له حينئذ.

وأما ما يتصل بجانب الاعتقاد فإن هؤلاء القوم نسبوا إلى الله تعالى وتقدس بنوة الملائكة . وقد جاءوا بذلك شيئاً إدا كما صرح القرآن الكريم . إن هذه القضية استنكرها الحق سبحانه وتعالى في كتابه العظيم في عدة مواضع، بأثر من وجه وبخاصة حينما، استأثر القوم بنسبة الذكور إليهم ونسبة الإناث – الملائكة – إلى الله تعالى، وبين أنها – على سبيل التسليم – قسمة ضيزي . وظهرت عبارات التنزيه للحق تبارك وتعالى واضحة في عقب الآيات التي تعرضت لذلك. غير أن هناك بعض الآيات جاءت في هذا السبيل حافلة بكل إنذار وتهديد لهول هذه المقولة، كما جاء في سورة " مريم " حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ، إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً** ﴾ [مريم : ٨٨ – ٩٣] .

ثانياً : الكتب :

فــي القــرآن الكــريم – وهو الكتاب الخاتم والمصدق لما بين يديه من الكتب والمهيمن عليها – آيات تبين أن الذي احتواه الكتابان : التوراة والإنجيل، إنما هو هدى ونـــور يقــول الله تعــالى عن التوراة : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٤] . ويقول سبحانه عن الإنجــيل: ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة : ٤٦] . ويقول في حق القرآن الكريم : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ......** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وهذا النسق من الخطاب القرآني يرينا أن كل كتاب نزل من عند الله تعالى إنما هــو هــدى ونـــور من حيث محتواه وما يدعو إليه، وأن السابق من هذه الكتب يبشر بلاحقهـــا وأن اللاحق يصدق السابق منها، وهكذا، وأن جميعها من عند الله تعالى، وأن الإيمان بها من حيث كونها كتباً إلهية إنما هو جزء من حقيقة الإيمان بمعناه العام ، قال تعــالى : ﴿ **لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ....** ﴾ [البقرة : ١٧٧] وقال : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الـــبقرة : ٢٨٥] وفي تأكيد الآية الأخيرة على وحدة الرسالات – " لا نفرق بين أحد مـــن رسله " – ما يدل كذلك على وحدة الكتب من حيث وثاقة مصدرها وغايتها – هداية المدعويـــن إلـــى الصراط المستقيم – غير أن أصحاب الكتابين : التوراة والإنجيل بدلوا وحرفوا طمعا من عند أنفسهم، وتمثل ذروة الانحراف النفسي والخلقي لديهم أن قالوا :

نؤمـــن ببعض الكتاب ونكفر ببعض... وتارة طلبوا الإيمان بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار والكفر به آخره، وأخرى كانوا يلون ألسنتهم بالكتاب ليحسب منه، وهو في الواقـــع لـــيس منه في شيء إلى آخر تلك الممارسات التي سجلها عليهم القرآن الكريم وكانت التعقيبات على هذه التصرفات الشاذة، أن جزاء مقترفيها، خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

إن قضـــية الـــتحريف والتبديل للكتاب الإلهي أو الإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخـــر، أو الإيمان به في أول النهار والكفر به آخره، إنما تؤكد ما تنطوي عليه نفوس هؤلاء من :

١ – زيـــغ عن الحق الذي جاء في الكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى، والذي يدعوهـــم إلـــى طـــرح مطامحهم " الذاتية " التي تدور كلها حول عرضيات لا قيمة لها، بجانب القيمة الإنسانية الرفيعة، التي يحرص منهج السماء على رعايتها وحفظها .

٢ – الـــتطاول علـــى مقام " الألوهية " لأن التحريف والتبديل يعني في نظرهم : أن الحـــق سبحانه وتعالى لم يعلم حقيقة رغباتهم ومطالبهم الصحيحة فأنزل كتابه معارضـــا لـــتلك الرغـــبات، إنهم أحلوا أنفسهم محل " الإله " حينئذ . وإذا كان هـــؤلاء الذيـــن مارسوا مهمة التحريف والتبديل، يمثلون شرذمة قليلة بالنسبة للجماهير العريضة، التي لم تقع فريسة الأطماع الذاتية، فإنهم في نفس الوقت، قد أساءوا – بجانب تطاولهم على مقام الألوهية – إلى هذه الجماهير، وبخاصة من آمن منهم بالكتاب المنزل .

٣ – اضـــطراب فـــي العقل، لأن الذي آمنوا به، وهو بعض الكتاب، ليس أولى مما رفضـــوه أو بدلوه في معيار العقل، لأن مصدره واحد ويستحيل على الإله الحق أن تستدرك عليه عقول أصابها الخبل والاضطراب .

إن القضـــية التـــي نحـــن بصـــددها إنما تمثل التصدي للحق الذي جاءت به الكتب الســـماوية بمنهج غير بصير، يتشبث بالباطل. ولا يقدم دليلاً على صحة ما عليه القوم. وإذا كـــان الأمر هكذا – وهو خلو الساحة من العقل وبالضرورة الدليل والبرهان – فإن

النتـيجة الطبيعية لذلك كله، أن تكون المخاتلات والمهاترات هي السلاح الذي يلجأ إليه أنصـار الباطل، وأما الأدلة والبراهين والآيات الدالة على الحق والصدق، فلا وزن لها لـدى قـوم بهذه المثابة. وصدق الله العظيم حيث حسم القضية بقوله : ﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

ثالثاً : الرسل عليهم الصلاة والسلام :

يمـثل موكـب الأنبـياء علـيهم الصـلاة والسلام سلسلة متصلة الحلقات ، وتمثل الرسـالات التـي يحملونها إلى أقوامهم ويدعون الناس إليها مشروعات إلهية للنهضة بـتلك المجتمعات. في جميع جوانب الحياة نفسية واجتماعية، عقلية وحسية ووجدانية، إنهـا تحمل المنهج الجديد. الذي يثور على كل مألوف من عادات الآباء والأجداد، إنها تقـف طويلاً أمام قضية واحدة بارزة هي : تصحيح المفاهيم ، في الله – في الإنسان – فـي الكـون – فـي الحياة . ومن العجيب أن يكون مردود الجهود الشاقة التي يبذلها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في سبيل تبليغ دعواتهم هو الإعراض عن منهج الله، بل قـد يتجاوز الأمر هذا الموقف إلى ما هو أشد وأعنف ، وهو" التصدي " للدعوة حتى لا تبلغ مداها . والأكثر تعجبا أن يكون الداعية أكثر حدبا وغيرة على واقع ومستقبل القوم من أنفسهم، شأنه في ذلك – والقياس مع الفارق – كشأن الطبيب الذي يصف للمريض الـدواء الكافـي لعلاجـه وشـفائه . ولكنه يؤثر البقاء على ما هو عليه . والناظر في مقولات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم يلاحظ أنها تدور في فلكين اثنين :

أولاً : تصـحيح العقـيدة ، وذلـك بالدعوة إلى توحيد الله تعالى في الخلق والعبادة والقصد والطلب ونبذ كل مظاهر الشرك والطاغوت .

ثانـياً : علاج الأوضاع الاجتماعية الفاسدة، وذلك بإحلال قيم جديدة، تتفق والطبيعة الإنسانية في أرقى مظاهرها ووجودها .

وفـــي سبيل إقامة الحق في هذين الفلكين، يقدم لنا القرآن الكريم، الأدلة التي ساقها الأنبـــياء علـــيهم الصلاة وأتم التسليم لأقوامهم على صدق ما جاءوهم به، وكذب ما هم علـــيه في العقيدة والسلوك، وكأن القرآن الكريم . يرينا حقيقة العدل والإنصاف ، الذي دعـــا إليه الأنبياء من جهة، وحقيقة الانحراف الذي يتمسك به أقوامهم من جهة أخرى، لنســـتنتج من ذلك مدى غيرة الحق سبحانه وتعالى على الإنسان ، لأنه لو تركه وشانه دون أن يتعهده بالهداية من الأنبياء وأتباعهم من الدعاة لكان وضعه أشد سوءا مما هو عليه الآن .

ونســـتعرض بعض الآيات القرآنية لنعرف كيف أقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الحجة على أقوامهم بحيث لا تكون لهم حجة بعد الرسل .

نوح عليه السلام :

ونبدأ برسول الله نوح عليه السلام، لأنه أول أولي العزم من الرسل. وقد ذكرت قصـــته فـــي أكثر من موضع في القرآن الكريم . وكان لكل منها هدف خاص من أهداف القصـــة كلها، تتضافر جميعها لتطلعنا نحن الخالفين على مرحلة هامة من مراحل تاريخ دعوة الأنبياء عليهم السلام، ليتحقق بذلك هدفان واضحان :

أولهما : العـــبرة والعظة بنتيجة ما أصاب قوم نوح حين أعرضوا عما جاءهم بـــه، ومـــا ظفر به من اتبعه من النجاة في الدنيا والآخرة .وهذا من باب قياس الشاهد على الغائب متى اتحدت العلة.

ثانيهما : التخفيف النفسي على صاحب الرسالة الخاتمة حتى يصبر ويحتسب. من جراء ما يصيبه من إعراض القوم عن دعوته، لأنه ليس بدعا من الرسل .

إن هذيـــن الهدفين يمثلان الغاية من وراء القصص القرآني كله، وقد صرح القرآن الكـــريم بذلـــك حيـــن قال :﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً**

﴿ يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

فأمـا مواضـعها بشـيء من التفصيل وكانت على هذا الشكل؛ ففي سورة الأعراف ذكـرت في الآيات من [٥٩ - ٦٤] لتبرز دعوته قومه إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وخشـيته علـيهم إن أعرضـوا عن ذلك عذاب يوم عظيم، وإن الملأ من قومه اتهموه بالضـلال المبيـن، فـي الوقت الذي أبان لهم فيه أنه رسول من رب العالمين وقدم لهم الأدلـة علـى ذلـك ، فمـا كان منهم إلا الإعراض والتكذيب، فأنجاه الله ومن معه حين حاولوا إيذاءه المادي والمعنوي . وأغرق من كذب به، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ .

ومـا ذكرته سورة " يونس " من الآيات [٧١ - ٧٣] إنما جاء ليبرز موقفا آخر، مسـئولية القوم تجاه إعراضهم ، عندما كبر عليهم أن يقف منهم . موقف المذكر بآيات الله، وأنه لا يسألهم على ذلك أجراً.

وفي سورة " هود " في الآيات : [من ٢٥ - ٤٨] تبرز القصة عنصر جديدا، وهو اسـتغراب القـوم أن يكـون الرسول الذي جاء إليهم بشراً مثلهم، وآخر هو : الدرجة الاجتماعـية التـي علـيها مـن آمـن به من قومه، وكأن الرسالات السماوية في نظر المعارضـين لهـا ، إنمـا هي مظهر اجتماعي، قبل أن تكون دعوة إلى تصحيح العقول والقلـوب والـنفوس. وتبين القصة في هذه السورة - أيضا - إن رابطة العقيدة أسمى وأولـى من رابطة النسب والذين آمنوا بالرسول الكريم - نوح عليه السلام - هم أولى في سلم الإيمان من زوجه وابنه، لأنهما آثرا الباطل على الحق الذي جاءهم به.

وفي سورة " نوح " التي سميت باسمه عليه السلام. تستعرض السورة دعوته قومه إلـــى توحيد الله تعالى، واستعراضه الآيات التي امتن الله بها على القوم، وتنوع دعوته لهـــم من حيث السر والجهر والليل والنهار، ومع هذا التنوع في منهج الدعوة والتذكير بالآيـــات التي يعاينونها ويعيشونها، إلا انهم أعرضوا فكان جزاءهم ما كان . ويمكن أن نســـتخلص من هذه القصة ما يلي ، كمثال يمكن أن يستخلص من جميع قصص الأنبياء علـــيهم الصلاة والسلام وبخاصة :أولو العزم منهم ، الذين يعد نوح عليه السلام منهم، على ما عليه جمهور العلماء .

أولاً: أن العقـــبات التـــي ينصبها أهل الباطل في طريق الحق، لا تستطيع أن تثني أصحاب الرسالات وأتباعهم من الدعاة عن عزائمهم حتى تبلغ رسالتهم غاياتها .

ثانـياً : أن رايـــات الحـــق ستنتصر في النهاية . ولو طال الأمد على ذلك. وأن هذا الانتصـــار له تكاليفه الباهظة، وأنه ليس هبة تمنح ، بل له أسبابه، وهذه سنة إلهية لا تتخلف مع كل رسول ، وكل داعية، حتى يظل أصحاب الحق في كل زمان وفي كل مكان آخذيـــن بهذه الأسباب فلا تفتر هممهم، أو يتطرق إلى نفوسهم أن مجرد التمسك بالحق دون الأخذ بأسباب نصرته، يكفي في معركة المواجهة بينه وبين الباطل.

ثالثاً : أن المعيار الحقيقي للحكم على الإنسان، إنما يكون فوق معيار النسب وقرابة الـــدم، إنـــه معـــيار الحق والحق وحده دون سواه، حين يتمسك به قوم، ويعرض عنه آخرون.

رابعاً : أن هذه القصة وما ماثلها في القرآن الكريم تمثل استحضار التاريخ، تمثلا وفهما لحقيقة ما جرى للمعاندين للرسالات. وما جرى للمؤمنين بها، ليقيس الحاضرون حـــالهم علـــى حال الغائبين، مع الإدراك الواعي أن سنة الله لا تتخلف[1] ﴿ **سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ (الإسراء : ٧٧) .

---

[1] انظر : كتابنا العقيدة الإسلامية ج ٤ ص ١١٢ ط. القاهرة سنة ١٩٩٥ .

إبراهيم عليه السلام :

وفي ذكر قصة "إبراهيم" عليه السلام مع ما سبق من ذكر قصة "نوح" عليه السلام، مـــا يكفـــي لرسم صورة عن تاريخ الرسالات، وكيف أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنذ أولهم – آدم عليه السلام _ وحتى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم – لم يدخروا وســعا في تقديم كافة الضمانات التي تبين للأقوام سلامة دعوتهم وأحقيتها، وليتأكد لكل ذي عقــل أن الرسالة الإلهية في مضمونها إنما تمثل حجة ذات وجهين، حجة للمؤمنين بهــا وحجــة على المخالفين لها. وأن الحق سبحانه وتعالى – بعدله – علق العذاب في الآخــرة علـــى بعـــثة الرســـل﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ (الاســـراء : ١٥) وأنـــه ســـبحانه تعهد كل تجمع بشري بأن يبعث إليهم من يبشرهم بـــالحق ويـــنذرهم مـــن عاقـــبة الإعراض عنه،﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ (فاطـــر : ٢٤) وأن ذلـــك إنمـــا كـــان هكـــذا حـــتى لا يكون للناس حجة بعد الرسل، ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ (النساء : ١٦٥) .

لقـــد جـــاء حديث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام في أكثر من سورة: منها: الأنعـــام – إبراهـــيم – مريم – العنكبوت – الشعراء – فصلت – الصافات. وعلى نفس النســـق فـــي القصص القرآني، رأينا أن تكرارها لا يعني أنها تذكر في المواضع الكثيرة علـــى صورة واحدة، بل في كل موضع نرى جانباً لم يكن مذكورا في غيره، وهكذا حتى تـــتكامل جوانب القصة باستحضارها في صعيد واحد، وهذا كله من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

وحســـبنا أن نســـتعرض من الآيات ما جاء في سورتي "الأنعام" و "الأنبياء" مما يتصـــل بهـــذا المقام ، لما لهما من أهمية بالغة ، تبرز من خلالها المواقف الجادة التي يتحلى بها الأنبياء عليهم السلام في مواجهة أنصار الباطل، العارى عن الدليل.

ففـــي سورة الأنعام. يقول الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنعام : ٧٥ : ٨٣) .

إن الآيات التي ذكرناها في سياقها العام تشير إلى الحقائق الآتية :

أولاً : خصـــائص الإله الحق. ومن أظهرها "الثبات" وعدم "التغير" و "الديمومة" فضـــلا عمـــا يفيضه الإله الحق على مخلوقاته من جميع صنوف الخير. وفي ضوء هذه الخصائص، يظهر أن معبودات القوم، من الآلهة المزعومة، ليست آلهة في الواقع، لأن خصائص الإله الحق لا تنطبق عليها.

ثانياً : أن الآيات التي ذكرناها ترسم صورة ذات وجهين : أحدهما لفريق يزعم أن ما عليه من معتقدات وسلوك، هو الموجب للأمن، وأن من ليس معه في ذلك لا يحيا حـــياة الآمنين المطمئنين، والوجه الآخر لفريق يملك العقيدة الصحيحة المبرهن عليها، والمتســـقة مع الفطرة السليمة، وبالضرورة هي الفاعلة للأمن النفسي والاجتماعي لدى

المؤمنيـــن بهـــا، شأن كل العقائد الصحيحة، في علاجها لقضايا الأفراد والجماعات، وما توفره لهم من استقرار واطمئنان.

ثالـثاً : أن ارتباط الآيات التي ذكرناها بما قبلها وبما بعدها ، إنما يدل على أن المقام كان مقام تعليم وإرشاد، وهو حال يقتضي من صاحب الدعوة أن يفترض – مؤقتاً – صـحة مـا عليه القوم، حتى يفحمهم ويلزمهم الحجة، وهذا نوع من الخطاب العالي، فـي مقام الخصومة والحجاج، فالقوم كانوا يقدسون الكواكب ويعبدونها، فأراد "إبراهيم" عليه السلام أن يبرز لهم بوسيلة تعليمية واقعية خصائص الإله الحق، فإذا تبين لهم أن معبوداتهم ليست كذلك، تكون – حينئذ – دعاواهم باطلة .

رابعاً : الآيـات التي تسبق الآيات التي أوردناها، تتحدث عن مقالة "إبراهيم" عليه السلام لأبيه "آزر" حيث اتخذ أصناما آلهة، وأنه هو وقومه بهذا المسلك في ضلال مبيـن، فإذا انضم إلى هذا المشهد ما انتهت إليه الآيات التي معنا ، وهي : أن الكواكب آلهـة مزعومة، لتبين بعد ذلك أن الإله الحق، هو الذي وجه إبراهيم عليه السلام وجهه إلـيه : ﴿ **إنـي وجهـت وجهـي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ (الأنعام : ٧٩) .

خامساً : إن جمهور المؤرخين يذهب إلى أن مناظرة "إبراهيم" لقومه في شأن الكواكب على الصورة التي أظهرتها الآيات السابقة، إنما كانت مع أهل "حران" حين أقام "إبراهـيم" فـيها، وأن القـوم كانوا صابئة يعبدون الكواكب، وكانت هذه المرحلة تالية لإقامـته في "بابل" التي كان أهلها يعبدون الأصنام، وهي التي جاء فيها قوله تعالى في سـورة الأنبياء ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه مـا هـذه التماثيـل الـتي أنـتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم رب السـموات والأرض الـذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لأكيدن أصنامكم**

بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون،....﴾ إلى آخر الآية (٧٠) من هذه السورة.

إن إبراهيم هنا استخدم منطق "العقل" و "القوة" معا. ولعل أظهر ما في السياق من استخدام للعقل أنه أنطقهم بالعلة التي طمست عقولهم عن رؤية "الحق" وهي تقليد "الآباء" ذلك الذي يشل حركة العقل، حتى يصبح الإنسان معه وكأنه لا عقل له . وإلا فأي عقل يقبل أن تكون الأصنام المصنوعة بالأيدي من الحجارة وما في مستواها معبودات تؤله وتعبد من دون الله الحق ؟ ومما يزيد في الاستهزاء بالقوم وبعقليتهم التي شلت، أن الجانب الثاني وهو جانب القوة بتكسير الأصنام إلا كبيرهم، كان جواب إبراهيم عليه السلام فيه حين سئل "أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم" الإحالة على زعيمهم الذي أعفى من التكسير حتى يسأل عن ذلك إن كان ينطق.

ولعل قمة المأساة في المواجهة بين أنبياء الله وبين أرباب الباطل ما حدث لبعض أنبياء بني إسرائيل، حين كانوا يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالله تعالى، ونبذ ما كان عليه الآباء والأجداد من عبادات باطلة، أنهم جعلوا معيار الحق هو : هوى النفس، كما صرحت بذلك بعض الآيات، فإذا كان منهج الله الذي يجيء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أسمى من أن يرضي شخصا أو أشخاص، فإن الموقف الطبيعي لهؤلاء أن يقفوا من الرسل موقف الرفض لما جاءوا به بل لذواتهم أيضاً، فأما الرفض لما جاءوا به فهو اتهامهم بالكذب. وأما الرفض لذواتهم، فقد ظهر في قتلهم. قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** ﴾ (البقرة : ٨٧) .

وإذا كنا قد تعلمنا أن ما بالذات لا يتخلف، وإذا كان هذا طبع بني إسرائيل، فهل يفيدنا هذا الموقف القرآني، الكاشف عن نفسية هؤلاء تجاه كل حق وتجاه المبشرين

بـــه؟ وهـــل يمكن أن ننتظر من أحفاد يعقوب في يوم الناس هذا، شيئاً غير الذي وقفه أجدادهم من قبل؟ .. وهل يجوز أن تتحول الطبائع التي جبلت على أن تكون شراً مكانا، لـــتمد إلى مسلمي اليوم يداً تصدق في تعهداتها؟ إن الواقع بكل أحقابه التاريخية يصدق مـــا جاء القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **لـتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ...** ﴾ (المائدة : ٨٢) .

تلك هي معالم القصص القرآني وسياقاته والعبرة من إيراده في هذا الكتاب العظيم، وأنـــه القصص الحق الذي ينبغي أن يستوحى في كل مقام يقتضي استيحاءه والعبرة به والقياس عليه، حين تتحد المواقف بين الحاضر والماضي.

وحســـبنا أن ننتهي هنا إلى القول بأن رسالات السماء إنما كانت علامات مضيئة في تـــاريخ البشـــرية، وأن الحـــق الذي جاء به الرسل إلى أقوامهم كان منهج السماء في إصلاح ما فسد على الأرض، وأن مفردات هذا المنهج كانت مشفوعة بأدلتها البادية في الكون والنفس والحياة. وأن تلك الرسالات مجتمعة كانت هي الإسلام بالمعنى العام، وهو استســـلام القلـــب والعقل والنفس لله رب العالمين لا شريك له. كما أظهرت ذلك وصايا إبراهـــيم لبنـــيه من بعده، بل وكل رسول مع من يخلفه في دعوة قومه إلى الإيمان بالله الحق.

رابعاً : اليوم الآخر :

إن الحديث عن اليوم الآخر بالتفصيل سيأتي في بابه من هذه الدراسة. والذي نسعى إلـــى إثباته هنا، هو أن حقائق ما سيجري لكل إنسان، من وقت دخوله القبر إلى معاينته لـــدار القـــرار التي أعدت له، إنما هي من الأمور الغيبية التي ينبغي أن يعول فيها على الـــنص الشـــرعي، بعـــد أن يثبـــت العقل، إمكانها في ذاتها أى : عدم استحالتها. وفي الدراســـة اللاحقـــة المتعلقة بهذا المقام إشارة إلى ذلك، غير أن الأهم هنا هو القول بأن القوم استبعدوا " البعث " مثلاً، بناء على استحالة بناء الأجسام مرة ثانية، حتى تحاسب،

إنمـــا بــنوا اســتحالتهم في ضوء معطيات عقولهم القاصرة، وفي هذا السياق استعمل القـــرآن الكـــريم منهجا تناول كل منافذ الإنسان الإدراكية فمما جاء في هذا المقام قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس : ٧٨ - ٨٣).

إن الآيات جاءت في معرض الرد على السؤال : { **من يحيي العظام وهي رميم** }. وهي في مضمونها تحمل أكثر من دليل على القضية، يتنوع فيشمل مدارك الانسان كلها تقريبا على النحو الآتي :

١- القياس العقلي، لأن قياس الإعادة على النشأة الأولى أمر من خصائص العقل لا سـيما وأن القـدرة الـتامة الـتي أنشأت أول مرة هي التي ستعيد المعدوم مرة ثانية، واللـوازم المترتـبة على ذلك مما ذكرته بعض كتب علم الكلام والفلسفة : هي من قبيل "الوهم" لا من قبيل الحقائق . بل إن القرآن الكريم يذكر في بعض آياته أن الإعادة أهون من الخلق ابتداء؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم : ٢٧) .

٢- الحـس والـتجربة : ويستفاد هذا من قوله ﴿**الذي جعل لكم الشجر الأخضر نارا ...** ﴾ فهذه من قبيل القضايا التجريبية المحسة. وغايتها بيان أن الشيء قد يخرج من ضده فالشجر الأخضر الرطب، تخرج منه النار الحارة. ومن ثم فإن الحياة يمكن أن

تخـــرج مـــن الموت الثاني، كما خرجت من العدم الأول، وهذه مسألة لا يمكن تجاوزها، لأن الواقع والحس يؤكدانها .

٣- الاســـتدلال بخلق الشيء على خلق نظيره المماثل له، والنظيران معاً أكبر من إعـــادة الانسان، فالذي خلق السموات والأرض قادر على خلق مثلها، وإذا كانا معا أكبر من خلق الإنسان، بل وإعادته، فانه في معيار العقل، يكون القادر على الأكبر قادرا على الأصغر من باب أولى.

٤- بـــيان أن مقدورات الله تعالى، وتصرفاته بالخلق والإماته، ثم الإحياء بعد ذلك، أمور لا تخضع للزمن ولا للمادة، ولا لأي معطى آخر، من معطيات الايجاد أو الإعدام أو الإحـــياء، لأن المقدورات كلها تقع تحت سلطان قوله تعالى "كن" . والذي يشك في ذلك فعليه أن يراجع موقفه من قضية "الألوهية" عموماً، والقدرة الإلهية على وجه أخص.

ونخـــتم هـــذا الموقـــف بما جاء في صدر سورة (ق) حيث تصور الآيات الكريمات موقـــف المنكرين للبعث بقوله تعالى :﴿ **أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ (ق : ٣، ٤) إن الآية الأولى من هاتين الآيتين صريحة في استبعاد منكري البعث لرجوع الإنسان مرة ثانية حتى يحاسب ويلقـــى جـــزاءه، وفـــي طي هذا الاستبعاد علل ذكرتها بعض كتب التفسير وعلم الكلام وفحواهـــا : أن ذرات الإنســـان الذي مات قد تتحول عدة تحولات لا يستطاع إحصاؤها. فمـــثلاً إذا مات إنسان ما اليوم فإن جسده بعد مدة سيصير ترابا، وقد يكون هذا التراب غـــذاء لنبات، وقد يكون هذا النبات غذاء لحيوان، وقد يكون هذا الحيوان غذاء لإنسان آخـــر. أو لطـــير أو لبهـــيمة، وقد تتكرر تلك العمليات مئات، بل ملايين المرات، فكيف يتصور العقل رجوع الذرات إلى أصولها الأولى؟

والحــق أن هــذه الشبهة لا قيمة لها، إذا أمعنا النظر في الآية الثانية وهي قوله : "قــد علمــنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ" وهي تفيد أن كل التحولات التي تحــدث للإنسان لا تخرج عن إحاطة الله تعالى بها في مستويين : مستوى العلم الإلهي، الــذي به تنكشف المعلومات، ومستوى التسجيل في الكتاب الحفيظ. وإذا كان الأمر هكذا وبضــميمة التأثير المطلق للقدرة الإلهية في جميع الممكنات، فإن الأمر – أمر الإعادة – يصبح معقولا بجانب كونه قضية جاء بها النص الصحيح .

خامساً : القدر :

إن أظهــر الآيــات التي يمكن أن تساق في هذا المقام هي التي تحدثت عن احتجاج بعــض المشركين بالقدر والمشيئة الإلهية، وهي قوله تعالى : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لــو شـاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقـوا بأسـنا قـل هـل عـندكم مـن علـم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصـون** ﴾ (الأنعــام : ١٤٨) . إن هؤلاء وأمثالهم قد غفلوا أو تغافلوا عن قضية هامة في هذا المقام، وهي : أن مشيئة الشرك أو الإيمان إنما ترجع أولاً وقبل كل شيء إلــى الإنســان نفســه، ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ وفي نفس الوقت لا تخــرج هذه المشيئة الإنسانية عن مشيئة الإله الحق، لأن المشيئة الأعم تشمل الأخص، والتحقيق أن الله سبحانه وتعالى قد شاء شركهم، لأنه لو قيل بخلافه. لوقع في ملكه ما لا يشــاؤه فــيكون مكــرها أو مضطرا. والمعول عليه أساسا في هذه القضية وأمثالها شيئان هما الأمر الإلهي والرضا، فالإيمان مأمور به ومرضي عنه وهو مراد الله تعالى، والشــرك الذي عليه القوم منهي عنه وغير مرضي عنه كذلك. ولكنه واقع تحت المشيئة الإلهــية ؛ للعلة التي ذكرناها. من ثم نلاحظ أن القرآن الكريم في الآية التي معنا، قد رد

عليهم بطريقة حاسمة تتفق وموقف المراوغة الذي يسلكونه، وهو الأخذ بالبأس الشديد وفي التعبير القرآني " **حتى ذاقوا بأسنا** " ما يشعر بأن القوم كانوا على درجة من المرض النفسي الذي لا علاج معه إلا الأخذ بالذنب، ثم في عجز الآية نرى تلك المطالبة الواضحة بعلم صحيح يبرر موقفهم هذا، وإذا كان كلامهم خاليا من العلم فإن الأخذ على أيديهم بالعقاب المناسب هو الدليل الواضح على إعراضهم عن الحق، والأخذ بالذنب حين يصير الأمر إلى ذلك، هو السنة الإلهية الماضية في جميع أقوام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأن من لم يذعن لمقتضى الدليل العقلي – وقد ساقه جميع الأنبياء لأقوامهم بحسب المقامات المتعددة – فليس أمام العقل إلا تبرير إيقاع الذنب عليه، حيث تصير كل العقول في غيبة عن إدراك العلاقة بين الدليل وموضوعه أو حين تتعمد ذلك.

وهذا الموقف – موقف تعليل الشرك بالمشيئة الإلهية – يمكن أن يكون شاملا لكل اعتقاد أو تصرف غير صحيح يقوم به صاحبه في كل زمان و في كل مكان. ويظهر هذا الأمر حين يغيب "الوعي" بحقائق هذا الدين وجوهره ويتسبب غياب هذا "الوعي" في النظرة التجزيئية إلى القرآن الكريم، تلك التي تقتطع الآية من سياقها أو لا تستحضر الآيات التي تتناول موضوعا واحدا في إطار يجمعها لتفسير القضية موضوع البحث في ضوئها مجتمعة مضافا إليها اعتبارات أخرى يقتضيها المقام.

على إن القرآن الكريم الذي احتوى الآية التي أبرزت تعلل المشركين بأن شركهم هذا كان تنفيذا للمشيئة الإلهية – فضلا عن عدم أدائها لما فهموا – تشاركها آيات أخرى في هذا المقام تجعل الإنسان في منظورها مسئولا مسئولية تامة عن جميع اعتقاداته وتصرفاته. على غرار قوله تعالى : "**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ..." وقوله " **لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** " . وبهذا الذي قدمنا يظهر أن التعليل بالقدر مرفوض. لأنه لا يعدو أن يكون علم الله تعالى الأزلي، على ما ستكون عليه الموجودات فيما لا يزال ، ولا تأثير له في تكييف الأحداث ، لأن العلم الإلهي – والقدر أحد معانيه – إنما يعني : الإحاطة والانكشاف لا التأثير.

الفصـــل الثـــالث

الإيمـــان بالله تعالــــي

ويشتمل علي :

أولاً : تمهيد : هل فطرية الإيمان تعني : الاستغناء عن الأدلة ؟

ثانياً : الأدلة القرآنية على وجود الله تعالي ووحدانيته .

ثالثاً : أدلة المتكلمين والفلاسفة على وجود الله تعالي ووحدانيته .

رابعاً : توحيد الربوبية وتوحيد العبودية .

أولاً : تمهيد : هل فطرية الإيمان بالله تعالي تعني : الاستغناء عن الأدلة ؟

في إشارة سبقت قلنا : إننا سنفرد الحديث عن " الذات الإلهية " من حيث الإيمان بها ، والأدلة على وجودها ببحث خاص ، حتى يستوفي البحث حدوده اللائقة بموضوعه، وننبه هنا إلى هذا حتى لا يقال : إن البحث هنا قد تأخر عن مكانه ، لأن البحوث التي سبقت ، إنما كانت لموضوعات من أصول العقيدة ، يترتب الإيمان بها ، علي الإيمان بالله تعالي ، والسبب – كما نرى – هو تأخير البحث في الموضوع ، لا تأخيره عن رتبته ومكانته التي حددها حديث جبريل عليه السلام ، وكما هو في الواقع ونفس الأمر .

وأبدأ حديثي في هذا الموضوع بطرح هذا السؤال : إذا كان الإيمان بالله تعالي أمرا فطريا مركوزا في النفس البشرية – كما سبقت الإشارة إلي ذلك – فما الداعي لسوق الأدلة علي هذه القضية ، سواء أكانت تلك الأدلة مما جاءت به النصوص الشرعية أم مما ينظمه العقل ؟ وأبادر فأقول :لما كان الإنسان بحكم تركيبه من روح ومادة ، والمادة تعني : الغرائز والشهوات ، فإن هذا يعني أن فطرته قد تتحول عن وضعها الطبيعي أمام ضغوط الجانب الغرزي والمادي فيه . وهذه حقيقة يصدقها الواقع والعيان .فالإنسان ليس ملكا منزوع الشهوة ، وليس جمادا لا شهوة له أصلا ، ثم إن الأدلة التي تساق علي صدق العقائد ، ليست إلا من باب التذكير والعودة بالفطرة إلي حالتها الأولي ، قبل أن تلوثها عوامل الشهوات والرغبات . ولو لم يكن الإنسان – بحكم طبيعته هذه – قابلا لأن يعدل من اعتقاداته ومواقفه وسلوكه –خاصية قبول التعلم – لما كان هناك داع للرسالات والمواعظ و التأديبات علي حد تعبير حجة الإسلام "الغزالي " ، وكما تتعدل اعتقادات الإنسان وسلوكياته بتأثير الشهوات علي نفسه ، تتعدل في الجانب المقابل بتنبيهه وتذكيره بقيمة المقابل لهذه الاعتقادات والسلوكيات ، وإذن فقابلية "التعلم " غريزة في الإنسان أيضا . وجهاد المعلمين –أيا كان دورهم –إنما هو لبقاء الإنسان علي فطرته السوية أو العود إليها حين يصيبها شئ من التحول و الانحراف ، يتساوى تقريبا مع النوازع غير السوية التي تضغط عليه ليقع فريسة لتأثيرها .

إن الأمر في مجال الاعتقاد ، قد يكون أيسر من مجال السلوك والممارسات ، لأن للعقل دورا واضحا في بيان الصحيح من غيره فيها ، والمعتقدات الصحيحة ، تملك قدرا غير قليل من الوضوح والاتساق مع العقل ، وما ضل منها ، يمكن بسهولة إقامة الدليل علي ضلاله ، ولعل هذا القدر يمثل المسرح الحقيقي لإقامة الأدلة علي وجود الله .

ويمكن أن يقال هنا : إذا اعتبرنا الإيمان بالله تعالي أمرا مركوزا في الفطرة الإنسانية فما هو الضمان الحقيقي لأن تظل هذه الفطرة علي نقائها وصفائها ، والإنسان مزود بكثير من الغرائز والشهوات ؟ -علي الوجه الذي ذكرناه سابقا – ويقال أيضا : لم لا يتعاضد رصيد الفطرة مع الأدلة التي يمكن أن تساق في هذا المقام بكافة مستوياتها التي أشرنا إليها في الفصل السابق حتى يظل الإنسان – إن أراد لنفسه أن يظل إنسانا – في المرتبة التي أهلته لحمل أمانة التكاليف الشرعية والأدبية ؟.

ونحسب أن نقيض "الإيمان " بالله تعالي ، ليس إلا نقضا للطبيعة الإنسانية المستقيمة ، وتحدثنا بعض كتب الفرق ، أن الدهريين . الذين قالوا بالطبع المحيي والدهر المفني ، كانوا شرذمة لا وزن لها ، وقد عبر عنهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون** ﴾ (الجاثية :٢٤) ويكفينا حسما لقضية المنازعة في الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالي ، أن يكون أصحابها ممن لا يحملون علما، بل لا يخرج تصورهم عن كونه ظنا لا يغني من الحق شيئا ، كما صرحت الآية الكريمة .

إن بذور الإلحاد الظاهر من قولهم هذا ،كما صورته الآية التي معنا ، ظهرت أول ما ظهرت في بلاد الشرق في البيئة الفارسية ، حيث ذهب القائلون بها ، إلي أن

الزمان لا نهاية له ، وأنه عين القدر أو الفلك الأعظم . وهذه الفكرة في أساسها ترجع إلي بعض المذاهب الفلسفية اليونانية .

وفي البلاد التي فتحها الإسلام – كالهند – من كان ينكر وجود الله كالسمنية ، ويعلقون الأحداث كلها علي الطبيعة ، كانوا يقولون : إن الآدمي كالنبات ، نبت من الطبيعة ، ويزعمون أن العالم قديم بلا صانع ولا مدبر ، ولا أول له ولا آخر .

وإذا كـــنا نؤمن بأن هذه الفكرة – الإلحاد – لا تملك مبرر وجودها من الوجهة العقلـــية ، إلا أن خطورتهـــا تكمن في أن الضعف البشري المتجلي في ضعف النفس ، وبالضـــرورة الطمـــس على معالم التفكير السليم ، قد يروج لها ، في كل عصر وفي كل مصـــر – والواقع يؤيد ذلك جريا من تلك النفوس الضعيفة وراء كل جديد ، وفي ضوء هذا لا نستغرب أبدا قول من يقول : إن الإلحاد قد يكون " مودة " زمان ما أو مكان ما ، وهكـــذا .إن عـــدوى التقليد والمحاكاة بطريقة أسرع إنما تكون في الأوساط التي تفتقد الوعـــي أو ينقصها ذلك ، ونقصد بالوعي هنا : الإدراك الحقيقي لطبائع الأشياء . وإذا طبقنا مبدأ الوعي بالمعني الذي نقصده علي قضية الإلحاد لكانت النتيجة لذلك هي : أن الإلحـــاد فكـــرة شاذة ، لا تملك مقومات وجودها ، وبقدر ما تتمتع به عقيدة " الإيمان " بـــالله تعالـــي بالوضـــوح والإشراق ، حتى أنها لتصل إلي درجة " البداهة العقلية علي اعتـــبار أن الله ســـبحانه وتعالـــي هو – في الواقع – علة العلل كلها، وسبب الأسباب جمـــيعها، فـــلا يتردد العقل السليم "الواعى" في رد فكرة "الإلحاد". بل الحق أنها تصنف ضـــمن الأفكار الشاذة ــ كما قلنا ــ لأن أقل ما يقال فيها أنها تتصادم مع بداهة العقل، لأن مـــبدأ "الســـببية" الـــذي تتجاوزه مبدأ فطرى، و الخروج عليه هو الشذوذ بعينه . وحســـب القـــرآن الكريم أن يكون قد نفى عن قائليها "العلم" "و ما لهم بذلك من علم " وجـــاء لفـــظ "الظـــن" كبديل للعلم ،بطريقة مخففه تشعرنا أن المراد به "الجهل" لأنه هو وحده المقابل للعلم المنفى، في هذا المقام .

و قـد أشار الجاحظ في كتابه:"الدلائل والاعتبار" إلى أن فكرة "الإلحاد" إنما تعبر عـن شـذوذ يعود إلى تشوه في الفطرة، وفي هذه الفكرة خطورة في الحكم على هؤلاء الملحديـن، إذ لو كان الأمر كما ذهب، لكانوا معذورين في إلحادهم كشأن المريض الذي لا يقـدر على فعل ما، إنهم في نظره غير قادرين على "الإيمان" و هذا أمر غير صحيح، لاسيما في ضوء نظرتنا الدقيقةإلى:

١ـ نقاء الفطرة التي تزكيها آية الميثاق كما جاءت في سورة الأعراف رقم ١٧٢ وكذا الأحاديـث الـتى تحدثـت عن ولادة الإنسان على الفطرة و التى تعنى الإيمان ، و التى يؤكدها أن خروجه من فطرته النقية إلى غيرها كاليهودية و النصرانية و المجوسية أمر يرجع إلى البيئة التى نشأ فيها ، حيث ضغطت عقائدها الفاسدة على فطرته فخرج عليها .

٢ـ أن الانسـان لديه وسائل المعرفة المتعددة ، و منها العقل الذي يوازن و يرجح ، ويدرك الحق من الباطل و الصواب من الخطأ ، متى لم تستول عليه عوامل مؤثرة مضادة .

٣ـ أن الحـق سـبحانه وتعالى تعهد ـ بلطفه وبره بعباده ـ كل تجمع بشري برسول يأخذ بيده إلى طريق الخير وينبهه على طريق الشر حتى لا يقع فيه.

لقـد كـان شيخ الإسلام "ابن تيمية " أكثر دقة في الحكم على "الملحد" حيث ذهب إلى أن الإلحاد إنما جاءه لا من جهة النقص في أصل الفطرة ـ كما ذهب الجاحظ ـ و إنما من جهـة الغفلـة ، وهذا ما أشار إليه القرآن في تعقيبه على آية الميثاق ، وكذا ما أشرت إليه منذ قليل ، و خصصته بفكرة "الوعي" لأنه ضد الغفلة .

ويمكـن أن نسوق في هذا المقام ثلاث ركائز يقوم عليها القول بفطرية الاعتقاد بوجود الله.

الركـــيزة الأولــى: من ناحية التأمل في أحوال الفرد مهما يكن ملحدا ، و ذلك أننا نجده مـــتمردا على الاعتقاد بوجود الله ، طالما أنه غارق في نعيمه . وصدق الله العظيم حيث يقــول : ﴿ كـلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : ٦-٧] فإذا أدركته نعمـــة الله بـــنقمة قارعـــة تتبدد بها كل وسائل الاستغناء عن الله تعالى . كأن يتعرض لحـــريق عاصف، أو غرق يائس، فإن الحوائل التى كانت تحول بينه و بين فطرته تسقط تلقائيا . و يجد نفسه وجها لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود الله .

الركيزة الثانية: من ناحية التأمل في أحوال الشعوب ، و ذلك أننا نجد الشعوب في جميع مستوياتها و أطوارها الاجتماعية أو التاريخية تعتنق عقيدة الإيمان بوجود الله. مما يدل علـــى أن هذا الأمر فطرى في أعماق الطبيعة البشرية، و أن الانحراف الذي تتعرض له تلـــك الشعوب إنما هو نوع من تشويه الفطرة. أو هو نوع من الكبت يقودها إليه طائفة مـــن الحكام يريدون أن تهبط من عبودية الحق سبحانه و تعالى و تأليهه إلى عبوديتهم وتأليههم.

الركيزة الثالثة: من ناحية التأمل في طبيعة الانسان، إذ نجد في فطرته نزعه إلى التحرر مساوقة تماما لنزعة فيه إلى العبودية. ومهما يغالي في نزعته إلى الحرية، فلابد له من أن يشـــبع نزعـــته إلى العبودية. وهو إذا لم يختر معبوده بوعي فإنه ينزلق إلى عبادة معبود بغير وعى [1].

إن الاعتقاد بفطرية الإيمان بالله تعالي – حينئذ – لا يعني الاستغناء عن الأدلة علي هذه القضية طالما أننا انتهينا إلي أن الفطرة قد ترتكس عندما تطغي عليها الشهوات الجامحة ويعلو صوتها علي صوت الفطرة النقية . من ثم يصح القول – بعد ذلك – أن فطرية الإيمان أمر مسلم به ، وأن قضية إقامة الأدلة علي هذا الإيمان أمر مسلم به كذلك – لما قدمنا – وأن تضافر رصيد الفطرة مع معطيات الحس والعقل يمكن أن يشكل الضمان الحقيقي لسلامة الاعتقاد بوجود الله تعالي . فإذا انضم إلي ذلك :

---

[1] انظر : د / يحيي هاشم : مداخل إلي العقيدة الإسلامية ص ١٣٨ ط مصر سنة ١٩٨٥ .

الدور الذي يقوم به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم من بعدهم ، وهو في مجمله يصب في دائرة " التذكير " وإيقاظ الوعي والتنبيه من الغفلة ، فإن هذا كله يجعل الاستدلال علي وجود الله أمر طبيعيا ، لا سيما أن الحق تبارك وتعالي قد أشار إلي قضية واضحة في القرآن الكريم ، قد تنسحب علي الطبيعة الإنسانية كلها ، وهي التي جاء بها قوله تعالي :﴿ **وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً** ﴾ (الكهف : ٥٤)

ثم إن الرسالات الإلهية كلها هي الحجة البالغة التي تبرر أن من أعرض عن منهج الله بعد أن بلغه إنما تسقط حجته عند الحساب . قال تعالي :﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ (الإسراء : ١٥) وقال تعالي : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل** ﴾ (النساء : ١٦٥)

ثانيا : الأدلة القرآنية علي وجود الله تعالي :

لا أجد مدخلا إلي الحديث عن الأدلة التي ساقها القرآن الكريم علي إثبات وجود الله تعالـي أولي مما قاله أبو الوليد " ابن رشد " في هذا المقام . حيث قرر – وبحق – أن الطـريق التي نبه الكتاب العزيز عليها . ودعا الكل إلى بابها . انه إذا استقرئ هذا الكتاب انحصرت أدلته في جنسين :

أحدهما : طريق الوقـوف علي العـناية الإلهية بالإنسان ، وخلق جميع المـوجودات من أجله ولنسم هذا : دليل العناية .

الطـريق الثانـي : مـا يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودة ، مثل : اخـتراع الحـياة فـي الجمـاد ، و الإدراكـات الحسـية والعقلية ، ولنسم هذا : دليل الاختراع [1] ويعني هذا أن الآيات القرآنية التي جاءت في هذا السبيل إما أن تكون من أحد الجنسين أو تكون جامعة بينـهما معا .

---

[1] الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٥٠ تحقيق وتقديم د / محمود قاسم ط القاهرة ١٩٦٤

والناظر في القرآن الكريم يعثر علي كثير من الآيات التي تغطي هذين الإطارين، وهي في سياقها العام تكشف عن أمر هام وواضح هو : القيمة العليا للإنسان وما يشغله من مرتبة بين الكائنات كلها وهذا ما يفيده دليل العناية ، وفي نفس الوقت تبرز أن جميع مخلوقات الله – سوي الإنسان – هي في المنظور العام مسخرة له .
وكأن القرآن الكريم هنا يبرز لنا قيمتين عظيمتين :

أولاً : القيمة الإنسانية وكونها عزيزة علي الله تعالي .

ثانياً : القيمة الكونية من حيث إنها دالة علي خالقها سبحانه وتعالي ، وفي نفس الوقت تبرز العلاقة الثنائية بينها وبين الله جل وعلا من طرف ، وبينها وبين الإنسان من طرف آخر.

ويمكن أن نسوق بعض الآيات التي توضع في كل إطار من الإطارين السابقين :

أولا : آيات العناية الإلهية بالإنسان وبالكون :

أ – قوله تعالي :﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا**﴾(النبأ : ٦-١٦) .

ب – قوله تعالي : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، علي أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولي فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ،أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (١) أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا**

[1] لم نذكر الآيات متواصلة ، وإنما ذكرنا محل الشاهد فقط ، حتى لا نطيل .

تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ (الواقعة : ٥٨ – ٧٢)

ج – قوله تعالي :﴿ **الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى علي العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها علي بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾** (الرعد : ٢-٤) .

د – قوله تعالي :﴿ **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا﴾** (فاطر : ٤١) .

هذه طائفة من الآيات القرآنية ، تغني عن سواها ، وهو كثير ، في دلالتها علي المراد ، ونشير هنا إلي عدة ملاحظات أهمها :

١- أن المنهج القرآني يتميز – من بين ما يتميز به – بأنه ليس كتابا مؤلفا في علم أو فن بعينه ، بل هو،في المقام الأول : كتاب هداية وتوجيه إلي الحق ، ولما كان كذلك فإن علاجه لأية قضية يتعرض لها ، لا يأخذ الشكل المألوف لدى البشر من تحديد الدعوى ، ثم تحرير الدليل الموافق لها ، حتى يخلص إلي النتيجة المطلوبة ، إذ لو كان كذلك لما تميز عن الأعمال البشرية ، ولترسخت الشبهة في كونه ليس كتابا إلهيا ، كما يزعم بعض الأغرار . وإذا كان الشأن في هذا الكتاب العزيز كما ذكرنا ، فان تداخل العناصر المتعددة التي تخدم القضية المعروضة للعلاج ، ولو من بعيد أمر تقتضيه طبيعة هذا الكتاب العظيم ، ولنا أن نقف أمام الآيات التي سقناها في مستهل هذا المبحث ، إنها تقرر في وضوح : أن الحق سبحانه وتعالي خلق الأرض وجعلها ممهدة ذلولا طوع الإنسان ، يسخرها بالطريقة التي تخدم واقعه ، فترقى حياته ، ويسعد حاضره ، وهي في نفس الوقت تشعره بمدد الله تعالي له ،

وقدرتـــه علي ذلك ، حتى يظل دائماً ذاكراً لفضله شاكراً لأنعمه . والدليل علي تمام العـناية به ، أنه جعل الجبال أوتادا حتى لا تميد به الأرض ، وخلقه أزواجا حفاظا علـــي بقـــاء الـــنوع ، إلي ما شاء الله ، وما ينطوي عليه ذلك من إشباع للغريزة الطبيعـــية التـــي زود بها ، ثم بيان فضل " النوم " الذي به يريح الإنسان نفسه من عناء العمل ، حتى يستأنف النشاط في "النهار" الذي هو محل سعي الإنسان ، حتى يحصـــل علي معاشه ، ثم السماء التي تظله ، بالإضافة إلي الأرض التي تقله ، ثم الكوكـــب الـــذي يضـــئ كونه ليلا والذي يضئه نهاراً وما ينزل من السماء من ماء يخرج به الحب ، وتسقي به الـــزروع ، وجميع الحيوانات فضلا عن الإنسان .

٢- أن النســـب الموجودة في عناصر الكون ، والعلاقات الدقيقة بين كواكبه وأفلاكه ، من حيث الحجم والأبعاد ، إنما تدل علي ما يسمي " بالتوزان الكوني " : وقد انتهي العلـــم مؤخرا إلي اكتشاف العجائب في هذا السبيل مما يتأكد معه أن القول بالخلق ونســـبة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، لا يدل دلالة دقيقة علي الواقع فحسب ، بل الأولى أن يقال : إن الحق سبحانه وتعالى هو : المعتني بما خلقه .

٣- أن الدلالـــة القرآنـــية علي وجود الخالق وعنايته بما خلق يثبت المطلوب ، وينفي نقيضـــه فـــي نفس الوقت ، لأن دلالة المخلوق علي الخلق تحمل فوق ذلك نفي أن يكـــون هـــذا المخلوق قد وجد بلا سبب و لا علة . وهذه مسألة يدركها العقل لأول وهلـــة ، وقـــد أشار القرآن الكريم إلي ذلك بطريقة مباشرة في قوله تعالي : ﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون** ﴾ (الطور : ٣٦) فالآية الكريمة في ظاهرها . تحمل استفهاما إنكاريا عن أمرين كلاهما باطل :

أ – الخلـــق مـــن غـــير شئ أي : من غير خالق ، وهو ما يتعارض مع قانون السببية .

ب- أن يكونـــوا خالقيـــن لأنفسهم ، وهذا مستحيل عقلا ، لما يترتب عليه من كـــون الشـــئ خالقـــا ومخلوقا في آن واحد ، فتجتمع فيه جهتان متقابلتان : جهة كونه

خالقـا، وجهـة كونـه مخلوقا ، وإذا ثبت بطلان هذين الاحتمالين ، لم يبق إلا الإذعان لقـانون السببية الذي يبلغ من البداهة حدا يقال معه إنه مبدأ لا ينكره إلا غير العقلاء ، وكلام غير العقلاء ساقط عن درجة الخطاب .

ثانياً : آيات تدل علي الخلق والإبداع :

أ – قوله تعالي :﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ (المؤمنون : ١٢-١٤)

ب- قوله تعالي :﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو علي كل شئ قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سماوات طباقا ما تري في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل تري من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** ﴾ (الملك : ١-٤) .

ج- قوله تعالي :﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه علي رجعه لقادر**﴾ (الطارق : ٥-٨) .

د – قوله تعالي :﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**﴾ (الأنعام : ٩٥-٩٨) .

ثالثاً : الآيات التي تجمع بين الدلالتين : العناية والاختراع :

قوله تعالي : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ (البقرة : ٢١-٢٢).

ونذكر هنا بما ألمحنا إليه من قبل من أن الفواصل بين هذه الأطر لا تمنع من التلاقي والتداخل نظرا لطبيعة الكتاب نفسه. إن الناظر في القرآن الكريم، في هذا السياق، يلاحظ أن هذا الكتاب العزيز يهيج مدارك الإنسان كلها، نحو نفسه، ونحو الكون من حوله، حتى ينفذ إلى عمق الحقيقة. وكونه كذلك، مغذيا للحس والعقل والوجدان. بل واضعا يد الإنسان على الأدلة الكونية التي تؤدي إلى الإيمان بخالق الكون سبحانه وتعالى، فيما هو مسخر له فإنه يعني: أن الدلالة القرآنية ليست بمؤثرة لجانب على آخر، من جوانب المدارك البشرية، ويأتي في نهاية التعامل القرآني مع قضية الإيمان بالله رب العالمين، الدليل العملي الواضح بالنسبة لأولئك الذين ظهرت أمامهم الأدلة واضحة، ومع ذلك ظلوا سادرين في غيهم، ولم تنبههم آيات الله الباهرات في كونه وفي أنفسهم، فكانوا كما صرح القرآن في شأنهم ﴿ **وكأي من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾ (يوسف : ١٠٥) واستحقوا بموقفهم هذا معاينة "الأخذ بالذنب" كدليل واقعي في الدنيا، يؤكد أن هؤلاء لم يصبهم ما أصابهم إلا من جراء إعراضهم هذا، وهذا ما تشير إليه الآيات :﴿ **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ (العنكبوت : ٤٠).

وفي الصورة المقابلة نرى أن الذين آمنوا كان جزاؤهم في الدنيا أن أغدق الله علـــيهم من فضله. ورزقهم من الطيبات، وأما جزاؤهم في الآخرة فهو النعيم المقيم، كما جـــاء في مثل قوله تعالى: ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** ﴾ (الأعراف : ٥٨). وكما يفيده مفهوم المخالفة في قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ (الأعراف : ٩٦) وما كانـــت نداءات القرآن الكريم التي تلفت النظر إلى قراءة تاريخ السابقين. وما حدث لمن أعـــرض مـــنهم عن الإيمان بالله رب العالمين. في مثل قوله تعالى : ﴿ **أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ (الـــروم : ٩). أقول : ما كانت هذه النداءات إلا الدليل الأخـــير الـــذي اســـتخدمه القرآن في مقام الدعوة إلى الإيمان بالله رب العالمين. وبهذا تكتمل دائرة الخطاب القرآني في هذا المقام حيث يتبين لقارئه إنه استوعب كل الوسائل الممكـــنة، والطرق الصحيحة لعملية "الوعي" و "التذكير" بالإيمان بالله، وليبرز في نهاية الأمـــر أن قضية الإيمان ليست أمرا جبريا، تلغي في ضوئه ملكة الاختيار عند الإنسان. ولكن الصحيح أن الإرادة الإنسانية هي " الفاعل " في إيثار "الإلحاد" على "الإيمان" . لذا نـــرى في آخر الآية التي سقناها مباشرة أن الظلم الذي يقع على عاتق "الملحد" إنما هو من صنع نفسه.

ولعـــل فـــي هذا القدر كفاية يغني عن التطويل، ومن أراد التوسع فعليه قراءة القرآن الكريم أولاً، وسيجد في آياته البينات ما يشبع نهمه العلمي. وليصطحب معه تلك الحقـــيقة الباهرة التي ألمحنا إليها قبلا، وهي: أن القرآن الكريم بمنهجه الفذ، إنما عمد إلـــى إيقـــاظ "الوعي" في الإنسان. ذلك الذي خبا بسبب طمس معالم الفطرة النقية، بفعل الغرائز، ثم في النهاية يقرر: أن من أبصر فلنفسه وأن من أساء فعليها.

أدلة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى

جـــاءت الآيات القرآنية التي تناقض " الشرك" و " التعدد" لتخلص إلى الوحدانية أكثر بكثير من الآيات التي جاءت توقظ " الوعي " للإيمان بالله رب العالمين، الأمر الذي حمـــل بعـــض الباحثيـــن علـــى القول بأن معركة القرآن الكريم إنما كانت مع المشركين القائلين بتعدد الآلهة، لا مع الملحدين، على اعتبار أن الإيمان مسألة فطرية كما سبق أن أشـــرنا، ولـــيس لنا أن نقف طويلا أمام هذا القول. بعد أن أثبتنا أن السبب وراء سوق بعـــض الآيـــات التي تذكر الإيمان بالله إنما كانت "الغفلة" على الوجه الذي ذكرناه، كما يمكـــن أن يقال : إذا كانت التقاليد البالية للآباء والأجداد هي التي حالت بين المشركين وبيـــن الوحدانـــية بالمعنى الصحيح، فإن هذا السبب ليس أولى من القول بأن " الغفلة " كانـــت وراء الإنكار للملحدين، وإذن فالتقليد والغفلة سببان متكافئان، في تناول القرآن الكـــريم لمواجهة الإلحاد، وبنفس الدرجة التي واجه بها الشرك. وأيا ما كان الأمر فكلا الموقفين مناقض للعقل والفطرة معا، وما إطالة القرآن الكريم لحجاج المشركين إلا لأنه اســـتعرض تـــاريخ أمـــم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ليرينا إلى أي حد كان التقليد وعوامـــل الإلف والعادة قيما تعلو فوق العقل والمنطق في كل فترات التاريخ، وأن على الخالفيـــن أن يستوعبوا دروسه وعبره، عسى أن يكون ذلك نافعاً لهم إن كانوا يريدون أن يظلوا في رتبتهم في سلم الوجود، التي أرادها الحق سبحانه وتعالى لهم.

وإذا كانـــت قضية " الشرك" واحدة. ونقضها كامن في ذاتها، حيث إنها لا تملك دلـــيل وجودهـــا، فإن التطويل في سردها في القرآن الكريم يصبح أمراً تقتضيه مقامات الخطـــاب ليريـــنا قـــيمة العقل البشري في ذاته، وليطلعنا من طرف آخر على أن عملية الشـــرك بالله رب العالمين. قد تكون ناشئة تحت وطأة أوضاع سياسية. أراد منها الطغاة أن يجعلـــوا من أنفسهم أندادا لله رب العالمين. وما قصة فرعون مع موسى عليه السلام إلا دليل على صدق ما نقول. حيث ادعى أنه الإله الأعلى. بل إنه لا إله غيره، بالإضافة

إلــى الســبب الرئيسي في هذا المقام. وهو التقليد، كما أشرنا إلى ذلك من قبل أخذا من القرآن الكريم.

ولــنا أن نستعرض بعض الآيات القرآنية، التي تبرز أن دعوة الرسل والأنبياء علــيهم الصــلاة والسلام أقوامهم إنما تركزت في المقام الأول على التوحيد ونبذ الشرك بكــل مظاهــره. ونرى المبررات الكافية لنقض هذه القضية، مع أنها لا مبرر لوجودها عقلا ولكنها التصورات المنحرفة.

فــي سورة "الأعراف" من الآية ٥٩ وحتى الآية ٩٣ حديث طويل يصور ما دار بيــن فريق من الأنبياء عليهم الصلاة وبين أقوامهم في القضية التي معنا وقد تكرر هذا المشهد في القرآن الكريم أكثر من مرة وهؤلاء الأنبياء هم:

١- نوح عليه السلام .
٢- هود عليه السلام .
٣- صالح عليه السلام .
٤- لوط عليه السلام .
٥- شعيب عليه السلام .

وســنقف أمــام الآيات التي تحدثت عن " نوح " عليه السلام، لنستخرج منها المطلوب، يقــول الله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنــي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين، قال يـا قـوم ليس بـي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم مـن الله مـا لا تعلمون، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينـذركم ولتـتقوا ولعلكـم تـرحمون، فكذبـوه فأنجيـناه، والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ (الأعراف : ٥٩ – ٦٤).

إن الآيــات تبين أن دعوة "نوح" قومه إلى التوحيد ونبذ ما هم عليه من شرك، إنما كان مبعثها الخوف عليهم من العذاب الذي سيحيق بهم بعد الحساب، ولو قيل : إن هــذا الباعث لا يكفي أن يكون حجة تردهم إلى الإيمان بالله الواحد، كبديل لما هم عليه مــن إشراك به، فيقال : وهل موقفهم هذا، الرافض للحق. والمتمسك بالشرك، له تبرير مقــبول معقول؟.. لو كان القوم عقلاء حقا، لكان عليهم أن يوازنوا بين ما هم عليه وما يدعوهــم إلــيه رســولهم، لا ســيما وأن هذا النبي ذكرهم بآيات الله عليهم، الحاضرة والمســتقبلة، كمــا جاء في سورة نوح ، كما أرشدهم إلى أن يفكروا بعقولهم في الكون حولهــم، بل وفي أنفسهم﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا و قد خلقكم أطوارا، ألم تروا كيف خلـق الله سـبع سمـوات طـباقا وجعـل القمـر فـيهن نـورا وجعل الشمس سراجا، والله أنبـتكم مـن الأرض نـباتا، ثـم يعـيدكم فـيها ويخـرجكم إخراجا، والله جعل لكم الأرض بساطا، لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ (نوح : ١٣ – ٢٠).

إن هــذه "التنبهات" المتعددة، إلى ما بأيدي القوم من نعم باهرات، وآيات بينات فــي أنفســهم وفــي الكــون من حولهم، جديرة بأن تحول هؤلاء القوم من الشرك إلى التوحــيد، لو كانوا يعقلون، ويبصرون، لذا رأينا الآيات التي نقلناها من سورة الأعراف تخــتم حديــثها عــن قــوم "نوح" بأنهم كانوا قوم عمين، لتدلنا على أن التذكير بالأنعم والدعوة إلى الإنفتاح على الكون كله. لمعاينة الآيات الدالة على "التوحيد" لا تجدى شيئا عند أقوام أغلقوا عقولهم وبصائرهم وأبصارهم عن ذلك كله، فلم يكن المقام مقتضيا إلا الدليل الذي لا يرد، على إعراضهم وشركهم، وهو الأخذ بالذنب ونلاحظ من قراءتنا لهذا الدلــيل. أنــه لا يصــيب إلا المعرضين وحدهم. وفي الآيات التي معنا ما يدل على ذلك "فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ".

إن الروابط متينة في القرآن الكريم بين التسارع إلى الإيمان بما جاء به الانبياء علــيهم الصلاة والسلام ورأس ذلك " التوحيد " ونبذ " الشرك " والنجاة. وبين الإعراض

عــن ذلك والهلاك، حتى إن ذلك ليعد قانونا يعرضه علينا كتاب الله الكريم، ليعمل به في كل وقت وحين إلى أن تقوم الساعة.

آيات الدعوة إلى التوحيد :(١)

تناول القرآن الكريم هذه القضية بطريقة مباشرة بوجهين :

الوجه الأول : ســوق قضية " التوحيد " بطريقة إيجابية، كقوله تعالى : (قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

الوجـــه الثانـــي : ســوق هذه القضية بطريقة قياس الخلف، ويعني: إثبات الدعــوى بسلب نقيضها، وقد أوردها في مقامين، أخذ المتكلمون منهما ما أطلقوا عليه: دلـــيل الـــتمانع، ودليل التوارد، فأما ما يؤخذ منه دليل التمانع فقوله تعالى: ﴿ **لـو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ (الأنبياء : ٢٢) وأما ما يؤخذ منه دليل التوارد فقوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ (المؤمنون : ٩١) .

(١) لم نشأ أن نغرق القارئ في تفاصيل معنى "التوحيد" أو "الوحدانية" ، كما جاءت في بعض كتب علم الكلام، حين تحدثت عن المراد بالوحدة الإلهية، ونحيل من يريد المزيد إلى بعض الكتب المتوسطة، التي شرحت الموضوع بطريقة أكثر اعتدالا من غيرها . انظر : عقيدة أهل التوحيد الكبرى ، المسماة بالسنوسية ص ٦٧بتحقيقنا ط أولى القاهرة سنة ١٩٧٣.

والآيـــة الأولى : من هاتين الآيتين تبين بمنطق حكيم . أن الفساد في السموات والأرض مترتـــب علـــى تعدد الآلهة، وهذا من باب تحديد السبب المؤثر في المسبب أو تحديـــد الشرط المقتضي للجزاء، وهذا التحديد مسألة عقلية بحتة، يقرها العقل والمـــنطق، فإذا ما ألقينا النظر على الواقع، حتى نرى صدق القضية التي معنا أو كذبهـــا، فإنـــنا نجـــد أن الكون كله، يسير نحو غايته حسب خطة محسوبة ودقـــيقة، وأن النظام البادي في جوانبه كلها. لا تخطئه عين ناظر منصف، وأن العلوم المتعلقة بالدراسات الفلكية، وبخاصة ما يتناول منها التناسب بين عناصر الكـــون وكواكـــبه ومجراته وأفلاكه، قد انتهت إلى نتائج حاسمة، تقطع السبيل علـــى كـــل مـــتخرص، يقول فيها بغير علم، لتثبت أن الكون العظيم في نظامه وتوازنـــه، إنما يخضع لإله واحد لا شريك له، أقول: كل هذا يدل على وحدانية الله تعالى، وينبغي ألا يكون معه شريك أو شركاء. وباختصار : إذا انتفى الفساد المترتـــب علـــى الـــتعدد، فـــإن ذلك يقتضي انتفاء التعدد ويثبت نقيضه، وهو الوحدانـــية: وبصـــيغة ملائمـــة لما استقر عليه قول المتكلمين في عنوان هذا الدليل: يمتنع التعدد لامتناع الفساد، ويثبت نقيضه. وهو "الوحدانية".

والآيـــة الثانية : تفيد انه لو كان هناك آلهة متعددة لتواردوا على مقام واحد، وهو مقام الألوهـــية، ولكان هناك تسابق بينهم، حتى يتحقق لكل منهم دعواه ويستحيل أن تصدق دعوى الجميع لأنهم متعارضون فيما بينهم وتحقيق دعواهم جميعاً يؤدي إلـــى التـــناقض، وما ثبت عجزه منهم لا يكون إلها، ولما كان الإله الحق القادر المختار إلى آخر صفات الكمال والجمال، هو الله رب العالمين، فإن جميع الآلهة المـــزعومة، لا تكون آلهة في الواقع، بل في ضمائر وألسنة أصحابها وأتباعهم فقط.[1]

---

[1] انظر تفسير هذه الآية في شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٥ ط بيروت سنة ١٣٩٩ هـ.

ونلاحـظ فـي ختام هاتين الآيتين أن كلا منها تعقب على الموقف بتنزيه الله تعـالى عـن الشريك والولد بصيغة ملائمة هي : " سبحان الله عما يصفون "، لترينا إلى أي حد كان الاجتراء على مقام الألوهية الحقيقية أمراً إداً، يتنزه المقام عنه، إن القـرآن الكـريم أرانا – نحن الدارسين – أن كل ذرة في هذا الكون الفسيح ما ظهر منه وما بطن، ما صغر منه وما كبر، تدل على أنه أثر لصانع حكيم، واحد لا يزاحمه فـي وحدانيـته غـيره، وأختم كلامي هنا بتلك الآيات الباهرات، التي تؤكد ما نحن بصدده، يقول الله تعالى: ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون. أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون. أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ (النمل : ٥٩ – ٦٤). وأترك للقارئ الباب مفتوحا لقراءة هذه الآيات في ضوء ما انتهى إليه العلم في حديثه عن الكون، وسـيتأكد بنفسـه ممـا انتهى إليه الأثبات من العلماء في هذا المقام، كل في مجال تخصصـه، وأحيله إلى كتاب واحد له مقامه وقدره في هذا الموضوع هو كتاب "الله يـتجلى فـي عصـر العلـم" وهو ترجمة لمجموعة من البحوث العلمية الجادة شهد أصـحابها مـن خـلال بحوثهـم. للحق تبارك وتعالى بالوحدانية المطلقة. والحكمة الـبالغة، والقـدرة التامة، واللطف الحاني على الكون كله، لصالح الإنسان الذي هو خلـيفة الله فـي أرضـه، عساه أن يكفكف من طموحه الكاذب ولا يتطاول على مقام الألوهية.

إن الآيات التي سقناها، تنبه وعي الإنسان إلى ما حوله – كما ذكرنا قبلا – ثم نختم الحديث، بهذا التحدي القوي، الذي يظهر أن القوم لا علم لهم، وهم في نفس الوقت غير صادقين " **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** " لنستنتج – نحن الدارسين – أن العبرة ليست بالدعاوى الفضفاضة العارية عن أدلتها، ولا بالكلام الكاذب ولو كان وراءه من يسانده، وإنما العبرة بالدليل الواضح على الدعاوى، الذي يبين صدقها من كذبها، إذا لو كان الأمر أمر كلام مرسل، لما كان للحق مستقر، ولعاش الناس جميعاً في ظل نسبية مقيتة، تجاوزها العقل بكثير، تلك التي تقرر أن الحقيقة نسبية، لأنها ترجع في تقريرها إلى تصورات البشر وتخيلاتهم، والعجيب أن القول بالنسبية في الحق والمعرفة، لا يصدر إلا من ذوي النفوس المريضة، والعقول المغلقة، وما أمر السوفسطائية اليونانية ببعيد على كل دارسى الحق، وما أمر دعاة الحق النسبي ببعيد على كل ذي لب وبصر. لا في أيام الأنبياء وحدهم، بل في كل زمان وفي كل مكان، ومن هنا يظهر أن قضية الصراع بين الحق والباطل، والصدق والكذب قضية موجودة دائماً، ليميز الله الخبيث من الطيب، كمظهر من مظاهر الحرية الإنسانية، وليشد عزائم أهل الحق، ويعطيهم الأمل الكافي، حين يصارعون أهل الباطل، في طمأنينة ظاهرة، عندما يبين أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، تجتث من فوق الأرض وما لها من قرار، وأن الحق يقذف الله به على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

ثالثاً : أدلة المتكلمين والفلاسفة على وجود الله ووحدانيته.

فــي هــذا البحث سنحاول الحديث عن الموضوع في شكل اتجاهات عامة لدى المتكلميــن والفلاسفة، دون الدخول في تفاصيل لا تحتملها طبيعة هذا الكتاب، ونبدأ بالإشــارة إلــى أن ســلف الأمة من محدثين وفقهاء إلخ يرون أن الإيمان بالله أمر فطري – كما سبق أن أشرنا – ومن ثم فلا مجال لإجهاد العقول في تنظيم الأدلة على ذلــك، بــل الأولى أن يذكر الإنسان بما بين يديه. مما يمكن معه أن يعود إلى فطرته الأصــلية، وهــذه هي الطريقة القرآنية في وضعها العام. وأما تكلف الأدلة فقد أوقع أصــحابه من المتكلمين التقليديين والفلاسفة في إلزامات لا قبل لهم بردها، على حد قول الإمام "ابن تيمية" حين كان ينقد مسالك المتكلمين والفلاسفة في قضية الإلهيات وممــا يفيد في هذا ما نقله الخوارزمي في كتابه " مفيد العلوم ومبيد الهموم" منسوبا إلــى أبى حنيفة رضي الله عنه حين سئل عن الدليل على الصانع قال: " أعجب دليل هــو : النطفة التي في الرحم، والجنين في البطن، يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الــرحم، وظلمــة المشيمة، ثم إن كان كما زعم أفلاطون الزنديق أن في الرحم قالباً منطــبعاً ينطبع الجنين فيه، فلزم أن يكون الولد إما مئناثاً أو مذكاراً، لأن الحقيقة لا تختلف، فلما رأينا المرأة تلد مرة ذكرا ومرة أنثى ومرة توأمين وطوراً ثلاثة، وتريد أن تلد فلا تلد. وتريد الذكر فتكون أنثى، وتريد أنثى فيكون ذكراً، على خلاف اختيار الأبوين، فعرفنا قطعا، أنه قدرة قادر عالم حكيم، وأن الفلاسفة ينادون من مكان بعيد، لقد هلكوا وبالله كفروا ووقعوا في الهوى، فتباً لمن يدعي الفهم وهو أعمى"[1].

---

[1] ص ١٢ نقلا عن : د / يحيى هاشم – مداخل إلى العقيدة الإسلامية ص ١٤٠ ط. مصر سنة ١٩٨٥ .

وبمـــثل هـــذا الكـــلام أجـــاب الإمام "الشافعي" من سأله عن أدلة إثبات الحق ســبحانه وتعـــالى، قـــال: "استقبلني سبعة عشر زنديقا في طريق فقالوا: ما الدليل علـــى الصانع؟ فقلت لهم : إن ذكرت دليلا شافيا هل تؤمنون؟ قالوا نعم. قلت : ترى ورق الفرصــــاد طـــبعها ولونها سواء وريحها، فيأكلها دود القز، فيخرج من جوفها الابريســـم، ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها الـــبعر، فالطبع واحد، إن كان موجبا عندك، فيجب أن يوجب شيئاً واحداً لأن الحقيقة الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحدا . ولا توجب متضادات متنافرات. ومن جوز هذا كان عن المعقول خارجاً. وفي التيه والجاً، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها، فعرفت أنه فعـــل صـــانع عليم قادر، يحول عليها الأحوال. ويغير التارات، قال: فبهتوا، ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب العجاب، فآمنوا وحسن إيمانهم"[1] .

وشـــيخ الإســـلام "ابـــن تيمـــية" يلخـــص مـــنهج الســـلف عمومـــا فـــي أن طريقـــتهم التي كانوا يسيرون عليها حين يتناولون المسائل التي تتعلق بالألوهية وغـــيرها، هـــي طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك بالتذكير بآيات الله، بعد ذكـــرها وعرضها، ولم يستعملوا في ذلك القياس الشمولى، الذي تتساوى أفراده، بل كـــانوا يستعملون قياس الأولى. كما أنهم من طرف آخر لا يستعملون قياس التمثيل، لأن الحق سبحانه لا مثيل له في كل شيء، في القضية التي معنا – قضية وجود الله ســـبحانه – يقولـــون: إذا كان الوجود صفة إيجابية للموجود الممكن، وهو أولى من العدم؛ فمن باب أولى أن يكون صفة لله تعالى، لأن العدم سلب، وإذا ثبت هذا في حق الموجـــود العـــادى، فمـــن باب أولى أن يكون في حق واجب الوجـــود. وينتهي ابن تيمـــية هنا إلى الفرق الواضح بين المصطلح القرآني "الآية" التي تكـــررت كثيراً في القـــرآن كعلامة على وجود الله تعالى. وبين القياس الذي يستخدمه المتكلمون، ذلك

---

[1] نفس المصدر – نفس الصفحة .

لأن الآية بمعناها الدقيق، هي العلامة. والدليل الذي يستلزم عين المدلول وحده، ولا يكـون المدلـول أمراً كليا مشتركا بين المطلوب، بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلـول. كما أن الشمس آية النهار فنفس العلم بطلوع الشمس، يوجب العلم بوجود النهار.[1]

ويظهـر مـن خلال العرض السابق، أن المنهج السلفي بسيط، في تناول أمور العقـيدة، وبخاصة في القضية التي معنا، وهذا أمر طبيعي جداً، لأن السلف رضوان الله عليهم أجمعين، لم ينجرفوا إلى تيار الكلام بمعناه التقليدي، لذا كان منهجهم أسلم المـناهج، وأمـا المعـتزلة والأشاعرة، وهما أظهر الفرق – فقد كانوا أكثر تنظيرا لحقـائق الأمـور الاعتقادية، في مجال علم الكلام السني، لذا سنتناول طريقتهم في إثبات وجود الله و الاستدلال على وحدانيته بشيء من التفصيل.

أدلة المعتزلة على وجود وجد الله ووحدانيته :

يذهـب جمهـور المعـتزلة إلى أن وجود الله تعالى من قبيل الضرورة، التي تسـاوق الفطرة، ولا تتأتى بالنظر في الجواهر والأعراض، وأن الذين فعلوا ذلك قد تكلفـوا، وأصابوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه العوام[2]. وأما "النظام" منهم فقد استدل على وجود الله تعالى بحدوث العالم. ويستدل على حدوثه بإجتماع الأضداد في الموضـع الواحـد. يقـول في ذلك: "وجدت الحر مضادا للبرد. ووجدت الضدين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات أنفسهما، فعلمت بوجودي لهما مجتمعين أن لهما جامعـا جمعهمـا وقاهراً قهرهما، على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر والمنع الضـعيف، وضعفه ونفوذه تدبير قاهر فيه. وهذا دليل على حدوثه، وعلى أن محدثا

---

(1) انظر : الرد على المنطقيين جـ ١ ص ١٨٥ بتحقيقنا ط القاهرة سنة ١٩٧٦ .
(2) انظر : القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص٨٥ ط. القاهرة سنة ١٩٦٥ .

أحدثــه، وقاهــراً قهــره ومخترعا اخترعه، لا يشبهه، لأن حكم ما أشبهه حكمه في دلالته على الحدث. فأما جمع من سوى الله بين النار والماء والتراب والهواء، فذلك دلـــيل أيضـــا علـــى حدوثهما. غير أن محدثهما ليس هو الإنسان الذي جمعهما، لأن الإنســـان يجـــري عليه من القهر ما يجري عليهما، فمخترع هذه الأشياء، ومخترع الإنسان المشبه لها. هو الله الذي لا يشبهه شيء[1].

وهــذا الذي ذكره "الخياط" منسوبا إلى "النظام" يفصله القاضي عبد الجبار في شـــرح الأصـــول الخمسة، حيث يرى أن الاستدلال على وجود الله تعالى يرتكز على الدعاوى الآتية:

أولاً : أن في الأجسام معاني هي : الاجتماع والافتراق والحركة والسكون.

ثانياً : أن هذه المعاني محدثة .

ثالثاً : أن الجسم لا ينفك عنها .

رابعاً : أن ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث.

وهـــذه الدعـــاوى مجتمعة تنتهي إلى إثبات أن كل حادث لابد له من محدث، ولـــا كانـــت هذه الدعوى ليست ضرورية، بل نظرية تحتاج إلى دليل، فقد استعملوا قياس الغائب على الشاهد، وأن المبرر لصحة إنتاج القياس هو العلة الجامعة، وهي هنا "الحدوث"[2].

وأمـــا الوحدانـــية لديهم فتعني: "أن الله واحد لا شريك له، ليس كمثله شيء، وهـــو الســـميع البصير، لا بجسم ولا شبح، ولا جثة ولا صورة. ولا لحم ولا دم ولا

---

[1] الخياط : الانتصار ص ٤٠ ط بيروت سنة ١٩٥٧ و٢٤ شرح الأصول الخمسة ص٨٨ .
[2] نفس المصدر ، والنظر والمعارف ٢٣٠ .

شخص، ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن"[1].

ولا شـــك فـــي أن هذا الموقف المغرق في التنزيه، إنما كان رد فعل قوي ضد تـــيار التشبيه والتجسيم، الذي شاع في نطاق الفكر الإسلامي، منذ تولى كبره "مقاتل بـــن سليمان"[2]. وقد شجعهم على ذلك، ما تعلموه من الفلسفة وبخاصة "الأفلاطونية المحدثـــة" التـــي انتشـــرت فـــي العـــالم الإســـلامي، مع ظهور المعتزلة، وقد ذكر "الشهرستاني" أن طلائعهم كانوا من المحصلين لعلوم الفلسفة[3].

ودلـــيل المعتزلة على "الوحدانية" مأخوذ من ظاهر القرآن الكريم – كما أشرنا مـــن قـــبل – وهـــو أن "النظام" الكوني يدل على وحدة الصانع، إذن لا مجال للقول بالـــتعدد، وهم هنا لا يخرجون عن الاتجاه العام للفرق الكلامية، وإن كانوا قد تناولوا مفهوم "الوحدانية" بشيء من التفصيل.

أدلة الأشعرية على وجود الله تعالى ووحدانيته :

الأشعرية أقرب في استدلالهم إلى البساطة، وعدم الإسراف في التعمق، بخلاف المعـــتزلة، وبخاصة لدى الأشعري، رئيس الفرقة، وقد يكون هذا راجعا إلى انخلاعه مـــن الاعـــتزال، ورجوعـــه إلى مذهب أهل السنة والجماعة، لذا نرى أن دليله الذي ســـاقه هـــنا، لا يخـــرج فـــي روحه العامة على ما ذكره من قبل، كل من أبي حنيفة والشافعي، حين قررا أن التغيرات التي تحدث في الكون، يستحيل أن تكون لذاتها، بل إنهـــا تخضع لقوة مؤثرة فيها، وهي: الله رب العالمين. يقول"الأشعري" في ذلك: "من

[1] الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ٢١٦ .
[2] انظر تعليقنا على كتاب السنوسية الكبرى ص٧١ .
[3] الملل والنحل جـ١ ص ١٤٥ .

قصـد إلـى برية لم يجد فيها قصراً مبنياً، فانتظر أن يتحول الطين من حاله الآجر، وينتضـد بعضه على بعض، بغير صانع ولا بان، كان جاهلا. وإذا كان تحول النطفة علقـة ثـم مضغة ثم لحما ودما وعظاما أعظم في الأعجوبة. كان أولى أن يدل على صانع النطفة، ونقلها من حال إلى حال"[1].

وكـلام "البـاقلانى" هنا – وهو فيلسوف المذهب – لا يخرج عن المعنى الذي سـاقه أسـتاذه " الأشعرى" وهو الاستدلال بحدوث العالم على "وجود الله" إلا أنه في بعـض صـور هذا الاستدلال يرينا نوعا من التعمق العقلي، الذي يتجاوز مجرد سرد المسالة بطريقة سهلة، فهو يقول في ذلك: "علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض، وتأخـر بعضها عن بعض، مع علمنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدما لنفسه "لذاته" لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه. وكذلك المتأخر منها، لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم منها أولى منه بالتأخر، وفـي علمـنا بأن المتقدم من المتماثلات أولى بالتقدم منه بالتأخر. دليل على أن له مقدما قدمه، وعاجلا عجله في الوجود، مقصوراً على مشيئته"[2].

ويسير إمام الحرمين "الجوينى" في نفس الاتجاه، ولكن بشيء من العمق، حيث يقسـم العـالم – وهـو كل ما سوى الله – قسمين: جواهر وأعراضا، فالجوهر ماله "حـيز" والعـرض ما ليس كذلك، وهو ما يحتاج إلى محل يقوم به، ولا يصح بقاؤه زمانين، ويأخذ في استدلاله بعض المستحيلات، مثل: استحالة قيام العرض بنفسه أو بعـرض آخـر غيره، واستحالة انتقال العرض، واستحالة عدم القديم، وإبطال القول بـالكمون والظهور، واستحالة خلو الجواهر وتعريها عن الأعراض وإبطال حوادث لا أول لهـا، لأن القـول بوجود حوادث لا نهاية لها من جهة الأزل قول بنفيها جملة،

---

(1) اللمع : ص ١٤٠ ط : القاهرة سنة ١٩٥٣ تحقيق د / حمودة غرابة .
(2) الإنصاف : ص ٣١ ط : القاهرة سنة ١٩٦٣ .

لأنها لو ثبتت لكان وجود كل واحد منها مشروطا بمحال، وهو انقضاء ما لا نهاية له منها شيئاً قبل شئ، وكل ما يتعلق ثبوته بمحال، كان محالا كذلك. وذلك كقول القائل لمن يخاطبه: "لا أعطيك درهما إلا وأعطيتك قبله دينارا. ولا أعطيك دينارا إلا وأعطيتك قبله درهما" – الدور المنطقي – ولما كانت هذه المحالات ممتنعة، فقد ثبت أن العالم حادث، وينتهي إلى أن الحدوث في ذاته، كالعدم في ذاته وإذن فالجائز في ذاته – وهو الحادث – كالمعدوم في ذاته فلابد له من مخصص رجح وجوده على عدمه. وهذا المخصص هو الفاعل المختار لا الطبيعة ولا العلة كما يدعي ذلك: الطبيعيون، وأصحاب نظرية العقول من الفلاسفة[1].

وهذا الدليل – دليل حدوث العالم علي وجود الله – لا يسلم للأشعرية إلا إذا تم لهم الدليل علي بطلان وجود حوادث متعاقبة لا نهاية لها ، لأن للقائلين بقدم العالم أن يقولوا : سلمنا بأن الجوهر ملازم للعرض ، ولكن ليس عرضا بذاته يبقي، ولكنه عرض ما يتعاقب علي الجوهر واحداً بعد الآخر، إلى ما لا نهاية، فإذا نسب الجوهر إلى أي عرض من هذه الأعراض المتعاقبة يكون سابقا عليه لا محالة، وإن كان بحسب الكل، لا يخلو من عرض ما، فيكون الجوهر قديما بذاته، والأعراض قديمة بنوعها، حادثة بشخصها، وهذا لا استحالة في القول به.

إن هذا الإشكال الذي نراه، قد ألجأ متأخري "الأشعرية "إلى محاولات جادة لرفعه، حيث قرروا أن تعاقب الأعراض الشخصية على الجوهر، إلى غير نهاية، أمر باطل، وقدموا على ذلك أدلة متعددة، لعل أظهرها : برهان التطبيق، وفحوى هذا البرهان، أننا لو سلمنا بصحة حوادث لا نهاية لها من جهة الماضي، لتساوت سرعة السلحفاة – مثلا – مع سرعة الطائرة، في أن كليهما لن يصل إلى النهاية،على

---

[1] انظر : الجويني: الشامل ص ١٦٧ وما بعدها ط منشأة المعارف بالاسكندرية سنة ١٩٦٩ تحقيق د/ علي سامي النشار .

اعتـــبار أن المسافة لا نهاية لها كذلك، وإذا كان الواقع والعيان يردان ذلك، فقد بطل لا نهائية المكان، وكذلك الزمان، ومن ثم يثبت حدوث العالم[1].

أدلة الوحدانية عند الأشاعرة .

يســـير الأشـــاعرة في نفس الطريق الذي سار فيه المعتزلة قبلهم، وهو إثبات الوحدانـــية بنفـــي الشريك، لما يترتب على وجوده من المحالات، وأدلة الفرقتين في سياقها العام، تتكئ على الآية الكريمة " **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** " ولكن مع التفصيل والتفريع، الذي يقتضيه المنهج الكلامي. يقول صاحب "السنوسية" في ذلك : " اعلم أن الكلام في هذا الفصل مرتب على ثلاثة مطالب " :

الأول :

إقامة البرهان على وحدة الذات، بمعنى: نفي تركيبها، وعدم انقسامها.

الثاني :

نفـــي نظـــير له تعالى أو قسيم في الألوهية. وفي معناه : انفراده تعالى بإيجاد جمـــيع الممكـــنات ذواتا كانت أو أفعالا . وعدم اسناد التأثير لغيره في شئ من الممكنات .

الثالث :

وحدتـــه تعالى، بمعنى : مخالفته لجميع الحوادث، فلا مثل له منها، كما أنه لا ضـــد له فيها[2] والمطلبان : الأول والثالث ، يجمعهما معا قوله تعالى :

﴿ **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى : ١١) .

---

(١) انظر : د/ حموه غرابه . الأشعري ص ١٤٢ .
(٢) عقيدة أهل التوحيد ص ٧٣ بتحقيقنا .

والمطلب الثالث :

قـد أولـوه عنايتهم إلى درجة ترينا الفرق الواضح بين منهج القرآن الكريم، ومـنهج المتكلمين، فقد أثبت الوحدانية بطريقة نفي النقيض – كما سبق – ودليلهم يصـوره "السنوسي" كالآتي : "الدليل على نفي الشريك له تعالى في ألوهيته، أنه لو كـان معـه إلـه آخر، لم يخل إما أن يختلفا في الإرادة على حكم التضاد، أو يتفقا، والتالي بقسميه محال. فالمقدم مثله"[1].

فأمـا الملازمـة بين المقدم والتالي في هذا الدليل، فبيانها : أن صفات البارى سبحانه وتعالى من إرادة وقدرة تتعلق بكل الممكنات، الأولى على سبيل التخصيص، والثانية على سبيل التأثير، بالإيجاد والإعدام، فلو سلمنا جدلا أن ثمة إلهين، لوجب تعلق إرادة كل منهما وقدرته بكل الممكنات، ولو تعلق بالفعل إرادتان، لم يخل الأمر مـن الاتفاق بينهما على الفعل أو الاختلاف عليه . وكلاهما باطل؛ فأما وجه بطلان الاختلاف، فيمكن أن يقال : لو اختلفا في الفعل بأن يريد أحدهما وجوده ويريد الآخر عدمه، للزم عجزهما معا أو عجز أحدهما؛ لأن نفوذ إرادتهما معا مستحيل، لما يلزم عليه من اجتماع النقيضين، وإذن فلابد من تعطيل عمل إحدى الإرادتين. أو كليهما، فإن تعطلتا معاً لزم عجز الإلهين، بتعذر الفعل من كل منهما. ويلزم في نفس الوقت خلو المحل عن النقيضين، وارتفاعهما معا مستحيل – كذلك– كاجتماعهما. وأما إن كانت إرادة أحدهما هي المتعلقة، بالفعل، فذلك مستحيل أيضاً، لأن الإله الذي تعلقت إرادته بالفعل، ولم تتعلق به إرادة الآخر، يكون عاجزاً مثله، لأن ما يجوز على أحد المتماثلين يجوز على الآخر. وهناك مستحيل آخر، هو : الترجيح بلا مرجح . يعني: لمـاذا تعلقـت إرادة أحدهما بالفعل دون الآخر. والمفروض أنهما سواء أمام جميع الممكنات. والترجيح بلا مرجح مستحيل .

---

[1] نفس المصدر .

وأمـــا بطـــلان التعدد مع الاتفاق، فذلك أمر سهل، لأن الاتفاق يعني : أن إرادة وقـــدرة أحدهما هي نفس إرادة وقدرة الآخر، وإذا كان الأمر هكذا فلم التعدد حينئذ؟ وهـــذه هي النتيجة من أقرب سبيل، غير أن بعض المتكلمين، قد تعمق في المسألة، حيـــث يرى أن الاتفاق بين الإلهين إما أن يكون واجبا أو ممكنا، فإن كان واجبا لزم مـــنه أن يكون كل منهما مقهورا؛ لأن الوجوب يعني : اللزوم، وعدم الانفكاك، حيث لا يستطيع أحد الإلهين مخالفة الآخر، وإذا كان من أخص خصائص الإله "الحق" أن يكـــون مطلق المشيئة والاختيار ، فإن التعدد الذي افترضنا معه الاتفاق على الفعل، هو الذي أدى إلى ذلك المحال[1].

وعلـــى كـــل حال : فقد انتهى الأمر هنا إلى تلك النتيجة الحاسمة، التي أشار إلـــيها القرآن الكريم، في إثبات الوحدانية بإبطال نقيضها – كما ذكرنا آنفا – ويبقى الفـــرق واضـــحا بيـــن منهج القرآن الكريم. في الوصول إلى المطلوب في سهولة ويســـر، لا يـــرهق العقـــل ، ولا تمـــل منه النفس، وبين منهج المتكلمين ومن في حكمهم. الذي يكثر من الاحتمالات والافتراضات، والتوليدات، ومع هذا كله، يمكن أن يظهر فيه خلل واضح في بعض المواقف، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، في نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات[2].

أدلة الفلاسفة الإسلاميين على وجود الله ووحدانيته:

إذا كان المتكلمون عموما قد اعتمدوا في استدلالهم على وجود الله تعالى على حدوث العالم – بناء على التغيرات التي تحصل لأجزائه – وأن كل حادث لابد له من محـــدث، فـــإن الفلاسفة الإسلاميين ، قد انطلقوا في الاستدلال على وجود الله تعالى

(١) نفس المصدر .
(٢) انظر : د / محمد خليل هراس . ابن تيمية السلفي ص ٨٥ ، وانظر أيضا : درء تعارض العقل والنقل جـ ٥ ص ١٢٥ ، وأيضا : د / يحيى هاشم، مداخل إلى العقيدة الإسلامية ص ١٤٢ .

من النظر في طبيعة الوجود ذاته، أي أنهم لم يعتمدوا على الحدوث والتغير، بل كان اتجـــاههم عقليا بحتا، ويعد ابن سينا أشهر الفلاسفة الإسلاميين في هذا السبيل.[1] لقـــد قرر أن النظر في طبيعة الوجود سيؤدي إلى نتيجة عقلية لا تقبل النقض، ولا يمكن أن توجه إليها الاعتراضات، لأنها من طبيعة العقل ذاته، وقد مهد لدليله الذي ساقه هنا. بمقدمة أبطل فيها "الدور والتسلسل"، حتى يسلم له دليله. يقول في ذلك : "إنـــه لا يمكـــن أن يكـــون فـــي زمـــان واحـــد لكل ممكن الذات علل ممكنة الذات وبـــلا نهايـــة"[2]، إنه يقرر أنه لا شك أن هنا وجوداً، ولا يمكن أن يكون كله واجباً، لأن كـــل الموجودات سوى الواجب، ليس وجودها من ذاتها، كما يستحيل أن تكون جميع الموجودات ممكنة، لأن الإمكان استعداد محض ويستحيل أن يؤثر في الممكن ممكن مثله، لما يترتب على ذلك من الدور أو التسلسل. وإذن فلا مناص من الاقرار بإثبات واجب الوجود، يقول في ذلك : "تأمل كيف لم يحتج لثبوت الواجب ووحدانيته وبـــراءته من السمات، إلى تأمل لغير نفس الوجود، ولم يحتج إلى اعتبار من خلقه وفعلـــه، وإن كان ذلك دليلا عليه، ولكن هذا الباب أوفق وأشرف، أى اعتبارنا حال الوجـــود، فيشهد به الوجود من حيث هو وجود، وهو – أى واجب الوجود – يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود"[3].

وفـــي إلحاح "ابن سينا" على إيثار الطريق التجريدي في الاستدلال، نراه يقرر أن طريقة المتكلمين طريقة صحيحة في ذاتها، ولكنها دون الطريق التي سلكها، أو علـــى الأقـــل فـــي نظـــره هـــو ورأى أنهـــا طـــريقة الصديقين، الذين يستشهدون

---

(1) لذا سنكتفي بذكر دليله على القضية التي معنا ، على اعتبار أنه يمثلهم جميعا .
(2) ابن سينا : النجاة ص ٢٣٥ . وانظر أيضا : كتابنا – في الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات ج١ ص١٤٣ ط. القاهرة سنة ١٩٨٢ .
(3) الإشارات جـ ١ ص ٢١٤ .

بواجب الوجودالوجود على سائر أنحاء الموجودات، مشيراً بذلك إلى قوله تعالى :
﴿ **أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد** ﴾ (سورة فصلت : من الآية ٥٣).

ولــم يكــن دلــيل الوجود هو وحده الذي قدمه "ابن سينا" في هذا المقام، بل أضاف إليه دليلاً آخر ، هو : دليل الغائية في الطبيعة وهو دليل تنكسر على صخرته كــل الاقــوال الهشــة التي يتنادى بها القائلون بالمصادفة والعشوائية أو "الدهرية" عمومــا : يقــول فــي ذلك : "إن في الطبيعة غائية. وإن كل موجود له غاية. وكل مــتحرك فهو إنما يتحرك إلى غايته، فإذا كانت العلل الغائية موجودة. فإن هذه العلل يجــب أن تكــون متناهية؛ وذلك لأن العلة الغائية هي التي تكون سائر الأشياء من أجلهــا. ولا تكــون هــي من أجل شئ آخر؛ فإن كان وراء العلة الغائية علة غائية أخــرى، فيجب رفع الأولى لأجل الثانية ... ومن جوز أن تكون العلل الغائية تستمر واحدة بعد واحدة – أي إلى غير نهاية – فقد رفع العلل الغائية نفسها وأبطل طبيعة الخير والكمال، إذن الخير هو الذي يطلب لذاته لا لغيره، فليس يصح إذن أن تتسلل الغايات تسلسلا لا نهاية له، وإنما ينبغي أن يكون هناك غاية لا غاية بعدها"[1].

وفكرة النظر في طبيعة الوجود كمنطلق للاستدلال، قال بها " الفارابي" من قبل، وفكــرة الغائــية – أيضــاً – فكرة أرسطية، غير أن ابن سينا يملك من القدرة على التصــوير والتوضيح، وإلباس القضية لبوسا دينيا قدرا لا بأس به، حتى ليمكن أن يقال بعد ذلك : إنه لم يكن حاكيا، ولا مقلدا بل كان ذا نظرة تجديدية، إن لم تكن في أصل الفكرة فعلى الأقل في حسن عرضها، وتشويق القارئ إليها .

---

[1] نفس المصدر ونفس الصفحة .

وأمـــا مـــا ساقه على الوحدانية من دليل، فقد صوره كالآتي : "واجب الوجود واحد من كل وجه. ودليل ذلك وسببه أن الشيء لا يوجد إلا إذا تعين وجوده، وتعينه إما أن يكون بذاته أو بغيره، فإن كان بذاته، فلا يكون إلا واحدا؛ لأن الماهية إذا كان تعينها بذاتها، انحصر نوعها في فرد واحد، ولا يتصور اختلاف الأفراد إلا باختلاف التعيـــنات وتعددهـــا، وإن كـــان بغيره فلا يصح، لأن المفروض أنه واجب الوجود بذاته.[1]

وليس لنا من تعليق على ما ساقه ابن سينا هنا على وجود الله تعالى من أدلة. سوى القول بأن الرجل قد فلسف طريقة استدلاله، ذلكم لأن دليل الوجود. الذي جعل مـــنه ســـلما للقول بواجب الوجود، يمكن أن يؤول إلى القول بحدوث العالم ، كدليل علـــى وجـــود الله . وهـــو نفس قول جمهور المتكلمين، بل هو نفس فحوى الدليل القرآني ، لأن الممكن الذهني، هو الواقع الخارجي المحدث، ويبقى الفرق في طريقة صـــياغة الأدلـــة، لا فـــي فحواها، لأن العقل – في ذاته – واحد، وربما تكون ثقافة المســـتدل التـــي شكلت وجدانه، هي العامل الأساسي في الفرق بينه وبين غيره في طـــرق الاســـتدلال ، غير أن القرآن الكريم في هذا السبيل يبقى وحده في مرتبة لا تدانيها مرتبة العقول البشرية، في منهجه الاستدلالي على قضايا العقيدة وما سواها، وقد أولينا هذا الموضوع حقه عندما تحدثنا عن خصائص المنهج القرآني في مكان سابق، من هذا الكتاب.

[1] ابن سينا : الشارات ج ١ ص ٢٠٩ والنجاة ص ٢٢٩ .

رابعاً : توحيد الربوبية وتوحيد العبودية .

يذكر شارح الطحاوية أن التوحيد معنى يتضمن ثلاثة أنواع .

الأول : توحيد الصفات .

الثاني : توحيد الربوبية، وبيان أن الله تعالى وحده، هو الخالق لكل الموجودات

الثالث : توحيد الألوهية، ويعنى : استحقاقه سبحانه وتعالى للعبادة وحده لا شريك له، وقد ذكر العلماء من السلف أن لكل معنى من هذه المعاني الثلاثة سببا أداهم إلى هـذا التفصيل. الذي لم ير عند غيرهم. ذلكم لأن التوحيد قد اختلفت فيه التصورات والأفهام، وقد بعدت به بعضها عن المراد به في القرآن الكريم، فمثلا : رأينا فلاسفة الإسلام يفسرونه بمعنى : البساطة وعدم التركيب وقد تأثر بهم بعض المتكلمين. وآخرون – وهم الصوفية – يفسرونه بالفناء عن السوى وفريق ثالث يفسره بنفي الصفات عن الذات، حتى لا يقال بتعدد القدماء وهكذا.

ومما لا شك فيه أن كثيرا من الفرق قد جانبها التوفيق في التصور الحقيقي لقضية التوحيد، وبخاصة. نفاة الصفات، ولا يمكن أن يسلم لهم ادعاؤهم أنهم كانوا يقصدون التنزيه الإلهي، لأن هذا المعنى أيضا له ضوابطه الشرعية والعقلية، وأقرب ما يمكن أن يقال هنا – وبخاصة مع النصوص التي يوهم ظاهرها التشبيه والتمثيل – ماذا يترتب على القول بالإثبات مع نفي المماثلة، من محظور؟ إن القرآن الكريم، قد قرر في آية واحدة هذه القضية ببساطة ووضوح، لا يرهق معه العقل وهي قوله تعالى : " **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** " لأن الآية عند تدقيق النظر فيها، تنفي وتثبت في نفس الوقت. غير أن جهة النفي غير جهة الإثبات، فهي تنفي المماثلة والمشاركة، وكل ما يؤدى إلى ذلك. بين الحق سبحانه وتعالى وبين مخلوقاته. وتثبت له صفتي السمع والبصر، ليدرك العقل منها، أن هاتين الصفتين وغيرهما من الصفات التي جاءت بها النصوص الشرعية، حتى ما

كان منها موهما للمشاكلة بين الله وبين خلقه، ينبغي أن ينظر إليه في ضوء المعنى الحقيقـــي لـــتلك الآية. إنها تنفي عن الله تعالى المماثلة في كل شئ، في الذات، في الصفات، في الأفعال، والآن ننظر في المعاني التي نقلناها سلفا عن شارح الطحاوية للتوحيد.

ما معنى توحيد الصفات ؟

لقـــد قررت "الجهمية" وغيرها من الفرق التي سارت معها في هذا الاتجاه، أن التوحيد لا يسلم إلا بنفي الصفات عن الحق سبحانه وتعالى، لأن إثباتها يستلزم تعدد الواجب . وهذا القول ظاهر البطلان. من عدة وجوه.

أولها : أن القـــول بوجـــود ذات مجـــردة عـــن الصـــفات، قـــول بوجودها فـــي الذهن لا في الخارج، ومن المعلوم أن الذهن قد يفرض المحال ويتخيله. وهذا القول غاية في التعطيل.

ثانيها : أن الصـــفات الإلهية عند التصور الحقيقي. هي صفات كمال وجمال وجلال، وخلو الذات عنها يقتضي تعري الذات عن هذه المعاني.

ثالثها : أن القـــول بذات واحدة. لها كثير من الصفات، لا يخدش التوحيد في شـــئ، بـــل هـــو عيـــن التوحيد الحقيقي.[1] لأن المعنى الحقيقي لهذا المصـــطلح "التوحيد" لا يتم إلا بتلك النظرة الشمولية، التي تجعل من الذات وصفاتها شيئا واحدا، ثم إن الشرك الذي حاربه القرآن الكريم، حيـــن ذكر ما حدث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم. إنما قوبـــل بتلك المعارضة، لأنه كان يقول بشركاء في الذوات، أي بتعدد الآلهـــة من أصنام وأوثان الخ، ولم يقل العقل الصريح إن صفات الله تعـــالى تشـــاركه وتنازعه كشأن الشركاء المتشاكسين، بل هي عين ماهيته، وكمال وجوده كما أشرنا منذ قليل.

---

[1] انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦ .

وإذا كــان قصــور العقــل لدى قوم في فهم قضية "التوحيد" على الوجه الذي شـــرحنا،فإن هذا لا يكون حجة على غيرهم، بل لا يكون حجة في ذاته، ويظهر هنا أنه قول لا وزن له ولا اعتبار، وأن القائلين به ساقطون عن درجة الخطاب.

ماذا يعني توحيد الربوبية؟ :[1]

ويقصـــد بهذا المعنى للتوحيد؛ أن الحق سبحانه وتعالى، هو وحده الخالق لكل مــا فــي الكون من صنوف الموجودات وأفرادها. لا يشاركه في ذلك غيره، إذ ليس للعــالم أكــثر مــن إلــه حكيم، فاطر السموات والأرض وإنما ينفرد بذلك "**الله رب العالمين**" وأن مــا سواه من الآلهة والطواغيت، فإنما هي آلهة مزعومة. وقد قرر التوحيد على هذا المعنى، كثير من أهل النظر والكلام. ولم يذهب إلى نقيضه أحد من العقلاء، كما أن هذا النوع من التوحيد من قبيل ما تقره الفطر السليمة، ويشير إليه قولـه تعالى :﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم مـن ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين**﴾ (إبراهيم : ١٠).

وجحـــود التوحيد بهذا المعنى، يعني: التعطيل وخلو العالم عن أن يكون له إله حقيقــي. إنــه جحود الدهريين ومن في حكمهم، لأن هؤلاء إن طولبوا بالدليل على صـحة مـــا يذهبون إليه فلن يجيبوا إلا بما لا يقبله عقل، ولا يقول به علم، وتصير دعواهــم عارية عن الدليل، ويحدثنا القرآن الكريم عن حجاج "موسى" عليه السلام "فرعون" حين عارضه في دعوته إلى الإيمان بالحق. يقول الله تعالى:﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر**

---

[1] نفس المصدر ص ٧٩ .

وإنـي لأظنـك يـا فـرعون مثبورا. فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ (الإسـراء : ١٠١ – ١٠٤) ونـرى الموقـف نفسـه في سورة "الشـعراء" ولكـن بشـيء مـن تعجيز الخصم ويعني هذا المصطلح أن كل الأسئلة الممكـنة. التـي قـد تكـون اعتراضا على الدعوى. يقولها "المعترض" ليرد عليها "المستدل"، فلما دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالله رب العالمين :

﴿ **قـال فـرعون ومـا رب العـالمين. قـال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الـذي أرسـل إلـيكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون. قـال لـئن اتخـذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين. قال أولو جئتك بشيء مبين. قـال فـأت بـه إن كنـت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾ (الشعراء : ٢٣ – ٣٣).

والقصـــة في عمومها ترينا أن جحود فرعون للربوبية كان أمراً ظاهرياً، وأن الذين كانوا معه كانوا كذلك. ينكرون في الظاهر. ولكن نفوسهم كانت مستيقنة بكلمة التوحـيد. كما قال تعالى في حقهم : ﴿ **فـلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مـبين. وجحـدوا بهـا واسـتيقنتها أنفسـهم ظـلما وعلـوا فانظـر كـيف كـان عاقـبة المفسـدين** ﴾ (النمل : ١٣ – ١٤) ، كما بين في حق فرعون أنه عندما أدركه الغـرق وأوشك على الهلاك قال : **"آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل"** ولكـن أنـى يقـبل إيمانـه وهو في هذه الحال، غير أن هذا الموقف يدلنا على أن التوحيد أمر مركوز في النفس، وأن الجحود أمر ظاهري. يختفي عند ظهور أسباب اختفائه.

إن القــرآن الكريم يظهر لنا أن كثيرا من مشركي العرب كانوا يقولون بتوحيد الربوبــية. كما قال تعالى في حقهم: ﴿ **ولــئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قـل الحمـد لله بـل أكـثرهم لا يعـلمون** ﴾ (لقمــان : ٢٥)، وقوله: ﴿ **ولـئن سـألتهم مـن خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ (الزخـرف : ٩) ، وقوله : ﴿ **قـل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون** ﴾ (المؤمنون : ٨٤ - ٨٥) .

ويقــرر شارح الطحاوية أن المتكلمين قد أجهدوا أنفسهم في تقرير هذا النوع مــن التوحــيد. لاعتقادهم أن توحيد الربوبية هو ما دعت إليه الرسل وقرره القرآن الكــريم، والواقــع أن الأمر ليس كما يذهبون، لأن نفي الشركاء مع الحق سبحانه وتعالى، لا يستلزم اختصاصه بالقصد في العبادة والطلب في قضاء الحاجات، وإلا لو كــان الأمــر كذلك. لكان مشركو العرب موحدين بهذا المعنى. إن قولهم صحيح في ذاتــه، وهو مطلوب لأنه ضد الشرك وهو مرفوض، غير أن التوحيد بالمعنى الكامل لا يكون، إلا بتوحيد العبودية، وهو ما سنتكلم عنه الآن.

ماذا يعني توحيد العبودية؟ :

يعني هذا المصطلح باختصار : اختصاص الله سبحانه وتعالى وحده بالعبودية والقصد في الطلب. أي : لا يعبد سواه. ولا يقصد إلا إياه، وهذا النوع من "التوحيد" يستلزم توحيد الربوبية الذي تكلمنا عنه آنفا وبه يكتمل "التوحيد" بالمعنى الصحيح، وكــأن هذا النوع يعني توحد الإنسان المؤمن في اتجاهه نحو الحق سبحانه وتعالى، ذلكم لأن الاعتراف بخالقية الحق سبحانه وتعالى لكل عناصر الكون - كما جاء على لســان مشــركي العــرب في الآيات السابقة - ثم الخضوع لغيره بالعبادة والقصد،

يعنـــي: ازدواجـــية في الموقف. إذ كيف يتأدى مع الاعتراف بالخالقية لله تعالى أن يكون غيره هو المقصود والمعبود؟ .

- وقـد حكـــى القـــرآن الكـــريم عن أقوام كانت سلوكياتهم في العبادة والقصد مخالفة لعقيدتهم، قال تعالى : ﴿ **والذيـن اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفـى إن الله يحكم بيـنهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار** ﴾ (الزمر : ٣) وقال : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولـون هـؤلاء شـفعاؤنا عـند الله قـل أتنبـئون الله بمـا لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ (يونس : ١٨).

وتعقيـــب الحـــق سبحانه في هاتين الآيتين على تصوير عقيدة هؤلاء إنما يدل دلالـــة واضحة على كذبهم وكفرهم، فالآية الأولى تعقب على عقيدتهم بقوله "**إن الله لا يهـدي مـن هـو كـاذب كفار**" . والثانية تعقب على ذلك بقوله "**سبحانه وتعالى عما يشـركون**" وفـــي تطبيقاتنا لمثل هاتين الآيتين على واقعنا في جانبه الاعتقادي يمكن أن نـــرجع بنتـــيجة لا تسر؛ ذلكم لأن الشرك المضاد للتوحيد بهذا المعنى – "توحيد العـــبودية" – يســـري في ربوع أمتنا، وأصبح الولاء فيها ظاهرا لغير الحق سبحانه وتعالى، بل تعددت الولاءات، وحل توقير وتقديس الأشخاص والمبادئ الهشة. التي تعتـــنقها الأحـــزاب محل تقديس وتوقير "الحق سبحانه" وأصبح تعظيم جمهور أمتنا الســـاذج لحكامه وأمرائه مضرب المثل في النفاق وغدت ممارسات البسطاء والعوام طاعـــنة فـــي صميم هذا التوحيد، وما تعظيم القبور والأشخاص المقبورين إلا شاهد بذلـــك. وإنـــا لننادي من صميمنا: لا تصحيح لتلك المعتقدات، التي إن حكمنا عليها حكمـــا مخففا لقلنا : إنها تحدث نوعاً من التعكير على صفو العقيدة الصحيحة التي جاء بها كتاب الله تعالى، وبينتها السنة الصحيحة؟ توحيد الصفات وتوحيد الربوبية و العـــبودية معا. أقول : لا تصحيح لتلك المعتقدات إلا بالفهم الواعي للتوحيد، ونبذ كل تصور وسلوك سواه. والله من وراء القصد يقول الحق وهو يهدي السبيل .

الفصل الرابع

الصفات الإلهية

وأثرها في الفرد والمجتمع

ويشتمل على

أولاً : المنهج التقليدي في دراسة الصفات الإلهية :

ثانياً : المنهج الصحيح في دراسة الصفات الإلهية .

ثالثاً : الصفات الإلهية وتنوعها .

رابعاً : أثرها في الفرد والمجتمع .

أولاً المنهج التقليدي في دراسة الصفات الإلهية :

أخـــذت قضـــية الصـــفات الإلهـــية قدراً غير قليل من البحث لدى دوائر الفكر الإســـلامي، وبخاصة لدى المتكلمين، كما كان للفلاسفة الإسلاميين والصوفية إسهام فـــيها ، وكـــل دائرة من هذه الدوائر درستها حسب المنهجية الخاصة بها ، وأغلب هـــذه الدراســـة قـــد جانبه الصواب. وركب الباحثون فيها متن الشطط والغلو، ولم يفطـــنوا إلى المغزى الحقيقي لها. وكانت أكثر هذه الدراسات ذهنية بحتة، وحسبنا أن نلقـــي نظـــرة علـــى المحـــور الذي جعله هؤلاء أساسا للدراسة، وهو : علاقة الصـــفات الإلهـــية بـــالذات، وطرح القضية على هذا الشكل أمر مستحدث في البيئة الإســـلامية، لأنـــه يوحي بان هناك ثنائية بين الذات الإلهية وصفاتها، أو على الأقل في بادئ الرأي، وإذا كان الأمر كذلك، فإن التنزيه "الخالص" يفقد صفاءه، ثم إذا قلنا بـــالوحدة بيـــن الـــذات وصـــفاتها، فإن ذلك يعني: إدخال مفهوم الصفة في مفهوم الذات ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر؛ تصبح الذات غير متفردة بالقدم وحدها، ولو قيل بحدوث الصفات للزم على ذلك قيام الحادث بالقديم، وهذا محال.

تلكـــم هـــي القضـــية فـــي تصـــور الدارســـين لهـــا، في سياقها العام، وهي – كمـــا نـــرى – تتجاوز الروح العامة التي نراها في القرآن الكريم، والتي تتحدث عـــنها بشيء مخالف تماما، لما أصبح عليه القوم. وقد حدد الكتاب العزيز الضمان الكافـــي لقضـــية التنزيه الإلهي، حين يستشعر العقل في بعض النصوص شيئاً يوهم النـــيل مـــنه، فقـــال ســـبحانه: ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشـــورى : ١١) ثم بين انه من الناحية العملية، ينبغي أن يقف العقل عند حدود قدرتـــه وطاقـــته حيـــن يواجـــه نصـــاً يوهم ظاهره التشبيه أو التجسيم (النصوص المتشـــابهة) فقال سبحانه: ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**

ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (آل عمران : ٧) .

وسنستعرض بشيء من الإيضاح موقف المتكلمين – معتزلة وأشعرية – والفلاسفة الإسلاميين من قضية الصفات، بإيجاز، وسنزن ذلك بميزان المنهج الحقيقي لدراستها أخذا من الروح العامة، في القرآن الكريم.

١- موقف المعتزلة من قضية الصفات الإلهية :

ينطلق المعتزلة، بل وكل الفرق في تحديد العلاقة بين الصفات والذات الإلهية من مفهوم كل منها "للتوحيد". وإذا كانت المعتزلة تتميز من بين الفرق الكلامية بأنها التي قرأت كثيرا في الفكر الفلسفي الوارد – وبخاصة فلسفة أفلاطون وأرسطو والأفلاطونية المحدثة – فليس غريبا بعد ذلك أن نرى في تناولهم لهذه القضية فكرا عقديا ممزوجا بالرؤية الفلسفية، لا سيما لدى من وصفوا منهم بأنهم خاضوا في دقيق الكلام، كأبي الهذيل العلاف والنظام، وسنحاول هنا أن نتناول المسألة بما يوضح موقفهم منها. إن "الوحدانية" الإلهية عندهم تعني : أن ذات الحق سبحانه وتعالى ليست مركبة من أمور متعددة؛ لأنه لو كان كذلك . لافتقر تحققه إلى تحقق كل جزء من أجزائه، ومن المعلوم أن كل جزء من أجزائه يكون غيره. ويكون مفتقرا إلى ذلك الغير الذي يتركب منه، والافتقار معنى لا يليق به تعالى؛ لأنه غني عن العالمين، وهو في نفس الوقت معنى سلبي، يدل على الحاجة، وإذن فحقيقة الذات الإلهية هي : "الوحدة المطلقة" أو "الأحدية" التي لا كثرة فيها على أي اعتبار، لا كثرة مقدارية، كالتي تلحق الأجسام المركبة، ولا كثرة معنوية، كالتي تلحق أشخاصنا المركبة من "ماهية" و "تشخص".

إنهم بهذه النظرة إلى معنى "الوحدانية" قد أوقفونا أمام مسألة العلاقة بين الذات الإلهية وصفاتها على اعتبار أنها مشكلة تستوجب الحل، ذلكم لأن هناك

ثنائية بين مفهوم كل من الذات والصفات، وهذه الثنائية تعني : التغاير بينهما بهذا الاعتـبار، ولمـا كـان ذلك يتصادم مع فهمهم لمعنى "الوحدانية" فقد ذهبوا إلى أن الصـفات الإلهـية ليسـت مفاهيم أو معاني مستقلة عن مفهوم ومعنى الذات، رفعا للتكـثر ولو في الاعتبار الذهني، حتى يسلم لهم فهمهم للتوحيد، والنتيجة الطبيعية لموقفهـم هـذا، أن تكـون الصفات ليست شيئا زائدا على الذات، فقالوا على صفة العلم – مثلا – الله عالم بعلم وعلمه نفس ذاته، وكذا قالوا في بقية صفات المعاني، وحـتى يمعـنوا فـي تخـريجهم للوحدانـية علـى معنى لا يشوب التنزيه الإلهي فـي شـيء – على مذهبهم – قالوا : إن الصفات الإلهية في مفهومها إنما تعني : سلب النقيض عنايتها بإثبات المعنى الإيجابي. في ضوء تفسيرهم للعلاقة بينهما كما أشرنا[1].

ويعد أبو الهذيل العلاف من أول من-تناول من المعتزلة مسالة الصفات الإلهية والعلاقـة بيـنها وبيـن الذات بتحليل يعتمد على الذهنية فقط، وكأن المسألة أمامه مسـألة فكـر، لا مسالة عقيدة وروح، لقد كان – أيضا – مدققا أكثر مما ينبغي في تقسـيم الصـفات الإلهية، إلى صفات ذات وصفات فعل، وعرف الاولى بأنها ، هي التـي لا يجـوز أن يوصـف الـباري سبحانه وتعالى بأضدادها. ولا بالقدرة على أضدادها، كقولنا: الله عالم والله قادر وأمثالهما. وأما صفة الفعل فقد عرفها بأنها : هـي التـي يجوز أن يوصف الله تعالى بأضدادها وبالقدرة على اضدادها. كالإرادة. فـإن الـباري سبحانه يوصف بضدها من الكراهة، والقدرة، على ضدها وعلى أن يكره ، وكذلك صفة الحب والسخط والأمر والنهي.

وممـا لا شـك فـيه أن الدارس لفكر المعتزلة في هذه المسألة وفي غيرها، يلاحـظ علـيهم الـتخريج الفلسـفي لقضايا العقيدة. وقد صرح الأشعري في كتابه

---

[1] انظر الأشعري : مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٤٤ وأيضا كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ ١ ص١٧٨.

"مقـالات الإسـلاميين" بـأن أبا الهذيل العلاف، كان متأثرا بأرسطو في نظرته إلى العلاقـة بيـن الصفات والذات الإلهية. مما يدل على تحول ظاهر على يد هؤلاء في دراسـة أصـول الديـن، ففي الوقت الذي نرى فيه الاتجاه السلفي المحافظ، يتناول المسـائل الاعتقادية، بروح التسليم لظاهر النص الصحيح، مع المفارقة التامة بين الـذات الإلهـية وما سواها، حين يكون هناك ما يشعر بالمشابهة والمشاكلة - كما قدمـنا - نـرى هؤلاء يدرسون أمور العقيدة وكأنها قضايا فلسفية. ومع الزعم بأن العقـل يمكـن أن يوصلهم إلى الحق، فإن الأمر على عكس ما زعموا، فقد أوقفهم مـنهجهم هـنا أمام إشكالات لا قبل لهم بحلها، ومن أراد التوسع فليرجع إلى الكتب التي تناولت هذه القضية وامثالها.[1]

٢- موقف الأشعرية من الصفات الإلهية :

لقد كان موقف الأشعرية منذ أبي الحسن الأشعري، يمتاز بالوسطية في تناول مسـائل العقيدة وأعني بالوسطية هنا : الوقوف في مرتبة بين الإسراف العقلي لدى المعـتزلة، والمـبالغة فـي الحمـل علـى الظاهـر دون إعمـال العقل، كما كان الحـال لـدى المشبهة والمجسمة، ويفهم من هذا أنهم لم يهملوا العقل. وإن أخذوا أحـيانا - وبخاصـة لـدى الأشـعري - بظاهر النص. والتأويل لديهم له ضوابطه وحـدوده. وفـي القضـية التـي معنا نلاحظ أن الأشعري يثبت الصفات على أنها معـان أزلـية زائـدة على الذات، قائمة بها، إلا الصفات الوجودية النفسية. كالقدم والوحدانـية والـبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس، لأنها لا تقتضي أن تكون أمـرا زائدا على الذات، فهي تفيد مفهوما سلبيا، لا أمرا إيجابيا، وأما صفات العلم والقـدرة والإرادة والبصـر والكلام والحياة، فإنها تفيد أمرا زائدا على الذات، هو معنى هذه الصفات .

---

[1] انظر كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ١ ص ١٨١.

والأشـــعري هـــنا يدعي بداهة هذه القضية، ومع بداهتها، يقيم عليها الدليل. ويعـــتمد فـــي استدلاله على قياس الغائب على الشاهد، يقول في ذلك: "من لم يعلم لـــزيد علمـــا لم يعلمه عالما، وإذا كان الوصف "عالم" معللا في الشاهد بأن له علما فيجـــب أن يكون الأمر في الغائب كذلك، لأن هذا تعليل عقلي، وهو لا يختلف شاهدا وغائـــباً[1]. ويلـــزم المعـــتزلة القول بصفات المعاني، فهم يعترفون بأن الله سبحانه وتعـــالى عـــالم قادر مريد إلخ ويسمون ذلك بالصفات المعنوية ولكنهم يرجعون هذه الأوصـــاف إلى الذات. لا إلى صفة زائدة عليها، لأن هذه الصفة "عالم" إما أن ترجع إلـــى الذات أو إلى صفة هي "العلم" ويستحيل أن تكون راجعة إلى الذات، وإلا كانت الـــذات هـــي الصفة، أو مصدر اشتقاق الصفة، إذن يلزم أن تكون راجعة إلى صفة زائـــدة علـــى الـــذات، هـــي "العلم" . والقرآن الكريم يقـــول : [**أنزله بعلمه** ...] (النســـاء : ١٦٦) وكذلـــك [**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**...] (فاطـــر : ١١) . فأضـــاف العلـــم إلـــى ذاته، وفي هذا مغايرة في المفهوم. بين المضاف والمضاف إليه، أي : بين الصفة والموصوف وبهذا الذي ذكرنا من مذهب الأشـــعري فـــي علاقـــة الصـــفات بـــالذات الإلهية، يتضح لنا أن الصفة غير الذات [الموصـــوف]، وقد رأى أن اللبس الذي أوقع المعتزلة في نفي زيادة الصفات على الـــذات، أنهـــم فهمـــوا الغيرية هنا على غير وجهها الصحيح، فالمتغايران بالمعنى الحقيقـــي ، هما اللذان يمكن أن يفارق أحدهما الآخر بوجه من الوجوه، ولما كانت الصـــفات لا يمكن أن تفارق الذات أبدا، فإنها ليست أغيارا بالمعنى الصحيح، لأنها والذات شيء واحد من حيث الواقع والماصدق. وبهذا يظهر أن المعتزلة كانوا على خطأ حين تصوروا أن القول بزيادة الصفات على الذات. يؤدي إلى تعدد القدماء.[2]

---

(1) الشهر ستاني : الملل والنحل جـ١ ص ١٢٨ .

(2) الأشعري : اللمع ص ١٧ .

وإذا كـان الأمـر كمـا ذكـرنا، يصـبح الخـلاف بيـن الفرقتين – المعتزلة والأشـعرية – خلافا في التصور، وليس خلافا في الواقع والحقيقة، ولكن يظهر في نفـس الوقـت أن الاشعرية هنا كانوا أكثر تعقلا للمسألة مع المحافظة على ما جاء بـه ظاهر النصوص الشرعية. ويكاد تلاميذ الأشعري من بعده يترسمون خطاه، في القضايا الجوهرية، مع عمق في التخريج والتحليل.

٣- الفلاسفة الإسلاميون والصفات الإلهية :

في تقرير الفلاسفة الإسلاميين للصفات الإلهية ينطلقون من مبدأ واضح لديهم هـو : " البسـاطة وعـدم التركيب "، وهم هنا متأثرون إلى حد كبير بالفكر الوارد. وبخاصـة : الأفلاطونـية المحدثـة – أشـرنا إلـى ذلك من قبل – ويعتبر ما كتبه "ابـن سـينا " في هذا المقام تعبيرا عن الاتجاه العام لديهم. والذي يقرأ ما كتبه في "الاشـارات والتنبـيهات" و"النجاة" ومسألة الصفات الإلهية يشعر بوضوح أنه أمام مفكر يؤثر الروح الفلسفية على الروح العامة التي جاء بها القرآن الكريم في تناول هذه القضية، إنه يرى أن الحق تبارك وتعالى:

١- الواجب الوجود بذاته، هو المبدأ الأول الذي ليس له علة، لأنه لو كان له علة تحدثه لكان واجب الوجود بغيره لا بذاته، هذا خلف.

٢- أن ماهـية واجب الوجود وذاته شيء واحد. لأنه لو لم يكن وجوده عين ماهيـته، لكـان إمـا جزءا للماهية أو خارجا عنها، فإن كان الأول كانت ماهيـته مركـبة، وهـذا بـاطل؛ لأن من أخص خصائص واجب الوجود "البسـاطة" وإن كـان الثاني لزم على ذلك أن يكون الواجب علة الماهية الواجبة، والماهية الواجبة لا تحتاج إلى علة غير ذاتها، وإذن فيبطل كون الواجب خارجا عن الماهية.

٣- واجب الوجود مبرأ من كل إمكان؛ لأنه لا يتصور أن يكون واجب الوجود من جهة، وممكن الوجود من جهة أخرى، ولو فرضنا فيه جهة ممكنة. للزم على ذلك التنوع في طبيعته، والتنوع في طبيعته محال.

٤- واجب الوجود واحد من كل وجه، وسبب ذلك أن الشيء لا يوجد إلا إذا تعين وجوده، وتعينه إما أن يكون بذاته أو بغيره، فإن كان بذاته فلا يكون إلا واحداً، لأن الماهية إذا كان تعينها بذاتها، انحصر نوعها في فرد واحد، ولا يتصور اختلاف الأفراد إلا باختلاف التعينات وتعددها، وإن كان بغيره فلا يصح، لأن المفروض أنه واجب الوجود بذاته.

٥- واجب الوجود بسيط، وبساطته نتيجة لازمة لأحديته.

٦- واجب الوجود لا حد له، لأنه لا جنس له ولا فصل تتركب منهما ماهيته، كما أنه لا ند له ولا ضد.

٧- واجب الوجود تام، ليست له حالة منتظرة يكتمل بها، إذ لو كان كذلك لكان محتاجاً، والاحتياج دليل على الإمكان، والمفروض أنه واجب الوجود.[1]

وهكذا يمضي ابن سينا في هذا السياق، الذي نلحظ من خلاله، ذلك التخريج الفلسفي لهذه القضية، إنه يصل بالصفات الإلهية إلى أكثر مما ذكرنا، وبنفس الروح العقلية الذهنية، الحريصة أشد الحرص على بساطة الذات الإلهية وتنزيهها.

و إذا كان لنا من تعقيب على كلام الفلاسفة الإسلاميين كما يمثلهم ابن سينا في هذا المقام، فإن أحسن ما يقال هنا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية أن هؤلاء عندما يؤثرون طريقتهم التي تقوم على قطبي البساطة وسلب النقيض إنما ينتهي مذهبهم إلى أن يكون الحق سبحانه وتعالى "فكرة ذهنية" إن لم تكن

---

[1] ابن سينا: الشفاء ط١ ص٢٥٠.

العـدم المحض. ومن المعلوم أن كل ذات في الوجود، لا يمكن تصورها مجردة عن صفاتها الثبوتية، والثبوتية من الصفات خير من السلبية منها.[1]

ومهمـا قيل عن سمو غرض الفلاسفة – وابن سينا من بينهم – عندما يقفون هـذا الموقف من مسألة الصفات، فلا ينهض أن يكون حجة لهم يقبلها العقل، عندما يستحضـر آثـار الذات الإلهية وأفاعيلها في الوجود والموجودات، إنها ذات قادرة مـريدة عالمة حية إلى آخر الأوصاف الثبوتية التي جاءت بها النصوص الشرعية، وبالنسـبة للإنسان بصفة خاصة: إنها الذات المعطاءة الواهبة المانحة الرحيمة، إن العلاقـة بيـن الصـفات الإلهية وآثارها البادية في الكون والحياة تجعل العقل يقرر بطـريقة أكـثر اعـتدالاً، أن تـنوع الآثـار وتعددها وطبائعها يدل على أن التنزيه الحقيقـي، هو الذي يصف الذات بكل صفات الكمال والجمال والجلال، ولو وقف ابن سـينا وغـيره، عـندما وقفـت عنده الأفلاطونية المحدثة، من القول بأن الله فوق الوجـود، ولـذا لا تحده الأوصاف، ولا يدركه العقل الإنساني، وما يصف به العقل الإنسـاني واجـب الوجـود ليس إلا إضافة من الإنسان إليه، قد لا تليق بذاته لكان أحسن، ولكنه أثر تطبيق فكرة البساطة على الصفات، فكان طريق السلب، هو الذي أسعفه في هذا المقام.[2]

ثانياً: المنهج الصحيح في دراسة الصفات الإلهية:

رأينا فيما سبق كيف تناولت العقلية الإسلامية مسألة الصفات الإلهية وعلاقتها بـالذات، بمـنهج عقلـي، مع تفاوت في درجات العقل، وأرى أن المنهج الأمثل في دراسـة هـذه القضـية وأمـثالها، إنما ينبغي أن يقوم على استيحاء النص الديني واسـتلهامه، لا علـى تحلـيله بطـريقة ذهنـية تجريدية، و إذا كان الواقع يرينا

(١) ابن تيمية: الرد على المنطقيين ص ٣١٣ جـ١ ط القاهرة سنة ١٩٧٦ بتحقيقنا.
(٢) د/ محمد البهي: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ص٤٤٦.

أن الذات الإلهية – في الشاهد – التي تجوز كثيراً من الأوصاف الثبوتية، التي تكون من كمالاتها، أولى مما ليست كذلك، فإنه يكون في الغائب – وهو هنا الذات الإلهية – من باب أولى. وهذه طريقة أشار إليها الأشعري فيما ألمحنا إليه من قبل، وتوسع فيها كثيراً شيخ الإسلام "ابن تيمية".

وإذا كـان الإغـراق فـي الـتجريد – أي تجـريد الذات الإلهية عن أوصافها الثبوتـية– مبعثه التنزيه، كما يقول أصحابه، فقد كان أولى لهم ثم أولى. أن يحددوا معنى التنزيه تحديداً دقيقاً، يقره العقل الصريح، لا العقل الذي أشرب حب فلسفة ما، إنهـم بمـنهجهم هـذا، يعظمـون الفكـر الوارد، ويجعلونه حاكماً على النصوص الشـرعية، لا محكوماً بها، كما هو الوضع الطبيعي، لا سيما وأن الإسلام – بمنهجه العـام – هـو المهيـن والحـاكم على كل ما سواه من الأديان والمذاهب الفكرية، والممارسات السلوكية. وما كان له أن يكون غير هذا لأنه الدين الخاتم، المعبر عن نهاية الاتصال بين السماء والأرض. والذي جاء متسقاً مع الفطرة النقية الصحيحة، والعقول الواضحة الصريحة.

إنـنا حيـن نحسن الظن بمن يتناول الموضوعات الإلهية بروح تخالف الروح القرآنـية لا نقول عنه أكثر من أنه تنكب المنهج الصحيح عندما تناول تلك القضايا، ومـن ثـم فإن نتائج بحوثهم لا تعدو أن تكون معبرة عن وجهة نظرهم في القضية موضوع البحث، وفي نفس الوقت لا ينبغي أن نتساهل كما يتساهل بعض الباحثين، فـيرى أن المسـألة التـي معنا، من المسائل الخلافية. ذلكم لأن الخلاف ينبغي أن يـتجاوز الأصـول الاعـتقادية. إلى الفروع العملية في الشريعة الإسلامية، وعلاقة الصفات بالذات ليست من الفروع، والدليل على أن الفكر الإسلامي بكل مدارسه، ما كـان له أن يـتجاوز المنهجية القرآنية في هذه المسألة وما ماثلها، إننا نجد الفرق المعتـبرة تخـتلف فـيما بيـنها، بـل نجـد أن الفرقة الواحدة يختلف أفرادها في

القضــية الواحــدة، وللباحث أن يرجع إلى هذه الخلافات في مظانها من كتب الفرق المخــتلفة. لــيرى بنفســه أن الفكر الإسلامي، في كثير من مراحله، قد أنفق وقتاً طويــلاً، وجهــداً أطــول، في مسائل ما كان أغناه عنها، ومنها المسألة التي نحن بصــددها. إنــنا نقــر الاخــتلاف إذا كانت القضايا المختلف فيها من طبيعتها ذلك الاخــتلاف، أما أن تكون متصلة بأصول العقيدة – وهي في أساسها غيبيات – فهذا مــالا نقــبله. إن موضوعات العقيدة هي: أصول الإيمان، كما نعلم، والإيمان يعني: التصديق القائم على الدليل الواضح الجلي. أو التسليم لظاهر النص فيما لا قبل للعقل بــه، وإلا فقــد الإيمــان مضمونه ومعناه، وإذا كانت الروح التي تسري في القرآن الكــريم فــيما يــتعلق بالعلاقــة بين الصفات والذات الإلهية، هي: الإثبات مع نفي المماثلــة، مما يشير إلى ذلك قوله تعالى: "**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**" وإذا كانت تلك الروح تستهدف من وراء ذلك، أن توفر على العقل جهده فيما لا قبل لــه به، فإن ذلك يعني أن نشاط الإنسان في الجانب العقلي. ينبغي أن يتوجه إلى ما تحــته عمــل، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ، أن الجدال فيما ليس تحته عمل قد يــورث العداوات في الدين. بل قد يزرع الشك في القلوب، والأدهى من ذلك والأمر أن تتحول الساحة إلى حلبة صراع دام. تفقد فيه الأمة وحدتها، فيذهب ريحها وليس مــا نراه مما تزخر به بعض كتب التراث من صراع، بلغ حد التكفير بين الفرق إلا دلــيلاً علــى صدق ما نقول، وليس لأحد أن يحتج بأن القرآن الكريم مليء بالحوار والجــدال، أو طلب الدليل على الدعوى، ورد ما كان عارياً عن الدليل منها إلخ.لأن الجــدال القرآنــي ، كان بين الحق من طرف، والباطل من طرف آخر، وأما القضية التــي معنا وأمثالها، فقد كان الجدال فيها داخلياً حول قضايا من طبيعتها ألا يجادل فيها.

وننتهي هنا إلى أن المنهج السلفي في تناول قضية الصفات الإلهية هو المنهج الأمــثل، وقاعدتــه المشــهورة تقــرر: أن نثبــت لله تعــالى مــا أثبــته لنفسه،

ومـــا أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن غير تشبيه أو تمثيل ولا تأويل أو تعطـــيل. وبهـــذه القاعدة تنحل جميع المشاكل التي تصورها غير السلف من الفرق الأخرى. في القضية التي معنا، ولذا رأينا أن "المتشابهات" من النصوص الشرعية، ضـــاقت دائرتها جداً، لدى هؤلاء، وربما انحصرت لديهم في مستهل السور القرآنية التـــي جـــاءت بها حروف مقطعة، مثل: "**ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه**" – أول سورة الـــبقرة – ومـــا ماثلها. ذلكم لأنهم في تطبيقهم لمنهجهم هذا رأوا أن حمل المتشابه على المحكم، هو الأسلم والأعلم في نفس الوقت.

وقـــد حـــاول شـــيخ الإسلام "ابن تيمية" أن يعطي للمنهج السلفي بعداً فكرياً. فرأيناه يتناول قضية المتشابه بشيء من التحليل، كنوع من الرد على المؤولين من أصـــحاب الفـــرق الأولى، وكان من أهم مظاهر هذا التحليل، أنه قرر قاعدة هي: أن الظاهـــر فـــي حـــق الله تعـــالى ليس كالظاهر في حقنا. في الرد على من يرى أن النصوص المتشابهة هي التي يوهم ظاهرها التشبيه والتمثيل. وأضاف إلى ذلك: أن اللفظ المفرد النكرة كلفظ "يد" مثلاً، إذا قطع عن الإضافة، أفاد المعنى الذي وضع من أجله، وأما إذا أضيف فإن معناه يتحدد تبعاً لما أضيف إليه ولنضرب لذلك مثالاً من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿**إن الذيـن يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهـم فمـن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجـراً عظـيماً**﴾ {الفـــتح : ١٠} فلفـــظ يـــد هـــنا أضيف مرة إلى "الله" وأخرى إلى "المبايعين" لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل يمكن أن يكون معنى "يد" المضاف إلـــى الحـــق ســـبحانه وتعـــالى، هـــو نفس المعنى المضاف إلى الذين بايعوا؟ إن "ابـــن تيمـــية"[1] قـــد لمـــس قضـــية جوهـــرية، هـــي: الهويـــات والتعيـــنات، وأخـــرج هـــذه المســـألة وغـــيرها بهـــذا الحـــل الـــبارع الـــذي يـــدل

---

[1] انظر كتابنا: المدرسة السلفية ص٥٦٠.

على علم الرجل وذكائه، ولا شك في أنه إنما عمد إلى ذلك التحليل من أجل أن ينقذ النصـــوص المتشـــابهة، من أولئك الذين ذهبوا في تأويلها مذاهب شتى، ليس هذا فحســـب، بل أراد أن يغلق الباب على بعض المفكرين، بل بعض الفرق التي نظرت إلـــى النصوص المحكمة – فضلاً عن المتشابهة – نظرة خاصة، ملؤها الاستخفاف، حيـــث صنفت النص إلى محكم ومتشابه، في ضوء ما قررته لنفسها من آراء حسب الـــثقافة التي شكلت وجدانها وعقلها[1]، فمثلاً: يرى المعتزلة أن الآيات التي تتحدث عـــن رؤيـــة المؤمنيـــن لربهم في الآخرة من قبيل المتشابه الذي ينبغي تأويله، في الوقـــت نفســـه نرى السلف والأشعرية يذهبون إلى أن هذه الآيات محكمة، ويثبتون الرؤية. وهكذا الحال في مسائل كثيرة.

إن الإيمـــان القوي لا يتم إلا بضرب من التسليم والإذعان. حتى لا يتحول إلى أمـــر معرفـــي بحت، وليس التسليم والإذعان، الذي يوحي بشيء من سلب الإرادة الإنسانية وحقها في التفكير، ولكنه التسليم والإذعان، الواثق في المصدر الذي وفر علـــيه الاطمئـــنان والرضا، حتى لا يسأل عما سوى ذلك الوثوق والاطمئنان، ونذكر بمـــا قلـــنا قبلاً من أن دائرة الغيب تستوعب موضوعات الإيمان كلها، والعلاقة بين الذات وصفاتها من هذا القبيل، ولكنه العقل، الذي يعطي لنفسه الحق – أحياناً – في الـــتمرد علـــى منهج الله. الذي حدده كتابه العزيز، حين قرر أن الراسخين في العلم يـــنظرون إلى المتشابه، بل إلى الغيبيات كلها، نظرة ملؤها التقديس والتوفير لأنهم يقولـــون: آمـــنا بـــه كل من عند ربنا. ويزكيهم القرآن في نفس الآية بقوله تعالى: "**ومـا يذكـر إلا أولـو الألـباب**" ثـــم تبيـــن الآيـــة التالـــية دعـــاءهم الذي يبين أنهم يخشـــون أن تـــزيغ قلوبهـــم – بمحاولـــة الـــتأويل كمـــا يقتضـــيه الســـياق –

---

[1] انظر: د/ محمد يوسف موسى: القرآن والفلسفة ص٢٣.

بعد أن هداهم الله تعالى إلى الحق **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب﴾** (آل عمران : ٨).

ثالثاً: الصفات الإلهية وتنوعها:

القـــارئ للقرآن الكريم، يراه يتحدث عن صفات إلهية متعددة، هي في ذاتها كمـــال للـــذات الإلهـــية، وفـــي نفس الوقت تنبئ عن علاقة تلك الذات بالمخلوقات، بصـــفة عامـــة وبالإنسان بصفة خاصة وقبل أن نشرح هذه القضية ينبغي أن نشير إلـــى أن القرآن الكريم قد تحدث عنها تحت اسم " الأسماء الحسنى" قال تعالى " **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**" وقال : "**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى**" (الإســـراء : ١١٠) واخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة أن النبـــي صـــلى الله علـــيه وســـلم كان إذا آوى إلى فراشه قال : " اللهم باسمك أحيا وباســـمك أمـــوت. وإذا أصبح قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور وفـــي حديـــث أبـــي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد، من حفظها دخل الجنة، وهو وتـــر يحـــب الوتر". وليس لنا أن نقف عند هذا العدد في الواقع، لأن هناك أحاديث أخرى يفهم منها أن لله أسماء أستأثر بعلمها ففي الحديث الذي رواه ابن مسعود أن رســـول اللله صلى الله عيه وسلم قال "ما أصاب مسلما قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنـــي عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك. سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو اســـتأثرت بـــه فـــي علم الغيب عندك. أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجـــلاء حزنـــي وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله عنه همه وأبدله مكان همه فرحا، قـــالوا: يـــا رســـول الله: ألا نتعلم هذه الكلمات. قال : بلى!! ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن".

لقـد بان من هذا الحديث أن أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، لا تقف عند عـدد معين، وأن الذي ذكر منها وعددها، كان على سبيل المثال لا الحصر، من باب ذكـر الذي يغني، عن الذي لم يذكر. المهم هنا أن نبين أن الخلاف بين العلماء حول هـذه الأسماء، وهل هي أعلام على الذات الإلهية أو صفات لها، لا يغير من الحقيقة شيئا لأن العبرة ليست بالألفاظ، بل بمضمونها ومحتواها. والمهم جدا أن تكون لهذه الأسماء أثرها في النفس الإنسانية كما نبينه في مبحث قادم.

ولعـل خـير كـتاب تناول هذه القضية هو كتاب "الأسماء والصفات" للإمام البيهقـي، فقد تفرد بتبويب أسماء الله الحسنى أو صفاته العلا، وجعل لكل محور من محـاور تقسـيمه، اسما يندرج تحته من الأسماء ما يشابهه، مثال ذلك: ما نقله عن الحـاكم أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي في شعب الإيمان فيما يجب اعتقاده والإقرار به في الباري سبحانه وتعالى، عدة أشياء هي :

١- إثبات الباري جل جلاله، لتقع به مفارقة التعطيل.
٢- إثبات وحدانيته، لتقع به البراءة من الشرك.
٣- إثبات أنه ليس بجوهر ولا عرض، لتقع به البراءة من التشبيه.
٤- إثـبات أن وجـود كل ما سواه كان من قبل إبداعه له، واختراعه إياه، لتقع به البراءة من قول من يقول بالعلة والمعلول.
٥- إثـبات أنـه مدبر ما أبدع، ومصرفه على ما يشاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع، أو تدبير الكواكب، أو تدبير الملائكة.

ثـم قـال : إن أسماء الله تعالى . التي ورد بها الكتاب والسنة، وأجمع العلماء على تسـميته بهـا، منقسـمة بيـن العقـائد الخمس، فليلتحق بكل واحد منها بعضها،

وقـد يكـون منها ما يلتحق بمعنيين، ويدخل في بابين أو أكثر[1] ويظهر من قراءة كـتاب "البيهقي" أنه تتبع تصنيف "الحليمي" لهذه المسألة، ذلك التصنيف الذي وضع الأسـماء الإلهـية، بحيـث تفـيد كـل مجموعة منها معنى من المعاني التي يجب اعـتقادها. فعلـى سبيل المثال جعل اسم "الوجود" عنوانا على مجموعة من الأسماء تؤكـد المعـنى – معـنى الوجـود – كالأول والآخر، المعبرين عن الأزلية والأبدية. وهذامتصل بالوجود الإلهي، والباقي والحق المبين، والوارث إلخ.

وأيضـاً جمـع الأسـماء التـي تـدور حول "الوحدانية"لله عز وجل وتنفي الشـركاء ومـنها : الواحد، والأحد والكافي، والعلى، وفي ذكر كل منها يأتي بالآيات والأحاديـث التي تدل على ذلك. وعلى هذا النهج يمكن ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الإبداع والاختراع كالخالق الرزاق، المحيي المميت، المبدئ المعيد، المصور – الحي – القيوم، البديع العزيز الحكيم.[2]

والقـارئ للقـرآن الكريم، بعقل ذكي، وفؤاد نقي، يمكن أن يخرج بتصنيف آخر للأسماء والصفات، يجمع في داخله محاور ثلاثة:

المحور الأول : صـفات الكمال، وهي التي تثبت للذات الكمال المطلق، كالعلم والقدرة والحـياة والإرادة والحكمة والخبرة، إلخ. وفي القرآن الكريم وفي السنة النبوية كذلك نصوص تتناول هذه الصفات.

المحور الثاني : صـفات الجمال، وفيها تبرز عظمة الحق سبحانه. باعتباره أحسن الخالقيـن الـرؤوف الحلـيم، الستار، البر – الرحيم – السلام – اللطـيف، الـرزاق، المـنان، المعطي. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص تغطي هذا المحور.

---

[1] البيهقي : الأسماء والصفات ص ٨ ط بيروت، تحقيق الشيخ زاهد الكوثري.
[2] نفس المصدر ص ١٧ .

المحور الثالث : صفات الجلال. وهي التي تدور حول سلطان الحق سبحانه وتعالى علـى كونـه وامـتلاك نواصيه: وخضوع جميع المخلوقات لقهره وجـبروته، مثل: الملك، القهار، المانع، القدوس، الجبار، المنتقم، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية كذلك ما يغطي هذه الصفات.

تلكـم هي الروح العامة، التي ذكرت في القرآن والسنة عند ذكر أسماء الله تعالى وصفاته. ومن ذلك كله نأخذ ما يأتي:

أولاً : أن الفكـر الإسـلامي بكـل مدارسه عندما أخضع قضية العلاقة بين الصفات والـذات الإلهية للمنهج العقلي الجاف، خرج عن المنهج القرآني، - كما سبق أن ذكرنا - .

ثانياً : أن النتائج التي ترتبت على هذا المنهج كانت سلبية إلى حد كبير.

ثالثاً : أن الـتجديد المرتقـب لقضايا العقيدة، إنما يكون باستخلاص منهج تناولها بالدراسـة والبحـث مـن القرآن الكريم نفسه، وأن يراعى في دراستها آثارها النفسية والاجتماعية، بدلا من التولدات والإلزامات، وهو ما سنبينه في المبحث القادم.

رابعاً : أثر الصفات الإلهية في سلوك الفرد والمجتمع:

سـأجعل مدخلي لدراسة هذا المبحث توجيه هذا السؤال: ماذا يمكن أن تثمر صـفة "الرقيـب" وما في معناها كالمحيط والعليم بكل شيء، الذي يعلم خائنة الأعين ومـا تخفـي الصـدور وكـذا صفة العدل، عندما يخلو إنسان بنفسه، وتكون أمامه الفرصـة لفعـل أمـر محرم، وكان ذا عقل يوازن بين آثار النزوة الطائشة وامتلاك الصبر عليها؟ أعتقد أن الإجابة هنا ستقول : إن هذا الإنسان إذا استشعر أنه مراقب مـن الله تعـالى وحـده، دون غـيره وأنـه سـبحانه وتعـالى سيعوضـه إن

حـــارب شـــهوة نفســـه، خـــيرا مما يمكن أن يفعله، سيقلع تماما عن اقتراف الأمر المحـــرم، الذي يعاينه، وفي المقابل: لو أن إنسانا اقترف من الآثام الكثير. واستلهم قـــول الله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء...** ﴾ (النساء : ٤٨). وقوله: ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا...** ﴾ (الزمر : ٥٢) ماذا يفعل بعد ذلك؟ إنه الأمـــل العـــريض فـــي الله الغفـــار الرحمن الرحيم، الذي يحول البائس القنوط، إلى مستبشـــر فـــرح، إيجابـــي فـــي الحياة، ثم ماذا يفعل الجبار المتغطرس عندما يقرع آذانـــه قول الحق تعالى: ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول** ﴾ (غافر : ٣). انه التخويف الذي ترتدع به النفوس المتكبرة المتعالية.

والـــذي يـــبدو لي أن المتكلمين والفلاسفة، بل والمفسرين اليوم لو أعادوا قـــراءة القـــرآن الكريم، في ضوء ما يمكن أن تعالج به النفوس البشرية، لعلموا أن الصفات الإلهية، يمكن أن تكون مدخلا ممتازا لهذا النوع من الدراسة؛ لأن الترغيب والترهيـــب معنـــيان نفسيان تعالج في ضوئهما النفوس، كل حسب ما يستحقه، وهنا يظهـــر لـــنا أن الخطـــوط العامـــة للصـــفات الإلهـــية أوضـــح في هذين الإطارين، وهـــذا مـــتطابق تمامـــا مع منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام فهم يملكون بأيديهم وسيلتين أشار إليهما القرآن الكريم في قوله : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين** ﴾ .

وإذا كـــان قـــد تأكد لكل ذي عقل الفرق الواضح بين المطلق من الصفات، والنســـبي مـــنها، وإذا كنا قد آمنا وتأكد إيماننا بالدليل على أن الله سبحانه وتعالى وحده. هو الذي له الصفات المطلقة، وأن من سواه، – وبخاصة الإنسان – صفاتهم نســـبية، فـــإن الموازنـــة بيـــن المطلق والنسبي يكون لها آثارها في جانبين هامين أحدهما إيجابي والآخر سلبي.

فأمـــا الجانـــب الإيجابـــي فيتجلى في أن صاحب الصفات النسبية يجعل من صـــاحب الصـــفات المطلقـــة مثله الأعلى، فيشده هذا الشعور الغامر في العلاقة بينه وبيـــن مـــثاله إلـــى الـــزيادة من العلم – مثلا – والسعي في طلبه. أيا كان نوع ذلك العلـــم، طالمـــا أنـــه كـــان سعيا من صاحبه على التشبه بمثله الأعلى. وفي القرآن الكـــريم نصـــوص تجعـــل الســـائرين في هذا السبيل، لديهم من الوثوق في سبيلهم الشـــيء الكثـــير، فقد جاء في الكتاب العزيز أن أكثر الناس خشية لله رب العالمين، إنمـــا هم العلماء ﴿ **إنمـا يخشـى الله من عباده العلماء** ﴾ (فاطر : ٢٨) وفي مقام آخـــر يسوي القرآن الكريم بين الذات الإلهية وبين الملائكة وأولي العلم في الشهادة علـــى وحدانيـــته تعـــالى: ﴿ **شـهد الله أنـه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسـط ...** ﴾ (آل عمران : ١٨)، وأستعير في هذا المقام بعض التعريفات التي قيلـــت فـــي تعريف الفلسفة، وبخاصة الفلسفة الإلهية، حيث ذهب بعضهم إلى القول بأنهـــا: التشـــبه بالله ما أمكن ذلك، والمقصود – كما هو ظاهر – أن دراستها تسعى وتكد في البحث عن الحق، وتعرف الباطل. ويمكن أن يقال هنا بشيء من الجرأة: إن التمثـــيل الحقيقـــي لمعانـــي الصـــفات الإلهـــية. تجعـــل من ذلك المتمثل ساعيا في طـــريقه إلـــى غايـــته القصوى (الله سبحانه وتعالى) وقد تلامس بعض النصوص الشـــرعية هذا المعنى بشيء من الوضوح عندما تسند إلى البشر نفس الأفعال التي تسندها إلى الله تعالى، كما جاء في قوله تعالى "**يحبهم ويحبونه**" "**يد الله فوق أيديهم**" "**رضـي الله عـنهم ورضـوا عـنه**" ، بـــل إن هـــناك بعض النصوص التي توحي إلى تصـــور الحلـــول علـــى نحـــو ما، لولا شعورنا – نحن الدارسين – بالفرق الحقيقي بيـــن الـــذات الإلهـــية وبيـــن المخلوقات من البشر، ولولا ثقافتنا الإسلامية العربية. التي تدرك أن المشاكلة اللفظية لا تعني التوافق المعنوي ففي الحديث القدسي أن رب العـــزة يقـــول : ".... ولا يـــزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته

كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها...

وأما الجانب السلبي فيعني: أن الإنسان إذا ركب متن الغرور، ووضع نفسه في مرتبة "قارون" وقال إنما أوتيته على علم عندي، في أي مجال كان. فيمكن أن يقال له: إن كنت تدعي العلم لذاتك ومن ذاتك وتزعم أن أدواته التي حصلته بها من عند نفسك، فيقال لك: "**وفوق كل ذي علم عليم**" ثم إذا صح ما قلت فلم تنس نفس ما تعلمته؟ ولم كان علمك مطعما بالجهل؟ ولم كان هذا الجهل سابقا له ولاحقا به ويمكن أن يقال مثل هذا في الصفات الأخرى، فالغنى من البشر فوقه من هو أغنى منه، والقادر فوقه القادر المطلق، والمريد فوقه المريد المطلق، الفعال لما يريد وهكذا.

إن استلهام الصفات الإلهية واستحياءها. معنى تثرى به النفس، ويعمر به القلب ويرتاح به الفؤاد ويسعد به الإنسان في دنياه، ويطمئن على مستقبله في أخراه، واستدبار هذا المعنى يعني : الإعراض عن ذكر الله، وفي ذلك ما يجعل حياة صاحبه ضنكا في الدنيا ، ويحشر يوم القيامة أعمى، قال تعالى:﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ (طه : ١٢٤ – ١٢٥).

ما بالنا لا ندرس الصفات الإلهية على اعتبار أنها معان متفردة ننعطف نحو الاقتراب منها، وهي مع – رحابتها ولا نهائيتها – تشد عزمنا دوما إليها؟ إنها تخلق فينا التوثب والعمل المستمر والسعي الدؤوب نحو الاكتمال، في حدود الطاقة البشرية، إنها تسير بنا نحو مقام "العبودية" الكاملة التامة لله رب العالمين.

ولا أقول : تشدنا نحو الفناء في الذات، كما يقول بعض الصوفية، لأن هذا المعنى لا يخــرج عــن كونــه إحساسا وشعورا فقط. وهو يشعر بقدر من اللاوعي عن الذات وفــي تقديــري أن مــنهج الإســلام – في عمومه – لا يقر هذا التصور. إن القرآن الكــريم عــندما وضع الإطار الذي لا يخترقه "إبليس" حتى يوسوس للإنسان ويغويه جعــل العــبودية له. هي هذا الإطار الذي يقيه ويحميه وذلك حين قال: ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ (الحجر : ٤٢).

وباختصــار، إذا كــان الواقــع والتجربة قد أطلعتنا على أن "الأمن" النفسي والاجتماعي، لا يتحقق إلا بالإيمان بمعناه الشامل، وإن البدائل لذلك لم تجد شيئاً وأن القلــق والاضــطراب علــى مســتوى الأفــراد والجماعــات، إنما يكون حين يغيب الإيمــان بــالله رب العالميــن، وصدق الله حيث يقول: ﴿ **الذيـن آمنوا ولم يلبسوا إيمـانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ (الأنعام : ٨٢) أقول : إذا كان الأمــر كذلــك، فــأي أثــر يمكــن أن يحدثه الإيمان بالله تعالى وصفاته في النفس والمجــتمع؟ وإن المصحات النفسية التي انتشرت في عالم اليوم وبخاصة في الدول المتقدمة جدا مثل: أمريكا والسويد، وإن الإحساس الغامر باليأس والقنوط والضياع، الــذي أفــرزته وتفرزه بعض الفلسفات، بالأمس، واليوم، وفي الغد، إنما هو رد فعل قــوي لعدم الإيمان، يقول الدكتور "بول ارنست أودلف" أستاذ التشريح بجامعة سانت جونــي وعضــو جمعــية الجراحييــن الأمريكييــن: لقــد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بــد أن يشمل الروح والجسم معا في وقت واحد، وأدركت أنه من واجبي أن أطبق معلوماتــي الطبــية والجراحــية إلــى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الحالتيــن علــى أســاس قويــم، وبهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العــلاج الكــامل، الــذي يحــتاجون إليه، ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي

الطبية وعقيدتي في الله، هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة"[1].

في الجانب الاجتماعي :

نختار بعض الصفات الإلهية. على اعتبار أنها علامات تجذب المؤمنين إليها، لها دلالتها في الجانب الاجتماعي، كي نرى آثارها في المجتمع، بعد أن تكون أحدثت تأثيرها في نفس الفرد، وقبل ذلك نقرر أن الآثار الإيجابية التي تحدثها الصفات في النفس، تنعكس بالضرورة على المجتمع، لأن العلاقة بينهما علاقة تبادلية، فالفرد يتأثر بالمجتمع، والمجتمع يتأثر بالفرد في نفس الوقت. ونختار من ذلك صفات: العزيز – العدل – الرحيم – وقد تعمدت أن أقف مع هذه الصفات ، لسببين.

أحدهما : أن هذا النوع من الصفات لم يدرس في علم العقيدة بالمعنى التقليدي.
الثاني : أن هذا النوع شديد الصلة بالمجتمع .

فصفة العزيز لله تعالى، تعني : الذي لا يغلب ولا يقهر. وإذا كان القرآن الكريم قد وصف الحق سبحانه وتعالى بالعزة وكذلك رسوله والمؤمنين كما جاء في قوله تعالى : " **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**.." فإن استلهام هذه الصفة، تعطي للمؤمن بها، قوة لا تقهر أمام خصومه وأعدائه، ويصبح المجتمع الذي يحوز أفراده هذه الصفة مجتمعا عزيزاً كريماً، لا يغلب ولا يقهر . وتفيد هذه الصفة أن الإنسان قد تضعف نفسه فيغتر ويتكبر على الله عز وجل، فتكون هذه رادعة له ، وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما

---

[1] نقلا عن كتاب : الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص ٣٢٠ ط. القاهرة سنة١٩٧٣ .

أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله عز وجل: "العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما عذبته" أي أن استشعار التكبر والغرور عند الإنسان يردعه بتمـــثل هذه الصفة. وصفة العدل تعني من بين ما تعني إعطاء كل ذي حق حقه دون جـــور أو حـــيف، فإذا استلهمها المؤمن رفع الظلم بين الناس، وعم المجتمع الأمن والســـلام، ومن المعلوم أن صراع الطبقات إنما مرده إلى تحقيق الظلم ورفع العدل، فـــإذا زالـــت أســـباب هـــذا الصراع، فإن الاستقرار سيكون هو البديل الحتمي لهذا الصراع.

وصـــفة الرحمة تعني: الرفق واللين وعدم الشدة، وهي المدخل الطبيعي إلى الـــروابط الاجتماعية، ولما كان الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع مترابط متماسك، فإن لحمـــة هذا المجتمع وسداه تتحقق بالرحمة. فإذا استلهم المؤمن هذه الصفة الإلهية، فأي أثر يمكن أن يعود على المجتمع بعد ذلك؟. إن المجتمع الذي لا تسوده الرحمة، متقطع الأوصال، متهدم البنيان. متداع غير متماسك، يعيش أفراده كوحدات متراصة لا ككيان اجتماعي واحد.

ونضـــيف بعـــض أســـمائه الحســـنى وصفاته العلا، مثل: العفو – الغفور – المحســـن – الصادق – الوهاب المنعم – الرءوف – الحليم – السلام – ثم نقول : لو أن الإنسانية بصفة عامة والمؤمنين بصفة خاصة، استوحوا هذه المعاني وتمثلوا بها حســـب الطاقة الإنسانية، فهل يمكن بعد ذلك أن تقوم بين البشر حروب وخصومات؟ وهـــل يمكـــن أن تنعم البشرية بصفة عامة والمؤمنون بصفة خاصة بحياة هنيئة في الدنيا، ونعيم مقيم في الآخرة ، في ظل غياب المعاني التي توحي بها تلك الصفات؟. إن مـــا تشقى به البشرية اليوم، إنما مرده إلى استدبارها لمنهج الله، وانكفائها على ما تنجزه معاملها ومختبراتها، بما يشبع رغباتها الجامحة في العلو والاستكبار، حتى علـــى واهـــب الحـــياة، وقـــد أفقدهـــا ذلـــك المعـــنى الحقيقـــي للحـــياة نفســـها، يقول الدكتور محمد إقبال: الرجل العصري بماله من فلسفات نقدية، وتخصص علمي

يجـد نفســه في ورطة، فمذهبه الطبيعي، قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة، لم يسـبق إلـيه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو. إن الإنسان العصري وقد أغشاه نشـاطه العقلي، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة، أي : إلى حياة روحـية تـتغلغل في أعماق النفس، إنه في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه، وفي مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره، وقد يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة، وحبه للمال حباً طاغياً، يقتل كل ما في داخله من نضـال سام شيئاً فشيئاً، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة، وقد استغرق في الواقع، أي فـي مصـدر الحس الظاهر للعيان، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعمـاق التي لم يسبر غورها بعد، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية. هي ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه، والذي أدركه هكسلي "وأعلن سخطه عليه"[1].

وإذا كانـت صفة "التواب"، بهذه الصيغة الملائمة، تمثل الباب المفتوح لكل يـائس، والأمـل والـرجاء لكـل قانط، فليس أمام العبد إلا أن يجتاز هذا الباب مع استصحاب شروط اجتيازه، عساه بذلك، يستعيد إنسانيته المفقودة، التي استلبت منه يـوم انتزعـتها منه جيوش الشهوات، فأصبح كائناً بلا هوية، ممسوخ الذات مشوه الحقيقة، وقد قرر قرآننا أن أولئك الذين نبضت لديهم الأشواق الروحية، هم كالأنعام، بل أضل سبيلا، فهل إلى مرد من سبيل؟

---

[1] تجديد التفكير الديني في الإسلام ص ٢١٤.

الباب الثاني

النبوات[1]

ويشتمل على

١-مدخل إلى الدراسة.

٢-الفصل الأول: الرسالات الإلهية ضرورية لصلاح المجتمعات الإنسانية.

٣-الفصل الثاني: النبوة والرسالة والوحى.

٤-الفصل الثالث: وحدة الرسالات السماوية فى أصول العقائد والعبادات والأخلاق.

٥-الفصل الرابع: صفات الرسل: الواجب منها والمستحيل والجائز.

٦-الفصل الخامس: دلائل صدق الرسالات الإلهية (المعجزة).

٧-الفصل السادس : الإسلام خاتم الرسالات الإلهية ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين .

---

[1] هذا الباب جزء من كتابنا : العقيدة الإسلامية : أصولها وتأويلاتها : الجزء الرابع (النبوات) مع بعض التعديلات بالحذف والإضافة.

مدخل إلى الدراسة :

لا تزال الدراسات الكلامية فى حاجة إلى مزيد من الجهد ، فى سبيل تجلية قضاياها أمـــام الدارســـين بطريقة أكثر ملائمة لروح العصر، الذى شاعت فيه آراء كثيرة لم تكن موجـــودة فـــى العصور الغابرة ، تريد أن تنال من العقيدة الدينية الصحيحة ، سواء ما يتصل منها بقضايا الألوهية ، أم بقضايا النبوة ، أم بالغيبيات بصفة عامة.

وأظهـــر الأفكار التى ترفع فى وجه الدين ، هي تلك التى يدعى أصحابها أنها حقائق علمـــية ، ومـــا هـــي مـــن العلم فى شئ وإنما هي أفكار الحادية ، لم تمحصها التجربة العلمـــية، ولـــم يدعمها برهان صحيح ، إنها عقائد جامدة دخل بها أهلها دائرة البحث ، وهـــم بهـــا مؤمـــنون ولصحتها معتقدون ، وأهم ما ينطوي عليه منهجهم هذا أنه غير علمـــي ، لأن مـــن خصائص المنهج الصحيح هو الحياد والموضوعية والتخلص من كل أفكار سابقة ، إلا ما تمليه النتائج التى تفرزها مقدمات صحيحة.

إن هـــذا الموقـــف ومـــا شـــابهه مـــن قضـــية الديـــن عموما . إنما ينطوي على غـــرور كـــاذب بالعقل ، والعلم ، ولم يرق أصحابه إلى مستوى التمثل الحقيقى لرسالة الديـــن الصـــحيحة، ومـــا تمثله من غاية هي : تحقيق سعادة الإنسان فى حياته الأولى وحـــياته الآخـــرة ، وإذا كانـــت السعادة غاية يطلبها الإنسان، فكيف تكون حياته إذا لم تمـــلأ قلـــبه عقـــيدة صـــحيحة وديـــن قويـــم ؟ إنها حياة القلق والاضطراب والصراع النفســـي الـــخ، ذلكـــم لأن الديـــن فطـــرة فى النفس البشرية ، وهذا ما نطقت به آيات الكـــتاب الحكـــيم ، ووضـــحته الســـنة الصحيحة ، كما سبق أن ذكرنا ، ولا شك فى أن النـــبوة إنمـــا تمـــثل إنقاذا للبشرية وعصمة لها حتى تظل على الطريق القويم ، حين يستجيب لها الإنسان وهذا ما سنبينه فى هذا الباب.

لقد اقتضت حكمة الباري سبحانه وتعالى أن يبعث فى كل أمة رسولا ، يبلغ عن الحق رسالته ، ويحمل إلى من يرسل إليهم مناهج الإصلاح والتقويم ، التي تهدف إلى إقامة الإنسان على الطريق الصحيح والصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، فمن اتبع هدى الله فقد فاز، وبعد عن الضلال، ومن أعرض عن ذكره الذى جاءت به الرسل، فإن له معيشة ضنكا فى الدنيا ، ويحشر يوم القيامة أعمى كما يصور ذلك قوله تعالى : **﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾** (طه :١٢٣- ١٢٦).

وعطاء الحق تبارك وتعالى هذه المناهج الإصلاحية (الرسالات الإلهية) للبشر شمل كل تجمع بشرى أخذ شكل الأمة كما يصور ذلك قوله تعالى :**﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾** (النحل: ٣٦) وقوله :**﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾** (فاطر : ٢٤) ولقد بين القرآن الكريم أن علم الحق سبحانه وتعالى بما يحتاجه البشر مما به تصلح حياتهم فى العاجل والآجل ، إنما هو شأن له وحده جل وعلا ، قال تعالى :**﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾** (الأنعام :١٢٤) وأمام هذه الحقيقة لا تثبت دعاوى أولئك الأغرار ، الذين يزعمون أن الرسالات السماوية لا معنى

لوجودهــا لأن فــى العقل غناء عنها.[1] أو أولئك الذين يدعون أن أساس التصديق بتلك الرسالات وهى المعجزات التى يؤيد الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه ورسله إنما هي مخـــاريق لا يصـــدقها العقل.[2] فهذا وذاك إن دل على شئ فإنما يدل على قصور نظر ، وضحالة فكر ، ولا يستطيع عاقل أن ينكر حاجة كل مجتمع بشرى إلى قانون ينظم حياته ويحـــدد العلاقـــات الأخرى . على أساس من تحرى العدل ورفع الظلم، حتى تكون حياته ســليمة صــحيحة ، وهذا يعنى أن غيبة ذلك القانون يحول دون حياته المستقرة، حيث يحل سلطان الأفراد محل سلطان القانون، وتحدث المنازعات والخصومات كبديل للوفاق والوئام، والاضطراب والفوضى محل النظام والاستقرار.

إن تـــاريخ البشرية العام يطلعنا على ضرورة ذلك كله ، حتى لدى القبائل التى كانت تحـــيا حـــياة البداوة والبساطة ، حيث كانت تحكمها الأعراف والتقاليد، التى يقوم على تنفـــيذها من تؤهله مواهبه لذلك ، هذا فضلا عن المجتمعات المتحضرة والراقية ، التى تتعقد فيها المصالح وتتشابك المطالب.

وإذا أقـــر العقـــل ذلـــك كلـــه فـــأولى له ثـــم أولـــى ، أن يقـــر بحجـــة البشر إلى رســـالات إلهـــية كـــل واحـــدة مـــنها تمثل مشروعا إلهيا معصوما من كل خطأ ، يساق للإنســـان ليقـــيمه علـــى طريق الهداية والرشاد ، تتضاءل دونه بكثير كل المشروعات البشـــرية التـــي يفـــرزها العقل الإنساني ، ذلكم لأنه فى ذاته أداة قاصرة ، لا يمكن أن

---

[1] انظر : التفتازانى . المقاصد ج٢ ص ١٧٤ وما بعدها ، وكذلك : نيبرج : مقدمة كتاب الانتصار للخياط ص ٣٢.

[2] انظر : د/ مدكور . فى الفلسفة الإسلامية ص ٨٩. لترى ما نقله عن البيرونى وأبى حاتم الرازى منسوبا إلى الرازى الطبيب محمد بن أبى بكر فى هذا المقام.

تصـــل إلـــى الحقـــيقة وحدها ، اللهم إلا أن يتعهدها الحق تبارك وتعالى بوحيه ، الذى يوجههـــا إذا حادت عن الجادة ، ويوضح لها ما تكون قاصرة عن إدراكه ، وصدق الله العظـــيم الذى بين أن طريق الحق واحد ، وأما ما سواه فإنما هي سبل تقود من يرتادها إلـــى الهـــلاك والضـــلال المبين ، قال سبحانه فى إحدى وصاياه العشر التي جاءت فى صـــورة شـــملت أمراً ونهياً فى مقام واحد ، أمراً باتباع الصراط المستقيم ، ونهياً عما ســـواه ، قـــال تعـــالى : **﴿ وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾** (الأنعام : ١٥٣)



الفصل الأول

الرسالات الإلهية عطاء ربانى لصلاح المجتمعات الإنسانية

فى هذا الفصل ثلاثة مباحث رئيسية :

١- حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية .
٢- حكم إرسال الرسل.
٣- المنكرون للرسالات الإلهية والرد عليهم.

وهـى كما ترى مترابطة أشد الترابط .إذ أولها يقرر القضية على أساس ما يحتاج إليـه الإنســان ، فردا كان أم جماعة . مما تصلح به حياته الدنيا، على الوجه الصحيح الـذى يورثـه سـعادة فى الآخرة ، وإذا تبين أن الحاجة إلى الرسالة تنبثق من طبيعة الإنســان نفسه ، وإذا تقرر أن القوانين والأعراف الوضعية لا يمكن أن توفر له مطالبه الروحـية . فضلا عن أن تنظم حياته على وجه تتحقق فيه العدالة ، فإن الإيمان باتصال الســماء بــالأرض لتنظـيم هــذه العلاقات. يصبح مسألة يحتاجها البشر، حتى يتم لهم الاجتماع ، ويتحقق العمران ، وهذا يعنى أن إرسال رسول يقوم بمهمة الهداية والإرشاد إلــى الطــريق المستقيم من الله تعالى لعباده ، أو لبعضهم ، حكم إلهي بمقتضى اللطف والــرحمة الإلهــية، وهذا موضوع المبحث الثاني ، وإذا ثبتت الحاجة - كما قلنا - فإن إنكــار بعــثة الرسل، يكون موضوعا يقتضي المناقشة لمعرفة الأسباب والدوافع ، ورد شــبهات من يرى ذلك وهذا هو المبحث الثالث .وسنوفى كل واحد من الثلاثة حقه فيما يأتي.

أولا : حاجة البشر إلى الرسالة الإلهية :

تنبـــثق حاجة البشر إلى الرسالة السماوية التى تهديهم إلى سواء السبيل من طبيعة الإنســـان نفســـه ، فقد خلقه الله سبحانه وتعالى ،ومنحه طبيعة الكائن المتكيف ، سواء أكـــان ذلـــك مع بنى نوعه من البشر ، أم مع غيره من الكائنات الأخرى ، حين يتعامل معهـــا بمـــا يقتضـــيه وضعه ، بين مراتب الموجودات ، وهذا التكيف يعادل فى مفهومه الـــتمدن والتحضر أي الاجتماع ، فالإنسان لا يمكن أن يعيش وحده لأنه كائن اجتماعي، ولا تســـتقيم حـــياته علـــى الطريق السوى إذا عاش منفردا، لأجل هذا كانت له علاقات مـــتعددة تحـــتاج إلـــى تنظيم وتعديل ، حين تنحرف طبيعته عن مسارها الصحيح ، لأنه مـــزود بمجموعـــة مـــن الغرائز والرغبات. وإذا لم تهذب بوضع الضمانات التى تجعلها ســـوية ، فإنه يحيا لذاته فقط ، وتتعقد الحياة تبعا لذلك ، فتصبح جحيما لا يطاق ، نظراً لتعارض رغبات كل فرد من أفراد الإنسان مع رغبات غيره .

ولعل مما يؤكد أن الإنسان لا يعيش إلا فى جماعة، ما زوده الله به من آلة النطق ، إنهـــا كانـــت فيه كى تصور المعاني والأفكار التى تعتمل بها نفسه ، فتصب فى حروف وألفـــاظ ، وبهـــذا يستطيع الفرد أن يتفاهم مع غيره من بنى نوعه ، وإذن فالحاجة إلى الـــتفاهم ، دليل يؤكد أن كل فرد من أفراد النوع الإنساني فى حاجة إلى الآخرين ، على قدر مطالبه وحاجاته.

إن حاجات الأفراد بعضهم إلى بعض ، لا تقف عند نمط محدد ، ولا عند عدد معين ، بل تزيد وتتكاثر ، كلما كثرت مطالب الفرد فى معيشته ، وذلك بتعديل نظرته إلى كل من الضـــروريات والكماليات والتحسينات ، سعة وضيقا ، رقيا وحضارة ..الخ ، فكلما صعد فـــى سلم التحضر والرقى، كثرت مطالبه واتسعت تبعا لذلك دائرة علاقاته ، فتخرج من نطاق الأسرة ، إلى القبيلة إلى الأمة ، ثم إلى الإنسانية جمعاء.

ويشـير إلى ما قدمناه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ (الحجـرات :١٣) فالآيـة واضحة الدلالة على ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من حيث كونه كائنا اجتماعيا (لتعارفوا).

وإذا كانـت هـذه هي طبيعة العلاقة بين الأفراد ، فما القانون الذي ينظمها حتى لا تتشابك المصالح وتتعارض ويتعقد الاجتماع كما ألمحنا؟ إن قيل : إن عقل الإنسان كاف فـي معرفة الحقوق التى ينبغي أن تنال ، والواجبات التى ينبغي أن تؤدى ، وهذه مقالة طائفـة الـبراهمة كما سيأتي فإن هذا القول غير صحيح – كما سيأتي أيضا – لأن عقل الإنسـان يتعثر كثيرا فى إدراك ذلك ، وبخاصة عندما تتغلب عليه العواطف والنزوات ، وإن قـيل بكفايـة قانون يتواضع عليه الأفراد ، أو تقليد أو عرف ، يكون أثراً من آثار مفكـريهم أو عقلهـم الجمعي ، فيقال كذلك : إن الإنسان مهما ترقى فى مضمار التفكير ليخرج قانونا يتواضع الناس على التعامل معه ، فإن تفكيره يظل عرضة للزلل والخطأ ، والواقع يرينا أن كثيرا من القوانين الوضعية ، إذا اجتهد الواضعون لها حتى يغلب على ظـنهم أنهـا تحقـق العدالـة ، لا تعالج من الأمور إلا قشرتها الظاهرة ، ولا تنفذ إلى بواطـنها ، وللقـارئ أن يقارن بين رجلين : أحدهما ارتكب إثم السرقة فى غيبة رجل الشـرطة ، فهو في نظر القانون برئ ، ولا يقع تحت طائلته، فى الوقت الذى يكون آثما فى نظر الشرع الإلهي ، وثانيهما: وضع له شئ داخل حقيبته أو بيته دون علمه ، نكاية فـيه ، ثم رفع أمره إلى الشرطة للقبض عليه متلبسا بحيازته لشيء لم يختره بإرادته ، إنه فى نظر القانون آثم ، بينما هو فى نظر الدين برئ.

ثم من جانب آخر : هل يمكن أن يدرك المقنن الوضعي عواقب الأمور ، فيعلم ما به يصـلح الإنسـان ، ومـا بـه يفسـد؟ إن قـيل بالنفي فقد ثبت المطلوب ، وهو العجز

البشرى عن تشريع قانون يكون به صلاح المجتمع الإنساني ،وإن قيل بالإيجاب كان هذا القــول غير مقبول ، لأنه يضع الإنسان فى وضع الإله الحق فى إدراك الأمور وعواقبها وما به صلاح المجتمعات وما به فسادها ، ولو سلمنا جدلا بقدرة الإنسان على ذلك،فهل يمكــن أن تحــل القوانيــن البشرية محل القوانين الإلهية من حيث التقديس والاحترام والتقدير ، وهذا كله لازم لقبول التشريع والنزول على مقتضاه.

لم يبق – حينئذ – إلا أن يكون استتباب النظام بين الجماعة ، قائما على أساس من العــدل ، الــذى يســتمد قوانيــنه من سلطة عليا ، فوق سلطة البشر ، وأن يكون لتلك القوانيــن ، قوة أسمى من الإنسان نفسه ، بحيث يستشعر قوة سلطانها عيه ، وقهرها رغبة ورهبة ، ويمنحها من التقديس والتقدير ما يقتضي تنفيذ ما أمرت به واجتناب ما نهــت . وهذا مؤسس لدى الإنسان على قطبي العقل والإرادة الذين قام اعتقاده فى تلك الســلطة عليهما ، فهو بعقله الواعي يدرك أن الغاية من تلك القوانين ، لا تستهدف إلا صــالحه ، لأن المشرع الحكيم لا غرض لذاته منها. إذ هو غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعــة مــن اســتجاب لهــا ، ولا تضــره معصــية من أعرض عنها .قال الله تعالى : ﴿ **مــن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخـــرى ومـــا كـــنا معذبـــين حـــتى نبعـــث رسولا** ﴾ (الإسراء : ١٥).

ولمــا كانــت القوانيــن لا تصــل إلــيه إلا بواســطة مــن بــنى نوعــه ضرورة الــتفاوت الــتام بيــن الحــق ســبحانه وتعالى وبين بنى الإنسان يلتقي عندها المعنى الإلهي بالمعنى البشرى ، فيكون المعنى الأول سبيلا إلى التلقي من الله سبحانه وتعالى ، لمــا يشــرعه مــن القوانيــن الضــابطة لمــا يســعد بــه الإنسان فى حاله ومآله ، وعاجلــه وآجلــه ، ويكــون المعــنى الثاني سبيلا إلى التبليغ حتى يصل قانون الخالق

إلى المخلوق ، والمعبود إلى العابد ، والإله الحق إلى المؤله المعتقد فى حقيقة ألوهيته، فـإن العقل يدرك صحة هذه المقدمات ، ويدرك ما يترتب عليها من نتيجة ، وهى حاجة البشـرية إلـى أناس معصومين بعصمة الحق تبارك وتعالى لهم. خصهم بمزايا تجعلهم أهـلا لـتحمل هذه المهمة يؤيدهم بالخوارق التي تؤيد دعواهم ، وهى من تلك الدعوى بمـنزلة الدليل ، إنهم رسل الله وأنبياؤه الذين بهم ينتظم الاجتماع الإنساني، فى صورته الصـحيحة ، مـتى اسـتجاب المدعوون لما يرشدونهم إليه ، إن مهمتهم محصورة فى قضـية الـبلاغ والنـتائج التي تقضيها هذه المهمة ، إنما هي للمرسل (بكسر السين) وحده ، قال تعالى : **﴿ يـا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغـت رسـالته ﴾** (المائدة :٦٧) وقال : **﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسـيطر ﴾** (الغاشـية ٢١ ،٢٢) ، **﴿ لـيس علـيك هداهـم ولكن الله يهدى من يشـاء ﴾** (الـبقرة :٢٧٢) ، **﴿ إنـك لا تهـدى مـن أحببـت ولكـن الله يهـدى من يشاء ﴾**(القصص : ٥٦).

وليس من حق العقل القاصر أن يتطاول على مقام الألوهية فيتصور سبلا أخرى من وسـائل إيصـال القوانيـن الإلهـية إلى البشر ، إذ لو كان هناك ما هو أجدى من تلك الوسـيلة لما أعرض عنها الحق سبحانه وتعالى ، وهو الحكيم الخبير ، لأنه يعلم حيث يجعل رسالته .

إنـنا لا ننكر أن تقوم فى المجتمعات هيئات تضع القوانين لتنظيم هذه المجتمعات ، لأن هـذا واقـع لا ينكر ، وهو أمر سيظل موجودا ما وجدت الحياة فالعقل الإنساني من طـبعه الثقة فى ذاته ، بل قد يزعم أحيانا وعلى لسان المغرورين أنه فوق الوحي ، لأن الوحى إنما جاء لكى يفهم به.

أما الذى ننكره بشدة ، فهو مثل هذا الزعم الكاذب ، الذى لم يقم عليه دليل ، فالعقل البشـرى مهمـا سـما وتـرقى ، فهـو عرضة للخطأ والزلل ، وأما الوحى فهو طريق معصـوم، لأنه منهج الله الذى يكتمل بعصمته ، ويوم أن قال بعض مفكرينا بالوحدة بين الديـن والفلسفة ، بدعوى أن الدين مصدره الوحى ،وهو من الله تعالى ، وأن الفلسفة أساسـها العقل، وهو من الله كذلك ، فالمصدر هنا متحد ،نسوا أن الفارق بينهما واضح مع وحدة المصدر ، هو العصمة للوحي ، وعدم العصمة للعقل .

الأنبياء من البشر وليسوا ملائكة :

وكـون الأنبـياء عليه الصلاة والسلام من البشر أمرا يسلم به العقل السليم ، لأنهم مـن جـنس من يدعونهم إلى طريق الحق ، من ثم تبين أن استنكار كفار قريش ، لأن يبعـث الله بشـرا رسولا لم يكن له ما يبرره ، لا فى منطق العقل ولا فى منطق الدين، لـذا رأيـنا القـرآن الكـريم يحسـم القضـية حسـما . كمـا يصـوره قوله تعالى : ﴿ **وقـالوا لـولا انـزل علـيه ملـك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلـناه ملكـا لجعلـناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ (الأنعام : ٨-٩) إذ لو كـان ملكـا كما يطلبون ، لما كان فى إمكانه أن يبلغ رسالة الله التي أمر بتبليغها حالة كونـه كذلك . ضرورة اختلاف طبيعة كل من الملك والإنسان . فإذا كان الحال هكذا فلا معـنى للرسـالة حينئذ ، حيث لم تصل إلى المدعوين إليها. لم يبق إلا أن تتحول طبيعة الملـك إلـى الطبيعة البشرية حتى يتمكن من البلاغ ، ولو تم ذلك ورضى به المدعوون لرجع الأمر إلى ما استنكروه ، وهو كون الرسول بشرا. أو التبس عليهم حيث يعتقدون ملكيته ، فى الوقت الذى تحولت فيه طبيعته إلى البشرية .[1]

---

(1) انظر : الفخر الرازى ,التفسير الكبير المجلد السادس ، ج ١٢ ، ص١٧٠.

وقــد أقام القرآن الكريم الحجة عليهم فى آية أخرى ، مبينا أن هؤلاء لو أجيبوا إلى مطلــبهم لمــا آمــنوا بمن أرسل إليهم إلا أن يشاء الله ، قال تعالى : ﴿ **ولو أننا نزلنا إلـيهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ (الأنعام : ١١١)

فالقضية – إذن – ليست قضية طبيعة المرسل إليهم ، ولكنها قضيتهم ، إذ لو كانت نفوســهم مســتجيبه للحــق ، وعقولهم متفتحة له ، لأقرت بأن ما يجيئهم من عند الله ينبغي أن يكون بواسطة يفهمونها – الإنسان – من ثم عقب القرآن الكريم على موقفهم هــذا ، بأن أكثرهم يجهلون ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن الإعراض عن الحق الواضح البين – الكفر – إنما هو صنو الجهل ولا مبالغة فى ذلك .

والمتأمل فى مطالب الكفار ومواقفهم حين تجيئهم الرسالات الصحيحة ، يلاحظ أنها مواقف لا تقوم على العقل ، بل على العناد والخصومة والعداء للحق ، إذ ليس من العقل فــى شــئ أن تقبل قضية كون الرسول ملكا وترد قضية كونه بشرا ، على الوجه الذى بيــنه القرآن الكريم ، كما ،أنه ليس من العقل فى شئ كذلك أن يطلب من الرسول فوق مــا جــاءهم به ، على غرار ما قرره القرآن الكريم حكاية عن مطلب بعض الكفار حين علقوا إيمانهم بالرسالة الجديدة ، حتى يفجر لهم الرسول من الأرض ينبوعا الخ .. كما يصــوره قوله تعالى : ﴿ **وقـالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لـك جنة مـن نخـيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كمـا زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو تـرقى فـى السـماء ولـن نؤمـن لرقـيك حـتى تـنزل علينـا كـتابا نقـرأه قـل ســـــبحان ربـــــى هــــــل كنـــــــت إلا بشـــــرا رســـــولا** ﴾ (الإسراء : ٩٠ –٩٣).

أجـل !! إنـه التعنت والكبرياء والمروق عن الحق الواضح ، وتعليق الانصياع له علـى مجموعة من المستحيلات . إن المطلب العادل إنما هو ذلك الذى يكون فى مقدور المطلـوب منه أن يفعله ، فهل صرح لهم محمد ﷺ بأنه يقدر على ذلك ، أو على بعض ذلك؟ وهل صرح موسى لبنى إسرائيل أنه بإمكانه أن يريهم الله جهرة ؟ إن هذا كله إنما يعـبر عـن مجموعـة مـن الصفات السلبية تنطوي عليها نفوس هؤلاء، على رأسها " الجهل " وكفى به صفة ذميمة .

لكـل ما تقدم ، يظهر أن حاجة البشر إلى الرسالة هي أهم حاجات الإنسان ، تفوق حاجته المادية التى لا يحيا إلا بها ، ولنا أن نتصوره حين يغيب عنه وحي السماء ، إنه يحـيا حـياة من ليس لهم قلوب ولا أفئدة ولا عقول . من غير المكلفين ، وفى هذا كله إنـزال له عن مكانته التى خلقه الله لها ، ومهمته التى استودعه إياها . وهى " الخلافة" عنه سبحانه فى الأرض . والقيام بما تقتضيه حقيقة العبودية تجاه المعبود.

وجه آخر للقضية :

قـرر علماء العقيدة أن حاجة البشر إلى الرسالة الهادية ، على الوجه الذى قدمنا ، إنمـا يعبر عن إحدى حالتي النفس الإنسانية ، وهى حالة تلبسها بالبدن وحلولها فيه ، وأما الحالة الثانية، فهي حالة تجردها عن البدن ، وخلوصها فى عالمها الروحاني الذى أتـت مـنه ، وهى بهذا الاعتبار قد طبعت على الاستعداد لقبول معلومات لا تتناهى من طـرق مـتعددة ، وفى سبيل تحويل هذا الاستعداد إلى إدراك حقيقي ، لا تفتأ تبحث عن أنـواع الكمـالات ، ممـا يـرفع مـن شـأنها ، ويعطـى مـن قدرها، وهذه الكمالات الـتى تسـعى الـنفس لحـيازتها، مـتى كانت موجودة ، أصبحت درعاً يقيها المضار والمهـالك، ووصـول الـنفس إلـى المـزيد مـن الإدراكـات ، يكـون تـارة بطـريق الحصـر ، وأخـرى بطـريق العقـل ، وثالـثة بطريق الإلهام. وبهذا الطريق

الأخـــير قد أدركت أن لها حياة أخرى ، ليست دار تكليف كالحياة الدنيا ، بل درا جزاء ، وهى لازمة للحياة الأولى . لزوم الجزاء للعمل . ومن ثم يصبح الإيمان بضرورة الحياة الأخرى أمراً ضرورياً عقليا .

ومـــن طبيعة النفس البشرية ، أنها تتوق دائما إلى اكتشاف المجهول ، والبحث عن المستور المغيب ، وهذا يعنى أنها ترغب فى معرفة نوع الحياة الآخرة ، وليس هناك ما يمنعها من ذلك – على سبيل التفصيل – وبين إدراكها لوقائع الحياة الدنيا ، وتطلعها إلى معــرفة كيفية الحياة الآخرة ، تظل فى تنازع مستمر ، ولا نجاة لها من هذا التنازع إلا أن يدركهـــا خـــبر يقينـــي ، بما أعد لها فى الحياة الآخرة، يأتيها ممن لا يجوز عليهم الكذب، لصفاء نفوسهم ونقاء فطرتهم، التي فطروا عليها ، بحيث يصيرون على استعداد تـــام ، لتلقى العلوم والمعارف من واجب الوجود ، إما بواسطة ملك ، وإما بغير واسطة (الإلهـــام) (القذف فى القلب). كما يليق بهم أن يكونوا أهلا للمحافظة على مكنون سر الحـــق ســـبحانه وتعـــالى ، والاطلاع على الغيب بإذنه ، وفى هذا يقول الحق سبحانه : **﴿عـــالم الغيـــب فـــلا يظهـــر عـــلى غيـــبه أحـــدا إلا مـــن ارتضـــى مـــن رســـول ...﴾** (الجـــن : ٢٦-٢٧) ثم يؤمرون بتبليغ بقية أفراد النوع الإنساني ، بما يلزمهم فى حق خـــالقهم ، وبما له مدخل فى سعادتهم الدنيوية والأخروية . وذلك بواسطة الشرائع التى يـــتلقونها ، ويؤيدهـــم الحق تبارك وتعالى بما يثبت صدق دعواهم ، مما لا يدخل تحت طـــوق البشـــر ، حـــتى تقـــوم بذلـــك الحجـــة علـــى كـــل معـــاند ، ويـــتم الإقـــناع بصدق دعوى الرسالة .[1]

---

[1] أطال الغزالى النفس فى هذه المسألة فى كتابة : المنقذ من الضلال ص ١٢٤ والشيخ محمد عبده فى : رسالة التوحيد ص ٦٨ أعنى : الحالة الثانية من حالتي النفس البشرية وكلاهما متأثر إلى حد كبير بكلام الفلاسفة الإسلاميين.

الدليل التاريخي:

يضـــاف إلـــى مـــا قدمناه ، **الواقع التاريخي الذى عاشته المجتمعات البشرية التى** جاءتهـــا الرســـالات الســـماوية ، **وبخاصـــة ما آلت إليه أمورها الاعتقادية والأخلاقية** والاجتماعـــية ، **تلك التى استأهلت بحق عون السماء كى يكون منقذا لتلك المجتمعات** ، متى استجابت لنداء الحق، ولم تعرض عنه ، **لتظل فى إطار التقليد العمى** ، الذى أورثها تلك الحياة الضالة.

وليس هناك ما هو أولى فى إطار المرجعية التي تتحدث عن هذا الواقع من القصص القرآنـــي ، ذلكم لأنه ليس قصصا عاديا ، وإنما سيق للعبرة والعظة وقياسا لشاهد على الغائب . كما صرح بذلك القرآن الكريم فى آخر سورة يوسف حيث قال :﴿ **لقـد كان فـى قصصـهم عـبرة لأولى الألـباب مـا كـان حديـثا يفتري ولكن تصديق الذى ين يديه وتفصـــيل كـــل شـــئ وهـــدى ورحمـــة لقـــوم يؤمـــنون** ﴾ (يوسف : ١١١).

والانحـــرافات التـــي كان عليها قوم كل نبي قبل مجيئه ، تنوعت حتى شملت الحياة الإنســانية كلهـــا : انحـــرافات فى التصورات والمفاهيم والاعتقادات تصورات شاذة فى الأخلاق والسلوك ، وأفكار مقلوبة فى العادات والمعاملات ، وكلها تعل بأن مهمة العقل الذكـــي المـــتحرر من كل تقليد ، قد ضاعت وسط الركام الهائل من تلك التقاليد البذيئة ، والعـــادات الشـــاذة . إن هـــذا المعنى قد أشار إليه القرآن الكريم فى وضوح تام ، فيما اســـتنطق بـــه قوما تحجرت عقولهم ومشاعرهم وحبسوا أنفسهم طوعا فى حمأة التقليد المقيت ، مع ظهور الحق وإشراقه ، واتساقه مع العقل السليم والفطرة الصحيحة، الذى يدعـــو إلـــيه كل نبي ، قال سبحانه :﴿ **بـل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثـارهم مهـتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنـــا وجدنـــا آبائـــنا عـــلى أمـــة وإنـــا عـــلى أثـــارهم مقـــتدون** ،

قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آبائكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾
(الزخرف ٢٢-٢٥)

إن موازنة هؤلاء الأقوام بين ما هم عليه من ضلال فى كل شئ على الصورة التى أشرنا إليها منذ قليل ، وبين عطاء السماء الذى جاءهم على يد الأنبياء عليهم السلام ، قد غابت ، أو إن شئت فقل : أريد لها أن تغيب ، لأن عقولهم وقلوبهم قد وقفت عن الاستجابة لغير منهج الآباء والأجداد ، حتى ولو كان ذلك الغير فيه صلاحهم وفلاحهم كما هو منطق الآيات التى سقناها. وما أشبه موقفهم بموقف المريض الذى أخذ منه المرض كل مأخذ ، وأتاه الطبيب المناسب ليقدم العلاج الملائم لمرضه دون أن يسأله على ذلك جزاء ولا شكورا **﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾** (الشعراء : ١٠٨) ولكنه يؤثر البقاء فى مرضه هذا . حتى أصبح الموقف برمته كما جاء فى قول الشاعر العربي .

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والمانع دون الوصول إلى الدواء الذى به تطب أمراض تلك المجتمعات إنما كان من صنع أنفسهم. من ثم رأينا القرآن الكريم يبرز هذه النتيجة ، وهى أنهم لم يظلموا،ولكنهم ظلموا أنفسهم، فكان عاقبتهم خسرا ، قال تعالى : **﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾** (الزخرف :٧٦) ثم يصور موقفهم يوم القيامة حين يعاينون العذاب الشديد . جزاء إعراضهم عن منطق الحق، ويتمنون أن يقضى عليهم ، انتهاء من هذا العذاب ، فقال : **﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا**

ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (الزخرف: ٧٧- ٧٨).

والقــرآن الكريم قد أجمل هذا الموقف فى إطار شامل وكامل ليبرز القضية الأساسية التــي نحن بصددها ، وهى : أن أقوام الأنبياء كانوا فى حاجة ماسة إلى من ينقذهم مما أضحوا فيه ، ولكنهم أعرضوا ، فحق عليهم الأخذ بالذنب من جراء هذا الإعراض ، لقد تحــدث عــن موقــف قــوم نوح مما دعاهم إليه ، من الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وحذرهــم مــن نتيجة الإعراض والإدبار ، وبشرهم بنتيجة الإقبال والرضا والقبول لما أرسل به إليهم : **﴿ قال ربى إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ،فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا﴾**. (نــوح : ٥-٧) ثــم يبين القرآن تنوع الأســلوب الــذى دعاهم به ، فلم يكن منهم إلا الصد عن سبيل الله : "**ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا**" ثم يسوق عوامل الترغيب عسى أن تــتحرك نفوسهم وقلوبهم وعقولهم نحو الحق الذى جاءهم به ودعاهم إليه: **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾**. (نوح ٨ – ١٢).

ونفــس الموقف يذكره القرآن فى سور أخرى. وقد أجملت سورة العنكبوت الصورة كلهــا حيــن تحدثــت الآيات من الآية رقم (١٤) وحتى الآية رقم (٣٩) عن قصص كل رســول وما قال لقومه وموقفهم مما جاءهم به ، وهم : نوح – إبراهيم – لوط – شعيب – هود – صالح – موسى: عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام. ثم عقب على هذا المشهد بقوله سبحانه وتعالى : **﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**. (العنكبوت : ٤٠)

إن الآيـــات فى مجملها تضع أيدينا على قانون إلهى واضح ، وسنة ربانية ظاهرة ، ذلـــك لأن العقـــل الصــــريح يقرر أن المرض الذى يجيئه العلاج الذى يبرئه ، ثم يعرض عنه، فإن جزاءه ينبغى أن يكون من جنس إعراضه ، وإذا كان هذا الإعراض يمثل حالة مـــن الشذوذ النفسى والعقلى ، فإن مقتضى ذلك أن تعالج هذه الحالة بما يناسبها . وقد عـــرض القرآن الكريم العلاج الذى يمثله المنهج الذى جاءت به رسالات الأنبياء عليهم الصـــلاة والســـلام ، علـــى الصورة التى بيناها فى حديث نوح لقومه . والإصرار على الإعراض الذى يلزمه البقاء في دائرة الأمراض ، يعنى : أن الوسائل قد استنفذت ، فلم يبق إلا الأخذ بالذنب ليكون ذلك سنة مطردة ، وقانونا عاما ، ينطبق على كل من يعرض عـــن الحق ، ويصر على الباطل ، فى كل جيل وفى كل قبيل ، وهذه هو المغزى الحقيقى من القصص القرآنى.

ثـــم مـــاذا كـــان علـــى أقـــوام الأنبـــياء لـــو أنهـــم اعتبروا الرسالات الإلهية مشــــروعات ينـــبغى أن تدرس؟ألـــيس هذا هو منطق العقل ومقتضى الحكمة ؟ ويظهر لـــى أن هـــذا الســـؤال يكـــون صحيحا حين نتوجه به إلى الأصحاء نفسيا وعقليا. إنه كذلـــك صـــحيح فـــى ذاتـــه ، من ثم رأينا القرآن الكريم يقرر أن أبسط قواعد المنهج لم تكـــن مرعـــية لـــدى هـــؤلاء، ذلكـــم لأن كـــلا من التصديق والتكذيب حكم ، ولا يكون مقـــبولا فـــى معـــيار العقل الصريح إلا إذا قام على مبررات عقلية تقتضى هذا الحكم ، أقـــل هـــذه المـــبررات تصور المحكوم عليه تصوراً يؤدى إلى نتيجة صحيحة ، تطبيقا للقـــاعدة العقلـــية الفطرية،التـــي تقرر أن الحكم على الشئ فرع عن تصوره ، ويظهر كذلـــك أن القـــوم كـــانوا أبعـــد الـــناس عـــن التصورات الصحيحة، من ثم حكم عليهم

القــرآن هــذه الحكــم الواضــح البيــن ، بــأنهم كذبــوا بــالحق لمــا جــاءهم قبل أن يحيطوا به علما ، فقال سبحانه :**﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا مــن استطعتم مــن دون الله إن كنــتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمــا يــأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** (يونس : ٣٨ ، ٣٩).

فلنلحظ هنا دعواهم : (افتراه) أى : القرآن الكريم ، يعنون بذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم ادعى أن القرآن من عند الله ، وما هو من عند الله ، وبالضرورة فى نظرهم فهــو كــاذب فــى دعواه ، وهذه الدعوى التى قالوها – افتراه – ليس عليها دليل، لأن القــرآن الكريم بين أنه طلب منهم أن يأتوا بمثله على اعتبار أنه قول البشر ، ولو كان كذلــك – كمــا يدعون – لكان فى مقدورهم أن يجاروه ، وإذا كانوا قد عجزوا أو هربوا مــن مجاراته فإن هذ يدل على أنه ليس عملا بشريا ، بل هو وحى إلهى ، فأنى لهم بعد ذلك أن يكذبوا قبل أن يعلموا؟

تلك قضية تتصل بمنهج التعامل مع كل دعوى تطرح أمام العقل ، فإذا كانت رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تمثل مناهج الإصلاح والتقويم ، فقد كان على أقوامهم أن يدرســوها لــيعرفوا قــيمة ما تنطوى عليه من مقاصد وغايات ، قبل أن يعرضوا عنها ويتمســكوا بما عليه الآباء والأجداد ، حتى ولو كان فى هذا الاستمساك سوء العاقبة في الدنــيا – الأخــذ بالذنــب – والآخرة – العذاب المقيم – كما صرحت بذلك آيات الكتاب العزيز.

مع نبى وقومه:

نبيــن الآن – كدليل على مقتضى الرسالات الإلهية ، وأنها تمثل حاجة ضرورية لكل المجــتمعات – صــورة الواقــع الــذى كــان يحــياه قــوم نــبى مــن أنبــياء الله

سـبحانه وتعالى ، لتكون معبرة عن مثيلاتها ، من حياة أقوام الأنبياء الآخرين ، ونختار مـن ذلك ما كان عليه قوم لوط عليه السلام ، من حياة اجتماعية فاسدة ، وأن رسولهم إنمـا جـاء لـيعالج هذا الانحراف من حيث الاعتقاد والسلوك. قال الله تعالى مبينا ذلك **﴿ كذبـت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، إنـى لكم رسـول أمـين ، فـاتقوا الله وأطـيعون ، ومـا أسـألكم عليـه مـن أجر إن أجرى إلا علـى رب العـالمين ، أتـأتون الذكـران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بـل أنـتم قـوم عادون ، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إنـى لعملكـم مـن القـالين ، رب نجنـى وأهلـى مما يعملون ، فنجينـاه وأهله أجمعين ، إلا عجـوزا فـى الغابـرين ، ثـم دمـرنا الآخـرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾**. (الشعراء : ١٦٠:١٧٣).

وقد أوردنا هذه الآيات – علـى طولها – لتكتمل الصورة ، التي يظهر منها :

١- خطورة المرض الاجتماعى الذى كان عليه القوم ، ذلك الذى يتنافى مع الفطرة السـليمة ، ويـدل علـى الانحـراف الخلقـى والنفسـى والبـيولوجى ، وهـى إتـيان الذكران وترك الوسيلة الطبيعية للإشباع الغريزى الجنسى [1] . وهـذا الانحـراف الأخلاقـى إنما أتاهم من جهة أنهم لم يكونوا أصحاب رؤية

---

[1] والقرآن الكريم بين أن العلاقة الطبيعية لإشباع هذه الغريزة ، إنما تكون بين الرجل والمرأة ، فقال سبحانه : "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم .." (البقرة: ٢٢٣) وقال : "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" (البقرة : ١٨٧) ويؤكد الكتاب العزيز أن فوق العلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجل والمرأة ما هو آكد وألزم لاستقرار الحياة فقال: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" (الروم :٢١) وخلق الله الكائنات الحية كلها هكذا: الذكر والأنثى ، لتعمر بها الحياة ويطرد الوجود إلى أن يشاء الله فقال سبحانه: "ومنكل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" (الذاريات:٤٩) ، وقد أثبت الطب أن الشذوذ الجنسى من الأسباب الرئيسية لمرض فقدان المناعة الإيدز".

اعــتقادية صحيحة ، إذ لو كانوا صحيحى الاعتقاد ، لما انحرفوا هذا الانحراف الخطير ، من ثم نرى أن كل نبى كان يبدأ قومه بتصحيح المعتقد "**أعبدوا الله ما لكم من إله غيره**".وقد ذكرت الآيات التى معنا أن نبيهم لوط : أكد طلبه بتقوى الله : " **ألا تــتقون ، فــاتقوا الله وأطــيعون**" أي : عودوا إلى الإيمان بالله وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من ضلالات . ولو صححتم عقيدتكم لصلح سلوككم.

٢- معــاداة القــوم لكل ما هو حق " بل أنتم قوم عادون " وتتخطى المعادة النفسية حدودها ، لتنتقل إلى حالة التهديد والوعيد لنبيهم الذى جاءهم بما يصلحهم .

٣- أن دعوة النبى قومه إلى الحق كان لها ما يبررها ، من سوء المعتقد والسلوك معــا ، وأنـــه استنفذ كل الوسائل الممكنة ، فلم يسألهم أجرا على دعوته ، ولم يعــنف عليهم، بل عرض ما جاءهم به بكل رفق ولين ، ولكن طباعهم الصلدة أبــت الانصياع للحق ، فكان تدمير من أعرض عن منهج الله جزاء وفاقا لهذا الموقف الشاذ.

ســؤال :قد يسأل سائل فيقول : إذا كان الحق سبحانه وتعالى يعلم سلفا ما سيكون علــيه الأقــوام من مواقف شاذة تجاه رسلهم، فأين الحاجة – حينئذ – إلى الرسالة التى يحملها كل نبى إلى قومه ؟

والجــواب : إن هــذا الســؤال مــا نشــأ إلا من عدم تحديد المراد بالحاجة . ومن ثم نقــول : إن المــراد بالحاجــة : الــنقص الــذى يلحــق طــرفا فــيراد استكماله من طــرف آخــر، بحيــث يكــون الــنقص أمــرا حاصــلا. وهذا النقص يشعر به صاحب الحاجــة لا محالــة ، ومظهــره ذلــك الانحــراف الــذى أشــرنا إلــيه فى قصة لوط مــع قومــه ، ولكــن طلــب اســتكمال ذلــك النقص يتوقف على بواعث داخلية ، متى

توفـــرت تلك البواعث كان طلب الاستكمال أمرا طبيعيا ، وأما إذا لم تتوفر إيثارا لعوامل الإلـــف والعادة والتقليد – فإن الحاجة تظل قائمة مع فقدان الباعث إليها،والمثل الواضح فى ذلك ، مثل المريض مع وجود العلاج على الصورة التى أشرنا إليها من قبل.

وهـــناك صـــورة أخرى لهذا الجواب. ذكرها القرآن الكريم ، وهى أن الرسالات إنما تمثل حجة واضحة لمن آمن بها ومن أعرض عنها على السواء . غير أن جهة حجيتها تخـــتلف باخـــتلاف المقامين ، فهى حجة للمؤمن بها، وحجة أيضا على من لم يؤمن ، وهـــذا يعنى أن مضمون الرسالات ومحتواها ومقاصدها وغاياتها قد استوعبها عقل من آمن بها، لأنها قامت على أساس من الاتساق مع الفطرة والعقل السليم وحرية الإرادة ، وأمـــا من أعرض عنها فلم يرق إلى هذا المستوى ، حيث ظل فى دائرة الجهل وانغلاق الـــروح وإيـــثار التقليد البغيض ، ومن ثم يصح القول بأن الإلحاد ، والكفر ، هو صنو الجهل، وليس موقفا اعتقاديا صحيحا.

إن الحـــق ســـبحانه وتعـــالى ، قـــد عالج فى قرآنه الكريم كل منافذ الاحتمالات فى القضـــية التي معنا ، وكأنه جل وعلا أراد – وهو الرفيق بعباده إلى آخر مدى حتى مع العاصين منهم– ألا يترك للمعاندين سبيلا إلى الاحتجاج ، حتى ولو كان احتجاجهم على ســـبيل المكابـــرة والعـــناد ، إذ لولـــم يكونوا كذلك ، لآمنوا بالحق لما جاءهم، فقرر أن الرسالات الإلهية إنما هى حجة على من لم يؤمن بها– كما أشرنا– حتى لا يكون للناس حجة بعد الرسل ، فقال سبحانه : **﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾** (النساء:١٦٥) ورتب عذاب العصاة على بعثة الرسول فى قوله:**﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل**

عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (الإسراء:١٥).

ومن المؤكد أن كل رسالة من رسالات الله ، قد صادفت عقولا واعية ونفوسا متعطشة إلى معرفة الحق، طالبة طريق الهداية وسبيل الرشاد، وأصحاب هذه العقول وتلك النفوس ، هم الذين اهتدوا فزادهم الحق تبارك وتعالى هدى، وأتاهم تقواهم، ولا عبرة بعددهم من حيث القلة والكثرة أو الوضع الاجتماعى ، فهذه كلها أوضاع عرضية لا تغنى عن الحق شيئا ، إنهم يمثلون أصحاب الحاجة، الذين توفرت لديهم بواعث طلبها والانتفاع بها، ممن أشرنا إليهم من قبل.

وبهذا الذى قدمناه ، يظهر أن الحاجة إلى الرسالة الإلهية تنبعث من طبيعة الإنسان، متى تجرد من جميع العوامل المثبطة، كما أنها ضرورة عقلية، حي تمثل الحجة لمن يدعو إليها فيستجيبون ، وعلىمن يدعون إليها فيعرضون على الوجه الذى ذكرنا.

وما كان لنا أن نذكر أكثر من هذا ، من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حتى لا يطول البحث[1] لنكشف عن قيمة المآسى التى كانت تسيطر على حياة أقوامهم، حين جاءوهم ، تلك التى كانت تشكل خللا نفسيا واعتقاديا وأخلاقيا، كانت أحوج ما تكون إلى من يأخذ بيدها إلى الطريق الصحيح ، وهذا من مقتضيات الحاجة إلى الرسالة لا من موانعها ، فى الواقع ونفس الأمر.

ولعل الذى يرجع إلى سورة الشعراء ليقرأ ما كان عليه حال المجتمعات التى جاءتها الرسالات الإلهية، يدرك تماماً أن الحاجة كانت ماسة إلى تلك الرسالات .

---

[1] آثرت ضرب المثل بقوم لوط ، ولم أشأ أن أمثل بواقع العرب قبل الإسلام، وإن كانت انحرافاتهم أشنع بحيث شملت كل شئ تقريبا ، ذلك لأن أحوالهم معروفة أكثر من أحوال غيرهم ، ومن أراد أن يعرفها فليرجع إلى كتب السيرة المعتبرة ، ومن المراجع المعاصرة التى وفت الموضوع حقه كتاب :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبى الحسن الندوى، فليرجع إليه .(الباب الأول : العصر الجاهلى) ص٣٩ وما بعدها.

ثانيا: حكم إرسال الرسل:

المقصود بالحكم هنا ،هو الحكم العقلى ، وهو ثلاثة أنواع:

١- الوجوب :وهو الثبوت الذى لا يقبل الانتفاء أصلا لذاته.

٢- الإمكان أوالجواز: وهو الذى يقبل الثبوت تارة والنفى تارة أخرى لذاته.

٣- الاستحالة : وهوالعدم أو النفى الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته.

والحق أن إرسال الرسل قد أخذ الأحكام الثلاثة معا، حيث ذهب فريق من الباحثين فى القديم والحديث ، فى مجال علم العقيدة إلى القول بوجوب إرسال الرسل، يشاركهم فريق آخر عبر عن الضرورة باللزوم. كما ذهب فريق ثان إلى القول بالجواز أو الإمكان،وأقر ثالث باستحالة ذلك وهذا ما سنبينه .

مذهب المعتزلة :

فأمـــا الذين قالوا بوجوب إرسال الرسل، فهم جمهور المعتزلة ، وإنما تمسكوا بهذا الحكم اعتقادا منهم بضرورة وصول الألطاف الإلهية إلى مستحقها من العباد وقد فهموا هــذا المعنى من قول الحق تبارك وتعالى :﴿ **الله لطـيف بعباده يرزق من يشاء وهو القـوى العزيـز**﴾ (الشـــورى/١٩) والألطاف عندهم مؤسسة على الحكمة الإلهية، التي علل بها أفعال الحق سبحانه، تلك الحكمة التي مظهرها فعل الأحسن بديلا عن الحسن ، والأصلح بديلا عن الصالح، وهكذا ، فكل الأفعال التي تأخذ مراتب في تقديرها وطبيعتها. فمـــا عـــلا منها فهو واجب فى حق الله تعالى أن يفعله ، بخلاف أفعال البشر، والنتيجة الطبيعـــية لهذه المنطلقات التي تشكل جزءا من منهجهم فى النظر إلى أصول الاعتقاد ، أن تكـــون بعـــثة الرسل أصلح للبشر وأحسن لهم ، وأعون على الاستقامة على طريق الحـــق، ويربطون كلامهم هنا بمذهبهم فى العدل الإلهى ، يقول القاضى عبد الجبار مبينا

هـذا الحكـم:" الكلام فى النبوات ووجه اتصاله بباب العدل ، هو : أنه تعالى إذا علم أن صـلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات ، فلابد من أن يعرفها ، لكيلا يكون مخلا بما هو واجب علـيه ، والأصـل فـى هذا الباب أن نقول : إنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب رفع الضـرر عـن الـنفس. وثبت أيضا أن ما يدعو إلى الواجب، ويصرف عن القبيح، فإنه واجب لا محالة. إذا صح هذا، وكنا نجوز فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك، ولم يكن فى قـوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف، وبين مالا يكون كذلك، فلابـد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال ، لئلا يكون عائدا بالنقص على غرضه بالتكلـيف. وإذا كـان لا يمكن تعريفنا بذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيدا بعلم معجز ، دال علـى صـدقه ، فلابـد أن يفعل ذلك ،ولا يجوز الإخلال به ، ولذا قال مشايخنا: إن البعثة متى حسنت وجبت.[1]

وجمهور الماتريدية يعللون حكم إرسال الرسل بنفس ما ذهب إليه جمهور المعتزلة، إذ هى عندهم مظهر للألطاف الإلهية التى هى مقتضى الحكمة ، وهذه الحكمة هى سبب الخـير العام، الذى يستحيل تركه ، لأنه سفه ، يتنزه عنه البارى تعالى ، كما أن ما علم الله وقوعه ، يجب أن يقع لاستحالة الجهل عليه.[2]

غـير أنه يظهر من كلام الماتريدى فى كتابيه : التوحيد[3] وتأويلات أهل السنة [4] أنه يقول بالإمكان لا بالوجوب ، أى أنه يوافق الأشاعرة ، كما سنرى ، فى الوقت الذى نـراه يـنطلق مـن نفـس مـنطلق المعـتزلة، ويظهـر أن مفهـوم "الوجـوب" قـد

---

(1) شرح الأصول الخمسة :ص ٥٦٤.
(2) التفتازانى: القاصد ج٢ ص١٧٤.
(3) ص ١٧٩.
(4) جـ ١ ص ٢٨٤. وانظر : د/ المغربى : إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدى ص٣٥.

يحــدث فــى النفس شيئا يتنافى مع حرية الإرادة ، من ثم نقرر فى اطمئنان ، أن القول بالإمكان بديلا عن الوجوب، كان أمرا متصلا بالقلب أكثر من اتصاله بالعقل، كما سنبين فى موضوعه عند حديثنا عن الأشاعرة.

وأمــا الفلاســفة الإســلاميون فقد قالوا بلزومها، وليس هناك من فرق بين اللزوم والوجوب ، إذ كلاهما يحمل معنى عدم التخلف ، غير أن الفلاسفة ينظرون إلى المسألة بعيــن تــنطلق مــن طبــيعة ذات واجب الوجود وحده ، دون النظر إلى حاجة الإنسان المقتضية لإيصال الألطاف إليه. وهذا الملحظ قد عبروا عنه بأن طبيعة واجب الوجود ، الــتى هى خير محض ، يلزمها أن يفيض عنها ما يكون امتدادا وتعبيرا عن هذا الخير، كلازم لتلك الذات الخيرة.[1]

ولهم فى هذا المقام كلام طويل ، يتمثل بما نحن بصدده ، بالخصائص التى ينبغى أن يحوزها الرسول ، ذكرها صاحب المواقف بقوله :" وأما الفلاسفة فقالوا هو – أى النبى – من اجتمع فيه خواص ثلاث:

أولهــا: أن يكون له اطلاع على المغيبات ، ولا يستنكر ذلك ، لأن النفوس الإنسانية مجــردة ، ولها نسبة إلى المجردات، المنتقشة بصورة ما يحدث فى هذا العالم، وتشاهد ما فيها فتحكيها ، ويؤيده ما ترى النفوس وما هى عليها من التفاوت فى طريق الزيادة والنقصان ، متصاعدا إلى النفوس القدسية، ومتنازلا إلى البليد ، الذى لا يكاد يفقه قولا. وقد يوجد فى من قلت شواغله لرياضة أو مرض أو نوم.[2]

---

(1) التفتازاني : المقاصد جـ ٢ ص ١٧٤ .
(2) المواقف : جـ ٨ ص ٢١٨ .

وثانيهما :أن يظهر منه الأفعال الخارقة للعادة، لكون هيولى عالم العناصر مطيعة له، منقادة لتصرفاته انقياد بدنه لنفسه ، ولا يستنكر ذلك لأن النفوس الإنسانية مؤثرة فى المواد ، كما نشاهد من الاحمرار والاصفرار والتسخن عند الخجل والوجل والغضب، فلا يبعد أن تقوى نفس النبى ، حتى تحدث بإرادته فى الأرض رياح وزلازل وهلاك أشخاص ظالمة وخراب مدن فاسدة.[1]

وثالثها: أن يرى الملائكة مصورة، ويسمع كلامهم وحيا ، ولا يستنكر أن يحصل له ذلك فى يقظته، مثل ما يحصل للنائم فى نومه ، لتجرد نفسه من الشواغل البدنية ، وسهولة انجذابه إلى عالم القدس ، وربما صار ملكة ، ويحصل بأدنى توجه .[2]

والواقع أن كلام الفلاسفة هنا مبنى على فهم خاطئ لطبيعة النفس البشرية ، حتى فى حالة صفائها، فهى لا تؤثر فى شئ لذاتها، لأن المؤثر فى الوجود كله ، هو الحق تبارك وتعالى. والنتيجة الطبيعية لكلامهم هذا ، أن تكون النبوة استحقاقا واكتسابا ، وليست هبة واصطفاء. وهذا ما يرفضه العقل والدين وقد رد عليهم جمهور المتكلمين ، ومنهم صاحب المواقف فليرجع إليه..[3]

مذهب الأشاعرة فى حكم إرسال الرسل:

قرر الأشاعرة أن إرسال الرسل ، هو الجواز والإمكان، لا الوجوب كما ذهب إلى ذلك المعتزلة ، ولا اللزوم كما قرر ذلك الفلاسفة ، والمبدأ الذى قرروا به هذا الحكم ،

---

[1] نفس المصدر.
[2] نفس المصدر.
[3] سنوفى هذا الموضوع حقه عند دراستنا للنبوة كما يراها الفلاسفة فيما سيأتى.

هــو أن النــبوة أو إرســال الرسالة لطف كما يقول المعتزلة ، ولكن اللطف عندهم غير واجــب علــى الله ، لأنه مختار فى فعله ، فالحكمة ، أو اللطف ، إنما هى صفات الفاعل المخــتار، وينبغى أن نفهم هذين الأمرين فى ضوء هذه الحقيقة ، إذ الوجوب أو اللزوم ينافى ذلك . والقرآن الكريم يقرر أن الحق سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وهو فعال لما يــريد، وقــد اعتــبرهم " الشهرستانى " أهل الحق- وهو واحد منهم- فقال : " قال أهل الحــق: قــام الدلــيل على أن الرب تعالى خالق الخلق ومالكهم، ومن له الخلق والأمر والملك، له أن يتصرف فى عباده بالأمر والنهى، وله أن يختار منهم واحدا لتعريف أمره ونهــيه فيــبلغ عــنه إليهم، فإن من له الخلق والإبداع ، له الاختيار والاصطفاء، وربك يخلق ما يشاء ويختار.[1]

وهــذا الــذى ذكــره الشهرســتانى هــو مذهب جمهور الأشاعرة . الأشعرى[2]- الجوينى[3]- غير أن الغزالى يرى أنها واجبة من جهة ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، وهو بهذا يكاد يردد كلام المعتزلة والفلاسفة .[4]

ويظهــر مما سبق ، أن الطوائف الثلاث :الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة الإلهيين ، يــنظر أهل كل طائفة منها إلى المسألة بحسب تصوره للذات الإلهية وعلاقتها بالإنسان، ويجمعهــا : الاعتقاد بأن الرسالة الإلهية لطف من الله تعالى، ولكن كلا منها تختلف عن الأخــرى فى تفسيرها للألطاف الإلهية، فبينما يرى أهل السنة- انطلاقا من مذهبهم فى أن الحــق سبحانه لا يجب عليه شئ حتى لا يصطدم ذلك بالمشيئة والإرادة الإلهية- أن الألطــاف الإلهــية هــى مظهر للفاعل المختار فى فعله ، وإيصالها إلى البشر أمره اليه سبحانه . ومن ثم فلا يجب عليه شئ، نرى المعتزلة ينظرون إلى اللطف الإلهى على أنه

---

[1] نهاية الأقدام: ص ٤٢٠.
[2] الإبانة :ص٧٥.
[3] الإرشاد :ص ٣٠٢.
[4] التفتازانى : شرح العقائد النسفية ص ١٢٣.

واجــب لذات الحق سبحانه وتعالى ، لا من قبيل الواجبات التى تفرض على الفاعل من الخارج ، ويظهر أنهم يستندون فى هذا إلى أمرين واضحين:

أولهمـــا: مقتضــى الحكمة الإلهية . ذلكم لأن الحق سبحانه وتعالى حكيم فيما يفعل، ولمــا كــان كذلــك فإن من الحكمة أن يبعث إلى كل أمة رسولا يأخذ بيدها إلى الطريق الحق، بحيث يكون ذلك أمرا مطردا لا يتخلف.

ثانـــيهما: أن الإيجاب الذى قالوا به إنما يرجع إلى مقتضى الذات الإلهية . وليس له مصدر غيرها ، ويساعدهم على هذا الفهم بعض النصوص القرآنية التي جاءت لتبين أن الحــق جل وعلا قد كتب على نفسه أشياء يصل أثرها إلى عباده مثل قوله تعالى :**﴿قــل لمــن مــا فــى الســموات والأرض قــل لله كتــب عــلى نفســه الــرحمة..﴾** (الأنعام:١٢). فالآية ظاهرة الدلالة على أن إيجاب الرحمة على الله تعالى أمر ذاتى له ســبحانه ، هــو من مقتضى علاقته بخلقه .وهذا مظهر لصفة كمالية يرددها المسلم فى صــلاته كــل يــوم ســبع عشــرة مــرة علــى الأقل، جاءت مرة على صورة متفردة " الرحمن " وأخرى على وزن صيغة المبالغة " الرحيم".

وأمــا الفلاسفة الإلهيون ، فقد جاء حكمهم موافقا لاعتقادهم فى أن ما يتوقف عليه الــنظام فهــو لازم ، وأن واجــب الوجــود خير محض، ومن خيريته يلزم نظام الحياة البشرية ، التى لا تكون إلا ببعثة رسول.

ونحــن لا نرى فرقا كبيرا بين الطوائف الثلاث ، من حيث جوهر القضية ، اللهم إلا فى طريقة التعبير عنها، والقرآن الكريم قد بين أن جميع الأمم والشعوب قد أدركها لطف الله سبحانه ببعثة الرسول، فى صيغة يظهر منها أنها أمر لازم ، جاءت هذه الصيغة فى أســلوب حاصــر، بحيــث يبيــن منه، أن أمر الرسالة لم يتخلف أبدا، قال تعالى :**﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾** (فاطر:٢٤)

كما جاءت فى القرآن الكريم آيات تقرر القضية على سبيل البيان تارة، مثل قوله : **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة...﴾** (النحل :٣٦) وأخرى على سبيل توقف العذاب على بعثة الرسل، كما فى قوله :**﴿... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾** (الإسراء : ٢٥). إن هذه الآيات فى جملتها تقرب بين وجهات النظر التي قالت بها هذه الطوائف فى القضية التي معنا.

والآن نخص طائفة القائلين بالاستحالة بدراسة خاصة حتى نستكمل أقسام الحكم العقلى، التى صدرنا بها هذا المبحث.

ثالثا : المنكرون للرسالة الإلهية: [1]

أنكر الرسالات الإلهية طوائف أربع:

١ – الطائفة الأولى

أولـــى هـــذه الطوائف لم تقل بالإنكار صراحة ، ولكنها أنكرت لوازم الرسالة ، من نزول الملـــك بـــالوحى ورتبـــت على ذلك : إنكار ما يخبر به الرسول من الأمور التي يتوقف الإيمـــان بهـــا على السماع ، فى عرف المتدينين ، كالحشر والحساب والجنة والنار ... الخ . والمسألة هنا واضحة فى أن هذا الإنكار إنما هو تكذيب للنبى فيما أخبر ، وإطاحة بالدين من أساسه ، لأنه فى عرف المسلمين منهج إلهى سائق لذوى العقول باختيارهم، إلـــى ما فيه صلاحهم فى الحال والمآل ، ولن يتأتى ذلك إلا بواسطة الوحى ، الذى يحمل خـــبر المرسِـــل (بكســـر الســـين) إلى المرسل (بفتح السين) والإخبار الصادق هو مناط

---

[1] التقسيم العقلي يقتضى أن يكون هذا المبحث داخلا ضمن المبحث السابق (حكم إرسال الرسل) لأن الإنكار حكم ، ولكنى آثرت أن أجعل له عنوانا خاصا لأهميته ، وقد ذكرت ذلك من باب الاهتمام ببعض أجزاء الكل ، لما له من خصوصية.

الرســالة ، والظاهــر أن حكم هؤلاء قائم على فهم خاطئ للنبوة ، كما يظهر أن الشبهه التــي بــنى عليها هؤلاء الذين جاء إنكارهم للنبوة بإنكار لوازمها ، إنما جاءت من عدم قدرتهــم علــى تصــور نزول الملك، الذى يحمل الوحى إلى النبى ، لعدم إمكان اختراق الســماء فــى نظرهم ، كما أنهم من ناحية أخرى : ينكرون كل ما لا يقع عليه الحس ، ويــزعمون أن المغيــبات لا وجود لها ، من ثم ينتهون إلى قضية ، لا يشاركهم فيها إلا مــن أخــذ بمذهبهم ، وهى أن الوجود كله مادى فقط . وهذا تصور ناقص للوجود ، إذ الوجــود الحقيقى له جانبان ، أحدهما مادى والآخر معنوى ، والثانى آكد من الأول فى درجة الوجود ، والشعور به مسألة فطرية لا يمكن إنكارها . وعدم اعتراف هؤلاء به لا يعــنى أن كلامهــم صــحيح ، فعــدم علمهم إلا بوجه واحد لهذا الوجود – وهو الوجود المادى – لا يعنى عدم الآخر ، وهو المعنوى : لأن عدم العلم ليس علما بالعدم كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية.

وتحدثنا كتب الفرق أن أحد المنتسبين إلى طائفة السمنية – طائفة هندية كانت تــنكر الرســالات ، بل تنكر الإله كذلك لأنه ليس مادة – ناظر أحد المسلمين فى قضية الوجــود ، زاعماً أنه ليس وراء المحسوسات وجود آخر ، ورتب على هذا أن النظر لا يفــيد العلــم ، وليس هناك من معارف سوى ما يدركه الحس وحده . وانتهت المناظرة بهــزيمة الســمنى وانتصار المسلم عليه[1] وهناك فريق من المنكرين يقترب موقفه من موقــف هــؤلاء وهــم الصــابئة المشركون ، فقد أنكر هؤلاء النبوة لقولهم بالمتوسط الــروحانى ، أمــا المتوسط من البشر فهو فى نظرهم لا يصلح ، يقول الشهرستانى فى تصــوير رأيهــم : "فالصــابئة كانــت تقــول: إنــا نحــتاج فــى معــرفة الله تعالى ،

[1] انظر : الرد على الجهمية صـ ٣١٤ ومذهب الذرة عند المسلمين صـ ١٢٩ ، وكذلك كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ ١ ص ٥٢.

ومعـرفة طاعـته وأوامـره وأحكامـه الى متوسط ، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا ، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسمانى بشر مثلـنا ، يـأكل ممـا نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا فى المادة والصورة ، قالوا : **﴿ ولـئن أطعـتم بشـرا مـثلكم إنكم إذن لخاسـرون ﴾** [1] ووجـه الشبه بين هؤلاء وأولـئك أن فـريقا منهم – وهم السمنية – أنكر المتوسط الروحانى – الملك ... الخ – وهـو لازم للنـبوة ، وأما هؤلاء فقد أنكروا المتوسط البشرى وهو عين النبى ، فكأنهم قـالوا بمتوسـط من نوع خاص ، وهذا الذى ذهبوا إليه هو الذى بين القرآن الكريم ما يترتب عليه من إشكال ، فى قوله : **﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾** .

٢- الطائفة الثانية :

والطائفــة الثانــية أنكرت الرسالة صراحة، وهي طائفة من "البراهمة" وأسست إنكارها علـى كفايــة العقــل فــي إدراك الخير والشر، من ثم تصبح بعثة الرسل عبثاً لا يليق بالحكــيم، قــالوا: لأن ما يجئ به الرسول – على فرض التسليم ببعثته – إما أن يكون موافقاً للعقل، وإما أن يكون مخالفاً له، فإن كان الأول، كان مجيئه عبثاً، لأن العقل كاف في ذلك، وإن كان الثاني كان إرساله عبثاً كذلك، لأنه أتى بمالا يدركه العقل.

٣- الطائفة الثالثة:

والطائفــة الثالثة – وهم بعض البراهمة أيضاً – تقرر أن الشرائع مشتملة على أمور لا فــائدة مــنها ، لا للعــبد ولا للرب ، فالفرائض والواجبات التى تجئ بها الرسالات فيها مشقة على العباد ، ولا يعود على المعبود منفعة منها.

---
[1] الملل والنحل جـ ٢ ص ٧

٤ - **الطائفة الرابعة.**

والطائفـــة الـــرابعة أنكـــرت الرسالات بإنكارها للمعجزة التى تقوم عليها ، لأن العقل لا يصـــدقها ، ولا يصح الاعتماد عليها فى تقرير صحة دعوى الرسالة لجواز أن تكون من قبيل السحر والتخييل.

والحـــق أن الطائفـــة الثانية من بين الطوائف الأربع ، هى التى ينبغى أن نبين موقفهـــا بشئ من التفصيل ، لأن القول بشريعة عقلية تحل محل الشريعة الإلهية ، قول يـــتردد فـــى كل جيل وفى كل قبيل ، وبيان الدوافع والأسباب لظهور مثل هذا القول ، ثم الإتيان على الأساس الذى قام عليه أمر تقتضيه الدراسة.

وقد صور "البغدادى" موقف هؤلاء على الوجه الآتى. فقال: إن "البراهمة" أثبتوا التكاليف من جهة العقول والخواطر ، من ثم أبطلوا كل ما يتوقف الإيمان به على الوحى ، زاعمين أن كل عاقل من العقلاء لا يخلو قلبه من خاطرين ، يأتيه أحدهما من عند الله تعالى ، يلفت نظره الى مواقع الأدلة يستنبط منها "العقل" المدلول ، ومن ذلك معرفة الله تعـــالى وتوحـــيده . وثانـــيهما من قبل الشيطان ، يحرضه على معصية الخاطر الأول . وعللوا ذلك بأن وجود الخاطر الثانى ضرورى ليعتدل بهذين الخاطرين للإنسان دواعيه ، ويكون – حينئذ – مخيرا بين أحد الخاطرين ، ولول كان الأمر بخلاف ذلك لكان الإنسان مضـــطراً ، فلا يكون مكلفا لأنه لا تكليف مع الإلجاء ، ولا يكون الاختيار إلا حين تكون البدائل. [1]

ولم تقف هذه الطائفة عند تقرير هذه الشبهة – شبهة كفاية العقل عن الرسالة – بـــل زعمـــت أن الرســـل قـــد جـــاءوا بإباحة ما لا يقره العقل من ذبح البهائم وإيلام الحيوانات ، وتحميل العاقلة الدية عن القاتل ... الخ.

---

[1] البغدادى : أصول الدين صـ ١٥٥

ويلاحـظ هـنا أنهـم جعلـوا العقل أساس الحكم على الأشياء تحسينا وتقبيحا وبالضرورة حكما عليها ، كما رأينا فى استنكارهم ذبح البهائم.

هـذه شـبهتهم ، وهذا موقفهم من النبوة ، وسيأتى الرد على هذه الطائفة مع غيرها . ويظهر أن هذه الفرقة كان لها تأثير على أصحاب الاتجاه الاعتزالى وبخاصة : المسرفون منهم فى تقدير قيمة العقل كالنظام ومن وافقه[1].

الأسباب والدوافع:

وقـبل أن نرد على هذه الطوائف الأربع ، ينبغى أن نلقى نظرة سريعة على ما حـدث فـى القـرن الثانى الهجرى فى محيط الفكر الإسلامى ، من وجود اتجاه تشكيكى مسرف ، حمل لواءه بعض الأغرار الموتورين ، من أصحاب الديانات القديمة كالبرهمية والمجوسـية ، الذيـن اعتقدوا أن الإسلام قد عفا على ديانتهم بغير حق ، وانتزع منها سلطان الحضارة والمدنية ، فتحركت نفوسهم الى معارضته والكيد له ، لأسباب ودوافع نفسـية ترتـبط بعقائدهم القديمة ، التى ظلت فى قلوبهم ، وذلك بالتشكيك فيه ، بإثارة الآراء والأفكار الشاذة ، فالبرهمية الهندية تثير الشكوك حول النبوة ، على الوجه الذى أشرنا إليه فى إيجاز ، والثنوية الفارسية بكل اتجاهاتها تنفث سمومها لتنال من التوحيد الإسلامى ، وتقول بالأصلين القديمين [2] ، اللذين يحكمان الوجود : إله الخير وإله الشر ، ويرمز لهما بالنور والظلمة ، ولهم فى ذلك كلام طويل ، هو الى الخيال أقرب منه الى المنطق والعقل. [3]

---

(1) نفس المصدر

(2) الشهر ستانى : الملل والنحل جـ ١

(3) انظر كتابنا : العقيدة الإسلامية جـ ١ صـ ١٠٣

إن التراث الإسلامى قد حفظ لنا ما كان يفعله أمثال : بشار بن برد وصالح ابن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، فى مجالسهم الخاصة، التى كانوا يعقدونها لاستحداث آراء شاذة ، تنال من الإسلام وأصوله ، واتخذت هذه الآراء أشكالا متعددة وصورا مختلفة ، حتى يمكن أن يكون لها تأثير على العقول والنفوس ، فبشار يتبنى فكرة : تمجيد النار وتقديسها ، وهى فكرة ثنوية كما نعلم ، ويقول فى ذلك شعرا يظهر منه هذا المعنى ، ويرتب على هذه الفكرة الخبيثة أفضلية إبليس على آدم عليه السلام، لأنه من الطين وإبليس من النار ، فيقول:

إبليس أفضل من أبيكم آدم	فتذكروا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة	والطين لا يسمو سمو النار

إنه بذلك يريد نقض القضية التى بينها القرآن الكريم ، حين ذكر الحوار الذى دار بين الحق تبارك وتعالى وبين الملائكة ، لما أمرهم بالسجود لآدم ، ثم حسم القضية بقول الحق تبارك وتعالى: **﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾** (البقرة : ٣٠) ثم يقرر بعد ذلك أن إبليس كان على صواب حين خرج على الأمر ، شعورا منه بأن عنصره أفضل من عنصر آدم ، كما قال القرآن مصورا تبريره لعصيان الأمر بالسجود : **﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾** (الإسراء : ٦١) وقوله : **﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** (الأعراف : ١٢) من أجل هذا وغيره انتظم "بشار" فى سلك الزنادقة . الذين تظاهروا بالإسلام ، ولكنهم كانوا على دين المجوس ، وبخاصة ديانة "مانى" يشاركه فى هذا : الأفشين ، وحماد وابن المقفع ، كما يذكر ذلك عنهم "الجاحظ". [1]

---

[1] الحيوان : جـ ٤ صـ ١٣٦ . أنظر أيضا : أحمد أمين . ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٥٤

وتؤلف كتب فى "الشكوك" وتوضع أخرى فى الحديث ، تنسب إلى الرسول صلى الله علـيه وسـلم مـا لـم يقله ، وتبدو حركة الزندقة بكل أنواعها ، على ألسنة بعض الشـعراء ومـن يدعون العلم ، زندقة ، كان مظهرها : التهتك والاستهتار مع تبجح فى القـول ، يصل إلى ما يمس الدين ، لم يقله صاحبه عن نظر ، بل عن خلاعة وفجور . وأخـرى تقـوم علـى النظر ، واتباع فلسفة بعينها مع إظهار الإسلام فى الشكل فقط . واتـباع دين المجوس ، وثالثة مظهرها الإلحاد [١] . وبالجملة : يمكن القول بأن العصر العباسـى الأول [٢] مـنذ بدايـة عصر أبى جعفر قد ظهرت فيه تلك الحركات المتطرفة لعوامل كثيرة يذكرها المؤرخون ، لعل على رأسها : أن ملك بنى العباس قام على أكتاف الموالى ، وكان معظمهم من الفرس ، ذوى الديانات القديمة ، غير أن هؤلاء الخلفاء لم يدخـروا وسـعا فـى الحفاظ على الدين ، والدفاع عن حماه ، فمنذ أبى جعفر والهادى والمهـدى ، رصد للزنادقة من يقوم على تتبعهم والأخذ على أيديهم ، وفى نفس الوقت شـجع الخلفـاء العباسيون علماء الكلام – وبخاصة المعتزلة – لمجادلة هؤلاء ، فأبلوا بـلاء حسـنا فى ذلك ، وكان لواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والعلاف والنظام أثرهم الواضح فى جدال هؤلاء وقطعهم. [٣]

وكانـت النـبوة من بين العقائد المستهدفة على الوجه الذى بينا ، ضمن الدين عموما ، وقد كان القرنان الثانى والثالث الهجريان مسرحا لهذه الحركات الشاذة . ولكن الواقـع كـان أقـوى منها بكثير ، فقد تولد عن ذلك كله ، أن ظهر بشكل واضح جدا ، الاتجـاه الإيمـانى، الـذى يدعـو جمهـور الأمة إلى التمسك بحقيقة الدين ، والإيمان بالرسـالات الإلهـية ، وتأكـيد عقـيدة النـبوة ، هـذا بجانـب الاتجاه العلمى ، الذى

---

[١] أحمد أمين . ضحى الإسلام : صـ ١٥٤
[٢] د. حسين عطوان . الزندقة والشعوبية فى العصر العباسى الأول.
[٣] أحمد أمين . ضحى الإسلام : جـ ١ صـ ١٤١

تولى – بتوجيه الخلفاء – جدال الخصوم كما ذكرنا . ومن ثم وقف السواد الأعظم من المؤمنين فى وجه هذا التيار الإلحادى الجارف[١] .

والآن نقف مع بعض الشخصيات التى كانت لها مواقف من النبوة بطريقة فلسفية.

١ - ابن الروانِدى.

خصصنا هذا المفكر بالدراسة من بين أصحاب الاتجاه الإلحادى تجاه الدين عموما والنبوات على وجه أخص ، لما كان له من تأثير فى محيط الفكر الإسلامى، حيث دعمت آراؤه الإلحادية بنوع من التفلسف ، الذى قد يظن أنه تفكير منظم ، أى أنه فلسف إلحاده ، وبعد عن منهج الاتهام الساذج للأديان ، كما كان الحال شأن غيره ، لا سيما وأن الرجل يدعى أنه مسلم ، غير أن الكتب تتحدث عنه [٢] فتقرر أن أجداده الأعلون كانوا يهودا ، ويغلب على الظن أن غلبة دين آبائه وأجداده كانت وراء إلحاده.

كان معتزليا فى مطالع عمره ، وأغرم كثيرا بمنهج المعتزلة ودقة خواطرهم فى الغوص وراء المعانى ، وتعرضهم لدقيق الكلام ، ولكنه ترك الاعتزال لأسباب لم تعرف بعد على سبيل التحقيق ، وانقلب خصما لهم ، بل ألف كتابه "فضيحة المعتزلة " نسب إليهم أشياء لم يقولوها ، وفسر أقوالهم بمنهجه الخاص ، فعل الخصم اللدود ، الذى يحاول أن يلصق بخصمه كل اتهام. فلم يكن من هؤلاء إلا أن دافعوا عن أنفسهم ومنهجهم ، وانتدب "الخياط" نفسه ليكون مدافعا عنهم فى كتابه الانتصار

[١] انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان . لترى ترجمة هؤلاء النفر الذين مثلوا كتيبة الإيمان فى مواجهة هذا التيار ، أمثال : عبد الله بن المبارك . وسفيان بن عيينه ، وداود الطائى ، والفضيل ابن عياض.

[٢] انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ١ صـ ٩٤

كما ألف الجاحظ كتابه المعروف "فضيلة المعتزلة" ليثأر لهم من ذلك الخارج عليهم.

والحقـيقة أن كـل المصادر تكاد تجمع على إلحاد "ابن الراوندى" ومروقه عن الديـن وطعـنه عليه ، يستوى فى ذلك من كتب عنه من العرب المسلمين ، ومن تناوله بالدراسـة من الغربيين ، ولعل أوفى دراسة ظهرت حتى الآن عن هذا الرجل ، هى تلك الـتى قـام بهـا الدكتور عبد الأمير الأعسم وعنوانها : "ابن الراوندى" فى المراجع العربـية الحديثة . [1] وقد نقل المحدثون أقوال القدامى عنه ، بحيث لم يزيدوا شيئا فى ذلـك ، وردد الباحثون الغربيون أقوال الشرقيين، والباحث نفسه قد نقل أقوال السابقين الـتى نسـبوا محتواها إلى ابن الراوندى ، وينقل عن ابن خلكان أن للرجل أكثر من مائـة كتاب [2] لم يبق منها شئ اللهم إلا شذرات متفرقة ، معظمها فى كتب خصومه . وهـذا كلـه يجعل الحكم عليه غير دقيق. وأما ما يتصل بموضوعنا فيذكر قول صاحب الانتصـار عـنه : "وقـال فى كتاب "الدامغ" : إن الخالق سبحانه وتعالى ليس عنده من الـدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب ورسول" [3] ويبدو أن أمر "ابن الراوندى" لم يخف على بعض "اليهود" المخلصين للدين ، فنبه إلى خطورة الـرجل ، مشـيرا إلى ما كان يفعله آباؤه اليهود فقال: "ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا".[4]

والـذى يقـرأ ما نسب إليه فى كتابه "الزمردة" يرى إنكاره للرسل صراحة، كما يذكـر ذلـك "نيبيرج" فى مقدمة كتابه "الانتصار" للخياط ، وفى كتابه "الفرند" يطعن على

---

[1] يقع الكتاب فى مجلدين متوسطين ط دار الآفاق الحديثة – بيروت ١٩٧٨.
[2] جـ ١ صـ ٩٤ ويذكر أن له من الكتب نحوا من أربعة عشر ومائة كتاب.
[3] ابن الراوندى جـ ١ صـ ٩٦.
[4] معاهد التنصيص جـ ١ صـ ٧٦ نقلا عن د. مدكور . فى الفلسفة الإسلامية. صـ ٨٤.

رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكان يكفى الرجل أن يطعن فى النبوات بصفة عامـــة ، بطعنه فى الأساس الذى تقوم عليه ، وهو المعجزة ، وفى هذا كفاية عن الطعن مـــرة ثانـــية فى رسالة النبى الخاتم ، ولكن يظهر أن أحقاده هى التى دفعته إلى معاودة هـــذه المطاعن ، تنفيسا عن تلك الأحقاد . وسيأتى ردنا عليه وعلى غيره فى محله من هذه الدراسة.

أما كتابه الذى طعن فيه على النبوات ، فقد كان مجهولا إلى عهد قريب ، حتى اكتشـــف "بـــول كـــراوس" بعـــض المخطوطـــات الإسماعيلية فى الهند ، وهى جزء من المجـــالس المؤيدية التى تنسب إلى المؤيد فى الدين، هبة الله بن أبى عمران الشيرازى داعـــى الدعـــاة الإسماعيلى ، فى عهد الخليفة الفاطمى المنتصر بالله ، وهى عبارة عن ثمانمائـــة محاضـــرة ألقيـــت فى دار العلم بالقاهرة ، فى القرن الخامس الهجرى ، وقد جمعت كثيرا من القضايا الإسلامية الهامة . وفى المجالس : من السابع عشر إلى الثانى والعشـــرين مـــن المائة الخامسة ، يتناول المؤلف قضية النبوة ، ويرد عليها ، وقد قام بـــول مـــراوس بترجمـــتها إلى اللغة الألمانية والتعليق عليها، ونشرها سنة ١٩٣٤ فى مجلة الرفستا الإيطالية.[(١)]

ويظهـــر مـــن أسلوب "ابن الراوندى" فى عرض آرائه اختفاءه وراء غيره من أصـــحاب الاتجـــاه المعـــادى للنـــبوات ، والبراهمة هنا هم أساتذته ، فهو يردد أفكارهم وآراءهـــم الـــتى ألمحنا إليها من قبل ، وأساسها الاكتفاء بالعقل ، على اعتبار أنه مناط التكلـــيف ، وفى قدرته إدراك الخير من الشر والحسن من القبيح .. الخ ، ثم من جانب آخـــر : إذا كانـــت النـــبوة تقـــوم علـــى المعجـــزة علـــى اعتـــبار أنهـــا دلـــيل

(١) د. مدكور . فى الفلسفة الإسلامية صـ ٨٥.

صـــدقها . والمعجـــزة أمر غير مصدق – عقلا – كما يزعمون ، فإن ما قام عليها يكون مردودا . وسيأتى ردنا على هذه الدعاوى بعد ذلك.

٢- الرازى الطبيب:

شخصية غير عادية ، ملأت القرن الثالث الهجرى صخبا وضجيج بما ساقه من آراء فـــى الدين ، كانت وليدة ثقافته الواسعة ، واعتزازه بعقله ، وسيقتصر حديثنا عنه علـــى هـــذا الجانب فقط . وسنعتمد فى تحليلنا لآرائه على ما كتبه عنه بعض القدامى . أمـــثال : البيرونى ، ونصير خسرو، وحميد الدين الكرمانى ، وأبى حاتم الرازى ، ومن المحدثيـــن أمـــثال: بول كراوس والدكتور إبراهيم مدكور. لأن كتب الرازى ورسائله فى هـــذا الجانب لم تصل إلينا ، وإنما هى شذرات متفرقة منسوبة إليه فى كتب هؤلاء الذين ذكرناهم من القدامى ، ولقد استطاع المحدثون أن يحكموا عليه من خلال ما تناقلته عنه كتب السابقين.

يذكر البيرونى أن الرازى كان صاحب منهج فلسفى خاص ، ينزع إلى الاستقلال وترك التقليد ، من ثم لم يقف من فلسفة أرسطو موقف المقدر لها ، والواثق منها ، كما فعل بعده أصحاب الاتجاه المشائى فى العالم الإسلامى ، أمثال : الفارابى وابن سينا وابن رشـــد ، ولكـــنه نظـــر إليها بعين الناقد البصير ، يستوى فى ذلك : نظرياته الطبيعية ، وآراؤه الفلســـفية الميتافيزيقـــية ، وهـــو فـــى نفس الوقت يقدر المذاهب الشرقية من المزدكية والمانوية والهندية [١] وفى هذا الموقف تجاه الفكر الشرقى الممثل فى المذاهب الدينية الوضعية ، ما ينبئنا سلفا عن الأفكار التى يمكن أن تفرزها فلسفة "الرازى" تجاه الديـــن الســـماوى بصـــفة عامـــة ، والإســـلام بصـــفة خاصـــة . واذا كانـــت الفلســـفة اليونانـــية ممـــثلة فـــى المعلـــم الأول ، محـــل مؤاخـــذة واســـتدراك لديه ،

---

[١] البيرونى : رسالة فهرست كتب محمد بن زكريا ، وأبى حاتم الرازى : أعلام النبوة صـ ٤٢ نقلا عن : د: مدكور فى الفلسفة الإسلامية صـ ٤٩

فــى الوقــت الذى رأيناه يعلى من قدر الفكر الشرقى ، كما ألمحنا، فإن النتيجة الطبيعية لذلــك أن يقرر أن هذا الفكر الذى امتزجت فيه عناصر الفلسفة بالدين ، هو الذى ينبغى أن يكــون المعــيار الــذى فى ضوئه ينظر إلى الأديان السماوية ، إنها نزعة غريبة ، ومعــيار جديــد وخطــير . من ثم رأيناه يقرر أن المحاولات التى تبذل فى التوفيق بين عناصــر كــل من الدين والفلسفة إنما هى محاولات محكوم عليها بالفشل ، وكأن الرجل كــان يــنظر بعين المستقبل إلى ما فعله الفارابى وابن سينا ، ومن شايعهما من فلاسفة الإســلام فــى هــذا الســبيل ، غير أنه وقف على الطرف المقابل لأولئك الذين رفضوا التوفيق بينهما ، بحجة أنه توفيق بين معصوم ، وهو الدين الذى طريقه الوحى ، وغير معصــوم ، وهو الفلسفة التى هى من عمل العقل البشرى ، الذى يصيب ويخطئ ، ذلكم لأن "الــرازى" يعــتقد تمام الاعتقاد بعكس ما يعتقد هؤلاء . حيث يذهب إلى أن السبيل الوحــيد لإصــلاح الأفراد والجماعات ، إنما هو الفلسفة وحدها ، وأما الأديان فقد كانت مدعــاة للتــنافس والتــناحر والتطاحن، بين من آمن بها ومن صد عنها ، بل إن تعدد الأديــان أدى إلــى تعدد الاتجاهات ، وأصبح بينها صراع حاد ، بسبب أثر كل منها فى نفس معتنقيه ، وما يمثله من استقطاب تجاه الأديان الأخرى. [1]

مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين ، ونقض الأديان:

هذان الكتابان نسبهما البيرونى وغيره إلى "الرازى" وهما من الكتب التى تحوى بين دفتيها "الكفريات" وقد وجد الزنادقة فى الكتاب الأول من هذين الكتابين ضالتهم التى ينشــدونها ، لأنــه يوافــق معــتقداتهم الــباطلة ، ولأن مــنهجه يحمل طابعا فلسفيا ، وكــون هــذا الكــتاب صــادرا عــن مســلم – ولــو بالاســم – له دلالــة أخــرى يطمئن إليها كل اتجاه منحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وهو أن هذا الانحراف الذى

---

[1] نفس المصدر ص ٨٩ .

هو قمة الاعتدال لديهم قد طال شخصية فذة ، لها قدرها فى الأوساط الفكرية والعلمية ، لـذا رأينا لهذا الكتاب تقديرا وقبولا لدى القرامطة وغيرهم ، ممن لهم موقف مضاد من الإسلام ، إما برفضه – كما هو حال الزنادقة – أو بتأويل نصوصه ومبادئه على وجه لا يقره عقل صريح ولا دين صحيح ، كما هو حال القرامطة وجميع الباطنية عموما.

إن الذى يروج من الكتب والأفكار – غالبا – ؛ فإما أن يكون فى نهاية الاعتدال وتحـرى الحـق ، وهـذا له أنصاره من أرباب الحق ودعاته ، وإما أن يكون فى نهاية الانحراف والصد عن طريق الهدى والرشاد – وهذا أيضا – له أنصاره من دعاة الباطل وحماتـه . ونحسب أن كتاب "الرازى" كان من هذا النوع ، والذى يطالع المناقشات التى أودعهـا "أبو حاتم الرازى" فى كتابه "أعلام النبوة" يلاحظ أن الداعية الإسماعيلى لم يذكـر "أبـا بكر الرازى" إلا بصفة "الملحد" وهو هنا يعتمد على نصوص الرازى نفسه ، الـتى يبيـن مـنها ما يبرر وصفه بهذه الصفة . وقد أورد "بول كراوس" فى كتابه عن الرازى : رسائل فلسفية . مضاف إليها قطعا من كتبه المفقودة [1] بعضا من المناظرات الـتى تمت بين الرازيين "أبى حاتم" (صاحب كتاب أعلام النبوة) وأبى بكر محمد بن زكـريا ، وبخاصـة مـا يـتعلق منها بموضوع النبوة . وذكر ما أشرنا إليه من قبل ، مـن أن الداعـية الإسـماعيلى ، كـان يذكـر الـرازى بصـفته لا باسمه ، وقرر أنه عـندما اطلـع علـى نسـخة مخطوطـة مـن هـذا الكـتاب بواسـطة الدكـتور حسـين الهمدانـى ، فـى بمـباى بالهـند وجـد أن الصـفحة الأولـى مـن النسخة المخطوطـة قـد فقـدت ، ومن المحتمل أن يكون اسم "الرازى " موجودا بهذه الصفحة

---

[1] نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٣٩. وأعيد تصويره دون ذكر محققه ببيروت ١٩٧٧ دار الآفاق الجديدة وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوى بدراسة تحليلة للمناظرات بين الرازيين ، اعتمادا على ما ذكره بول كراوس فى هذا الكتاب وما ذكره "الكرمانى فى مقدمة كتابة "الأقوال الذهبية" فى كتابه : من تاريخ الإلحاد فى الإسلام.

المفقـــودة ، ثـــم بيـــن أن الداعـــية الإســـماعيلى المعـــروف "حمـــيد الدين الكرمانى" قـــد أكـــد فـــى كـــتابه "الأقـــوال الذهبـــية" أن المـــراد بالملحد لدى أبى حاتم ، إنما هو "الرازى" . [١]

ونحـــن هـــنا نشـــير إلى تلك الواقعة فقط ، لبيان أن حركة الإلحاد التي دعمت بواسطة هذين الرجلين : "ابن الراوندى" و"الرازى" وبخاصة ما يتعلق منها بقضية النبوة ، قـــد ولدت تيارا آخر ، أخذ على عاتقه تفنيد مزاعم هذا الاتجاه ، وهذا ما سنبينه بعد قلـــيل فـــى ردنا على ممثلى المعارضة لقضية النبوة ، مستعينين فى ذلك ببعض الردود التـــي وردت فـــى كتاب أعلام النبوة ، والأقوال الذهبية ، ولعل مما يثير التعجب ويلفت الانتـــباه ، أن يتصـــدى للـــرد علـــى الـــرازى داعـــية إسماعيلى معاصر له ، والاتجاه الاســـماعيلى نفســـه معـــروف الأهداف والمقاصد وهذه النقطة ، لا يمكن أن يمر عليها الـــدارس بهـــذه الســـهولة ، إذ هـــى فى حاجة إلى دراسة خاصة ، تكشف عن الدوافع والأسباب التي حملت هؤلاء على هذا الموقف.[٢]

الرد على منكرى النبوة:

لا يمكـــن للكاتـــب مهما حاول أن يكون محايدا أن يظل كذلك ، من ثم لم أستطع وأنـــا أصور آراء هذه الطوائف التي أنكرت النبوة ، أن أكبح جماح القلم لأكون عارضا فقـــط حتى يأتى دور الرد ، الذى نحن بصدده الآن فليعذرنى القارئ إن وجد هنا أفكارا فى الرد سبق أن ذكرتها حين العرض.

---

[١] بول كراوس : رسائل فلسفية صـ ٢٩١.

[٢] من المحتمل جدا أن يكون موقف دعاة الإسماعيلية ممثلا فى علميها : أبى حاتم الرازى وحميد الدين الكرمانى تغطية لموقفهم تجاه الرأى العام الإسلامي من قضية الدين عموما ومنهجهم فى النظر الى قضاياه ، وبخاصة موقف الكرمانى ، الذى تجمع كل الدوائر الدينية على أنه فيلسوف ملحد.

١ - الرد على الطائفة الأولى:

وهـــى التـــي أنكـــرت النـــبوة بإنكار لوازمها ..الخ. وهؤلاء بنوا إنكارهم على نظرتهم إلى الوجود ، فهم لا يقرون منه إلا أحد نوعيه ، وهو الوجود المادى ، ومن ثم لا يعترفون إلا بنوع من المعارف ، وهو : المعارف الحسية ، والمناقشة مع هؤلاء غير مجديـــة ، حـــتى يصحح ا موقفهم من الوجود ومن المعرفة ، من ثم رأينا علماء الكلام يعتبرون كلام هؤلاء لا وزن له ، لأنه تعبير عن وجهة نظر معينة ، لا تقوم على أساس صـــحيح [1] إذ الوجـــود – والمعـــرفة تابعة له – لدى جميع العقلاء من جميع الطوائف والملـــل نوعـــان : مادى ومعنوى . والمعرفة – إذن – حسية وعقلية . وإنكار الوجود المعـــنوى بغـــير دليل تحكم لا يقبل فى مقام البحث العلمى ، من ثم نرى أن اللوازم التي أنكرها هؤلاء والتى لا تتم النبوة بدونها ، من نزول الملك وامتناع خرق السماء .. الخ ، لـــم يقـــل بإنكارها سواهم ، وهى أمور ممكنة فى ذاتها ، والعلم التجريبى جاء ليؤكد صـــحة بعـــض مـــا أنكروه ، كالصعود إلى الفضاء بعد التقدم الهائل فى مجال الأبحاث الفضـــائية ، والعلـــم عمومـــا يكشف كل يوم عن الجديد الذى كان يعد بالأمس من قبيل المستحيلات.

إن الوحـــى فى ذاته أمر ممكن ، كما سبق أن أشرنا ، وهو يتوقف على أمرين كلاهمـــا ممكن كذلك ، وهما : استعداد نفس النبى لتلقى الوحى، ووجود ملائكة تبلغ عن الله تعـــالى مـــا يوحـــى به إلى رسله وأنبيائه، وينبنى القول باستعداد نفس النبى لهذه المهمـــة علـــى أســـاس التفاوت فى العقول والنفوس ، من حيث القوة العقلية والصفاء النفســـى ولـــيس ذلـــك الـــتفاوت مقصورا على التعليم والتلقى ، بل فى أصل الفطرة ، التـــي لا يكـــون للإنســـان مدخـــل فـــيها ، باختياره وكسبه ، وبعض البشر قد خصوا بـــنقاء الفطـــرة وســـلامة القـــوى العقلـــية ، بحيـــث يـــبدهون مـــن الأمور ما يكون

---

[1] التفتزانى : المقاصد جـ ٢ صـ ١٧٤

نظـــريا فى حق غيرهم ، ومن هنا لا نستغرب – عقلا – أن توجد نفوس لها من صفاء الجوهـــر ما يؤهلها للاتصال بالأفق الأعلى ، بسبب ما يمنحها الله من الفيض الإلهى ، الذى تكون به كذلك . كما صرح بذلك الشيخ محمد عبده . [1]

وليس لهؤلاء ألا يسلموا بصحة ما قدمناه من تفاوت البشر فى الاستعداد ، وإذا كان الأمر هكذا فليس أمامهم إلا النتيجة الحاسمة التي لا يستطيعون ردها وهى : إمكان اتصـــال تلك النفوس بالملأ الأعلى . وليس من حقهم كذلك أن يلزمونا بظاهر دعواهم ، حيـــن يتشبثون بها عارية عن دليلها ، زاعمين أن قولهم حق فى ذاته ، إذ لو كان كذلك لما نازعهم فيه غيرهم ، وهم طوائف أكثر من أن يحصرها عد ، ثم إنهم فى هذه الحالة قد غفلوا عن قضية هامة لا يقرها المنطق ، وهى أخذ الدعوى فى الدليل، أى : وضعها محلـــه ، فهذا يسمى بالمصادرة على المطلوب ؛ لأن الدعوى لا تتم إلا بالدليل ، فكونها هو ، لا يقبل عقلا.

وقـــد يتـــبادر إلـــى الذهـــن سؤال فى هذا المقام هو : إذا كانت هذه الطائفة قد عارضـــت النبوة قديما ، فما قيمة الرد عليها الآن ، وقد انقرض أفرادها ؟ والجواب عن هـــذا السؤال من الأهمية بمكان ، ذلكم لأن معارضى الدين عموما والنبوة بصفة خاصة وإنكـــار لـــوازم النـــبوة على وجه أخص ، أمر يمكن وجوده فى كل جيل ، ومما يتصل بموضوعنا هنا يمكن أن يقال : إن لوازم النبوة ، وهى إمكان الوحى ووجود الملك الذى يحملـــه عـــن الله ، مسألة لا يزال فريق من أدعياء العلم فى يوم الناس هذا ينكرونها ، تحـــت دعـــوى رفض "الغيبيات" التي تشكل جزءا هاما من الدين، بل هى أساسه ، وكم عانيـــنا مـــن أنـــاس بلهـــاء يطلـــبون مـــنا أن نفســـر لهـــم الديـــن تفسيرا علميا . وهـــذا المصطلح – علمي فى نظرهم لا يعدو أن يكون عالم المشاهدة ، وإذن فكل ما لا يدركـــه الحـــس فـــى نظـــرهم فإنمـــا هـــو مـــن قبـــيل المـــرفوض. ولا زلـــنا نقـــرأ

---

[1] رسالة التوحيد : صـ ٨٥

مشـــاريع نهضـــوية [1] يرى أصحابها أنها النهج الذى يمكن أن ينقذ أمتنا من واقعها المريـــر ، فـــإذا دققت النظر فى تلك المشاريع وجدتها تلتقى فى أهدافها ومنطلقاتها مع فكر هؤلاء القدماء . رفض الوحى وإحلال العقل محله ، لأنه غيب لا وجود له فى معيار "العلـــم" فى زعمهم . ولا شك فى أن هذا المنهج يجعل من الإنسان إلها حيث يحله محل الإلـــه الحـــق لأن عقله حل محل الوحى . وفى ضوء هذا التصوير الخاطئ ، نسمع من يدعـــى أن صحوة العقل بالتقدم العلمى والمعرفى ، قد تجاوزت مفهوم القدماء التراثيين عن الدين عموما وعن الوحى بصفة خاصة.

والمحصـــلة من هذا كله أن تيار الإعراض عن الحق ، بل التصدى هل ، ليس أمـــرا مرحلـــيا ، يظهـــر فى حقبة تاريخية ثم يختفى ، وإنما يشكل موجات مستمرة قد تختلف قوة وضعفا باختلاف الأحوال والملابسات التي تساعد على ذلك.

وأمـــا "الصـــابئة" التـــي أنكـــرت نبوة "البشر" وقالت بالنبوة "الملكية" فموقفهم غـــير صـــحيح لأن العقـــل يقرر أن الرسالة كى تؤدى وظيفتها على وجه صحيح ، فان المرســـل ينـــبغى أن يكـــون مـــن نوع المرسل إليهم . وقد سبق أن قررنا أن الرسول مـــن البشـــر يصـــنعه الله على عينه ، ويؤهله لتحمل التلقى من الله ، فهو بهذا المعنى لـــه جهـــتان : جهـــة للـــتلقى ، وفى تقديرنا أن هذه الجهة هى التي يختار الحق تبارك وتعـــالى رســـوله بمقتضـــاها لا بمؤهـــلات مـــن عـــنده ، ولكن بتأهيل الحق له، وأما

---

[1] يمكن الرجوع الى الدراسة التى قدمها الدكتور حسن حنفى تحت عنوان : من العقيدة الى الثورة ، وتقع هذه الدراسة فى عدة مجلدات ، وهى تمثل أحد الاتجاهات المطروحة الآن فى الساحة الفكرية ، ويكاد ينتهى صاحبها الى القول بأن التراث القديم – والدين جزء منه – إنما ينبغى أن ينظر إليه نظرة تاريخية فحسب ، والواقع يفرض علينا أن يكون العقل، هو الذى يملك زمام الحكم حسنا وقبحا ، صوابا وخطأ .. الخ ومن هنا ندرك قيمة الرد على أولئك القدماء ، لأن نفس النغمة قد أغيد صياغتها بطريقة معاصرة ، لا تختلف فى محتواها عن مضمون ما قاله القدماء.

الجهـــة الثانـــية فهـــى التبلـــيغ لمـــن يرســـل إليهم ، والرسول هنا مأمور بذلك ، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك.** ﴾ (المائدة : ٦٧).

وقـــد أشرنا من قبل إلى قضية هامة ، أشار إليها القرآن الكريم تتصل بما نحن بصدده، وهـــى وحدة النوع بين المرسل والمرسل إليهم. كما أشرنا إلى اللبس الذى يحدث من بعـــث الرســـول ملكـــا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **ولـــو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ (الأنعام : ٩).

والعجيـــب فـــى موقـــف الصابئة أنهم يعترفون بنبوة بعض البشر : عازيمون وهـــرمس – وهمـــا شـــيث وإدريـــس كما ذكر ذلك عنهم "الشهرستانى " وليس لهم أن يقولـــوا إنهمـــا كانـــا حكيمـــين عاليـــين لا نبيين مرسلين ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما وجـــب اتـــباعهما والمحافظـــة علـــى حدودهمـــا وأحكامهمـــا وانـــتهاج مناهجهما فى الدعـــوات والصـــلوات والصـــيام والـــزكوات. [1]ومـــن ثم يظهر أن معارضتهم للنبوة مـــن البشـــر قـــد انخرمـــت بإقرارهم هذا ، ثم اقتفائهم أثر هذين النبيين البشريين على حد قول "الشهرستانى".

٢- الرد على الطائفة الثانية من طوائف المنكرين:

لقـــد بـــنى هـــؤلاء إنكـــارهم للنبوة على كفاية العقل فى إدراك الحسن والقبح والخـــير والشـــر كمـــا أســـلفنا . والـــزعم بأن العقل كذلك زعم باطل ، لأنه أداة للفهم والإدراك ، وهـــو أداة قاصـــرة عـــن إدراك حقـــائق الأشـــياء على الوجه الصحيح فى كثـــير مـــن الأحـــيان . ولعـــل أكبر ما يوضح ذلك ولا يمكن إنكاره ، تفاوت العقول فى إدراك حقـــيقة الشـــئ الواحـــد ، بل يتفاوت عقل الإنسان الفرد من حالة إلى أخرى فى فهـــم شـــئ بعيـــنه ، وإذا كان الأمر هكذا فأى عقل ذلك الذى يمكن أن يتخذ حكما على الأشـــياء؟ أهـــو عقـــل الفلاســـفة ، ولكل منهم تصوره الخاص فى كل الأمور العقلية.

---

[1] الشهرستانى : نهاية الأقدام . ص ٤٢٨.

وإذا وجدنـــا بيـــن بعضهم اتفاقا ، فلن يكون من جميع الوجوه ؟ أم هو عقل المتدينين، العقليـــين ، أمثال المعتزلة من مفكرى الإسلام ، والخلاف بينهم شديد وفرقهم شتى ؟ أم عقـل غـير هـؤلاء وأولئك ، وهم أكثر بعدا عن أن تتفق عقولهم على شئ واحد ؟ إن اخـتلاف المذاهـب الفقهية فى تراثنا الإسلامى يعود إلى سبب واحد ظاهر فوق السبب الذى نجده لدى الكاتبين ، وهو التفاوت فى ثبوت النص الدينى – والحديث هنا مقصود أولاً – الذى يكون أساسا لاستنباط الحكم الشرعى منه ، هذا السبب هو التفاوت فى فهم النصـــوص ، فضـــلا عن النص الواحد ، وهذا كله يؤكد أن العقول ليست سواء ، حتى يمكن أن تستقل بإدراك حقائق الأشياء والحكم عليها.

ولعـل هـذا الـذى ذكـرناه هو المدخل الطبيعى للحكم على العقل ومداركه من حيـث كونــه غـير معصـــوم ، من ثم رأينا الباحثين من علمائنا الكبار ، ينظرون إليه تلـك الـنظرة الـتى تـنزع منه الثقة فى أن تكون مداركه فوق الخطأ ، ونخص بالذكر هـنا : حجـة الإسـلام الغـزالى ، صـحيح أن الرجل ساق المسألة بطريقة يبين منها الصـنعة فـى الحكـم علـى العقـل . ولكـن الحقيقة تقره على ما انتهى إليه فى هذا السـبيل . لقـد شـكك فـى الإدراك الحسى ، وله الحق الكامل فى ذلك ، من حيث عدم الوثاقـة فـيه. ثـم انتقل إلى التشكيك كذلك فى قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة ، إلا بـنوع مـن العـون الإلهـى الـذى يأتـيه عـن طـريق الوحى ، يقول فى ذلك : "قالـت الحـواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات ، كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقـا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى .." [1] وقد تأيد هذا التشكيك لديه بما يراه فى المنام علـى أنــه حقـيقة ، فإذا به فى حال اليقظة وهم وسراب ، وانتهى أبو حامد من هذه القضية إلى أن العقل لا يمكن أن يستقل وحده بإدراك الحققة ، ووصوله إلى هذه النتيجة جـاء بعـد أن انتابـته حالـة مـن الـداء العضـال الـذى دام شهرين ، لأن علاجها

[1] المنقذ من الضلال : ص ٨٤

لـــم يتيسر ، ولم تكن دفعه إلا بدليل يؤكد الثقة مرة ثانية بالعقل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا كان الشك قد طالها ، فإن الثقة فيها تكون منزوعة ، بحيث لا يصح أن تكون مأخذ دليل يوثق فى نتيجته.

إن المـــنقذ له مـــن هـــذه الحيرة هو : الإيمان الكامل بأن الضمان الوحيد للثقة بالعقلـــيات بحيث لا يتطرق إليها نوع من الشك . هو النور الإلهى الذى يقذفه الله تبارك وتعالى فى القلب ، يقول فى ذلك : "حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلـــى الصـــحة والاعـــتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمن ويقيـــن ، ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلـــك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقـــد ضيق رحمة الله الواسعة – ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعـــناه . فى قوله تعالى : "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " قال: "هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب"[1].

وهذا الذى انتهى إليه حجة الإسلام قد قال بما يقرب منه غيره من الباحثين فى الفلسفة الحديثة ، وأعنى هنا "ديكارت " الذى عالج قضية الشك المنهجى بما يقرب كثيرا مـــن علاج الغزالى لها ، ويعتمد على اليقين الدينى فى توثيق اليقين العقلى ، يقول فى ذلـــك : "على أن اطمئنانى إلى الوضوح لا يزال مفتقرا إلى التثبت ، فقد يكون خالقى قد صنعنى بحيث أخطئ فى كل ما يبدو لى بينا ، أو قد يكون سمح للروح الخبيث (الشيطان الماكر) أن يخدعنى على الدوام . الحق أنه بدون معرفة وجوده وصدقه ، فلست أرى أن باســـتطاعتى الـــتحقق من شئ البتة ، أعود إذن إلى فكرة الله ، فأجد أنها فكرة موجود كـــامل ، والكـــامل صادق لا يخدع ، إذ أن الخداع نقص لا يتفق مع الكمال ، وعلى ذلك

---

[1] نفس المصدر ص ٨٥ .

فأنـــا واثق من أن الله صنع عقلى قادراً على إدراك الحق ، وما على إلا أن أتبين الأفكار الواضحة ، وصدق الله ضامن لوضوحها". [1]

مـــن ثـــم يتبيـــن أن العقـــل فـــى ذاتـــه لا يمكن أن يعمل مستقلا عن ضمانات الوحـــى ، حـــتى يتمكـــن مـــن الوصـــول إلى اليقين ، بل إنه فى هذه الحالة لا يضمن اليقيـــن الدائـــم ، وهـــذه حقيقة يقرها العقل الصريح ، إذ لو كان غير ذلك ، بأن كانت النـــتائج الـــتى يصـــل إلـــيها دائما صحيحة ، لما استدرك اللاحق على السابق شيئا ، ولحـــل العقـــل محـــل الوحـــى فـــى كل شئ ، وليس من قبيل الكلام الساذج ما نراه فى تراثـــنا الإســـلامى ، لـــدى كـــبار مؤلفيـــنا مـــن تصدير كتبهم باللجوء إلى عون الحق تـــبارك وتعـــالى أن يرشـــدهم إلـــى طـــريق الصواب فيما هم بصدده ، وليس من قبيل السذاجة أيضا ما نقرأه فى ختام مباحثهم من تعليق العلم النهائى إلى دائرة العلم الإلهى، فـــيقولون : "والله أعلـــم" إن هـــذه كلها دلالات لها قيمتها فى نظرة هؤلاء إلى العقل مع العلـــم بـــأن رغبـــتهم فى طلب العلم اليقينى وما يقتضيه هذا الطلب من استعداد نفسى وروحـــى ، مـــا يتضـــاءل بجانبه إلى حد كبير ما نحن عليه فى يوم الناس هذا ، فضلا عـــن حـــياة هـــؤلاء الزاعمين باستقلال العقل وقدرته على صياغة الحياة ، تلك التى لا يعلـــم حقيقـــتها إلا الله ســـبحانه وتعـــالى ، وليس فى مقدورنا أن نقول أكثر من هذا . إن هـــؤلاء لـــيس عـــندهم اســـتعداد لأن تكون الحقيقة الدينية إطارا للحقيقة العقلية ، وضـــمانا لســـير العقـــل إلى غايته . وهم موجودون فى كل جيل كما أشرنا سلفا ، ومن الباحثيـــن المعاصـــرين الذيـــن لهـــم موقـــف واضـــح مـــن العقـــل تجـــاه البحث فى الميتافـــيزيقا ، أســـتاذنا المـــرحوم الدكـــتور عـــبد الحليم محمود ، حيث يذهب إلى أن البحـــث العقلـــى فـــيما وراء الطبيعة عبث ، وأسس حكمه هذا على ضرورية النبوة من

---

[1] يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة صـ ٦٧ ، وأيضا د. محمود زقزوق : دراسات فى الفلسفة الحديثة صـ ٩١ . والباحثان قد اعتمدا على نصوص ديكارت التى ذكرها فى كتابيه : التأملات فى الفلسفة الأولى . ومقال عن المنهج.

الوجهة العقلية ، على الصورة التى وضحناها سابقا . وإمكانها فى ذاتها ، وصحتها من الناحـية الواقعـية ، بناء على أنها تأيدت بالمعجزة ، التى تنزل منها منزلة الدليل من الدعوى ، ومتى كان الأمر هكذا ، فإن كل ما يأتى به الخبر الصادق – قرآنا كان أو سنة – عـندنا نحـن المسلمين ، وبخاصة ما يتعلق منه بعالم الغيب ، وهو أوسع المجالات الدينـية ، ينـبغى التسـليم به ، ولا مجال للعقل كى يزج بنفسه فى دائرته ، لأنه فوق طاقـته . ومن ثم فإن المباحث الميتافيزيقية التى جاء النص الدينى بالحديث عنها ، ما كان ينبغى أن توجد ، وأن ظاهر الشرع هو المعتبر فى ذلك وهذه الأفكار قد قال بها فى أكـثر مـن موضـوع من كتبه ، وبخاصة فى كتابه : (الإسلام والعقل) وفى تعليقه على كتاب المنقذ من الضلال لأبى حامد الغزالى. [١]

والحـق أن ما ذهب إليه هو عين الحقيقة ، ذلكم لأن العقل عندما فرض نفسه على المباحث الميتافيزيقية ، لم يعطنا حلا مقبولا لها ، بل كان عمله فيها أشبه ما يكون بتصـورات خاصـة بكـل باحث على حده ، ولم تكن النتائج التى توصل إليها الباحثون مؤسسـة علـى مقدمات عقلية ضرورية ، وحسب القارئ أن يرجع إلى قضية واحدة ، أعـاد بحـثها الفلاسـفة الإسـلاميون ، اتباعا منهم لما كان عليه أسلافهم – وبخاصة الأفلاطونية المحدثة – وهى قضية : الصدور أو الفيض.[٢] مع استصحاب ما وجه إليها من اعتراضات ، ليعلم أن العقل فيها – وفى غيرها مما يشابهها – لم يصل إلى معطيات مسـلمة ، فضلا عن أن تكون صحيحة فى ذاتها . وحسبنا أن يكون ما قدمناه ، تقريرا للدائرة التى ينبغى أن يسعى العقل من خلالها . والتى تكون فى مقدوره وطاقته.

---

(١) صـ ٢٨٧.

(٢) انظر كتابنا : فى الفلسفة الإسلامية صـ ٩٥.

التسليم الجدلى بكفاية العقل:

ولو أننا سلمنا جدلا بكفاية العقل فى إدراك الحق ومعرفة الصحيح من غيره فى الاعتقادات ، والخير من الشر فى السلوك والمعاملات ، فلم لا نسلم بأن الوحى يعضده فى ذلك ويقويه ، إن قيل بغير ذلك ، كان هذا القول تحكما لا يقبل ، وإن سلم فقد ثبت المطلوب.

وقد اتبع الكاتبون فى العقائد هذه الطريقة مع الخصم فقالوا: "فيقال لهم – أى لمنكرى النبوة بناء على الاكتفاء بالعقل : " ولم لا يجوز أن يكون ما جاء به الرسول مما يستدرك بالعقل ، ويكون بعث الرسل تأكيدا له ، ومثله غير ممتنع ، كما لا يستحيل قيام أدلة عقلية على مدلول واحد . وإن كان فى الواحد كفاية ، ويكون باقى الأدلة مؤكدا. [1]

وليست هذه الصورة هى التى يمكن أن تكون وحدها فى القضية التى معنا، إذ هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون ما يجئ به الرسول مما يوافق العقل ، ويدرك به ولكن يغفل العقل عن إدراكه فيكون مجيئه تنبيها له ، حتى يدركه [2]ولا يمكن دفع هذا الوجه ، لأن الغفلة من طبيعة العقل عندما تحجبه الموانع والشواغل ، لهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى طائفة من البشر ، كانت الغفلة حالهم ، فلم يلفت انتباههم الآيات الباهرات ، التى أودعها الحق تبارك وتعالى فى الأنفس والآفاق لتكون دالة على عظمته وجلاله ، قال تعال: **﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ، وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾** (يوسف ١٠٣ – ١٠٥).

---

[1] أبو سعيد النيسابورى: الغنية فى أصول الدين. صـ ١٤٨.

[2] نفس المصدر.

وفــى هذا الذى سبق من الرد كفاية ، وهو موجه إلى كل من يدعى قدرة العقل على صياغة حياة البشر ، يستوى فى ذلك أصحاب الفكرة الأصليين من البراهمة ، ومن شـــايعهم فى ذلك قديما وحديثا ، وقد مر بنا أن لكل من ابن الراوندى و الرازى ما يشبه قول هؤلاء من بعض الوجوه.

٣- الرد على الطائفة الثالثة:

وهـــى التى قام إنكارها للنبوة على أساس أن الشرائع تشتمل على تشريعات لا فـــائدة منها للعبد ولا للرب .. إلخ ، وهذا الموقف منهم مبنى على سوء الفهم والتقدير للمقاصـــد الشرعية ، ولا يمكن أن يقوم هذا الفهم السيئ فى وجه التشريع الإلهى الذى يشـــكل الضـــمان الحقيقى لسير الحياة الإنسانية على أسس صحيحة ، ثم يقال لهؤلاء : بـــأى معيار حكمتم على الشرائع الإلهية بذلك ؟ إن قيل : بمعيار العقل ، فقد بان لنا من قـــبل عـــدم قدرته على إدراك حقائق الأشياء إلا بمعين من الوحى ، وإذا تبين أن الأمر هكـــذا فمـــاذا يبقى من معيار حتى يكون مقياسا فى ضوئه يحكم على التشريعات الإلهية الـــتى يـــأتى بهـــا الأنبـــياء؟ ولو سلمنا جدلا بأن بعض التكاليف تشتمل على المضار ، كالصـــلاة فـــى الـــبرد والصوم فى الحر – مثلا – فهل عرف هؤلاء ماذا يمكن أن يكون وراء تلك المشقة الظاهرة من المنافع الدنيوية والأخروية ؟ ويحق لنا أن نقول بوضوح هنا : لسنا فى موقف الدفاع عن التكاليف الإلهية ، التى تجئ بها الرسالات الإلهية ، فى مواجهـــة قـــوم يـــنكرون ذلك، ولكنا نقول : إن المعانى السامية والقيم العليا ، والنتائج الحاســـمة ، الـــتى تحملهـــا تلـــك الرسالات فى تكاليفها وتشريعاتها لا يشعر بها تذوقا واستشـــعارا بعظمـــتها إلا من آمن بها وعاشها تجربة فى الواقع . ومن ثم يصبح إنكار هذا كله ، من موقع بعيد عن طبيعة تلك التكاليف ، أمراً غير مقبول عقلا.

كمـــا أن ما تذرع به بعض المنكرين ، من أن الشرائع الإلهية تبيح ذبح البهائم وإيلامهـــا .. إلـــخ، لـــيس قائماً على أساس صحيح ، فهذه عملية لها ضوابطها فى كل تشـــريع إلهـــى . وهم غير عارفين لتلك الضوابط ، فكيف يجعلون جهلهم بها دليلاً على رفضـــها ؟ . وبالجملـــة فـــإن الجهل بالشئ لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم صحته فى معـــيار العقـــل الصـــحيح ، وإذن فلا يمكن أن يقبل حكم على شئ ما لم يكن قائماً على تصـــور صـــحيح لذلـــك الشئ .. وأما العداوة القائمة على الجهل ، فأمر يحمل فى ذاته تهافت ذلك الموقف ، وقد صح ما قيل : من جهل شيئا عاداه.

ثـــم إن الشـــرائع الســـماوية لا تكلف إلا بما يطاق ، وجاءت لتضع عن البشر الإصر والأغلال وأوامرها ونواهيها وتحليلها لأشياء وتحريمها لأخرى تقوم على أساس صـــحيح ، فـــلا تأمـــر إلا بالمعـــروف ، ولا تنهى إلا عن المنكر ، وتحل الطيب وتحرم الخبيـــث، وتضـــع للإنسان ضوابط العلاقات بينه وبين غيره من الكائنات . كما بينت له وضـــعه بيـــن تلـــك الكائنات بما يظهر معه أن كل عناصر الكون المخلوق ، إنما جاءت مســـخرة له ، لاعتبار مكانته التى خلقه الله عليها وهى : تمثيله لقضية الخلافة عن الله فـــى الأرض ، فهـــل يمكـــن بعـــد هذا كله أن يحتج على نظام إلهى كامل ، بفكر بشرى نـــاقص؟ وفى شريعتنا الغراء نصوص جاءت بها السنة الشريفة تطلب الشفقة والرأفة بالحـــيوان ، حين الذبح وحين الاستخدام بل فى ضوئها تتسع دائرة الرفق حين التعامل مع الأشياء كلها ، مما يدل على أن الشرائع الإلهية تتسم بالروح التى ترد تصور هؤلاء الغافلين الجاهلين.

٤- الرد على الطائفة الرابعة:

وهـــذه الطائفـــة تطعـــن فـــى الرسالة الإلهية على أساس من الطعن فيما تقوم علـــيه وهـــو "المعجـــزة" وقد مر بنا أن من أبرز القائلين بذلك ، كل من "ابن الراوندى" و"الـــرازى" بدعـــوى أن العقـــل يرفضـــها ، وأن الفواصـــل بيـــنها وبيـــن غـــيرها

مـن الخـوارق الأخرى غير دقيقة ، والواقع أن كل من عارض الرسالات الإلهية بهذه الشبهة ، موقفه غير صحيح ، ذلكم لأن المعجزة أمر إلهى خارق للعادة يظهره الله على يـد مدعـى النبوة ، تأييدا له فى دعوى الرسالة ، وهى منها بمنزلة الدليل من الدعوى – كمـا أشرنا – وبعض معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يكون مقرونا بالتحدى وطلـب المعارضـة ، وبعضـها يكون علامة واضحة على صدق الدعوى ، وإن لم يكن تحديـاً للقوم ، والفرق بينها وبين الخوارق الأخرى واضح كل الوضوح كما سنبينه فى مكانه من هذه الدراسة ، عند حديثنا عن المعجزة.

وحسبنا أن نورد هنا بعضا من الردود التى عارض بها "أبو حاتم الرازى" سميه "أبـا بكـر الرازى" حتى يتبين لنا مدى تهافت موقف هؤلاء عموما ، فإذا كان الذى بنى عليه هؤلاء معارضتهم واحداً ؛ فإن الرد على أحدهم ينسحب على موقفهم جميعاً فى كل عصر.

لقـد نبتـت نابتة فى يوم الناس هذا ، تتعالم بإنكار المعجزات الحسية لرسولنا علـيه الصـلاة والسلام ، مع أن الأصل فيها الأخبار الصحيحة ، وليس معهم من دليل سـوى الإنكـار نفسه ، وهذا هو الجهل بعينه ، حتى لو قال أصحابه بخلاف ذلك . إنه إفلاس روحى وعلمى فى نفس الوقت.

فحوى المناظرة بين الرازيين والأساس الذى بنى عليه الرازى الطبيب إنكاره للنبوة:

سـنورد هـنا جزءاً من المناظرة التى وقعت بين "الرازيين" لنكشف عن طبيعة المواجهة بين الحق والباطل ، ونبين أن المعارضة للنبوة لا تقوم على أساس صحيح.

يقرر الرازى الطبيب أن اختصاص بعض البشر ليتحملوا عبء الرسالة ، أمر لا تقتضـــيه الحكمـــة الإلهية ، لأنه لا معنى له ، والأولى بالحكيم أن يلهم الناس جميعا ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ولا يفضل بعضهم على بعض حتى لا يكون ذلك بابا للأحقاد والعداوات.

أمـــا الـــرازى أبو حاتم فقد بين فى الرد على هذا الكلام أن تقرير حكمة الحكيم لـــيس راجعـــا إلى تصوراتنا البشرية ، بل إلى الحكيم ذاته ، وهب أن الحكيم فعل ذلك . بحيث لا يحتاج الناس بعضهم إلى بعض ، فهل هذا موافق لطبيعة الإنسانية المدنية؟ إن هـــذا التصـــور غـــير مطابق للحقيقة والواقع ، ذلكم لأن الإنسان فطر على أن يحيا مع بنى نوعه ، حياة اجتماعية ، تقوم على تبادل المنافع ، وهى قائمة على الحاجة ، وإذن فكـــل دعـــوى تـــتجاوز ذلك تكون غير صحيحة ، وكيف لا تكون كذلك والواقع يرينا أن الناس موزعون بين إمام ومأموم وعالم ومتعلم فى جميع الملل والأديان والمقالات ، من أهـــل الشـــرائع وأصـــحاب الفلسفة ، ولا نرى الناس يستغنى بعضهم عن بعض ، غير مستغنين بإلهامهم عن الأئمة والعلماء؟

إن الـــناس غـــير متســـاوين فى العقل والفطنة والهمة . ومن قال بخلاف ذلك فإنـــه يدفـــع العيان والواقع . وهذا عناد ومكابرة ، ويرفع الخصوصية (الهوية) الذاتية لكـــل فـــرد ، وإذا ثبـــت أن الوضع الصحيح للإنسان الذى يقره واقعه الملائم لفطرته ، هـــو الـــتفاوت بيـــن المواهـــب والاستعدادات ، فإن العلاقات بين البشر إنما تقوم على حاجـــة الأدنـــى للأعلى ، وهكذا . بخلاف الحيوان الذى لا تتفاضل أفراده ، لأن مطالبه محصـــورة فـــى الجانـــب المـــادى فقط، وهو يشبعها بضرب من الطبع والغريزة ، ولا دخـــل للعقـــل والإرادة فـــيها ، لأنـــه فـــاقد لهمـــا. [1] والذى ينظم العلاقات بين أفراد

---

[1] رسائل فلسفية صـ ٢٦٨.

الإنســان على وجه صحيح ، قانون يقوم على تنفيذه من يختاره الله بحكمته لتبليغه إلى من أرسل إليهم.

ونلــتقط الخيط هنا من المدافع عن النبوة لنقول للمعارض : إن لازم كلامك أن الحكـيم قد فاته الوجه الأكمل لحكمته فأرسل للناس رسلا ، وهذا نقص لا يليق به ، ثم مــن جانــب آخر : ألم يجعل الحق سبحانه وتعالى لكل منا عقلا وإرادة ، وهذا أشبه ما يكــون بــالوحى الخاص؟ فلماذا لم يهتد الناس بعقولهم إلى ما ينفعهم ؟ ثم ماذا يضير القضــية كلها لو كان بجانب الوحى الخاص ، وحى عام ينبه العقل حين يغفل ، والإرادة حيــن تغيــب؟ . وفى نهاية هذا الكلام يمكن أن يقال : هب أن الحكيم فعل مثل ما تريد : أكنــت تســلم بفعله هذا أم كنت تعترض كما تعترض على الوجه الذى عليه الوضع مع وجود الرسالات؟

إن الواقــع فعله ، والصورة المفترضة فعله كذلك ، فمن يدرينا أنك لن تعترض لــو كــان الوضــع علــى مثل ما تعترض به ؟ ثم أخيرا : كيف يحتفظ أصحاب الموقف المعارض بقولهم بحكمة الحكيم مع تصورهم لحالة لم يفعلها كما ذكرنا؟ وكيف يمكن أن نكــون نحن المخلوقين معيارا لإرادة خالقنا ؟ إن عدم الرضا بحكمه الحكيم ، منهج قوم ينصبون من أنفسهم آلهة أخرى ، قد تسول لهم أحلامهم المريضة ونفوسهم الملتوية ، أنهــم علــى الحق ، وأن من سواهم ليسوا كذلك. ألم يقل القرآن الكريم : ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ..**﴾ ؟ ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى ...**﴾ (البقرة : ١٢٠) وقوله: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض..**﴾ (الـبقرة : ١٤٥) إن أهــواء هذا النفر من المعترضين على منهج الحق تبارك وتعالى، هــى المعــيار – فــى نظــرهم – للحقــيقة ، وهــذا خــيال كبــير ، مــن ثــم صرح القــرآن الكــريم لرســوله صــلى الله علــيه وســلم ولــنا جمــيعا من بعده بأن هذه

الطـريقة تـنزع عن المسلم الشخصية السوية، وتجعله ظالما لنفسه : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين** ﴾ (البقرة : ١٤٥).

إن المظهـر الحقيقى للإيمان الصحيح هو التسليم المطلق لما يوحى به النص الصحيح ، والمراوغة والجدال فى غير محله ، دليل زيغ القلوب ومرض النفوس، حتى حين يتشبث باتباع المتشابه ، فما بالكم إذا كان هذا الحال مع النصوص المحكمة ؟ كمـا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**فأمـا الذيـن فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابـتغاء الفتـنة وابـتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا ألوا الألباب**﴾ (آل عمران : ٧) فما حقيقة إيمان هؤلاء الذيـن يجـادلون فى المحكم من أمهات الكتاب العزيز ، والآيات التى تحدثت عن الرسل والرسالات وعن الحكمة الإلهية فى ذلك كثيرة؟

الفصل الثانى

النبوة والرسالة والوحى

١- النبى والرسول:

جـــاء فـــى القرآن الكريم وفى السنة الصحيحة لفظ كل من النبى والرسول، إما على سبيل الإفراد ، وإما على سبيل الجمع . ولكل من اللفظين معنى فى اللغة وآخر فى اصطلاح علماء العقيدة فما هما؟ .

أولا: المفهوم اللغوى:-

أ- النبى

لهذا اللفظ عدة اشتقاقات ، فإما أن يكون مشتقا من النبأ ، وهو الخبر وهو فعل الإخـــبار ، ويحـــتمل أن يكـــون على وزن فعيل بمعنى مفعول أى أنه منبأ بالغيوب ، أو بمعنى : فاعل أو مفعل وهذا المعنى يشير إلى أنه منبئ عن الله تعالى ، هذا إذا لوحظت الهمـــزة فـــى اللفظ ، وأما فى لغة من لا يهمز فى أصل الكلمة ، فإنه يكون مأخوذا من النـــبوة (بفـــتح الـــنون وتشديدها) وهو ما ارتفع من الأرض ، فيقال : نبا الشئ بمعنى ارتفـــع ، وتكون العلاقة بين هذا المعنى وبين النبى أنه يكون مرتفع الشأن ، فوق طور البشـــر العاديـــن ، كما ترتفع الربوة على سائر ما جاورها . ذلك لاختصاصه بالوحى ، وخطاب الله تعالى . [1] من ثم يتضح لنا أن اللفظ يمكن أن يفيد ثلاثة معان:

١- مـــا يفـــيد اسم المفعول (منبأ) بمعنى أن الله تعالى أنبأه بالغيب ، الذى يختص بـــه مـــن يشـــاء مـــن عباده ، دون نظر إلى طرف ثالث ، وتكون العلاقة هنا

---

[1] شرح السنوسية الكبرى . صـ ٣٤٩.

ثنائية بين الحق تبارك وتعالى ومن أطلعه على غيبه ، بواسطة هذا الإنباء بأى طريق من طرق الإيحاء المختلفة.

٢- ما يفيده اسم الفاعل (منبئ) بمعنى الإخبار عن الله تعالى ، وهنا يظهر الطرف الثالث فى العلاقة ، وهو من ينقل إليهم نبأ السماء عن طريق هذا النبى.

٣- الارتفاع وعلو الشأن ، سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، فأما قبل البعثة ، فلأن الحكمة جرت بأن يكون من يختاره الحق تبارك وتعالى ليكون نبيا عالى الشأن فى قومه ، شرف نسب وكرامة محتد ، وطهارة اعتقاد . كما قال فى حق نبينا صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وتقلبك فى الساجدين** ﴾ (الشعراء : ٢١٩) وفى حق موسى عليه السلام : ﴿**وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى**﴾ (طه: ٣٩).

وأما بعد البعثة فلأن النبوة مهمة عالية رفيعة ، والنبى مؤهل بتأهيل الله له لأن يكون كذلك.

وقيل: إن لفظ النبوة مشتق من "النَّبى" نون مشددة مفتوحة بعدها باء ساكنة ثم ياء – وهو الطريق ، ووجه الاشتقاق أن النبوة هى الطريق والمنهج الذى يصل بمن يتخذه سبيلا إلى ما يصلحه فى العاجل والآجل. [1]

وفى الجملة: فإن اللفظ يشمل هذه المعانى مجتمعة ، ذلك لأن النبى إذا لوحظ فيه جانب التلقى فهو منبأ ، وإذا لوحظ فيه جانب الإخبار فهو منبئ ، وأما إذا لوحظ فيه مكانته فى القوم قبل البعثة ، ومكانته مع ما نبأ به بعد البعثة فهو المرتفع العالى ، شأن الهادى بين المهديين ، وإذا اعتبر المنهج الذى نبأ به فهو السبيل الهادى إلى طريق الرشاد.

---

[1] المواقف : جـ ٨ ص ٢١٨.

ب- الرسول:

وهـــو مشتق من مصدره (إرسالا) وبهذا المعنى يكون واسطة بين مرسِل بكسر السين ومرسل إليه ، وهذا المعنى المطلق يتحقق فى الرسول بالمعنى الاصطلاحى – كما سنبين – لأنه يتوسط بين الله سبحانه وتعالى باعتباره صاحب الدين الذى سيحمله تبعة ومســؤولية الرســالة وبين من يرسل إليهم ، ويلاحظ أن المعنى اللغوى هنا لم يتجاوز كون الرسول واسطة على حين أن المعنى اللغوى للفظ النبى قد تضمن معنى الإنباء عن الله تعــالى . كمــا يتضمن معانى أخرى كما ذكرنا ، كما دل لفظ الرسول على معنى لم يتضــمنه أحــد معانى النبى وهو وضوح العلاقة بين طرفين : مرسل ومرسل إليهم فى معنى الرسالة .[1]

ثانيا: المعنى الاصطلاحى:

اخــتلف العلمـــاء فيما بينهم فى تعريف النبى بالمعنى الاصطلاحى وكذا الرسول والعلاقة بينهما ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى ما جاءت به بعض الآيات القرآنية التى تعطــف أحدهما على الآخر . بما يفهم منه المغايرة ، لأن العطف يقتضى ذلك ، كما فى قوله تعالى : **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيتــه فينســخ الله مــا يلقــى الشــيطان ثــم يحكــم الله آياتــه والله علــيم حكــيم ﴾** (الحــج : ٥٢) واعتبار العطف مقتضيا للمغايرة ، وجه من وجوه الفهم لمعنى العطف ، إذ قــد يكون بمعنى التفسير والبيان ، ولهذا المعنى يرى بعض الباحثين أنه لا فرق بين الرسول والنبى إلا فى الاشتقاق اللغوى . كما سنبين.

---

[1] ولهذا المعنى قرر القاضى عبد الجبار أن لفظ الرسول من الألفاظ المتعدية أى الواسطة بين المرسل والمرسل إليه ، وإذا أطلق فلا يفهم منه المعنى المراد إلا بالعرف والاصطلاح ، كما أن لفظ العاصى إذا أطلق فلا يفهم منه أنه من خرج على أوامر الله إلا بالعرف والاصطلاح الشرعى . وإذا لم يلاحظ العرف فلابد من التقييد ، فيقال: رسول الله (شرح الأصول الخمسة : صـ ٥٦٧).

يرشـح للفهـم الـذى علـيه مـن يرى أن العطف يقتضى المغايرة وأن النبى غـير الرسـول ، أن هـناك حديـثا جـاء فـى هذا الباب ، كان إجابة عن سؤال سأله الرسـول صـلى الله علـيه وسـلم عـن عدد الأنبياء وعدد الرسل ، فكانت الإجابة أن عـدد الأنبـياء مائـة وأربعة وعشرون ألفا ، وأن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وقـد ذكـر الـبغدادى فـى أصول الدين [1] أن هذا مما أجمع عليه أصحاب التواريخ ، ممـا يحفـز الهمـة إلى تحقيق هذه المسألة ، بالبحث عن درجة الحديث الوارد بذلك ، ثم تتبع سياق الآيات التى جاء فيها ذكر الرسول مع النبى ، ورأى كبار المفسرين فيها، ثـم أخـيرا : النظر فى الفرق الذى قال به جمهور العلماء بين كل من النبى والرسول . وعلـى الـرغم من أن المسألة خلافية ، وليست أصلا ، بل هى فرع عن أصل ، إلا أن تحقيقها أمر يحتاج إليه البحث العلمى ، والآن سنورد أقوال بعض العلماء المعتد بهم فى مجـال الدراسات الكلامية ، فى تعريف كل منهما ، ومن ثم فى العلاقة بينهما ، ثم نحقق المسألة فى ضوء أقوالهم هذه.

ذكـر صاحب السنوسية الآراء فى المعنى الاصطلاحى لكل من النبى والرسول ، علـى سـبيل الإجمـال ، دون أن يعزو كل رأى إلى صاحبه فقال: "فالنبوة عندنا هى : اختصـاص بسـماع وحـى مـن الله بواسطة ملك أو دونه ، فإن أمر بتبليغه فرسالة ، فالمخـتص بـالأول والـثانى (سماع الوحى والأمر بتبليغه) رسول وبالأول فقط (سماع الوحـى) نبى ، فالرسول – اذن – أخص من النبى مطلقا ، فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا.

وقيل هما بمعنى واحد.

---

[1] صـ ١٥٧

وقيل: بينهما عموم وخصوص من وجه ، فيجتمعان فى الرسول من البشر ، وينفرد النبى فيمن أوحى إليه من البشر ، ولم يؤمر بالتبليغ ، وينفرد الرسول فيمن أوحى إليه من الملائكة وبعث إلى غيره. [1]

وقيل : هما متباينان ، فالرسل هم أصحاب الكتب والشرائع ، والنبيون هم الذين يحكمون بالمنزل على غيرهم ، مع أنهم يوحى إليهم. [2]

والرأى الذى ذكره السنوسى أولا هو ما علهي جمهور المتكلمين من الأشاعرة، فالنبى – على هذا الفهم – هو : من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغة والرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه . [3] فيشتركان فى "الإيحاء" ويختلفان فى "التبليغ" من ثم قيل : بينهما عموم وخصوص مطلق ، بمعنى : أن كل رسول نبى ، لأنه موحى إليه ، وليس كل نبى رسولا ، لأنه غير مأمور بالتبليغ بخلاف "الرسول" فإنه مأمور بذلك.

---

[1] وهذا راى لم اجده لدى غير السنوسى من علماء الكلام ، والإيحاء إلى الملائكة لكى يبلغوا عن الله كما هو ظاهر عبارته (وبعث إلى غيره) كان مطلب بعض الكفار ، كما جاء في قوله : "وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة لو نرى ربنا لقد استكبروا فى انفسهم وعتوا عتوا كبيرا" (الفرقان : ٢١) وطلبهم هذا غير طبيعي ، كما صرح بذلك القرآن فى اية أخرى حيث قال: "ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون" (الأنعام : ٩) اذن من الواضح أن كون المبعوث ملكا يبلغ القوم رسالة ، امر مستبعد فكيف يصور على انه نوع من انواع الاختصاص بالبعثة؟.

[2] انظر السنوسى : عقيدة أهل التوحيد ص ٣٥٠

[3] انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٤٣ واصول الدين ص ١٥٤ وللباقلانى من الأشاعرة راى آخر، إذ يرى أن النبى يشترك مع الرسول فى مهمة التبليغ ، غير انه يعمل بشرع رسول سبقه كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بين موسى وعيسى عليهما السلام. انظر : العقائد النسفية ص ٣١.

وهـناك فـرق أخـف مـن هذا الذى ذكره العلماء بين "النبى" و"الرسول" هو أن النبـي لا يشـترط فـيه شرع وكتاب جديدان ، بخلاف الرسول ، ومن ثم فيمكن أن يكـون النبـي داعـية إلـى العمـل بشـرع رسـول سـبقه ، ويكون ذلك بإيحاء من الله تعالى.

وفـى تقديرى أن الفرق الأول الذى اتفق عليه جمهور العلماء وهو أن الرسول يشـترط فيه التبليغ بخلاف النبى فلا يشترط فيه ذلك ، فرق ترى النفس فيه شيئا ينبغى الوقـوف عنده كثيرا ، لأننا لو سلمنا بصحة هذا الفرق ، لما كان للنبوة معنى اجتماعى على الإطلاق ، وتصبح والحالة هذه كأنها وحى لشخص بعينه ، وليست هذه هى المهمة الكـبرى الـتى يمنحها الحق سبحانه للبشر ، حين تتوافر مقتضياتها ، والقرآن الكريم صـريح فى أنه ما من أمة إلا جاءها نذير من عند الله تبارك وتعالى ، والإنذار لا يكون إلا بالتبليغ ، كما أنه صريح فى أن من الرسل من عرف باسمه وبكتابه وشرعه وبالقوم الذين أرسل إليهم ، وهؤلاء قلة إذا قيسوا بغيرهم ممن لم يرد ذكرهم فى القرآن الكريم، وهـذا كـلام يسـاق علـى التقريـب لا علـى التحقـيق ، لأننا لا نعرف عدد الأنبياء والرسـل علـى وجـه دقيق بعد أن تبين لنا – كما سيجئ – أن الحديث الوارد فى هذا المقام ليس صحيحا.

والقضـية – فى نظرنا – لا تحتاج إلى أن يستفيض القول فيها بعد أن حسمها القرآن الكريم ، فقد ذكرت الآية الكريمةَ أن من الرسل من لم يرد ذكر قصصهم ، اكتفاء بمـن ذكـر ، وفـى هذا ضرب من العلاج العالى لما يمكن أن يحدثه موقف الطغاة أمام الحـق الواضـح ، فيترسب فى وجدان صاحب الرسالة شئ من الأسى على عدم اهتمام القـوم بها . إن السياق واضح فى استحضار موقف أقوام بعض الرسل ، ليكون فى ذلك

عزاء وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، بالقدر الذى يحقق الغاية ، وليس بلازم أن يستعرض الموقف قصص الجميع ، طالما أن فى ذكر بعضهم ما يكفى لتحقق العبرة والمقصد . قال تعالى : **﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾** (النساء : ١٦٣: ١٦٥) فالآية الأولى تذكر النبيين من بعد نوح على سبيل الإجمال ، ثم تذكر إبراهيم وإسماعيل إلخ ، والآية الثانية تعطف على من ذكر إجمالا ومن ذكر تفصيلا مصطلح الرسل وتسند إليهم التبشير والإنذار . فالسياق يظهر منه أنه لا فرق بين الرسول والنبى فى المهمة الأساسية : البلاغ تبشيرا وإنذارا.

والكتاب العزيز فى سياق حديثه عن الأنبياء – عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم السلام – يحدثنا عن طبيعة المواجهة بينهم وبين أقوامهم ، وليس فيه ما يدل على أن بعضهم كان موحى إليه لذاته ، إذن من أين صح للذين فرقوا بين النبى والرسول هذا القول ؟ إن قيل : إن من تحدث عنهم القرآن على الوجه المذكور ، قد جمعوا بين النبوة والرسالة ، قلنا: فى هذا الرد يظهر تصوركم لوجود فرق بينهما ، من حيث الحقيقة ، والواقع ليس كذلك ، لأن ما به يتحقق المقصود من البعثة هو التبليغ كما أشرنا ، من ثم رأينا بعض علمائنا كابن رشد [1] يقرر أن الفرق بين كل من النبى والرسول ليس راجعا إلى الحقيقة ، لأن حقيقتهما واحدة ، بل إلى أصل الاشتقاق لكل منهما . وهذا ما يطمئن إليه القلب فى هذا المقام .

---

[1] فصل المقال : صـ ١١٥

الفرق الثانى ومناقشة من قال به:

ذكــرنا أن هــناك مــن العلماء من قرر الفرق بين كل من النبى والرسول على الوجه الذى سبق . وبينا عدم ملاءمته للحقيقة والعقل ، وإنما جعل الفرق بينهما فى أن الرســـول يكـــون صاحب شرع وكتاب جديدين بخلاف النبى فهو يكون داعية إلى شرع رســـول سبقه ، ولم ينزل عليه كتاب جديد ، وهذا الفرق إنما يصح مع كل نبى جاء بعد رســـول صـــاحب شـــرع وكتاب جديدين ، كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا يدعون إلى شـــريعة الـــتوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وحى خاص فى قضية معينة ، كما فهم الحق تـــبارك وتعـــالى سليمان وداود عليهما السلام القضية التى حكما فيها ، كما قال القرآن الكـــريم : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ..** ﴾ (الأنبياء : ٧٨ – ٧٩).

وهـــذا القـــول لا يطـــرد إلا إذا كـــان الذى أوحى إليه رسولا له شرع وكتاب ، حـــتى إذا انـــتهى أجله ، ولم تظهر رسالته ، فإن الله سبحانه يقيض لها أنبياء يدعون إلـــيها ، حـــتى تبلغ نفوس المدعوين ، والمدة التى تستغرقها الغاية من الرسالة والعدد الـــذى تحـــتاجه إلـــى ذلـــك ، أمور ترجع إلى علم الحق تبارك وتعالى وتقديره ، وهذا يعـــنى أن آدم علـــيه الســـلام ، كـــان رســـولا. والـــذى عليه جمهور العلماء أنه أول الأنبـــياء ، بالمعـــنى الـــذى يحـــدد الفرق بين النبى والرسول . وفى هذا ما يعكر على القـــول الـــذى معـــنا فى الفرق بينهما ، والحق أنى ظفرت بنص عزاه "ابن تيمية" إلى "ابـــن عـــباس" وأحســـب أن شـــيخ الإســـلام أمين ودقيق فى النقل، هذا النص يقول: "قـــال ابـــن عـــباس : كـــان بيـــن آدم ونـــوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (أى كان الـــناس كلهـــم علـــى الإســـلام) فأولـــئك الأنبـــياء يأتـــيهم وحـــى من الله بما يفعلونه

ويأمـــرون بـــه المؤمـــنون الذيـــن عندهم لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول"[1].

والذي يفيده هذا النص أن الأنبياء مأمورون بالتبليغ، غير أن تبليغهم إنما يكون للطائعين من المؤمنين، أي أن مهمتهم والحالة هذه تكون مهمة "المذكر" بشيء معروف من قبل، وما جاء في النص من أن أهل القرون العشرة، التي كانت بين آدم ونوح كانوا علـــى الإسلام يدل على أن آدم عليه السلام – وهو أول الأنبياء – لم تكن نبوته بالمعنى الـــذي فهمه القائلون بالفرق بين النبي والرسول بل كان مبلغا عن الله تعالى . وإلا فمن أي طريق أسلم الأقوام حتى جاءت رسالة نوح عليه السلام؟

ثـــم إن هـــناك ما يؤكد هذا الفهم من آيات القرآن الكريم، لقد قال الله تعالى في حق ابنى آدم :﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقـبل مـن الآخـر قـال لأقتلـنك قـال إنمـا يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلى يدك لتقـتلني مـا أنـا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بـإثمي وإثمـك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾ (المائدة : ٢٧ – ٣٠).

فالآيـــات تـــدل دلالـــة صـــريحة على أنه كان هناك معيار للفعل الإنساني، في ضـــوئه تنقســـم الأفعـــال حســـنة و قبـــيحة، وأن الله ســـبحانه وتعـــالى يتقبل الأولى مـــنها دون الأخـــرى، كما كانت هناك صفات للفاعلين – متقين وغير متقين – خاسرين وظالميـــن – وفـــي المقـــابل – رابحيـــن وعادليـــن الـــخ، كمـــا وجـــدت عقـــيدة

[1] النبوات : ص ٢٨١ .

الجزاء (فتكون من أصحاب النار) ويقابلها الطائعين (الجنة) فمن لهذين الابنين بهذه المعتقدات عن لم تكن معلومة لهم عن طريق وحي الله المبلغ إليهم؟ وفيهم كذلك الطائع والعاصـــي . ولا يبين هذا من ذاك إلا أن يتحدد الموقف من شرع الله تعالى عن طريق تبليغه.

إن هذا الفهم أقرب إلى الحقيقة، وعلى هذا فالفارق الوحيد بين النبي والرسول إنما يقتصر على الكتاب والشرع الجديدين، وأن النبي إنما ينبغي أن يبلغ عن الله شرع مـــن ســبقه بوحـــي يأتـــيه بذلك. ولا يتصور هذا إلا أن تكون رسالة من سبقه لا تزال صـــالحة للتأثير فيمن جاءت إليهم، غير أن المبلغ بها، قضى أجله قبل أن تبلغ ما يريد الله لها.

والنص الذي ساقه "ابن تيمية" نقلا عن "ابن عباس" قد حدد به فرقا جديدا بين النبي والرسول. حيث يذهب إلى أن كليهما موحى إليه وهو مبلغ عن الله، غير أن النبي يـــبلغ المؤمنيـــن الطائعيـــن، وذلك بتذكيرهم بشرع الله، حين تغشاهم الغفلة، أو تسيطر علـــيهم عوامـــل تجعل صلتهم بالرسالة ضعيفة، ولكنهم غير منكرين لها. ويكون شأنهم والحالة هذه – والقياس مع الفارق طبعاً – شأن العلماء الذين يتلقون الراية عن رسلهم فـــيدعون الـــناس إلى رسالتهم. وقد كانت هذه المهمة واضحة جداً في بني إسرائيل.[1] وهذا المعنى أشرنا إليه من قبل .

وشـــيخ الإســـلام – اطـــرادا – مـــع الفـــارق الذي استقر عنده يرى أن مهمة الرســـول تـــزيد على مهمة النبي من حيث دائرة المدعوين إلى الرسالة، ذلك لأنه يدعو المصـــدق بـــه والمكـــذب له، ويعـــتمد في هذا السياق على بعض الآيات الكريمة، التي ســـاقها القـــرآن الكـــريم فـــي مقـــام تثبيـــت فـــؤاد رسولنا صلى الله عليه وسلم، بما

---

[1] نفس المصدر .

يعـرض عليه من مواقف أقوام رسل الله السابقين، قال تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين مـن قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ (الذاريات : ٥٢) وقوله : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ...** ﴾ (السجدة : ٤٢) وقوله :﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين مـن قبلهم ولدار الآخرة خير للذيـن اتقوا أفلا تعقلون، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ (يوسف : ١٠٩ ، ١١٠) .

وينتهـي شيخ الإسلام هنا إلى رأي محدد في القضية التي معنا، وما ذهبت إليه مـن قبل من ضرورة أن يكون النبي مبلغا عن الله تعالى حتى تتحقق الغاية من البعثة، يكـاد يلتقي مع ما قرره هنا ابن تيمية، إنه يرى عدم اشتراط أن يكون الرسول صاحب شـرع جديد، بل يمكن أن يكون داعية إلى شرع رسول سبقه، فإن يوسف عليه السلام كـان رسـولا، وكـان على ملة إبراهيم حنيفا، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شـريعة الـتوراة. وهنا يكون الفارق بين كل من النبي والرسول هينا جداً، حيث يصبح محصورا في طبيعة المبلغين، فمن كانت دعوته إلى المؤمنين تذكيرا وإقامة على طريق الحـق كـان نبـيا، ومـن اتسعت دعوته فشملت هؤلاء ثم تخطتهم إلى إنذار المعاندين والكفـار فهو نبي ورسول.[1] وهذا ما أطمئن إليه، طالما أن كليهما كان مبلغا عن الله، كما أن عدم اشتراط رسالة جديدة في حق الرسول يزيل الفارق الحاد الذي وضعه أولئك الذين اشترطوا ذلك بين كل من النبي والرسول على مذهبهم.

ومما يؤكد حقيقة ما ذهب إليه ابن عباس وتابعه على ذلك شيخ الإسلام أننا لو اشـترطنا كـتابا وشـريعة جديديـن لكـل رسـول ، لكـان عـدد الكتـب موافقـا

---

[1] نفس المصدر ص ٢٨٢ .

لعــدد الرسل؛ وهذا لم يقل به أحد[1]، من ثم ظهر أن الرسول لا يشترط فيه شرع جديد كمــا ســبق. وإذا نظــرنا إلــى المسالة من وجهة النظر العقلية البحتة فإنا نقول : إذا كانــت أصول الشرائع واحدة وبخاصة في أصول الاعتقاد، كما صرح القرآن الكريم، في خطاب كل رسول لقومه :﴿ **اعــبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ يضاف إلى تلك الأصول ما تقتضيه الحاجة من إصلاح ما اعوج من النظم والعلاقات والأخلاق والمعاملات، على الوجــه الذي بينه القرآن، فإذا انتهى وقت حياة الرسول، ولم ينصلح بعد واقع المجتمع الــذي جــاء إليه، واقتضت الحكمة الإلهية بعث رسول جديد، فلا حاجة إلى شرع جديد طالمــا أن الواقــع لا يحــتاج إلــى ذلــك، وتظــل الحاجــة قائمــة على تذكير القوم بســوء مــا هــم عليه – عقيدة ونظاما وأخلاقا – بنفس رسالة الرسول السابق، وهنا يظهــر أن الشــريعة الجديــدة لا يحــتاج إلــيها إلا أن تكــون الســابقة علــيها قــد اســتنفدت مهمــتها، وفي النهاية يحكم العملية كلها قول الحق تبارك وتعالى " **الله أعلم حيث يجعل رسالته** " .

رأي المعتزلة :

يذهــب جمهــور المعــتزلة إلــى أن النبــي والرســول بمعنى واحد من حيث الحقــيقة، واســتندوا فــي ذلــك إلــى أن كــلا منهما قد أيده الله بما يدل على صدق دعــواه، بالمعجــزات التــي تظهر على أيديهم، ولا يوجد هذا لغيرهم . وحتى يسلم لهم مذهــبهم، ردوا علــى غــيرهم ممــن قــال بالفرق بينهما اتباعا لظاهر الآية الكريمة: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي** ﴾ (الحج : ٥٢). بأن اللفظين مترادفان، وأن العطــف للبــيان والتفســير، ولا يقتضــي المغايرة، وقالوا : إن الذي يدل على أن

---

[1] والقرآن الكريم ذكر قبله كتب : التوراة - الإنجيل - الزبور - صحف إبراهيم وعزا كل كتاب إلى ما أنزل عليه، ولم يشر إلى ان هناك كتبا لم تذكر ، كما فعل مع الرسل عليهم الصلاة والسلام .

النبـي والرسـول بمعـنى واحـد، هـو اتفـاق الكلمتين في المعنى، فهما يثبتان معا ويـزولان معـا فـي الاسـتعمال، حـتى لو أثبت أحدهما ورفعت الآخر لتناقض الكلام، ومجـرد الفصـل بيـن النبـي والرسـول فـي الآيـة الكريمة، لا يدل على الاختلاف بيـنهما، ألا تـرى أنـه تعـالى فصل بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء، ولم يـدل هـذا الفصل على أنه غيرهم، كما فصل بين الفاكهة والنخل والرمان ولم يدل ذلك على أن النحل والرمان ليسا من الفاكهة.[١]

رأي بعض المفسرين :

وبعـض المفسـرين هـنا، آثروا رأي من يفرق بين النبي والرسول، اعتمادا علـى ظاهـر آيـة الحـج وغـيرها، ممـا جـاء فـيه عطـف أحدهمـا على الآخر. ويظهـر أنهم كانوا مرددين لما يقوله جمهور الأشاعرة في هذه القضية، دون تحقيقها. ولـيس ممـا يطـيقه البحـث أن نأتـي على كل آرائهم، بل سنختار منهم من يمثلهم، من المتأخرين .

١- الشيخ رشيد رضا :

جـاء فـي كـتابه " الوحي المحمدي " [٢] أن الرسول والنبي بينهما فرق، هو نفـس مـا ذكـره المتكلمون، من حيث الخصوص والعموم، وانتهى إلى أن كل رسول نبـي ولا عكـس فـي ذلك. إذ الرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي هو من لم يؤمر بالتبليغ .

---

[١] القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥١٨ والمغنى. جـ ١٥ التنبؤات والمعجزات ص ١٢ .

[٢] ص ٤٧ .

٢- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وكــلام هــذا المفسر فيه تفصيل أكثر للقضية، حيث استشهد ببعض الآيات القرآنية التــي ظن أنها تؤيد مذهبه، فقد اعتمد نفس التعريف الذي يفرق بينهما على أساس أن التبلــيغ شرط في الرسول، وليس شرطاً في النبي. قال في تفسير قوله تعالى :﴿ **ذلــك بــأنهم كـانوا يكفـرون بآيـات الله ويقـتلون النبـيين بغير حق ...** ﴾ (البقرة : ٦١): "وإنما قال "النبيين" لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم، لأنه مناف للحكمة من الرسالة، التــي هي "التبليغ" قال تعالى :﴿ **إنـا لننصر رسلنا** ﴾ ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيســى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال، ولكن الله أنهى مدة رسالته، بحصول المقصد مما أرسل إليه" .

والحق أن هذا التفسير لا يسلم، حيث اعتمد الفرق (التبليغ للرسول وعدمه للنبي) كأساس لتسلط الأعداء على الأنبياء لا على الرسل، وفي القرآن ما يخالف هذا، فقد قال سبحانه في نفس السورة: ﴿ **ولقـد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيســى ابـن مـريم البيـنات وأيدنـاه بـروح القـدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسـكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾ (البقرة : ٨٧) فالآية ظاهرة الدلالة على أن تسلط الأعداء لا يكون على النبي دون الرسول، كما قرر، وبضم الآيتين معا في إطــار واحــد، يظهر أن المراد بالنبي في الأولى هو المراد بالرسول في الثانية والعكس صحيح. كما يظهر من هذه الآية أمر آخر قد يكون ردا على من يرى أن "النبي" هو من يعمل بشريعة رسول سبقه، ويحدد الفرق بينهما بهذا القيد. ذلكم لأن الآية تقرر أن بين موســى وعيسى عليهما السلام رسلا كثيرين، حيث ذكرت الفعل بعد موسى "وقفينا" قبل أن تذكــر عيســى، ثم ذكرت أن الذين كانوا بينهما، إنما هم "رسل" وليسوا أنبياء. وفي الآيــات الأخــرى، ذكــرت عــن بنــي إســرائيل أنهــم كــانوا يقــتلون الأنبــياء أو النبييــن بغــير حــق. فــدل هــذا كلــه علــى أن المــراد بالنبــي والرســول

واحـد فـي مـنطق القـرآن الكريم. فكيف صح للعلامة ابن عاشور هذا التفسير؟ . إن الفعـل الواحـد وهـو "القتل" والفاعل واحد. وهم بنو إسرائيل، والمفعول به واحد وهم الواسطة بينهم وبين الحق، والتعبير عنهم تارة بالرسل، وأخرى بالأنبياء أو النبيين يدل على أن الحقيقة واحدة، وليست مختلفة.

وهـذا الذي ذكرناه لم يغب عن فهم الشيخ ابن عاشور، فما كان عليه إلا أن يفسر لفظ الرسول الوارد في الآية بلفظ النبي فقال : وسمى أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى رسـلا مـع أنهم لم يأتوا بشرع جديد[1] اعتبارا بان الله أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها. فقد جعل لهم تصرفا شرعيا. وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوة، التي لا تعلق لها بالتشريع، لا تأصيلا ولا تفريعا.[2]

ويؤخذ على ابن عاشور ما يأتي :

أولاً :- تشـبثه بالفـرق بين حقيقة كل من النبي والرسول دون سند من القرآن الكـريم، والآيـات التـي ساقها لم تسعفه؛ بل جاءت بعكس ما ذهب إليه، فالآيـتان : (٦١ ، ٨٧) من سورة البقرة تفسر إحداهما الأخرى، وليست الأولـى بـأحق بـأن تكون القاعدة من الثانية، ومن المعروف لدى علماء التفسير أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ومن ثم كان تفسيره غير مستساغ.

ثانـياً :- أن الآية الكريمة التي استشهد بها على أن الأعداء تسلط على الأنبياء ولا تسـلط على الرسل ، وهي قوله تعالى : "إنا لننصر رسلنا.." لا تفيد تخصيص الرسل بنصرة الحق تبارك وتعالى لهم. لأن بقية الآية تبين أن

---

[1] يفيد هذا القيد أنه ممن يذهب إلى أن الفرق بينهما إنما ينحصر في اشتراط الشرع الجديد بالنسبة للرسول وعدم اشتراطه للنبي .

[2] انظر : ابن عاشور : التحرير والتنوير تفسير – الأيات من ٦١ من سورة البقرة إلى الآية ٨٧ من نفس السورة .

المؤمنيـن منصـورون كذلـك " ... **والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** " كمـا لا يفـيد ظاهـرها كذلك أن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهـم، وإنمـا سيقت لبيان أن المآل إنما هو نصر من الله لأوليائه، حـتى ولو كان قد أصابهم الكثير من أعدائهم. وقد فات الشيخ الجليل أن أولـى العـزم من الرسل كانوا أشد ابتلاء من غيرهم، وأن الحق تبارك وتعالى قال لرسوله الخاتم " **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ".

ثالثاً :- أن استدلاله بقوله تعالى في حق نبينا : " **والله يعصمك من الناس** ..." لا يمكـن أن تكون قاعدة تعم جميع الرسل، لأن هذه خصوصية له، كما أن العصمة له – عليه الصلاة والسلام – لا تعني عدم إيصال كل الأذى إليه، بـل قد تعني : أنك معصوم من أن تفتن في دعوتك، فهي عصمة خاصة، وليست عامة.

وفـي الجملـة يمكـن أن يقـال : إن المفسـرين قـبل الشـيخين: رشـيد رضا والطاهـر بـن عاشـور إمـا أن يكونـوا قائليـن بالفرق بين كل من النبي والرسول – علـى الوجـه السـابق – وإما أن يكونوا غير ذلك، أو قال بعضهم به، وقال بعضهم بعدمـه . ونحـن هـنا بعـد أن سـقنا بعض الآيات التي يظهر منها أن القرآن الكريم يطلـق اللفظيـن علـى حقيقة واحدة، نقول : إن الرأي الأرجح هو ذلك الذي يقرر أنه لا فـرق بيـنهما مـن حيـث الحقـيقة ، وفي هذا الذي نرجحه قطع الطريق على من يـزعم أن الآيـة الكـريمة التـي تحدثـت عـن خـتم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسـلم ، وهـي قولـه تعالـى : ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله خاتم النبيين ...**﴾ (الأحـزاب : ٤٠) تـدل على ختم النبوة لا على ختم الرسالة، مـن ثـم يمكـن أن يدعى الرسالة مخبول، لأن الرسالة غير النبوة. وقد فعل البهائيون

ذلــك[1]. وعلى الرغم من أن ظاهر الآية فيه النص على الرسالة والنبوة – الأمر الذي يؤيــد مــا نذهــب إليه – إلا أن التحايل طبيعة أصحاب النفوس الملتوية، غذ يمكن مع الاعتقاد بوجود الفرق بين الرسول والنبي أن يقال : إن المراد بالرسول في الآية "النبي" وفــرق كبــير بين أن يقال : إن المراد بالآخر – كما نذهب نحن – وبين أن يقال : إن المــراد بالرســول هــو النبي، إذاً سيظل باب الرسالة مفتوحا، يدعيها من يدعيها، ولا نســتبعد أن يخــترع لنفســه من الخوارق ما يزعم معه أنها تؤيده في دعوى الرسالة. ولتأكــيد مــا نذهب إليه، نقول : يمكن الإتيان بنسقين من الآيات : الأول جاء فيه ذكر الأنبــياء – مفردا أو جمعا – والآخر : جاء فيه ذكر الرسل – مفردا أو جمعا – ثم ننظر فــي النســقين معا نظرة دقيقة، لنرى ما بينهما من علاقة، في ضوء السياق العام لتلك الآيات. وذلك كما يأتي :

النسق الأول : آيات تتحدث عن الأنبياء : (مفرد أو جمع) :

١- ﴿ **وكم أرسلنا مـن نـبي في الأولين، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون..** ﴾ (الزخرف : ٦ ، ٧).

٢- ﴿ **كان الـناس أمـة واحـدة فبعـث الله النبـيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه...** ﴾ (البقرة : ٢١٣).

٣- ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء...** ﴾ (الأعراف : ٩٤).

٤- ﴿ **أولـئك الذيـن أنعـم الله علـيهم مـن النبيين من ذرية آدم ...** ﴾ (مــريم : ٥٨) وهــذه الآيــة جاءت بعد ذكر آيات تحدثت عن الرسل :

---

[1] انظر : الخضر حسين : البابية والبهائية ص ٢٣ .

إبراهيم – إسحق – يعقوب – موسى – إسماعيل – إدريس، تصف بعضهم بالرسالة، وبعضهم بالنبوة وبعضهم ببعض الصفات العالية الأخرى. مما يؤكد وحدة الدلالة على الحقيقة بين النبي والرسول.

٥- ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ (الأحزاب : ٧٦).

٦- ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ (الزمر : ٦٩).

٧- ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ...﴾ (الأنعام : ٨٩).

النسق الثاني : آيات تتحدث عن الرسل : (مفرد أو جمع) :

١- ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ (البقرة : ١١٩).

٢- ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ (الفرقان : ٣٠ ، ٣١).

٣- ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ (الأنعام : ٤٨) (الكهف : ٥٦).

٤- ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (الأنبياء : ٥) .

٥- ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ (البقرة : ٨٧).

٦- ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ... ﴾ (النحل : ٣٦).

٧- ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه .. ﴾ (المؤمنون : ٤٤).

ومن هذين النسقين يمكن ملاحظة ما يأتي :

أولاً :- أن التبشـير والإنـذار كـان مهمة كل من النبي والرسول على السواء – لاحظ الآية رقم(٢) في النسق الاول والآية رقم(١، ٣) في النسق الثاني – وهـذا مـا يؤكد أن النبي يبشر وينذر كما أن الرسول كذلك، وهذا هو التبليغ، الذي يرى أحد التعريفات السابقة أنه مهمة الرسول دون النبي .

ثانياً :- أن الإيـذاء – بالقتل أو بما هو دونه – يقع على النبي والرسول على حد سـواء – كما أشرنا إلى ذلك من قبل – وكما هو صريح الآية رقم (١) ، ورقم (٧) في النسق الأول والآية رقم (٣)، ورقم (٧) في النسق الثاني.

ثالـثاً :- أن أخذ الأقوام بالذنب بسبب موقفهم من الحق، جاء مقترناً، في الآيات التـي تحدثت عن النبي والرسول، مما يدل على أن وحدة الحقيقة بينهما والتصدي لما جاء به كل منهما من الحق كان ذا أثر واحد. كما في الآية رقـم(٣) مـن النسق الاول. والآية رقم(٣) من النسق الثاني، وهي رقم (٤٨) سـورة الأنعام وتمامها :﴿ ...**فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وبعدها ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ (الأنعام : ٤٩).

رابعـاً :- في الآية رقم (٢) من النسق الثاني جاءت الدعوة فيها على يد رسول، ثـم تحدثـت التي تليها عما يقف لكل نبي من المعادين لدعوته، مما يدل علـى اتحاد الحقيقة بين كل من الرسول والنبي، واتحاد الموقف بالنسبة لمن يعادي دعوة الحق.

وأحسب أن في هذا القدر كفاية. بعد أن بان لنا أن التفرقة بينهما لم تقم على أساس صحيح من القرآن الكريم، ولا من العقل الصريح .[1]

والآن نـــرى ما يقوله المحدثون في الحديث الذي جاء في هذا الموضوع بذكر عدد الأنبيـــاء وعدد الرسل، مما يمكن معه القول بأنه كان أحد الأسباب التي دفعت من يقرر الفرق بين كل من النبي والرسول إلى هذا التقرير .

الحديث الوارد في عدد الأنبياء والرسل :

ذكـــر "ابن كثير" في تفسيره أن ابن مردويه روى عن أبي ذر قال : "قلت يا رسول الله : كـــم الأنبيـــاء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله: كم أرسل مـــنهم؟ قـــال ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير قلت يا رسول الله : من كان أولهم؟ قال : آدم، قلـــت : يا رسول الله: نبي مرسل؟ قال: نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم ســـواه قبيلاً " وقد روى هذا الحديث بطريق آخر عن صحابي آخر – هو: ابن أبي حاتم عن أبي أمامة بنفس المعنى وقريب من هذا اللفظ.[2]

والحديـــث الـــذي معـــنا ذكـــره ابن حبان في كتابه " الأنواع والتقاسيم " ، وقد نقل عـــنه غـــيره، ومـــنهم ابـــن كثـــير، وهـــو حديث طويل، وما ذكرناه من عدد الأنبياء

---

[1] أورد القـائلون بالفـرق بيـن النبـي والرسـول بعـض الشـبهات المترتـبة علـى القـول بخـلاف ذلـك، وكلهـا تعـتمد علـى أن العطـف يقتضـي المغايـرة، ومـا سـوى هـذا، كـان جذبـا لـبعض الآيـات القرآنـية لموقفهـم، بعـد أن ترسـخ فـي أذهـانهم أن الرسـول غـير النبـي، وكلهـا شـبهات واهـية، مـن ذلـك : قولهـم إن محمد صلى الله عليه وسلم نبئ بقولـه تعالى : " أقرأ باسم ربك" وارسل بقولـه تعالى : "يا أيها المدثر" وهـذا لعمـري فهـم خاطـئ جـداً، إذ يعنـي أن مـرحلة الرسـالة أتـت بعـد مـرحلة النـبوة، ولـم يقـل بذلـك أحد غيرهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن من وجوه العطف : التفسير والبيان، مثل ما جاء في قولـه تعالى : "الذين يتبعون الرسول النبي الأمـي...." فالنبي بدل من الرسول أو بيان له وتفيد تفسيره . وذكر الواو وعدم ذكرها سواء في هذا المقام.

[2] تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٨ .

والرسـل ليس إلا جزءاً منه، وقد حكم عليه ابن حبان بالصحة، غير أن ابن الجوزى قد خالفـه فـي ذلك، حيث ذكره في "الموضوعات" ذلك لأن إبراهيم ابن هشام أحد رواته، متهم في روايته للحديث.

وأمـا الطـريق الآخـر لهـذا الحديـث، وهو رواية ابن أبي حاتم عن أبي أمامة، ففـي سـنده معـان بـن رفاعـة السلامي، وهو ضعيف، وكذا على بن يزيد، والقاسم أبو عبد الرحمن .

وقـد جاء ذكر عدد الأنبياء والرسل في حديث آخر، ولكن ليس بالعدد المذكور. عن أنـس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بعثت على أثر ثمانية آلاف نبـي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل" وقد حكم عليه ابن كثير بالغرابة، على الرغم مـن أن رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق، فإنه لا يعرف بعدالة ولا جرح، والذي يمكـن أن يقـال في هذا المقام إن حديث أبي ذر من الأحاديث الضعيفة، كما ذكرنا؛ لأن بعـض رواته مجرحون، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيه. لأن من رواته: يحيى ابن يحيى الغسـاني الدمشـقي، وقد قال عنه أبو حاتم إنه كذاب[1]. ووصفه الذهبي بأنه متروك، وكذبه أبو زرعه[2].

ثـم إن الـرواية الأخـرى التـي تذكـر أن عـدد الأنبـياء ثمانية آلاف مع الحكم علـى رواتهـا – كمـا ذكـرنا – تؤكـد أن مـا ورد في هذا المقام من قبيل الأحاديث الضـعيفة، لأن اخـتلاف العـدد يدل على تجاوز الحقيقة. وحسبنا هذا القدر من الكلام عـن هـذا الحديـث، لـنؤكد أن الذين ذهبوا إلى وضع الفارق الحاد بين كل من النبي والرسـول علـى الوجـه الـذي ذكـرنا، إن كانوا قد اعتمدوا على زيادة عدد الأنبياء علـى عـدد الرسـل بـناء علـى صـحة هـذا الحديث، يكون كلامهم نازلا عن درجة التحقـيق العلمـي، بعـد أن تبيـن أن الحديـث ضعيف. ولو أنهم حققوا الفرق بينهما

---

[1] الجرح والتعديل جـ ٢ ص ١٤٢ .

[2] ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٧٣ ، جـ ٤ ص ٣٧٨ .

علـــى الوجـــه الـــذي ذكـــرناه ســـلفا، وهـــو أن النبي مأمور بالتبليغ كالرسول تماما، والفـــرق بيـــنهما أنـــه لا يلـــزم في حق النبي شرع جديد بخلاف الرسول، لكان كلامهم مقبولا .

٢- الوحي :

لهذا اللفظ معنيان :

أ- **لغوى** : اســـم مصدر بمعنى الإيحاء، وهذا المعنى – الإيحاء – يقصد به : الإعـــلام بالشيء سرا، من ثم كانت الكتابة والإشارة والرمز والكلام الخفى، تسمى وحياً.[١]

ب- **اصـــطلاحي** : التعلـــيم الســـري الصادر من الله تعالى إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، إما بواسطة الملك، أو بلا واسطة، يقظة أو مناماً.[٢]

والإيحـــاء بـــدون توســـط "الملـــك" إمـــا أن يكـــون عن طريق الإلهام والإلقاء في القلـــب، وإمـــا أن يكـــون بـــالكلام من وراء حجاب، كما كان الحال مع نبي الله موسى علـــيه الســـلام، حيـــث كلمـــه ربـــه تكليما، وهذا النوع من الاتصال بين الحق سبحانه وتعـــالى وبيـــن بعـــض أنبـــيائه قـــد اخـــتلف في طبيعة الكلام الذي يقال لهم، هل هو المعـــنى النفســـي القـــائم بـــذات المـــتكلم، أو هو حروف وأصوات يخلقها الحق تبارك وتعـــالى فـــي نفـــس المتلقـــي بحيـــث تصـــبح لديه القدرة على فهم خطاب الله تعالى، وعلـــى كـــلا التقديريـــن، فالأمـــر هـــنا لا يخلـــو من نوع من خوارق العادات إذ على المعـــنى الأول، يكـــون فهـــم الكـــلام النفســـي – بـــلا حروف ولا صوت – ضربا غير مـــألوف، لأن مجـــرى العـــادة أن الســـماع لا يكـــون إلا عـــبر آلـــة السمع، بواسطة الأصـــوات التـــي تحدثهـــا حـــركات الحروف، والكلام النفسي ليس فيه شيء من ذلك.

[١] د. محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة ص ١ .
[٢] نفس المصدر .

وعلـــى المعـــنى الثانـــي، يكـــون تحويـــل المعـــنى النفسي إلى حروف وأصوات تسمع بطـــريق مباشـــر، ضـــربا مـــن خرق العادة أيضاً. وليس لنا أن نستغرب كثيراً في هذا المقـــام، فالنـــبوة تؤســـس علـــى المعجـــزة، وهـــي أمر خارق للعادة، كما أن اتصال الســـماء بـــالأرض لتبلـــيغ رسالة من الرسالات الإلهية، نوع من الاتصال غير العادي، مـــن ثـــم كانـــت قضـــية النبوة برمتها قضية الإعجاز الإلهي للبشر، حتى لو خيل لمن يدعيها كذبا أنه يمكن أن يأتي بما يصدق دعواه، لكان واهما لأن مصدر الإعجاز واحد ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

وقـــد ذكـــرت كتـــب الســـنة والســـيرة أن الإيحـــاء بواسطة "الملَك" له صورتان، إحداهمـــا : أن يظـــل الملـــك علـــى حقيقـــته الملَكية، ومن ثم فإن القدرة الإلهية تتكفل بـــإقدار النبي على أن يدرك الموقف، مع اختلاف الطبيعتين، وثانيتهما: أن يتمثل الملك فـــي صورة بشر، فيكلم النبي فيعي ما يقول، وقد لا يرى النبي الملك عند الوحي، ولكن يحـــدث عند قدومه دوى وصلصلة شديدة، فتعتريه حالة غير عادية من الشعور الروحي العمـــيق، يدركها من يشاهده، بآثارها، من تصبب عرق أو ثقل بدن الخ ، حتى تنقضي مدة الوحي، فيعود النبي إلى حالته الطبيعية[1].

وهـــنا حقـــيقة لابـــد مـــن الإشـــارة إلـــيها، وهـــي أن حالة "الوحي" بهذا المعنى تســـتلزم أن يعـــتقد الموحـــى إلـــيه أن ما جاءه حق لا شك فيه، وليس له مصدر غير أن يكـــون مـــن الله ســـبحانه وتعـــالى. لا مـــن خطـــرات الـــنفس، ولا مـــن وسوسة الشـــيطان، ولـــيس ولـــيد مقدمـــات عقلية، ولا إلهام من نوع ما يحس به الصالحون، وأصـــحاب الـــنفوس المشـــرقة، لأن الصـــورة التـــي يتم بها الوحي – كما ذكرنا – لا تكـــون إلا للأنبـــياء علـــيهم الصـــلاة والسلام، وحيث إن الأمر هكذا، فإن العلم الحاصل فـــي نفـــس النبـــي يكـــون من قبيل العلم الضروري اليقيني، وما سوى ذلك مما يحدث

---

[1] نفس المصدر ص ٢ .

لغير الأنبياء، لا يكون بهذه الصفة. كما أن إضافة "الوحي" إلى غير الأنبياء، إنما يكون بالمعنى اللغوي، لا بالمعنى الاصطلاحي. وقد أسند القرآن الكريم الوحي إلى البشر في غير مقام النبوة، كما قال تعالى في حق زكريا عليه السلام : ﴿ **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ (مريم : ١١) وقال عن أم موسى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...** ﴾ (القصص : ٧) وقال عن النحل : ﴿**وأوحى ربك إلى النحل ...**﴾ (النحل : ٦٨) ومعنى الوحي هنا هو : الإلهام أو الإشارة إلى ما ينبغي أن يفعل، أو الهداية إلى ما به قوام الحياة، من غذاء وشراب كما هو الحال في شأن النحل .

الوحي بالمعنى الاصطلاحي الشرعي حقيقة خارجية :

المتتبع للقرآن الكريم، في آياته البينات التي جاءت لتقرير قضية الوحي، وكذا ما استفاضت به السنة النبوية الصحيحة، يرى أن حديث هذين المصدرين العظيمين عن هذه الظاهرة، واضح كل الوضوح في أن "الوحي" إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما مصدره إلهي لا شك فيه، وأنه حقيقة خارجية، بمعنى: أنه ليس من قبيل حديث النفس، ولا من ولادة الخواطر، أو المقدمات العقلية، أو التعلم عن طريق علوم الغير، ثم تعبيرها وشرحها الخ قال تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده...** ﴾ (النساء : ١٦٣) وقال ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ (الشورى : ٥٢) وقال : ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾(الشورى : ٣) . وفي الحديث الصحيح الذي روته عائشة رضي الله عنها : أن أول ما بدئ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة...

حـتى جـاءه الحـق (الوحـي) وهـو في غار حراء، فجاءه الملك إلى آخر الحديث. والحديث أخرجه الشيخان في الصحيحين.

والآيـات – كمـا هـو واضـح – تسـند فعـل الإيحـاء إلى الله تعالى، أي تحدد مصـدره، وتقطـع الطـريق علـى أي تفسـير آخر لمعنى الوحي. ومن ثم فإن الذين يسـتبعدون هـذه الظاهـرة، أو يفسـرونها بمعـنى آخـر غـير الذي ذكرنا، لا يقبل كلامهـم. وكـون أحلامهـم لا تقـدر علـى تصـور عملية الاتصال الإلهي ببعض من يخـتارهم الحق تبارك وتعالى لتبليغ رسالة من رسالاته، لا يعنى أن حقيقة هذه المسألة ليسـت واقعـة، بعـد أن استفاضـت بوقوعهـا الأخبار الصادقة، وإذن فليتهم هؤلاء عقولهـم وقلوبهـم، ولـيعلموا أن الحقائق الإلهية التي أخبر الحق تبارك وتعالى بها، لا تـتخذ مـن الأحـلام القاصـرة مقياسـاً لصدقها، بل إن صدقها في صدق مصدرها، والإخبار بها.[1]

إن القـرآن الكـريم قـد أشـار إلـى نمـاذج شـاذة من البشر، ضايقهم كثيراً ما جـاء بـه الحـق تـبارك وتعـالى على لسان نبيه الخاتم من حقائق، تدمغ المعتقدات الـباطلة وتسـفه أحـلام القـوم الذين حاولوا تنكيس العلاقة الطبيعية بين "الإله" الحق و"المؤلـه" (الإنسـان) " والمعبود الحق" و "العابد" حيث استساغت تلك الأحلام تأليه الأصـنام، ومـا فـي مسـتواها، وهي في رتبة الموجودات أقل بكثير من الإنسان الذي ألههـا. ويقـال كذلـك فـي المعـبودات. ولـم يكن أمام هؤلاء إلا التشكيك في مصدر الوحـي. فـتارة يـتهمون النبـي صلى الله عليه وسلم بأن ما جاءهم به ليس من عند الله، بـل قـالوا ﴿ **أسـاطير الأولـين اكتتـبها فهـي تملـى علـيه بكـرة وأصـيلا** ﴾ (الفـرقان : ٥) ويـرد القرآن الكريم دعواهم بقوله ﴿ **قل أنزلـه الذي يعلم السر في**

[1] يظهر أن هذا الإنكار طبع بعض البشر ، وقد ذكرنا مثل هذا الكلام في الرد على منكري النبوة فيما سبق .

السموات و الأرض إنه كان غفوراً رحيما ﴾ (الفرقان : ٦) وأخرى بأنه قول شاعر أو كاهن، فجاء الرد الحاسم في قوله تعالى : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين**﴾ (الطور : ٢٩ – ٣١).

وبالجملة فإن المحاولات التي أرادت أن تتحول بالنبوة عن طبيعتها الحقيقية التي مصدرها الوحي الإلهي قد باءت بالفشل. ولا شك في أن الجدال الذي أظهره القرآن الكريم تجاه هؤلاء، هو الذي يمكن أن يرد به اليوم على البقية من هؤلاء الطاعنين على النبوة، إنهم أحفاد أولئك الأغرار الذي وقفوا من الحق موقف الرفض، مما يؤكد أن المرض النفسي والخلل العقلي من العلل التي تستوجب أن يقف الحق تبارك وتعالى مع أصحابها موقف الكاشف عن تهافت ما هم عليه، يستوي في ذلك من نزل فيهم القرآن مباشرة، ومن يصابون بهذه العلل في كل زمان. لذا نرى أن موقف الذين ينكرون ظاهرة الوحي من المحدثين والمعاصرين، من المستشرقين وأضرابهم، ليس هو الموقف العلمي، ومهما تفننوا في هذا الإنكار، فإنه لا يحمل إلا معنى واحداً هو أنه إنكار وتكذيب بلا علم، ومن المعلوم – منهجيا – أن التكذيب بلا علم كالتصديق بلا علم، كلاهما مرفوض عقلا وشرعا، فأما العقل فلأن ما جاوز البدهيات لابد أن يقام عليه الدليل إثباتا أو نفيا، فإذا لم يكن كذلك، أصبح الكلام من قبيل الدعاوى التي لا دليل عليها، وأما شرعا فلأن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه القضية في رده على من كذب بالحق لما جاءه قبل أن يحيط به علما أو يعلم تفسيره على الوجه الصحيح، كما جاء في قوله تعالى :﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** .. ﴾ (يونس : ٣٩) .

إنه من السهل جداً أن يرفض الإنسان فكرة أو عقيدة، ولكن الرفض موقف. يأخذ أحد شكلين : فإما الشكل العلمي المنهجي، وهو الذي يقوم على

أســـاس مـــن معـــرفة مواطن الضعف والخلل في الفكرة أو العقيدة المرفوضة، بصورة تـــتفق مـــع الحقـــيقة والواقـــع، وهـــو شـــكل محمـــود ومقبول، وبفضله تقوم الأفكار والمعـــتقدات ويطـــرد العلـــم ويـــتقدم، وإمـــا الشكل الذي لا يمت إلى العلم بصلة، وهو الـــذي يعـــتمد الـــرفض علـــى غـــير أساس، وذلك باختلاف أسباب ليست حقيقة لذلك الـــرفض. وهذا الشكل مرفوض، وبه تتهدم أبنية العلم وصروحه، وهو في نفس الوقت يكشف عن نفسية وعقلية أصحابه.

بـــناء علـــى مـــا تقـــدم يمكـــن أن نحكـــم على هؤلاء الذين ينظرون إلى ظاهرة الوحـــي بمـــنظار غـــير صـــحيح، وبالتالـــي يحكمـــون علـــيها أحكامـــا غير صحيحة. يســـتوى فـــي ذلـــك من يلبسها ثوب العبقريات، فيزعم أن محمد صلى الله عليه وسلم - كمـــثل لإخوانـــه مـــن الأنبـــياء - تفكـــر كثـــيراً ثـــم خرج على الناس بما يشعرهم بأنـــه موحـــى إلـــيه[1] ومـــن يزعم أنه كان منفعلا مع البيئة والأحداث التي أحاطت به وبدعوتـــه[2] ومـــن يدعـــي أنه علم من غيره (بحيرا الراهب) الخ. لقد كان من حكمة العلـــيم الخبـــير، الـــذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، أن يمسك الوحي بعد ما بـــدأ كـــنوع مـــن الابتلاء والاختبار، وليكون ذلك تأكيدا على أن الوحي مصدره إلهي ، واســـتفاض هـــذا الأمـــر وعـــرف ، وظهـــرت أماراته على شخصية الداعي صلى الله علـــيه وســـلم، واخـــتلف العلمـــاء فـــي تفسير مدة الانقطاع، أما الإجماع عليها فثابت بالقـــرآن والســـنة، فمـــن القرآن قوله تعالى :﴿ **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى...** ﴾ (الضـــحى : ١-٢) وهذه الآيات نزلت تبياناً لأسباب الانقطاع. وكذلـــك قوله تعالى:﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر...** ﴾ (المدثر : ١ ، ٢) إنها صريحة فـــي اســـتئناف الوحـــي بعـــد الانقطاع، وهذه السورة هي التي نزلت بعد سورة القلم.

---

[1] انظر حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٨ .

[2] جولدزيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١١ .

وكون هذه الواقعة هكذا يعني أن الوحي تعبير عن صلة "الموحى" بالموحى إليه وتفسيره بخلاف ذلك ضلال مبين.

ومن السنة ما جاء في كتاب التعبير عند البخاري عن فتور الوحي قوله: "وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم – فيما بلغنا – حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد : إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك"[1] وليس لنا أن نتكلم في هذا المقام أكثر من هذا، بعد أن عرفنا أن المواقف التي تنزل عن درجة المنهج العلمي، لا ينبغي أن تناقش، لأنه لا أساس لها. وحسبنا أنها كشفت عن نفسية وعقول أصحابها كما أشرنا .

تفسير غريب للوحي :

الشيخ محمد عبده له بعض التفسيرات لبعض القضايا الدينية تجعل الباحث يجزم بأن الرجل كان إلى جانب التفكير النظري الفلسفي أقرب منه إلى جانب حقيقة ما جاء به الوحي في تلك القضايا، من ذلك مثلاً: قضية المعاد وقدم العالم[2] والقضية التي معنا – قضية الوحي – وكان تعليق الشيخ محمد عبده على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية، مجالا لإظهار رأيه في مثل هذه القضية. يقول في تعريف النبي " قد يعرف النبي بأنه إنسان فطر على الحق علما

---

[1] صحيح البخاري : كتاب التعبير .

[2] راجع رأي الشيخ محمد عبده في هذه القضية في كتاب: الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين للمرحوم الدكتور سليمان دنيا ص ١١ ففيها يظهر أنه أدخل في تفسيره بالمعاد الروحاني أكثر من الفلاسفة القائلين بذلك، وكذلك القول في قدم العالم.

وعمـــلا، أي: بحيـــث لا يعلـــم إلا حقـــاً ولا يعمـــل إلا حقـــا مقتضـــى الحكمـــة، وذلك بالفطـــرة، أي لا يحـــتاج فـــيه إلـــى الفكر والنظر، ولكن يحتاج إلى التعلم الإلهي، فإن فطـــر علـــى دعـــوة بنـــي نوعه إلى ما جبل عليه، فهو رسول أيضاً "[1]. وكلام الشيخ فـــي أن الاســـتعداد الفطـــري الـــذي علـــيه بعـــض البشر، هو الذي يؤهلهم لاستحقاق الرســـالة، وقـــد اختفـــت مـــن كلامـــه الصورة الحقيقية لمعنى الوحي، بحيث يمكن أن يقتصـــر علـــى بعـــض أنواعـــه، وهـــو الإلهـــام، وليس ذلك هو الغالب عليه. ومن ثم جـــاء تصـــويره للنبـــي وللوحـــي بصـــورة لا تعطي القضية حقها، كما أن كلامه يركز علـــى قضـــية "الفطـــرة" التـــي يغيـــب معها "الاصطفاء" الذي هو لب قضية النبوة. نعم إن الله ســـبحانه وتعـــالى بحكمـــته وبعلمه لا يختار إلا من يعلم أزلا أنه سيقوم بمهمة النـــبوة خـــير قـــيام، وهـــو يؤهـــل هـــؤلاء بنوع خاص من التأهيل، وكل هذا ينفي أن يكـــون لـــدى المخـــتار لهـــذه المهمـــة مؤهـــلات خاصة بها يستحق الرسالة، فإن هذا يفـــتح الـــباب أمـــام الأدعـــياء ، كمـــا يحـــول الرسالة عن كونها اصطفاء إلى كونها استحقاقا واكتسابا.

أنواع الوحي :

يقرر جمهور علماء العقيدة أن الوحي أربعة أنواع :

الأول : الـــرؤيا الصـــادقة التي تحدث للموحى إليه في النوم، وهو أول ما بدئ به رسولنا صلى الله عليه وسلم، كما جاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضـــي الله عنها أنها قالت:"أول ما بدئ به رسول الله– صلى الله عليه وسلم

[1] الشيخ مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين جـ ٤ ص٦٠ .

– من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح "[1] .

الثاني : التكليم المباشر بلا واسطة : وقد وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام في ليلة المعراج، كما جاء في سورة النجم، في قوله تعالى :﴿ **ثم دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ (النجم : ٨ – ١٠) كما حصل أيضاً لنبي الله موسى عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ (النساء : ١٦٤) وجمهور العلماء على أن الكلام هنا حقيقي وبلا واسطة، ويؤكدون كلامهم بأن هذه الآية قد جاء المصدر فيها تأكيداً للفعل أو الحديث، ولم يجئ الخطاب بهذه الصيغة إلا لتأكيد المعنى المراد حقيقة من الفعل ذاته، حتى لا يصار إلى المجاز. وقد مر بنا سلفا أن الله سبحانه وتعالى يخلق لدى الأنبياء الموحى إليهم بهذا النوع ، القدرة على فهم خطابه سواء أكان المراد بالكلام، المعنى النفسي، أم الحروف والأصوات.

الثالث : الإيحاء بواسطة الملك . وهذا النوع هو الغالب في كيفية التلقي عن الله تعالى ، وقد مر بنا – أيضاً – أن اتصال أمين الوحي بالنبي يأخذ ثلاثة أشكال : فإما أن يظل أمين الوحي على ملكيته، وفي هذه الحالة، يخلق الله تعالى للنبي استعدادا به يفهم خطابه، وإما أن يتشكل في صورة بشر، وإما ألا يكون هذا ولا ذاك بل يسمع النبي صوتا كصوت الجرس ، خفيفا أو شديدا، يفهم منه أنه وحي الله إليه. وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن كيفية تلقيه الوحي : "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا

---

[1] البخاري : باب بدئ الوحي – مسلم : كتاب الإيمان ، باب بدئ الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيكلمنـــي فأعـــي ما يقول ..." وقد قال الله تعالى في حق رسولنا صلى الله علـــيه وسلم :﴿ **نـــزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين** ﴾ (الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥).

الرابع : الإلهام وهو القذف في القلب ، مع تيقن النبي أن الملقى في قلبه إنما هو وحـــي الله تعـــالى، ولـــيس مـــن باب الخواطر أو السوانح، التي تأتي غير الأنبياء.

وقـــد جـــاءت الآيـــة (٥١) مـــن ســـورة الشـــورى لتقرر أنواع الوحي، حيث قال الله تعـــالى فـــيها : ﴿ **ومـا كـان لبشـر أن يكـلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسـل رسـولا فـيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم** ﴾ والمدقق في الآية يرى أنها صـــدرت بلفـــظ "الوحـــي" ثـــم الـــتكلم من وراء حجاب ثم الوحي بواسطة الملك. وهذا يعنـــي أن المـــراد بالوحـــي أولاً : هو : الرؤيا الصادقة والإلهام. وبهذا تكون الآية قد أشارت إلى الأنواع الأربعة التي ذكرناها .

الوحي أمر ممكن في ذاته :

أشـــرنا فـــي بحـــث ســـابق، حيـــن رددنـــا علـــى مـــنكري النبوة، أن الوحي أمر ممكـــن فـــي ذاتـــه؛ لأنـــه لا يترتـــب علـــى القـــول به مستحيل، ومن قال بخلاف ذلك فليعرفـــنا وجـــه الاســـتحالة بالمعـــنى الحقيقي، لا بالمعنى الوهمي. فأما وجه إمكانه ، فلأنـــه لـــيس بمســـتنكر علـــى الله تعـــالى، أن يخلق لدى بعض عباده استعدادا خاصا يتمـــيزون بـــه عمـــن سواهم، به يستطيعون تلقي الوحي، كما أن وجود الملائكة ليس أمـــرا مســـتحيلا فـــي ذاتـــه كذلـــك، فـــإذا انضم إلى هذا وذاك، أن الله سبحانه وتعالى بقدرتـــه الـــتامة. يســـتطيع أن يتصـــل ببعض عباده لمهمة كبرى كالرسالة، بأي أنواع الاتصـــال، لكانـــت القضية كلها من قبيل الممكن الذي لا يجوز إنكاره . وهذا القدر هو

الــذي يكون من حق العقل أن يناقش فيه، فإذا جاء النص الصحيح، وقرر وقوع الممكن فــي ذاتــه، فالأمــر إلــى مــا جــاء بــه، ولا مناقشــة فــي ذلك، لأن الشك فيه مع الاعتراف بأنه ممكن ذاتا يكون مناقضة صريحة للعقل والنقل معاً.

ولعــل أهــم الأمــور التــي ينبغــي توضــيحها هــنا أن الاســتعداد المشار إليه آنفــاً ينبغــي أن يرتــبط بمصــدره الحقيقــي، وهو الله سبحانه وتعالى، والذي دفعني إلــى تأكــيد هــذا المعــنى أن بعــض المفكرين قد تهاونوا في تحرير الألفاظ في هذه القضــية، ممــا يمكــن أن يكون مدخلا للقول باستحقاق الرسالة أو النبوة، على الوجه الــذي بيــناه آنفاً عند حديثنا عن تفسير الوحي لدى الشيخ محمد عبده، ويؤكد هذا ما عليه المحققون من أن النبوة اصطفاء لا اكتساب، وهذا ما سنبينه .

النبوة هبة واصطفاء وليست اكتسابا :

النصــوص الدينــية ذكــرت تلــك القضــية علــى وجــه لا يحــتمل التأويل، ففي القــرآن جــاء قوله تعالى : **﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾** (آل عمــران : ٣٣) وهذه الآية شاملة لجميع الأنبياء تقريباً لأنها تحدثــت عــن آدم و نــوح ، ثم آل إبراهيم كإسحق ويعقوب وأعقابهما وكذا إسماعيل الــذي انحــدر مــن أعقابــه نبيــنا محمــد صلى الله عليه وسلم. وهناك آيات أخرى تحدثــت عــن القضــية علــى ســبيل الخصوص، كقوله تعالى في حق "يوسف" عليه السلام **﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث .. ﴾** (يوسف : ٦) وقــال فــي شــأن موســى عليه السلام : **﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي... ﴾** (الأعراف : ١٤٤) **﴿ ولتصنع على عيني ﴾** (طه : ٣٩) .

وإذا كـان هـذا هـو الحـق فـي القضـية التـي معنا، فإن كل رأي يذهب خلاف هـذا المذهـب يعـد رأيـا بـاطلا. لأن القـول بأن النبوة اكتساب يفسد الأساس الذي تقـوم علـيه، لأن الحـق سـبحانه وتعـالى هو المحيط علما بحقيقة الطرفين: طرف المرسـل إلـيهم، ومـدى حاجـتهم إلى الرسالة، وطرف المرسل، وكيفية تأهيله لتحمل عـبء الرسـالة، كمـا أن هذا القول يفتح الباب أمام الأدعياء، إذ كل من تطلعت نفسه إلـى أن يكـون له دور اجتماعـي ، يمكن أن يدعيها، وقد حدث ذلك في صدر الإسلام، كما حدث في العصر الحديث .

الفلاسفة والنبوة :

كـان " الفارابـي " أظهـر فلاسـفة الإسـلام الذيـن تحدثوا في النبوة، وأقاموها علـى دعامـة قويـة ميـتا فيزيقية ونفسية. وكان تفسيره لها على هذا الشكل، موقفاً علميا أمام ما آثاره كل من " ابن الراوندي " و " الرازي " من شبهات تشكك فيها.

إن الفارابـي يـرى أن الإنسـان، مـتى كـان ذا مخلـية رائقة، لا تستولى عليها الشـواغل البدنـية، فإنـه يسـتطيع أن يـرقى بنفسـه حـتى يصل إلى العقل الفعال، المنـتقش فـيه كـل المعلومات، فيكون له بذلك نوع من العلم الذي يمكن أن ينبئ به، فيأتي الواقع بتصديقه.

ومـن نظـرية الأحـلام عـند أرسـطو مـا يصح أن يكون أساسا لتفسير النبوة كذلـك، وقـد تـبعه فـي ذلـك من تحدث في هذه القضية، ومن هؤلاء، حجة الإسلام الغزالـي، فقـد عقـد لها فصلا في كتابه " المنقذ من الضلال " لم يزد فيه على ما قاله الفارابي شيئاً .

والـذي يمكـن أن يؤخـذ علـى التفسـير الفلسفي للنبوة، أنه جعل الأساس فيها هـو "المخـيلة" القـادرة، حتى تتيح لصاحبها أن يتخيل ما يشاء، إن لم يكن في يقظته ففـي منامه . وحسب هذا التفسير ضعفا أن يكون التخيل وسيلة للاتصال بالعقل الفعال، ومـن المعلـوم أن طـريق الاتصـال، له أربعـة أنـواع علـى الوجـه الذي ذكرناه مـن قـبل، وهـذه الطـرق قـد بينـتها الآية الكريمة من سورة الشورى : " **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا** ..." ولـيس فـيها ما يدل على أن لقوة التخيل مدخلا فـي تفسـير النـبوة، نعـم !!! إن الإلهـام أو القـذف في الروع من أنواع الاتصال، وكذلـك الـرؤيا الصـادقة، ولكـن الوسيلة إلى ذلك كله، هو شفافية المؤهل للرسالة، تلـك التـي جاءتـه مـن عند الله سبحانه وتعالى، لا عن اجتهاد منه. ولا شك في أن القـول بالمخـيلة كأسـاس للاتصـال هو الذي أظهر الضعف في تفسير الفارابي لها، يضـاف إلـى ذلـك أنه لم يقل أبدا شيئا عن كون النبوة اصطفاء واجتباء، بل تتوقف على قوة "التخيل" وهذا يعني أنها مكتسبة، وهو مالا يرضى به الإسلام.

النبي والفيلسوف :

المدقـق فـي نظـرية الفارابـي فـي النبوة ينتهي إلى أن الرجل يرى أن كل من النبـي والفيلسـوف يـأخذ مـن معيـن واحـد، ولا يأبه كثيراً بالفرق بين الطريقين: المخـيلة والقـوة الـناطقة، طالمـا أن المصـدر واحد، ومن ثم فإن النبي والفيلسوف يكونـان علـى درجـة واحـدة مـن حيث الاتصال. ويظهر أن الفارابي شعر بأن هذا القـول قـد يصـطدم بمشـاعر الجماهـير، لأن التسـوية بين طريقي المخيلة والقوة الـناطقة، وبالضـرورة بيـن النبـي والفيلسوف، لا يقبل في البيئة الإسلامية، لذا نراه قـد قـرر فـي بعـض النصوص أن النبي يجوز أن يصل إلى العقل الفعال عن طريق العقـل. وفـي تقديـري أنه لم يحل الإشكال، وإن كان هذا القول أخف من سابقه، لأنه اعـتراف بـأن القـوة المتخـيلة فـي إدراكها للمعلومات أقل من القوة العاقلة، وهذا

يعني على التفسير السابق أن النبي أدنى من الفيلسوف. وأما تفسيره الأخير فيجعلهما متساويين.

والحق أن كلام الفارابي هنا ليس صحيحا؛ لأن التسوية بين النبي والفيلسوف معا لا يقبله عقل. وليست وحدة المصدر – إن سلمنا بقوله بان العقل الفعال هو مصدر المعلومات لكل من النبي والفيلسوف – وحدها يمكن أن تكون مبررا للتسوية بين العلوم التي يدركها كل منهما. فأقل ما يمكن أن يقال هنا : إن النبي يدرك المعلومات بإحدى الوسائط المعروفة، وهي أنواع الوحي، وهي كلها معصومة من الخطأ والزلل، ذلكم لأن المعارف التي يحصل عليها النبي ليست خاصة به، كما هو حال الفيلسوف بل هي منهج إلهي مقدس، جاءه كي يبلغه إلى من أرسل إليهم .

إن طريق التلقي وكذا طريق البلاغ عند النبي، كلاهما معصوم، بعكس الحال عند الفيلسوف، والنتيجة الضرورية لذلك : أن النبي غير الفيلسوف. والقول بخلاف ذلك ليس صحيحا .

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة، لما وجدنا لها خطا واحدا يسعى بالإنسان إلى غاية محددة، بل هي أنساق فكرية متباينة، غايتها ذاتية بحتة، بينما نرى طريق النبوات واحدة، والغاية واحدة، هي إقامة البشر على طريق الحق.

ويمكن أن يقال مثل هذا الكلام عند المقارنة بين النبي والمصلح الاجتماعي أو السياسي الخ، فالنبي بجانب دعوته إلى قمة العقيدة – وهو التوحيد – الذي يعد مدخلا لكل ما بقى من حياة الإنسان مما يحتاج إلى إصلاح ، نراه يدعو إلى علاج كل الرذائل الموجودة في المجتمع الذي جاء إليه، بطريق الوحي المعصوم، وبإخلاص أشد من إخلاص المصلحين الآخرين، وبتأييد من الله أكثر،

بيــنما نــرى الحــركات الإصـــلاحية غالــباً مــا تــتجه إلـــى أمور جزئية، وإذا كانت الأمـــراض المعــنوية والماديـــة التـــي تكـــون في مجتمع ما ينبغي أن ينظر إليها نظرة كلـــية شاملة، وترتيب علاجها من الأصول إلى الفروع، فإن حركات الإصلاح – غالبا – لا تــتخذ هــذا المــنهج ســبيلا لهـــا ، مـــن ثـــم كانـــت إصلاحاتها غير شاملة، كما أن اســتجابة المجــتمعات للمصـــلحين، لا يمكـــن أن تكـــون فـــي مستوى استجابتهم للأنبـــياء – بصـــرف الـــنظر عـــن الإعـــراض والـــتحدي، الـــذي يقـــف أمام أصحاب الرســـالات – ذلكـــم لأن هـــذه المســـألة مشـــتركة بيـــن النبي والمصلح على السواء فالقـــاعدون مـــن أصـــحاب الـــنفوس الخبيـــثة أمام كل دعوة إلى الإصلاح، موجودون في مجتمعات الأنبياء كوجودهم في مجتمعات المصلحين، سواء بسواء .

الفصل الثالث

وحدة الرسالات السماوية

في أصول العقائد والعبادات والأخلاق

الرســالات الإلهــية واحــدة مــن حيــث أصــولها، ســواء مــا كان منها متصلا بأساس الدين، الذي يقوم على بناؤه، أم كان متصلا بالعبادات التي تشكل وسيلة الاتصال الروحــي بيــن العــبد وربــه، أم كــان متصــلا بأصول الأخلاق والآداب والمعاملات. وباختصــار: كــل ما يتصل ببقاء الإنسان في وضعه الطبيعي، الذي لا عوج فيه، كان واحداً في جميع الرسالات. وقد أطلق القرآن الكريم على هذه "الثوابت" اسم "الدين" فقال تعــالى :﴿ **شــرع لكــم مــن الديــن مــا وصــى بــه نوحــا والــذي أوحينا إليك ..** ﴾ (الشــورى : ١٣) وقــال : ﴿ **إنــا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعــده ...**﴾ (النســاء : ١٦٣) . وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن الرسالات السماوية واحدة، ومن ثم رأينا القرآن الكريم يطلق عليها اسم "الإسلام" بمعنى : الانقياد والطاعة بعد الاعتقاد الصحيح لله ربّ العالمين قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام ...**﴾ ثــم يبيــن أن اخــتلاف الذين أوتوا الكتاب إنما جاء منهم على غير أساس من الدين : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ...**﴾ ويبيــن أن هــذا كفر بمنهج الله : ﴿ **ومــن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾ (آل عمران : ١٩).

وأمــا الأمــور التــي قــد تخــتلف باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة ، فإن الأمر الطبيعــي أن تجــيء الرســالات بمعالجــتها حسب مقتضيات الأحوال . وإذا نظر إليها

بهـذا الاعتـبار فإنهـا تكـون مـتعددة. ولـيس بيـن القوليـن تعـارض، لاختلاف الاعتبارين .

ويؤكد القضية بالاعتبار الأول ما يأتي :

أولاً : وحدة مصدر الرسالات الإلهية، وهو "الحق" سبحانه وتعالى .

ثانياً : وحدة الأصل الإنساني ، وهذا يقتضي أن يكون ما به يظل الإنسان في رتبة الإنسـانية واحـداً كذلـك . ومـن المسـلم بـه أن الاعـتقاد الصـحيح فـي مقدمة الأمور التي يتوقف عليها صلاح الإنسان .

وإذا تقـرر هـذا ، فـاعلم أن مـا ظهـر بين الأديان السماوية من خلاف، في تلك الأصـول التـي أشـرنا إليها، فإنما يرجع إلى أسباب تتصل ببعض المنتسبين إلى تلك الأديـان، ممـن طاوعـنهم عقولهـم القاصـرة، ونفوسهم المريضة، لأن يتدخلوا فيها بالـتحريف والتـبديل. ولقـد أشـار القرآن الكريم إلى أن نفرا من أتباع هذه الأديان، لـم يـرقهم أن تظـل علـى صـفائها، كما نزلت على الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، لأنهـا تخـالف أهواءهـم الباطلة، حيث جاءت لتعالجها وتقيمها على الطريق الصحيح، ولكـنهم أبـوا إلا أن يظلـوا مرضـى، مـن ثـم ردوا مـا جـاءهم به أنبياؤهم، بل لـم يقفـوا عـند الإعـراض وحده، بل تخطوه إلى تكذيب هؤلاء وتقتيلهم، قال تعالى: **﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾** (البقرة: ٨٧) .

كمـا بيـن القـرآن الكـريم حقـيقة مـا كانت تنطوي عليه التوراة من مضمون وأهـداف، وكذا الحال بالنسبة للإنجيل، فقال :**﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ...﴾** (المـائدة : ٤٤) وقـال :

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ (المائدة : ٤٦) ، ثم عقب على بيان مضمون وأهداف هذين الكتابين الكريمين اللذين نزلا من عند الله بقوله مخاطباً رسوله الخاتم محمدا صلى الله عليه وسلم : **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ...﴾** (المائدة : ٤٨).

تلك صورة واضحة المعالم، ظاهرة الدلالة في العلاقة بين الكتب الثلاثة الرئيسية: التوراة – الإنجيل – القرآن ، وبالتالي بين الرسالات الثلاث : اليهودية – المسيحية – الإسلام . إنها الوحدة التامة من حيث الموضوع في أصوله وعمومه والهدف والغاية. وهي الهداية والأخذ بيد الأتباع إلى السداد والرشاد، متى انفعلوا بمحتوى هذه الرسالات الانفعال الصحيح.

وفي الوقت الذي تبرز فيه وحدة الأصول والأهداف، يظهر أن ما اعترى الدينين السابقين على الإسلام من انحراف، إنما مرده إلى العبث الذي قام به بعض أتباعهما، كما ذكرنا ذلك قبلا، لأنه يجل جناب الحق عن أن تتعارض توجيهاته وما يطلب به لبني البشر، إذ لا يكون التعارض أو القصور إلا لذي القدرة والعلم المحدودين، والله سبحانه وتعالى مطلق الصفات.

بعد هذا نقول : لا ينبغي أن يفهم من قولنا السابق عن وحدة الرسالات في أصولها وأهدافها، أنه ليس بينها فوارق مطلقا. إذ الواقع يرينا أن أشكال الأمراض الاجتماعية وأسبابها تختلف من بيئة إلى أخرى، وإذا كانت الغايات للرسالات الإلهية إنما تتخذ من تلك الأمراض محورا لها للعلاج، فإن النتيجة لذلك،

أن تخـتلف الرسـالات مـن هذه الجهة . إن المجتمع الإنساني يأخذ طريقه إلى غايته وأهدافـه مـتدرجة، ومـا أشـبه أمـم الأرض في نشأتها وتطورها بالوليد الذي تتعدد مـراحل نمـوه وتطـوره. وهـذا يعنـي أن الوسـائل التي يحتاجها في كل مرحلة من مـراحل حـياته تخـتلف عن الأخرى، وإن كانت مطالبه الضرورية واحدة. وهذا الذي نقولـه بالنسـبة للرسـالات الإلهـية، إنما يظهر في التشريعات التي تنظم مجتمعات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

إن القـرآن الكـريم قد تحدث عن الجوانب الاجتماعية السيئة التي كان عليها أقوام الأنبـياء، بمـا يـدل علـى أنهـا كانـت مخـتلفة فـي هـذا المقـام، كمـا اختلفت كذلـك فـي درجـات الرقـي والـتقدم، من بيئات رعوية زراعية إلى أخرى صناعية، إلـى ثالـثة تجاريـة، وممـا لا شـك فيه أن القوانين التي تنظم هذه البيئات ينبغي أن تكـون اسـتجابة للواقـع الـذي جاءت لتنظمه، حتى تنقله إلى واقع صحيح. وهذا هو الجانـب العملـي مـن جانبـي الإصـلاح العام، الذي تجيء الرسالات الإلهية لتأكيده، فالجانـب الاعـتقادي هـو أحد الجانبين، وهذا لا خلاف فيه بين قوم وقوم، وبين بيئة وأخـرى، وهـو الجانـب الأهـم بالإصـلاح لأنـه أسـاس الدين كما أشرنا ، ثم يأتي الجانب العملي التطبيقي، الذي يراعى فيه طبيعة ما يقتضي المعالجة.

هـذه المعانـي قـد بيـنها القـرآن الكريم والسنة الصحيحة، حيث قرر في بعض آياتـه قضـية وحـدة أصـول الأديـان، بـل إن الآيـة التي ساقت هذه القضية ، قد استخدمت اللفظ المفرد ، الذي يؤكد تلك الوحدة : "**إن الدين عند الله الإسلام**" وقوله :
﴿ ومـن يبـتغ غـير الإسلام ديـنا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾
وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد[1]"

---

[1] متفق عليه .

أمـا مـن حيـث مـا تقتضـيه الفـوارق البيئية وتغير الزمان والمكان فقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله :﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا...**﴾(المائدة :٤٤) ولعـل الخـلاف فـي الشـرعة والمـنهاج مع وحدة الأصول بين الأديان، هو المسوغ لمـن يقـول بـأن الشـريعة اللاحقـة تنسخ الشريعة السابقة، وهذا كلام صحيح، لأن العمـل بتشـريع ومـنهاج خـاص ببيئة ما، في زمان ومكان محددين، لا يفيد في بيئة أخـرى، وفـي زمـان ومكـان آخريـن، وقـد قال المعتزلة وجمهور الأشعرية بذلك، ويعـنون بـه هـذا المعـنى. وهو أن النسخ لا يرفع حكماً ثابتا، إنما يبين ارتفاع مدة شريعة من الشرائع[1].

الإيمان بجميع الرسل :

إذا كانـت الرسـالات واحـدة من حيث مصدرها وهدفها وأصولها – كما ذكرنا – فـإن هـذا يقتضـي عقـلا الإيمـان بجمـيع الرسـل علـيهم الصلاة والسلام، وبما جـاءوا به من رسالات. ولهذا المعنى قرر القرآن الكريم وجوب الإيمان بجميع الرسل . قـال تعالى مبيناً حقيقة إيمان الرسول الخاتم وأتباعه :﴿ **آمـن الرسول بما أنزل إليه مـن ربـه والمؤمـنون كـل آمـن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله وقـالوا سمعـنا وأطعـنا غفـرانك ربـنا وإلـيك المصـير** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) . وقـال سـبحانه :﴿ **قـل آمـنا بـالله ومـا أنزل علينا وما على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقـوب والأسـباط، ومـا أوتـي موسـى وعيسـى والـنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ (آل عمران : ٨٤).

والمدقـق فـي المقـام الـذي نـتحدث عـنه يرى أن الجانب الموضوعي فيه هو الأسـاس فـي تقريـر الوحـدة بين الرسالات السماوية من حيث أصولها. وهذا يعني

[1] الجويني : الإرشاد ص ٣٢٨ .

أن التفاضـل بيـنها مـن هـذا الجانـب غير وارد، للاعتبارات التي سقناها من قبل، وهـي : وحـدة المصـدر – وحـدة الهدف – وحدة الأصول. وإذا كان الأمر هكذا فإن التفاضـل بيـن الأنبـياء والرسـل، إنما يكون لسبب آخر، وفي تقديري أن من أظهر الأسـباب فـي ذلـك يعـود إلـى مـدى ما يتحمله الرسول في سبيل دعوته من أذى وجـبروت من المعرضين عن الحق، ولعل هذا ما يشير إليه تعالى تعزية لرسولنا صلى الله علـيه وسـلم : "**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ..." . ثـم لا مناص من القول بأن من أسباب التفضيل ما يعلمه الحق سبحانه وتعالى عن كل رسول، مما لا يمكـن أن يدخـل تحـت أي معـيار بشري. وإذا كان الأمر بين المتفاضلين فيما دون الرسـالات لا يقـبل عقـلا وشـرعا، ما لم يقم على معيار دقيق ، ينأى عن أي اعتبار سـوى المعـيار الـذي بـه يـتحقق التفاضـل، فإن من الأولى أن يكون ذلك في هذا المقـام. والـذي يفاضل، هو الحكم العدل ، العليم الخبير ، الذي تقوم أحكامه كلها على العـدل المطلـق، قال تعالى : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** ...﴾ (البقرة : ٢٥٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه وأول شافع وأول مشفع** "[١].

ولـيس هـناك تـناقض بيـن مـا جاء به هذا الحديث وأحاديث أخرى في حكمه، وبين قوله صلى الله عليه وسلم : " **لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بساق العرش. فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله؟**"[٢].

والسـبب فـي عـدم التـناقض، أن الحديـث الأخـير كـان لـوروده سبب غير تقرير قضية المفاضلة بين الرسل عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

[١] رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن أبي هريرة .

[٢] الحديث مخرج في الصحيحين .

لقـد ذكـرت كتـب السـنة سـبب ورود هـذا الحديـث، وهـو أن يهوديا أقسم قـائلا : لا والـذي اصـطفى موسـى على سائر البشر، وكان ذلك أمام مسلم، فلطمه، وقـال له : أتقـول هـذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا؟ فذهب اليهودي إلـى الرسـول صـلى الله علـيه وسـلم يشكو له ما حدث من المسلم، فقال الحديث المذكـور. وهـذا يعنـي أنـه قيل في مناسبة خاصة، كان القصد منها بيان أن الأنبياء جميعا أخوة ، ولم يكن المقام – حينئذ – مقام تقرير قضية التفضيل بينهم .

وقـد زعـم قـوم مـن الـروافض أن الأنبـياء والأئمـة متساوون في الدرجات ولكـل مـنهم من الفضل في دوره ما للآخر في دوره[1]. وهذا الكلام لا أصل له ، لا من العقل ولا من النقل . من ثم لا يعتد به.

وبهذه المناسبة جرت قضية التفضيل بين الأنبياء والملائكة كذلك، بين علماء الكلام، وكان الرأي الأرجح فيها تفضيل الأنبياء ، وهذا هو الحق.

وأمـا الحسـن البجلـي فقـد فضـل الملائكـة على الأنبياء . وقد وافقه على هذا القـول بعـض القدريـة الذيـن ذهبوا إلى أن الأنبياء أفضل من الملائكة الذين عصوا ربهـم كهـاروت ومـاروت . وأمـا مـن لـم يعـص ربه من بقيتهم فإنهم أفضل من الأنبياء[2].

وقـد اسـتدل هؤلاء على ما ذهبوا إليه بقوله تعالى :﴿ **لـن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ (النسـاء : ١٧٢) فقـد فهموا أن الآية تفـيد الترتيـب المتصـاعد في الجنس والطبيعة ، والحق أن الجزم بذلك غير صحيح،

---

(١) البغدادي : أصول الدين : ص ١٦٥ .
(٢) نفس المصدر ص ١٦٦ .

لأن هـذا الكـلام قد يقال على المتساويين ، كما يكون العكس صحيحا[1]. وعلى كل حال فالمسألة ليست مهمة إلى حد الإيغال فيها.

ترتيب الرسل والرسالات :

بدايـة الرسـالات الإلهـية، كمـا هـو ثابـت في القرآن الكريم كان برسالة نوح علـيه السـلام . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبـيين مـن بعـده** ... ﴾ (النسـاء : ١٦٣) ولكن الإجماع على أن أول الأنبياء ، هـو آدم علـيه السـلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم. وهو إجماع من يعتد بهم مـن أهـل العلم ، نقول هذا لأن هناك من خالف في ذلك ، ولا يعتد بخلافهم، حيث ذهب بعـض الصـابئة إلـى أن آخـر الانبـياء هـو شـيث (إدريس عليه السلام) ، كما زعمـت بعـض طوائـف المجـوس أو أول البشـر وأول الأنبياء هو "كيومرث" وهذا زعم – أيضاً – لا أساس له.

ولـيس هـناك تعـارض بيـن كـون نبيـنا – صـلى الله علـيه وسـلم – آخر الأنبـياء وبيـن نـزول عيسـى فـي آخـر الزمان، لأن نزوله سيكون مقترنا بدعوته قومـه إلـى الإسلام، وكسر الصليب، الخ وهذا الموضوع سنوفيه حقه في الفصل الذي سنتحدث فيه عن ختم الإسلام للرسالات الإلهية .

وأمـا بيـن آدم ومحمـد علـيهما السـلام مـن الرسـل والأنبياء فهم كثيرون ، لـيس بيـن أيديـنا مـن النصـوص الصحيحة ما يدل على إحصائهم ، فالقرآن الكريم بيـن أن مـن الرسـل من قص الله علينا قصصه، ومنهم من لم يكن كذلك ، والأحاديث التـي وردت فـي هـذا السـياق ليسـت صـحيحة . إذن لا مناص من القول بوجوب الإيمـان بمـن ورد ذكـرهم في القرآن الكريم على سبيل التفصيل ، وكذا ما جاءت به

---

[1] نفس المصدر .

السنة الصحيحة في هذا المقام ، وأما على سبيل الأجمال فيجب الإيمان كذلك بأن الله سبحانه وتعالى بعث إلى كل تجمع بشري رسولا كما يشير إلى ذلك قوله تعالى " **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** " .

وأما من ورد ذكرهم على سبيل التفصيل، فقد جمعت آية واحدة من آيات القرآن ثمانية عشر رسولا كريما منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم، ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوح هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط وكلا فضلنا على العالمين** ﴾(الأنعام : ٨٦) فالمذكورون في الآيات ثمانية عشر رسولا. وأما من ذكر في غيرها فهم : محمد – آدم – صالح – شعيب – هود – إدريس – ذو الكفل.

إن هؤلاء جميعا يجب الإيمان بهم على سبيل التفصيل ، وأما الذين لم يرد ذكرهم تفصيلا فيجب الإيمان بهم إجمالا كما ذكرنا ، وكما يشير إليه قوله تعالى:﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ...** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) . لأن إنكار أحدهم أو بعضهم تكذيب للمرسل ، وهذا قدح في الإيمان نفسه، إذ لا يكون الإيمان صحيحا ، ما لم يقم على التصديق الجازم المطابق للواقع ، الناشئ عن دليل، ومن المعلوم من الدين بالضرورة ، وجوب الإيمان بجميع الرسالات السماوية دون تفريق.

تنبيه :

يتصـــل بهـــذا الفصـــل مباشـــرة ، مســـألة ينبغـــي التنبيه عليها تتعلق بوحدة الرســـالات الســـماوية مـــن الناحـــية الموضـــوعية في مقام الأصول العامة على الوجه الذي ذكرناه.

وأبـــدأ فـــأقول : تجـــرى فـــي يـــوم الناس هذا ، دعوات قوية ، سافرة أحيانا ومقـــنعة أحـــيانا أخـــرى إلـــى وحـــدة الأديـــان، ويمهـــد لذلك بالحوار بينها، ويختار أصـــحاب هـــذه الدعـــوات اســـم : الدين الإبراهيمي، ليكون موحدا لكل الأديان، تنصهر فـــيه جمـــيع عناصـــرها، وتـــذوب فـــيه ما بينها من فوارق، وإنما اختير هذا العنوان لـــيكون علمـــا علـــى الديـــن "الموحـــد" لأن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين كانوا أعقابا له ذرية : إسحق ويعقوب أو من ذرية إسماعيل .

والحـــق أن الدعـــوة إلى دين واحد صحيح ، نزل من عند الله تبارك وتعالى ، لـــيكون هـــو الأســـاس والمعـــيار الـــذي في ضوئه تتحد ماهيات الأديان الأخرى، وفي إطـــاره يـــتحدد الاعـــتقاد والعمل الصحيحين، مسألة دعى إليها القرآن الكريم من قبل، حيـــن قال لأهل الكتاب : ﴿... **تعـــالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشـــرك بـــه شـــيئاً ولا يـــتخذ بعضـــنا بعضـــا أربابـــا مـــن دون الله فـــإن تولـــوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون..** ﴾ (آل عمران: ٦٤).

بـــل إن القـــرآن الكـــريم قـــد ألـــزمهم الحجة حين كانوا يحاجون في إبراهيم مســـتندين علـــى مـــا فـــي كتـــبهم من تحريف وتبديل، فقال :﴿ **يـــا أهل الكتاب لم تحـــاجون في إبراهـــيم ومـــا أنزلـــت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون...** ﴾ (آل عمـــران: ٦٥) ثم يختم المشهد المبارك بقوله :﴿ **مـــا كان إبراهيم يهوديا ولا نصـــرانيا ولكـــن كـــان حنـــيفا مســـلما ومـــا كـــان من المشركين**﴾ (آل عمران: ٦٧)

حقـا إن ادعـاءهم بـأن إبراهـيم يهـودي أو نصـراني أمر يدعو إلى التعجب، وإلا فكـيف نفسـر أنـه كـان كذلـك قـبل أن توجد اليهودية والنصرانية؟ إن عجز الآية الأخـيرة يكشـف عـن عقـيدة القـوم – الـيهود والنصارى – التي كان السبب فيها تصـرفاتهم فـي الكتابيـن علـى غـير مـا شرع وما أحل الله، حتى غدا الشرك بالله تعـالى هـو الطـابع العام لتلك العقيدة. ألم يقل القرآن عنهم في مقام آخر يتصل بهذا الموضـوع: **اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعـبدوا إلهـا واحـدا سبحانه** ... ؟ ثم ألم يكشف عن عقيدتهم الباطلة المشركة، حين قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله؟

كـل هـذا الـذي تقدم يدعونا إلى هذا السؤال الذي يحسم القضية : هل الدين الإبراهيمـي المخـتار لـيكون رمـزا للأديـان كلها تتوحد في ظله، هو الدين الصحيح الـذي هـو الإسـلام كمـا بينـته الآيـة السالفة الذكر، التي ردت على ادعاء كل من الـيهود والنصـارى نسـبة إبراهـيم إلـيهم؟ "**مـا كـان إبراهـيم يهوديـا ولا نصرانيا ولكـن كـان حنـيفا مسـلما** "؟ أو إبراهـيم الـتوراة والإنجـيل ؟ وبتركـيز أكثر : هل إبراهـيم القـرآن الكـريم أو إبراهـيم الكتابيـن السـابقين علـيه هـو المـراد، مع استصحاب ما حدث لكل من هذين الكتابين؟.

إن إبراهـيم القـرآن الكـريم هو الرجل "الأمة" القانت الحنيف المسلم الطاهر، وديـنه وملـته هـي الإسلام . وأما إبراهيم الكتابين: التوراة والإنجيل ، وبالتالي دينه وعقـيدته فلـيس كذلـك . والحـق أنـنا نرحب بكل دعوة صادقة إلى الحوار والتفاهم والاجـتماع علـى كلمـة سـواء هـي كلمة الحق ، ولن يكون ذلك إلا في الإسلام دين الأنبـياء جمـيعا كمـا ذكـرنا قبلا. أما إذا كان الهدف من وراء هذه الدعوة شيئا أخر غـير مـا ذكـرنا – ولا نعـتقد إلا انه كذلك – فإن الإسلام يرفضها بكل إباء، إذ كيف

يسمح الحق لما ليس حقا أن يكون هو الإطار الذي فيه يذوب ، والمعيار الذي من خلاله يكون الحكم على المعتقدات والأفعال؟.

إننا لا ننفي أن يكون وراء الدعوة إلى الدين الإبراهيمي، بعض المنظمات المشبوهة التي تعمل لصالح اتجاهات سياسية عنصرية، والتي تريد أن تتخذ من الدين وسيلة، للوصول إلى أهدافها ومطامحها. ومن المؤكد لدى أصحاب هذه المنظمات والمؤسسات أن وسائل الاختراق كثيرة، وعلى رأسها الجانب الديني.

إن أمتنا ينبغي أن تأخذ حذرها من مثل هذه الدعوات، مهما لبست من مسوح الإخلاص والدعوة إلى الوحدة، فقد علمتنا التجارب المريرة أن الصراع بين الحق والباطل مسألة مستمرة. وقد بين القرآن الكريم أن اليوم الذي يرضى عنا فيه أعداؤنا من اليهود والنصارى، هو ذلك اليوم الذي نتنازل فيه عن ملتنا، ونتبع ملتهم، وصدق الله العظيم حيث قال : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم...** ﴾ (البقرة: ١٢٠) فهل نستطيع بعد ذلك أن نعي توجيه القرآن الكريم، ولا نجري وراء سراب السياسات الخرقاء، التي أوردت أمتنا موارد التهلكة؟.

إن المشتركين في الدعوة إلى الدين الإبراهيمى أحسبهم ما بين متحمس صادق في تحمسه، وقد يكون من هؤلاء المفكر الفرنسي المسلم الذي هداه الله مؤخرا إلى الإسلام "رجاء جارودى"، وما بين داعية إليها بخبث ودهاء يهدف من وراء دعوته إلى إذابة الفوارق بين الأديان، ولا شك في أن بينها فوارق، بعد التحريف والتبديل الذي أصاب اليهودية والمسيحية، وإذا كان سلطان القوة – في جميع الاتجاهات – يفرض نفسه، فإن التركيز سيكون على ذوبان الإسلام في غيره، ولا ندري شيئا عن ماهية الدين الذي في ذهن هؤلاء ، غير أن الشواهد التي لاحظناها من قراءتنا لبعض الأعمال لرجال الفكر اليهودي، وعلى رأسها،

"بـروتوكولات حكمـاء صـهيون" تريـنا إلـى أي حـد كيف تتخذ الدعوات إلى وحدة الأديان سـتارا يخفـي وراءه أهدافاً سياسية، ليست لصالح الإنسانية، بل لصالح قوى بعينها، وما الماسونية العالمية إلا أحد وجوه تلك المخططات المدمرة.

إن مـن له درايـة بالماسـونية ومـا في مستواها من المنظمات والمؤسسات يـدرك التلاقـي فـي الفكـرة مع هذه الدعوة الأخيرة. مما يوحي بشيء غير قليل من الشـك، غـير أنـنا كأصـحاب ديـن قـوى في ذاته لا نملك رفضها ما لم يتأكد لدينا ما وراءها من أهداف وغايات لا يرضى عنها ديننا.

والـذي يدعونـا إلـى إغـلاق الـباب فـي وجه هذه الفكرة، أنه من الممكن أن يكـون لـدى الداعيـن إلـيها من الصدق والإخلاص ما يجعلها مقبولة، وقد يكون وراء هـذا الصـدق وهـذا الإخـلاص مـا يشعر به كل مصلح مما تعاني منه البشرية الـيوم مـن ويـلات، مـن جراء ابتعادها عن الدين الصحيح، الذي يطب لأدوائها، وما أكـثرها. والـذي تنـتظر مـنه الإنسانية اليوم، بل وفي كل يوم أن يكون المخلص لها مـن أزماتهـا، تلـك الأزمـات التي كادت تحول الحياة الإنسانية إلى صحراء موحشة، في ظل عدم التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن.

نعـم!!! نـأمل أن يكـون الهـدف مـن وراء تلك الدعوة هذا الذي نستشعره وأمـا إذا بـان لـنا أن الهـدف ليس كذلك، فليكن لأصحابها دينهم ولنا ديننا، وليتحمل كـل مـن الطرفيـن نتـيجة موقفه الديني، فالقسمة التي ذكرها القرآن الكريم بالنسبة لتقيـيم واقـع المتدينيـن، أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وأحد الفريقين على الهدى، والثانـي فـي الضـلال المبيـن، ونحـن نحمـد الله الذي هدانا لما نحن فيه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفصل الرابع

صفات الرسل : الواجب منها والمستحيل والجائز

تمهيد :-

مـــن يخـــتاره الحق تبارك وتعالى لتحمل عبء الرسالة ، يصنعه على عينه ، ويصـــطفيه لنفســـه ، ويتولى حفظه وعصمته ، حتى فى المراحل المتقدمة على تكليفه بهـــذه المهمـــة ، بل إن الأمر قد يتخطى شخصية الرسول نفسه ، إلى أصلابه : الأقارب مـــنهم والأبـــاعد ، وهذا ما حدث لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، حيث زكاه ربه بقوله **﴿وتقلبـك فـى الساجدين ﴾** وجمهـــور المفسرين على أن آباء النبى محمد صلى الله علـــيه وسلم كانوا كذلك ، فلم يؤثر عنهم أو عن أحدهم أنه سجد لصنم قط أو غير ذلك مما كان يفعل الجاهليون ، على امتداد التاريخ .

وإذا كانـــت القـــيادات الاجتماعـــية بكل مستوياتها لا تستأهل هذه الدرجة من القيادة والزعامة ، وبالضرورة التأثير فى الجماهير ، إلا إذا كان لها نوع تميز عن بقية البشر العاديين . فإنه من باب أولى أن تكون القيادات الروحية ، وعلى رأسها أنبياء الله ورســـله ممـــن حســـنت ســـيرتهم وطاب تاريخهم ، حتى تبلغ مهمتهم غايتها ، وتؤتى ثمارهـــا. إنهـــم بشـــر تـــتجلى فـــيهم البشـــرية بكـــل أبعادهـــا ، ولكـــنهم فـــى نفس الوقـــت ليســـوا عاديـــين كســـائر البشر ؛ لأنهم وسطاء عن الله تعالى ، وسفراء له ، ومـــن المعقـــول أن يكـــون للوســـيط من المزايا والخصائص مالا يكون لغيره بالنسبة للمهمـــة الـــتى يقـــوم بهـــا ، وحسبـــه أنـــه مرســـل من ربه جل وعلا ، غير أن هذه الخصـــائص وتلـــك المـــزايا ليســـت ذاتـــية له ، بـــل بتوفـــيق من الله تعالى وتدبيره وإحكامـــه حـــتى تظـــل للرسالة قدسيتها ، فلا يدعيها من يظن أن لديه بعض المواهب أو الخصـــائص ، وقـــد حدثـــنا التاريخ أن أدعياءها كثيرون ولولا ذلك المقياس الحاسم

الــذى يفــرق بـــه الحق تبارك وتعالى بين من يدعيها صدقا ومن يدعيها كذبا – وهو المعجزة بالإضافة إلى السيرة الذاتية لكل منهما – لكان الباب مفتوحا لكل من يشعر فى نفســـه – صدقا أو كذبا كذلك – نوع ذكاء أو تأثيرا روحيا ، ليدعى أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى .

إن الصـــفات والخصائص التى كان عليها أنبياء الله ورسله يمكن أن تكون فى مجموعها ضمانا أكيدا ، لا يتسرب من خلاله دعوى الأدعياء ، كما أنها فى نفس الوقت تكون ذات أثر واضح فى الوصول بالمهمة التى نيطت بهم إلى مداها .

صفات الرسل على سبيل الإجمال :-

يقـــرر جمهـــور الباحثيـــن فى علم العقيدة أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، يتصفون على سبيل الإجمال بكل كمال بشرى ، ماديا كان ذلك الكمال أو معنويا ، ويقصد بالجانب المادى ما يتصل ببنيتهم وبنائهم الجسمانى ، ويقصد بالجانب المعنوى ما يتصل بالكـــيان الداخلـــى كله ، العقل – المشاعر الأحاسيس – الوجدان – الخ ، كما أنهم فى نفـــس الوقـــت يتـــنزهون عن كل نقص بشرى كذلك ، فى الجانبين : المادى والمعنوى أيضا. والواقع أن ما انتهى إليه هؤلاء ، إنما كان منظوراً إليه من جانبين : –

أولاً :- تبعة الرسالة وما تتطلبه من ذلك الكمال البشرى بنوعيه ، وهذا كما قلنا ، إنما كان كذلك لأن الحق سبحانه وتعالى يصنع أنبياءه ورسله على عينه .

ثانيا :- وهذا الجانب لازم للأول وتفسير له ، أن تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد قرر ذلك بكل وضوح ، وإذا كان لبعضهم مما يمكن أن يكون محل مؤاخذة قبل الرسالة أو بعدها ، فإنما ينبغى أن يفسر فى ضوء اعتبارين بارزين :

الاعتبار الأول :- تأكيد بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم أصحاب عقول ، بها يفكرون وأصحاب إرادة بها يخصصون بعض الأمور المتقابلة على بعض ، وأن طبيعتهم البشرية تقتضي ذلك بخلاف الطبيعة الملكية ، أي أن لهم "اجتهاداتهم" المبررة كما تحدث القرآن الكريم عن بعضها مما سيأتى ذكره فى موضعه .

الاعتبار الثانى :- أنهم لا يقترفون كبيرة ولا يصرون على صغيرة قبل الرسالة أو بعدها . وبين ما يجب لهم من صفات الكمال البشرى ، مما ذكرناه على سبيل الإجمال ، وما يتنزهون عنه من كل نقص بشرى كذلك ، تكون الأمور الجائزة ، التى تتصل بهم من حيث كونهم بشرا، إنهم يأكلون ويشربون وينكحون ، ويعملون ، وينتصرون ، وقد ينهزمون ، وقد يقع على بعضهم القتل ، كما حدث لبعض أنبياء بنى إسرائيل ، ويكذبون وتنالهم يد الظلمة الخ .

وينبغى هنا أن ننبه إلى أن أقوام الأنبياء عليهم الصلاة السلام ، قد رموهم بكل النقائض ، بل قد وصل بعضها إلى الرمى بالضلالة ، والسفاهة ، إلى غير ذلك من بقية المطاعن التى تحدث بها هؤلاء الأقوام ، وهى كلها ممن لم يدرك حقيقة واقعة ، لأنه واقع صنعه بنفسه أو شارك فى صنعه ، بالإضافة إلى ما يجىء به هؤلاء . إن القرآن الكريم قد أظهر هذه القضية بكل وضوح ، حين كشف عن المعيار الذى كان يتعامل به بنو إسرائيل مع أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام فقال : ﴿... **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون .** ﴾

وإذا كان معيار الحق هو " هوى النفس " فماذا ينتظر ممن يتعامل به أن يصف أصحاب الحق ، وبخاصة أصحاب الرسالات العظمى التى جاءت لتضع

معـيارا جديدا هو الحق فى ذاته ؟ . إن تاريخ الرسالات كلها كان مسرحا لذلك الصرا ع بيـن هذيـن المعياريـن : " الحـق فى ذاته " الذى جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليجعلوه قاعدة التعامل فى كل جوانب الحياة " وهوى النفس " الذى فى ضوئه حكم على الرسالات وعلى أصحابها .

والمؤكـد أن هـذه سنة الله فى خلقه وفى كونه ، لاختبار العزمات والإرادات . وليمـيز الله الخبيـث من الطيب ، وصدق الله العظيم حيث يقول :**﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾** (العنكبوت :٢ ،٣) .

صفات الرسول على سبيل التفصيل : -

لا شـك فـى أن الصـفات البشرية كثيرة ، وقد ذكرنا ما كان عليه الرسل عليهم الصـلاة والسـلام مـن تلك الصفات على سبيل الإجمال ، وأما ما كان لهم على سبيل التفصـيل ، فقـد حصـرها علماء العقيدة فى أربع صفات : هى : الصدق – العصمة – التبلـيغ – الفطانـة . وقد ذكر بعض الكاتبين صفتى الذكورة والحرية ، إضافة إلى هذه الصـفات الأربـع . وإذا نظـرنا إلى طبيعة المهمة التى نيطت بالأنبياء عليهم السلام ، للاحظـنا أن تلك الصفات يمكن أن تتضمن صفات أخرى تكون من لوازمها ، تستوعب كـل الفضائل البشرية ، مثل : الحكمة – الصبر – الشجاعة الحلم – العفو – التسامح – السخاء – الإيثار – التوكل– الحزم الخ .

والقارئ للقرآن الكريم يرى هذه الصفات بارزة جدا فى حديثه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ذلكم لأنها مطلوب أن يتحلى بها الإنسان ، حتى يظل على إنسانيته فما بالنا بمن يكونون فى مقام القدوة والتأسى ؟

ويظهــر أن علماء العقيدة عندما اقتصروا على هذه الصفات التى عرضناها قبلا ، إنمــا لا حظــوا ما يتصل منها بجانب الرسالة والتبليغ ، وأما سائر الصفات التى أشرنا إليها ، فقد سكتوا عنها لأن هذه فضائل نفسية ، هى لهم بحكم كونهم بشرا أسوياء وإن كانت فى نفس الوقت ، تتصل بالصفات اللازمة للتبليغ كما ذكرنا آنفا .

١ – الصدق :

يــراد بهذه الصفة : أن تكون دعوى الرسالة التى يدعيها الرسول مطابقة للحقــيقة والواقــع ، بمعنى : أن يكون إخباره من يرسل إليهم بأنه رسول من عند الله جــاءهم ليبشــرهم وينذرهم هو فى الحقيقة كذلك ، وإذا كان الصدق – وهو الإخبار بما يطابق الواقع – أمرا مطلوبا كفضيلة من الفضائل التى ينبغى أن يحوزها الإنسان . فمن باب أولى أن يكون فضيلة مطلوبة ممن يتحمل عبء الرسالة الإلهية .

والصــدق فضــيلة كذلــك فــيما بعــد دعوى الرسالة ، التى يؤيد الله فيها رسله بالمعجــزة، مــن الإخلاص فى القول والعمل ، ليكون الرسول هو القدوة والأسوة ، غير أنــه فى موضوع دعوى الرسالة أظهر ، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج لهذه الفضيلة ، فــيما أخــبر به موسى عليه السلام فرعون بأنه صادق فى دعواه ، قال تعالى :**﴿ وقال موســى يافــرعون إنــى رســول مــن رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾** (الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥) كمــا ذكر فى حق نبينا عليه الصلاة والسلام قوله تعالى : **﴿ياأيهــا النــاس قد جــاءكم الرســول بــالحق مــن ربكــم فآمــنوا خــيراً لكــم وإن تكفروا فإن الله ما فــى الســموات والأرض وكان الله عليما حكيما﴾** (النساء : ١٧٠) وقوله : **﴿وما يــنطق عــن الهــوى ، إن هــو إلا وحــى يوحــى ﴾** (الــنجم : ٣ ، ٤) وهذه الآيات تمــثل القــاعدة الأساســية الــتى يــتعامل بهــا رســل الله عليهم أجمعين صلوات الله

وسـلامه مع وحى السماء ، إنهم فى ذروة الأمانة والصدق على ما أمروا به ، كوسطاء بيـن الحق تبارك وتعالى وبين من يرسلون إليهم . ولا يتصور العقل أن يكون المختار لهذه المهمة الخطيرة ، ممن يخبر بخلاف الحقيقة ، لأنه مؤيد من عند الله تعالى فى كل مـا أخـبر عنه . ولو أنه – فرضا – أخبر بغير الحقيقة لكان كاذبا وتأييد الكاذب كذب والكـذب علـى الله تعـالى محـال . من ثم يقول علماء العقيدة – وقولهم حق – إن المعجـزة التى تظهر على يد مدعى النبوة ، تتنزل منزلة قوله تعالى : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى.

إن القرآن الكريم قد حدد المعالم الرئيسية للرسالات والرسل ، بطريقة لا يمكن معهـا أن يتصـرف هـؤلاء فـى شئ مما يوحى إليهم ، لأنهم بذلك يكونون قد خالفوا مهمـتهم ، فالرسـالات الإلهية من أبرز معالمها : الهداية والإصلاح ، ولن يتم ذلك إلا بالمـنهج الذى وضعه الحق تبارك وتعالى . لأنه الأعلم بنفوس عباده ، وما به هدايتهم وصـلاحهم ، والسـبيل إلـى ذلـك هـو الأوامـر الإلهية ، وما يتبعها من المسنونات والمستحبات ، وكذلك ما به ضلالهم وفسادهم والسبيل إليه هو النواهى وما يتبعها من المكـروهات ولا يكون ذلك إلا للحق تبارك وتعالى وحده . وإن هذين القطبين : الأوامر والـنواهى يمـثلان طريق الله وصراطه المستقيم ، والتدخل البشرى – ولو من الرسول نفسه فى غير ما يقره الله عليه فما بالنا بعامة البشر – يمثل منهجا موازيا لمنهج الله ، لا يحقـق الغايـة مـن الرسـالات والهـدف الأسمى لها . وهذا التدخل تتعدد درجاته ومستوياته بحسب التصرف البشرى فيما جاوز الإطار للمنهج الإلهى .

لكـل مـا تقـدم رأيـنا القـرآن الكـريم يبين لنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا هذه الحقـيقة الواضـحة حقـيقة مهمـة الرسـول – أى رسول – ممثلة فى خاتمهم عليه الصـلاة والسـلام ، حيـن صـاغها فى أسلوب الحصر والقصر كما يقول البلاغيون :

﴿ إن علـيك إلا الـبلاغ ﴾ ﴿ فذكـر إنمـا أنـت مذكـر ، لسـت علـيهم بمسـيطر ﴾ (الغاشـية : ٢٠، ٢١) أى أن المهمـة التى نيطت بالرسول مقصورة ومحصورة فى البلاغ والتذكير دون سواهما .

وفـى نفـس الوقت يسوق بعض الآيات التى تحمل من الوعيد والإنذار الشيء الكثـير ، لو أن الرسول تصرف من تلقاء نفسه فى شئ يخص الرسالة وهذا سياق جاء بطـريق إبطـال النقـيض ، لتسليم القضية الأساسية ، وهى : صدق الرسول فيما هو بصـدده ممـا يتعلق بموضوع الرسالة والبلاغ ، قال تعالى :﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقـاويل لأخذنـا مـنه باليمين ، ثم لقطعنا مـنه الوتين ، فما مـنكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ (الحاقة : ١٤، ١٦) .

يكمـل الصورة التى نحن بصدد بيانها ، واقعة علمية تؤكد القاعدة النظرية التى أشـرنا إلـيها ، لقـد طلب بعض المشركين من رسول الله صلى الله عليه وسلم – على سـبيل التعجـيز والمراوغة – أن يأتيهم بقرآن غير الذى جاءهم به أو أن يبدله ، فكان الرد حاسما وواضحا يتجلى فى بيانه عليه الصلاة والسلام لمهمته . وهى " الاتباع " لا " الابتداع " قال تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائـت بقـرآن غـير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ (يونس : ١٥) .

وإذا كـان فـى مـنطق العقل والفطرة أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فماذا يكون الكذب كبديل للصدق ، وبنفس الدرجة التى أشرنا إليها من قبل ، فى مقام تبليغ الرسالة ومـا دون ذلـك ؟ أليست الرذائل – والكذب من بينها – إلا ضعفا فى النفوس والقلوب تـنزل بمـن يقـترفها عـن درجـة الانسـانية السـوية ؟ إن الكـذب يستهدف قلب

الأمـــور وتغيـــير الحقـــائق . فهل رأينا نفسا شريفة تؤثره على الصدق ؟ وهل لاحظنا مجـــتمعا سويا يقره ؟ كلا ، وإذا كان هذا أمرا مجمعا عليه لدى أصحاب النفوس العالية والعقـــول الفاهمـــة فـــى أوساط البشر العاديين . فإنه من باب أولى يكون فى حق من يـــبلغون رسالة الله . من قبيل المستحيلات .، التى لا تقع منهم لأنه نقص بشرى ، وهم فى قمة الكمال الإنسانى . بحفظ الله تعالى لهم .

إن القرآن الكريم قد وصف الكاذبين بالإجرام والظلم بل يمكن أن يقال إن الكذب والكاذبين قد استجمعا فى الكتاب المبين كل الرذايل ، وحسبنا هذه الآية كمثل لما سواها ممـــا جـــاء فى معناها ، قال تعالى : **﴿فمـــن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياتـــه إنه لا يفلح المجرمون ﴾** (يونس :١٧) والذى تفيده الآية الكريمة أن الكاذبين قد بلغوا فى ظلمهم للحقيقة ولأنفسهم مبلغا ليس دونه مقام .

مـــسألـــة :-

المتتـــبع للآيات القرآنية التىتناولت قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومـــا حدث لهم من الملأ من أقوامهم ، يمكن أن يدرك أن الجحود والإنكار والتكذيب لما جاءتهم به الرسل ، إنما كان مسألة ظاهرية ، تمليها عوامل الإلف والعادة والتقليد غير البصـــير ، يؤيد ذلك ما انطوت عليه الفطر السليمة من إدراك الحق والصدق بطريقة لا تحـــتاج إلـــى دليل ، لأن فى طبيعة كل منهما دليله القوى ، وهؤلاء الذين ظلت فطرهم هكـــذا ، آمـــنوا بمـــا جاءهم من الحق ، ولا يكون ذلك إلا عن تصديق . ومن ثم يصبح تصـــديق الصـــادق هـــو القـــاعدة ، وتكذيـــبه هو الاستثناء الذى يؤكد صحة القاعدة . ودليلـــنا علـــى ذلـــك مـــن كتاب الله تعالى ما حكاه القرآن الكريم فى قصة موسى عليه الســـلام مـــع فـــرعون وســـحرته ، حيث جاءتهم الآيات صريحة على صدق ذلك النبى الكـــريم وأنهـــا تقـــع مـــن الـــنفوس والعقـــول موقـــع التأثـــير . غـــير أن المعارضة الظاهـــرية كـــان لهـــا تأثـــيرها فـــى التكذيـــب وعـــدم التصـــديق قـــال تعـــالى :

﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (النمل ١٣ ،١٤) . فالظلم والإستكبار – وهما صفتان ذميمتان تقع على القشرة الظاهرية من الإنسان – هما سبب الجحود والتكذيب بالآيات التى جاء بها موسى عليه السلام ، وأما ما تنطوى عليه دخائل النفس وعمق الفطرة . فقد كان الاستيقان . وهذا يعنى بوضوح أن التكذيب لا يمكن أن يكون دليلا على الكذب . بل إن القرآن الكريم يصرح فى موقف آخر أن التكذيب إنما يكون عن جهل وعدم إدراك لحقيقة الموضوع الذى كذب . **﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** ....﴾ (يونس : ٣٩)

٢- **العصمة** :

هذه الصفة تعنى عند علماء العقيدة حفظ الله تعالى أنبياءه ظاهرا وباطنا بحيث يفعلون كل المأمورات ويتركون كل المنهيات . وبمعنى أخر : لا يتركون مأمورا به ولا يفعلون منهيا عنه . ولما كان هذا الموضوع ذا أهمية بالغة فى مقام الرسالات الإلهية فقد استحوذ على اهتمام علماء العقيدة وغيرهم من علماء الأمة . وظهرت فيه اجتهاداتهم إلى حد كبير ذلكم لأن الرسل بشر، والطبيعة البشرية من حيث هى ، فيها منازع إلى الخير وأخرى إلى الشر وقد يعتريها النسيان والغفلة . إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن معها القول بأن الإنسان يمكن أن تصدر منه أفعال أو أقوال . أو تكون لديه اعتقادات ليست مطابقة للواقع الدينى . أى : لأوامر الله ونواهيه ، بصرف النظر عن كونه رسولا مجتبى . فالذين يتصورون أن العصمة التى اختص بها الأنبياء واسعة المدى ، تشمل حياتهم كلها ، حتى ما كان منها قبل البعثة ، يذهبون إلى تأكيد عصمتهم عن جميع المخالفات الشرعية ، الصغائر منها والكبائر على حد سواء ، وأما الذين يتصورون أن

العصمة إنما تكون فيما يتعلق بالوحى والتبليغ فإنهم يجوزون أن تقع منهم الصغائر والكبائر سهوا قبل البعثة وبعدها . ولما كان الأمر هنا على هذه الدرجة من الدقة والأهمية . فقد لزم أن نلقى عليه بعض الضوء حتى يستبين للقارئ فكر الباحثين فى هذه المسألة .

مذهب الأشاعرة فى عصمة الأنبياء :

يرى جمهور الأشاعرة وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد النبوة عن الذنوب كلها ، كبيرها وصغيرها ،إلا ما جاء على سبيل الخطأ أو النسيان إذ ليس هذا من الذنوب من شئ [1] ولعلهم قد لاحظوا فى ذلك أن كل فعل ينبغى أن يكون القصد إليه معروفا لدى الفاعل ، وبهذا يكون ما جاء خطأ – أى دون تعمد – أو نسيانا، فلا يسمى ذنبا . ويذكرون أن الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم قد نسى فى صلاته . كما أنه اجتهد فى بعض المواقف ، ولم يكن قصده إلا خيرا ، فجاء القرآن الكريم بخلاف ما كان يرى ، من ذلك : رأيه فى أسرى بدر ، وفى الثلاثة الذين خلفوا ، وما ذهب إليه فى مسألة عبد الله بن أم مكتوم . ولعل الأشاعرة هنا ، إنما يلاحظون أن الجانب البشرى فى الرسول – أى رسول – ينبغى ألا يغيب عن الذهن حين التعرض لهذه المسألة .

أما حديثهم عن عصمة الأنبياء قبل البعثة فقد أجازوا عليهم الذنوب[2] ويظهر أنهم فى هذا المقام كانوا متساهلين ، حيث لم يفسروا طبيعة هذه الذنوب،ولو أنهم فصلوا القول فى ذلك بحيث يظهر من كلامهم أن الذنوب ، التى يمكن أن تقع من الأنبياء قبل البعثة هى تلك التى لا تتعارض مع حقيقة الذى جاءوا به بعد ذلك ، أعنى بذلك : أن الشرك ذنب والقتل ذنب ، والكذب ذنب الخ ، فهل يمكن على

---

(1) البغدادي : أصول الدين ص ١٦٧ .
(2) نفس المصدر ص ١٦٨ .

إطلاقهـم هذا أن تقع هذه الذنوب ، أو واحد منها من الأنبياء قبل بعثتهم ؟ لا أعتقد ذلـك ، ولا أعـتقد أنهم يقصدون ذلك ، لأن الأشاعرة من الفرق المحافظة إلى حد كبير وإذن فإجازتهم وقوع الذنوب قبل البعثة ، لابد أن يخصص بالصغائر أو الكبائر الـتى لا تتصـل بالاعتقاد . ويبدو أنهم هنا قد راعوا ما ورد فى القرآن الكريم من ذكره لبعض ذنوب الأنبياء قبل بعثتهم، وأوضح ما يكون هذا الأمر ،ما جاء فى شأن موسـى عليه السلام ، يوم أن استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسـى فقضى عليه ، وقد اعترف – عليه السلام – بأن عليه ذنبا ، وقد خاف أن يقتل بهذا الذنب كما صرح القرآن الكريم .

مذهب المعتزلة :-

وهؤلاء ليسوا على رأى واحد فى هذه القضية ، فذهب فريق منهم إلى أن ذنـوب الأنبـياء التى وقعت منهم خطأ من جهة التأويل والاجتهاد لا يؤاخذ عليها ، ومـن ثم فلم يجوزوا عليهم أن يقع منهم ذنب على سبيل القصد والتعمد ، مع العلم بأنـه ذنـب ، وقد ضربوا مثلا لذلك بآدم عليه السلام فقالوا : إن أكله من الشجرة الـتى نهـى عن الأكل منها ، لم يكن عن قصد ، لعصيان نهى الله عن ذلك ، وإنما كان بتأويل منه واجتهاد ، حيث ظن أن النهى كان عن الأكل من شجرة بعينها ، وله أن يأكل من غيرها من جنسها . فالله سبحانه قد نهاه عن الأكل من جنس الشجرة ، فتأول النهى واعتقد أن المنهى عنه الأكل من شجرة مخصوصة .

وأمـا أبو هاشم الجبائى فقد ذهب إلى أن ما وقع من آدم عليه السلام كان ذنـبا ، بدليل أنه تاب فتاب الله عليه ، ولم يذكر الوجوه الأخرى للمسألة ، فالقرآن الكـريم قـد ذكر أن آدم عليه السلام قد نسى . وأن توبته ربما تكون قد وقعت عن هـذا الجانب ، ويرى أبو هاشم كذلك أنه يجوز أن تقع منهم الصغائر التى لا تنفر . وأمـا الـنظام وجعفـر ابـن مبشر فيذهبان إلى أن الأنبياء مؤاخذون على السهو

والخطأ نظرا لمكانتهم وإن كان ذلك لا يؤاخذ عليه عامة الناس (1) ، ولعلهما يستندان في ذلك إلى ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

مذهب الكرامية :-

يذهب هؤلاء إلى أنه يجوز الذنب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما لا يوجب الحد ولا التفسيق ، وبعضهم يجوز أن يقع منهم الخطأ فى التبليغ ، وقد زعم هؤلاء أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أخطأ حين قرأ قوله تعالى : **﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾** فقد قال بعد ذلك : وإن شفاعتهن لترتجي . والمحققون على أن هذه العبارة مما ألقاه الشيطان فى قلوب المشركين ، فاعتقدوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نطق بها ، (2) ومما لا شك فيه أن مذهب الكرامية هنا ، ليس صحيحا ، ومخالفا لما عليه جمهور علماء الأمة ؛ لأنه يؤدى إلى أنه لا فرق بين الرسول وغيره فيما يتعلق بإرتكاب الذنب ، اللهم إلا ذلك الفرق الضئيل . وهو أن يكون الذنب غير موجب للحد .، ومن قبل مخالفة هذا الرأى لرأى جمهور علماء الأمة، مخالف لروح القرآن الكريم ، التى بينت أن الله سبحانه وتعالى يصنع رسله على عينه ، ويعصمهم من الذنوب ، بخاصة ما كان منها كبيرا . واظهر آرائهم بطلانا تجويز بعضهم أن يقع الخطأ من الأنبياء فى التبليغ لأن هذا مناف لمهمة الرسالة .

وفى تقديري أنه ينبغى أن يراعى فى هذه القضية جانبان . سواء أكان الحديث عنها قبل بعثة الأنبياء أم بعدها ، الفارق الزماني لا معنى له . بعد أن

---

(1) نفس المصدر .

(2) نفس المصدر وانظر : تفسير قوله تعالى من سورة الحج آية ٥٢ : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم" فى كتب التفسير المعتبرة .

عرفنا أن الله سبحانه وتعالى ، يتولى من يختاره لتبليغ رسالته بنوع خاص من الرعاية منذ حداثته ، بل ما قبل ذلك .

الجانب الأول : الناحية البشرية فى الرسول

الجانب الثانى : ناحية المهمة التى تناط به .

فــإذا لاحظــنا الجانــب الأول وحده فإن الرسول قد يصدر عنه بهذا الإعتبار من الذنــوب ، صــغيرها وكبــيرها ، ممــا يوجب الحد أو ما دون ذلك ، شأنه كشأن البشر العاديــن . وأما إذا لاحظنا مع ذلك ، الجانب الثانى ، وهو أنه إنسان مهيأ لتحمل عبء رسالة إلهية ، مع بشريته أيضا ، فإنه يمكن أن يقال : تقع من الأنبياء قبل البعثة ذنوب لا عــن قصــد ، بــل عن اجتهاد وتأويل ، وأما بعد البعثة فلا يتصور أن يقع منهم ما يــتعارض مــع الــبلاغ والتبعة الملقاة على عاتقهم ، وأما ما عدا ذلك فيما عدا الذنوب الكبــيرة المــنفرة فــيجوز أيضا أن يقع منهم عن اجتهاد لا يقصد من ورائه إلا إثبات بشــريتهم . مــع عــدم الإصرار عليه متى لاح لهم أن الحقيقة فى غير ما وقع منهم ، اعــتقادا أو عملا . وهذا ما نطق به القرآن الكريم فى شأن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والســلام : آدم – نــوح – إبراهيم – موسى – محمد صلى الله عليه وسلم . فهؤلاء – وغــيرهم – قــد وقعــت منهم أخطاء . لا يقصد بها تحدى أوامر الله أو نواهيه ، وإنما تجلــى فيها الجانب البشرى ، فلما علموا أنها لم تكن فى محلها وعوتبوا فى ذلك رجعوا عنها .

٢- التبليغ

الرســالات الإلهية منهج ربانى يسوقه الله سبحانه وتعالى للبشر من ذوى العقول ليقودهم إلى خيرى الدنيا والآخرة ، وذلك باختيارهم وإرادتهم ، وهى تحمل معها مــن الأدلــة والبراهيــن مــا يجعلهــا حجــة لمــن آمن بها ، وحجة على من أعرض

عنها . ولا تكون كذلك إلا إذا بلغتهم بطريقة صحيحة . من ثم نرى أن تبليغ الرسالة هو المهمة الكبرى التى تناط بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد قال الحق سبحانه وتعالى فــى حــق رسولنا صلى الله عليه وسلم – والخطاب هنا شامل لكل رسول :-**﴿ يأيهـا الرســول بلـغ مـا أنـزل إليـك مـن ربـك وإن لم تفعـل فمـا بلغـت رسـالته والله يعصـمك مـن الـناس إن الله لا يهـدى القـوم الكافـرين﴾** (المـــائدة : ٦٧) وقال سبحانه فى حق موسى وهارون عليهما السلام : **﴿اذهـبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا لـه قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾** (طه : ٤٣ ، ٤٤) فالقول المطلوب منهما ليس شيئا أكثر من تبليغ ما أرسلا به من عند الله تعالى . وأظهرت الآية طبيعة المنهج الذى ينبغى أن يتعامل به الرسل فى تبليغ رسالتهم ، تجلى ذلك فى هذا التعبير الواضح " قولا ليـــنا " أى : أن الطريقة المثلى للبلاغ ينبغى أن تقوم على " اللين " لا على الغلظة التى تنفر المدعوين منها فيضيع المعنى من وجود الرسالة وهذا المعنى قد تأكد أكثر من مرة فى القرآن الكريم من ذلك ما ذكره الحق تبارك وتعالى فى قوله : **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتـى هـى أحسن ربك هو أعلم بمن ضل عن سـبيله وهـو أعـلم بالمهـتدين ﴾** (النحل :١٢٥) وفى جدال أهل الكتاب ، أمر الحق ســبحانه وتعالى أن يكون بالتى هى أحسن ، قال تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتـى هـى أحسن .... ﴾** (العنكبوت : ٤٦)

كما يقول تعالى مبينا طبيعة الدعوة والبلاغ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومـــن تبعه على طريق الحق :**﴿ قل هذه سبيلـى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنـى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾** (يوسف : ١٠٨) .

والآيات التى ذكرناها فى مجموعها تشير إلى أمرين :

أولا : وجوب تبليغ الدعوة عن الله تعالى ، إلى المدعوين .

ثانيا : أن يكون الأسلوب المتبع فى ذلك متلائما مع طبيعة الدين ، من حيث اللين – الوعى – الاستبصار الخ .

ويلاحظ أن الآيات مع بيانها للأمرين السابقين ، تشير إلى أمر واضح جلى ، وهو أن " التبليغ " وطبيعته ، معنى يتخطى " الوجوب " على الأنبياء والمرسلين إلى أتباعهم حتى يظل منهج الله تعالى واصلا إلى الناس ، وهذه مهمة أن يدرك مسؤوليتها أتباع الرسالة الخاتمة فى يوم الناس هذا ، كل على قدر ما تؤهله له مواهبه وقدراته فى الدعوة إلى الله تعالى . إن التقصير فى هذا السبيل يقف بأهل هذا الدين – وبخاصة العلماء منهم – أمام تبعة ضخمة ، ومسؤولية عظيمة وثقيلة .

إن تقرير صفة " التبليغ " قد قررها علماء العقيدة بطريقة يظهر منها أن التقصير فى ذلك خيانة ، تتنافى مع ضرورية اتصال السماء بالأرض لعلاج البشرية مما يصيبها من أمراض نفسية وعقلية واجتماعية الخ ، لقد قالوا : لو لم يبلغ الرسول – أى رسول – الرسالة التى أمر بتبليغها لكان كاتما لما أمر بتبليغه ، والكتمان خيانة ومخالفة لأمر الله تعالى ، والخيانة نقص ، لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وينتهون من هذا كله إلى أن صفة " التبليغ " من الصفات التى ينبغى أن يكون لها أثرها الواضح فى عملية إرساء قواعد المنهج الربانى ، لمن جاء إليهم .

إن القرآن الكريم قد قص علينا ما قال الأنبياء لأقوامهم ولم يأت نص من كتاب أو سنة يقرر أن أحدا منهم قد كتم شيئا أنزل عليه ، حتى ما كان موضع

عـتاب لبعضـهم ، وهـذا كله يعنى شيئا واحدا : هو : ضرورية البلاغ . وأن ذلك كان صـفة لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد بين القرآن الكريم فى حديثه عن أهل الكتاب أن بعضهم كان يكتم بعض ما أمر الله بتبليغه مما جاء فى التوراة والإنجيل ، من أجـل شـهوات عارضة ، وهذا عبث بمنهج الله لا يليق بالإنسان العادى ، فضلا عن أن يكـون رسـولا مجتـبى . وينـبغى أن نشـير هنا إلى أمر هام هو : أن مهمة الرسول مقصـورة علـى " الـبلاغ " فقط وأما النتائج المرتبة على ذلك فهى بيد الحق سبحانه وتعـالى وحـده ، لذا رأينا القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى أكثر من آية جاءت لتبين للرسول – أى رسول – حدود مهمته حتى لا ييأس عندما تكون النتائج على غير ما كان يتمـنى ، لقـد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعنى نفسه كثيرا يوم يرى أن مردود " الـبلاغ " غـير متناسب مع الجهد الذى يبذله ، فجاء قوله : **﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾** وقولـه :**﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ......﴾** وقولـه : **﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾** (الكهف : ٦) ليؤكد أن البلاغ وحده بالطريقة الهينة اللينة ، هو مهمة الرسول ، وأن الكتمان أو الزيادة او النقص ،لا يتفق مع الأمانة التى أؤتمن عليها الرسول ، كى يبلغها إلى من أرسل إليهم .

٤- الفطانة

تعنى هذه الصفة : الذكاء العقلى والقلبى والنفسى ، والذى ينبغى أن يكون لذوى المهام الكبرى . وهى معنى شامل لكل أنواع الوعى . ومن الطبيعى أن تكون لكل مـن يخـتارهم الحق تبارك وتعالى لتبليغ رسالته ، بعد أن يقر العقل لزومها لكل قيادة بشـرية دون الرسـل ، ولـنا أن نتصـور إنسـانا خامل الفكر والذهن ، غير مشرق القلـب والـنفس ، ثـم نسـأل أنفسنا عن مدى تأثيره فى الحياة و والإجابة الصحيحة سـتكون : لا شـئ ، إن الوجـود كلـه قد أقامه الحق تبارك وتعالى على أساس من الـتفاوت بيـن أنواعـه ، فعـالم الإنسان أشرف من عالم الحيوان ، وأعلا منه ، لأن

الإنســان يمــتاز عن الحيوان بالإدراك والوعى والإرادة . وعالم الحيوان أعلا من عالم النبات . لانه يمتاز بنوع من الشعور الغامض نحو أفعاله وتصرفاته ، كما توجهه غرائز غامضــة كذلــك ، وهذا ليس موجودا فى عالم النبات . الذى يحتاج إلى مطالبه مع عدم الشــعور بها وهذا العالم أعلا درجة من عالم الجماد . الذى ليس له إلا الوجود المادى فقط .

ولا شــك فــى أن كــل عالم من هذه العوالم تتفاوت أفراده . وبناء عليه فنوع الإنسان متفاوت المراتب ، والأسباب الحقيقية للتفاوت لا ترجع إلى عوامل عرضية ، بل إلــى أمــور عقلــية وقلبية ونفسية . من ثم نرى أن الذين يختارهم الله سبحانه وتعالى لتبلــيغ رســالته ينبغى أن يكونوا من أصحاب المواهب المتميزة . بحيث يكونون فوق غــيرهم من البشر من هذه الناحية . إنهم أصحاب رسالة وأرباب دعوة . ولا يمكن أن تصــل رســالتهم إلى غايتها ، ما لم تكن لديهم من المواهب ما به يكونون أهلا للمهمة التى تعلقت بوجودهم .

ثم من جانب أخر : هل يتصور العقل أن يختار الله إنسانا خامل العقل والقلب والــنفس ليــتحمل مهمــة كبرى هى مهمة الرسالة ؟ إن هذا كله يؤكد أن صفة الفطانة لازمــة لنجاح المهمة التى تناط بوجود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والقرآن الكريم عــندما حدثــنا عــن قصصهم أظهر لنا ما كان يتمتع به هؤلاء من ذكاء بالمعنى الذى ذكــرناه . فقــد وصــف بعضهم بالحكمة والعلم – مثل إبراهيم ويوسف وغيرهما – ولا يكونـــان إلا مظهــر للفطنة ، كما بين أن بعضهم قد جادل قومه . حتى أفحمهم ، وأظهر بــاطلهم ، ولا يكــون ذلــك ، إلا إذا كــان قــادرا علــى إظهــار الحجة على صدق ما جــاءهم بــه وكــذب مــا هــم عليه . ولعل أظهر الآيات التى أبرزت فطانة الأنبياء . مــا جــاء علــى لســان إبراهــيم علــيه الســلام فــى محاجــة قومــه . حين كسر أصــنامهم وحيــن بيــن لهــم أن الكوكــب والقمــر والشــمس ليســت آلهــة ،

لـيخلص إلـى بـيان الألوهـية الحقيقية لله رب العالمين . كما جاء فى القرآن الكريم مـن الآيـات مـا يـزكى رسـوله الخـاتم من الناحية العقلية . وإذا كانت الآيات التى جـاءت فـى هـذا المقـام فـى شـكل قـد يفهـم منه إقامتها بعد أن لم تكن قائمة . إلا أنهـا فـى الواقـع كانـت موجـودة فـى نفـس الرسـول وكيانه الداخلي . ولو لـم يكـن مسـتعدا لذلـك لما كان للحديث معنى فالقرآن الكريم يقول له : **﴿ ولا تعجل بالقـرآن مـن قـبل أن يقضـى إلـيك وحـيه ... ﴾** .ويقـول : **﴿فـإذا قـرأناه فاتـبع قرآنه . ﴾**

ثم إن حياته عليه السلام قبل البعثة كانت تدل على رجاحة عقله ، وسمو تفكيره حيـن قـرر علـيه السلام فى بعض المواقف ما يدل على ذلك . وفى قضية رفع الحجر الأسـود حيـن اختلف فيمن ينال هذا الشرف ما يؤكد ما نحن بصدده . فقد أشار عليه السلام إلى اشتراك أظهر القبائل فى ذلك . بالطريقة التى ذكرتها كتب السيرة .

صفتا الذكورة والحرية :

هاتان صفتان لم يتعرض لهما كثير من الباحثين . ويظهر أن هؤلاء قد نظروا إلـى واقع الأمر . حيث إن ذلك الواقع يشهد بأن رسل الله عليهم الصلاة والسلام كانوا جمـيعا مـن صنف الرجال . وقد قال الله تعالى لرسوله الخاتم :**﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** (الأنبياء : ٧)
كما يشهد الواقع كذلك بأنهم جميعا من الأحرار ، فلم يذكر عن أحدهم أنه كان عبدا ، ثم تحـرر . ذلـك لأن العـبودية نقص معنوي فى الإنسان . نعم قد لا يكون للعبد دخلا فى وضـعه . ولكنها على أى حال مسألة تجعل صاحبها غير قادر على التصرف فى شئ إلا بإذن صاحبه من البشر . وهذا كله يتنافى مع طبيعة البلاغ الإلهي .

ولــو أنــنا تجاوزنا الواقع وناقشنا المسألة من حيث هى لقلنا : إن للرجال من الخصائص فى تحمل عبء المهام الكبرى ما لا يكون للنساء . ومن المؤكد أن النفس . وطبيعة المرأة لا تقوى على ذلك . وهذا لا يمنع أن يكون لها دور فى الدعوة . غير أن تكــون علــى رأسها . ويوم أن قرر جمهور فقهائنا منع المرأة من الولاية العامة . لم يكــن حكمهم هذا قائما على التعصب . بل كان معبراً عن الحقيقة والواقع . وهذا فضلاً عما تعانيه بحكم طبيعتها كأنثى .

وأما عن الحرية فإننا نعلم أن العبودية لغير الله نقص بشرى . والرسل منزهون عــن كــل نقص يتعارض مع المهمة التى أرسلوا من أجلها . وباختصار : فكل الصفات الإيجابية . مما ذكرناه وما لم نذكره واجبة للرسل عليهم الصلاة والسلام ومنزهون عن أضدادها .

الفصل الخامس

دلائل صدق الرسالات الإلهية

يمكن إدراك صدق دعوى الرسالة بثلاثة أمور :

١- الأمر الأول : حياة مدعى الرسالة وسيرته فى قومه قبل أن يكلف بها .

٢- الأمـــر الـــثانى : ما يؤيده الله به من خوارق العادات التى تظهر عليه مقرونة بدعوى الرسالة سواء تحدى بها أم لا .

٣- الأمر الثالث : مضمون الرسالة التى يبشر بها بالمقياس إلى المصالح الحقيقية لمن يدعوهم إليها .

فأمـــا الأمر الأول ، فقد قرر الحق سبحانه وتعالى فيه أنه أعلم حيث يجعل رسالته ، ولا يتصور من الحكيم أن يختار من يرسله إلا بما يليق بحكمته وعلمه ، لأنه مبلغ عنه، ومـــتحدث باســـمه ، ولا يجوز من جانبنا أن نقرر الأوصاف والمؤهلات التى تكون فى الرســـول ، بعـــد هذا البيان منه سبحانه وتعالى ، وحسبنا أن نضيف إلى ما تقدم قوله تعـــالى فـــى هـــذا المقـــام ، تقريـــرا لحقيقة اختيار من يقع عليه عبء القيام بالرسالة ﴿ **لا يـــنال عهـــدى الظـــالمين** ﴾ (الـــبقرة : ١٢٤) وإذا انتفى أن يكون الظلم وســـيلة لاســـتحقاق الرســـالة ، فـــإن العدل الإنسانى فى أرقى صوره هو الطريق لهذا الاستحقاق ، مع استصحاب أصل المسألة ، وهو أن الله وحده هو الأعلم بمن يكون أهلا لـــتحمل هـــذه الرســـالة ، وحسبنا أيضا أن نقرر أن الاصطفاء والاجتباء و وإن كان له مبرراته من جانب من يختارهم الله لهذه المهمة ، إلا أن المقاييس الحقيقية تظل حقا لله وحـــده ، مـــن ثـــم كانـــت الرســـالة هـــبة واصـــطفاء وليســـت أمـــرا مكتسبا – كما أشـــرنا – وهـــذه نقطـــة هامـــة جـــدا فـــى هـــذا الســـبيل تغلـــق بـــاب الإدعاء ، إن

كـــان هناك ضمان أوفر ، وهو أن خارق العادة الذى يظهره الله على يد مدعى النبوة يكشـــف عـــن طبيعة الادعاء الحقيقى . والادعاء المزعوم . وفى قصة سجاح ومسيلمة شـــاهد علـــى ما نقول . وفى هذا يقول ابن تيمية : أنه يمتنع فى حكمة الرب وعدله أن يسوى بين خيار الخلق – الأنبياء – وبين شرارهم ، وهم الذين يدعون النبوة كذبا ، لا فـــى سلطان العلم وبراهينه وأدلته ولا فى سلطان النصر والتأييد ، بل يجب فى حكمته أن يظهـــر الآيـــات والبراهيـــن الدالـــة علـــى صـــدق هـــؤلاء ، وينصـــرهم ويؤيدهم ويعـــزهم ، ويـــبقى لهـــم سلطان الصدق ،. ويفعل ذلك بمن اتبعهم ، وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك الكاذبين ، ويذلهم ويخزيهم ، ويفعل ذلك بمن اتبعهم (١)

وهـــذا الـــذى قلناه يشكل الإطار النظرى للقضية . وأما الإطار الواقعى . فيحدثنا تـــاريخ الأنبـــياء عليهم الصلاة والسلام أنهم كانوا أعلى أقرانهم كعبا فى أصالة النسب وكـــرم المحتد وحسن المنبت وطيب النشأة . وأن ذلك يمتد منهم إلى أصولهم المباشرة والبعـــيدة . هـــذا بجانب طهارة الفطرة ونقائها . وقد نقل الإمام البيهقى فى كتابه دلائل النـــبوة مجموعة من الأحاديث الصحاح تبين شرف نسب الرسول الخاتم محمد – صلى الله علـــيه وسلم – وهو مثل لإخوانه جميعا ، إذ ليس بدعا من الرسل . كما يبين ذلك صـــريح القرآن الكريم . من ذلك قوله – فيما رواه وائلة بن الأسقع :– إن الله اصطفى كـــنانة من ولد إسماعيل . واصطفى قريشا من كنانة . واصطفى من قريش بنى هاشم . واصطفانى من بنى هاشم . (٢)

ولـــيس لـــنا أن نســـتعرض بشـــىء مـــن التفصيل تاريخ الأنبياء وسيرهم . قبل البعـــثة وبعدهـــا . فهـــذا أمـــر يطول بيانه وحسبنا أن نشير إلى بعض الآيات القرآنية

---

(١) النبوات : ص ٣١٩ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥ .

(٢) البيهقي : دلائل النبوة ج١ ص ١٣٠ ط دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٣ .

الـــتى تعطينا هذا التوجيه الراشد إلى معرفة حياة الأنبياء عليهم الصلاة وأزكى السلام . إنهم جميعا داخلون فى دائرة الاصطفاء التى أشرنا إليها من قبل . والتى يعززها فى هذا المقـــام قـــول الحـــق تبارك وتعالى :**﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمـران علـى العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾** (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) . فـإذا ضممنا إلى ما توحى به هاتان الآيتان الكريمتان . ما جاء فى بعض الآيات التى تحدثت عن بعض الأنبياء فى هذا السياق مما يدل على الاصطفاء والإجتباء من مثل قوله تعالى فى حق موسى عليه السلام **﴿ولتصـنع على عينى﴾** (طه :٣٩) وقولـــه **﴿ واصطنعتك لنفسى﴾** (طه :٤١) وقوله فى حق نبينا – صلى الله عليه وســلم – : والله يعصــمك من الناس وقوله وتقلبك فى الساجدين إلى أخر هذه السلسلة مـــن الآيات وما صح من الأحاديث النبوية فى هذا المقام . لكان لهذه النصوص مجتمعة أن تطمئن كل عاقل إلى أن تاريخ الأنبياء قبل بعثهم كان من صنع الله سبحانه وتعالى .

ولعــل فـــى هــذا مـــا يجعــل الــنفوس العاشـــقة للحـــق تطمئــن إلـــى أن دعواتهم الـــــتى حملوهـــــا إلــــى أقوامهــــم . لـــــم تكـــن معـــــبرة عــــن مطـامح ذاتـــية أو رغـبات شخصـــية بـــل كانـــت بلاغـــا لأمـــر الله تبارك وتعالى .

وأما الأمر الثانى فهو : المعجزة المؤيدة للرسالة الإلهية

والبحث فى المعجزة من ثلاثة وجوه :

الأول : شروطها .

الثانى : وجه دلالتها على صدق الرسالة .

الثالث : كيفية حصولها

ويســبق هــذه الوجوه الثلاثة . تعريفها لغة واصطلاحا . وسنشرح هذه الوجوه بإجمال بعد أن نورد تعريفها .

تعريف المعجزة :

المعجــزة لغــة : مأخوذة من العجز ، وهو عدم القدرة على فعل الشيء . وأما فــى اصــطلاح جمهــور المتكلمين فتعرف بأنها : "أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تصديقا له فى دعواه ، مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة . " والتعبير هنا بلفظ " الأمر " جيء به ليشمل : الفعل " كانشقاق " القمر مثلا ، الذى كان من المعجزات ســيدنا محمــد – صلى الله عليه وسلم – ، والترك ، كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم علــيه السلام ، والقول ، مثل القرآن الكريم ، فإنه على رأس المعجزات التى أيد الله بها رســالة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وطلب إلى العرب – وهم أرباب الفصاحة والــبلاغة – أن يــأتوا بمــثله فعجــزوا ، ثم طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجــزوا، ثــم طلــب إلــيهم أن يــاتوا بمــثل أقصر سورة منه فعجزوا . وسنتكلم بعد ذلــك عــن مباحــث المعجــزة مــن الوجــوه الــتى ذكــرناها .

أولا: شروط المعجزة :

ذكر جمهور متكلمى أهل السنة للمعجزة شروطا سبعة هى :

الشــرط الأول : أن يكون الأمر المعجز فعلا لله أو تركا ، وإنما اشترط ذلك لأن تصديق مدعــى الرسالة إنما هو من الله ، ولا يحصل بما يكون من غيره؛ وعلى هــذا فجميع الأمور التى تصدر من الرسول تعبيرا عن اختياره ليست من قبيل المعجزة .

الشــرط الــثانى : أن يكــون الأمــر المعجــز خارقا للعادة. لأن الإعجاز لا يحصل إلا على هذا الوجه، وعلى هذا فما لا يكون خارقا للعادة. بأن كان أمرا عاديا كطلوع الشمس فى كل يوم، واخضرار الأشجار عند قدوم الربيع. لا يكون أمــرا معجزا ، فلو ادعى إنسان النبوة وقال :معجزتى طلوع الشمس فى الصــباح وظهور الأزهار فى الربيع فلا تصدق دعواه ، لأن أحد شروط

المعجـزة لـم يـتحقق ، وهو كون الأمر الذى يسوقه تأييدا لدعواه غير خارق للعادة، بل معتادا .

الشـرط الثالـث : أن يكون الأمر المعجز مما تتعذر معارضته ، وهذا الشرط متصل بما قـبله، لأن الخـارق للعـادة ، لا يـتحقق إلا إذا تعذر ت معارضته، فلو لم تـتعذر معارضـته لكـان أمرا عاديا . فلا يكون خارقا ، وبالتالى لا يكون مؤيدا لدعوى الرسالة .

الشـرط الرابع : أن يظهر الأمر المعجز على يد مدعى النبوة ، ليعلم الناس أنه تصديق لـه فـى دعوى الرسالة ، وبهذا الشرط يتضح الفرق بين المعجزة وبقية الخـوارق الأخـرى . وسنتكلم عن هذا بوضوح عندما نقارن بين المعجزة وغيرها من الأمور الخارقة للعادة .

الشـرط الخـامس : أن يكـون الأمـر المعجز موافقا لدعوى الرسالة ، فلو قال مدعى النـبوة: الدليل على صدق دعواى أن أحيى ميتا ، فظهر الفعل على خلاف دعـواه كاهتزاز الجبل مثلا ، لم يدل هذا الأمر على صدق دعواه لأنه جاء على خلاف ما حدده فلا يكون معجزا .

الشـرط السـادس : أن يكـون الأمـر المعجز مصدقا له فى دعوى الرسالة ، فلو قال المدعـى معجـزتى أن ينطق هذا الحيوان مؤيدا ومصدقا لى ، فنطق مكذبا له، لم يكن هذا أمرا معجزا ، لأن المكذب هو نفس الأمر الخارق .

الشـرط السـابع : أن يكـون الأمـر المعجـز مقارنا لدعوى الرسالة ، فلو ظهر الأمر الخـارق قـبل دعـوى الرسـالة لم يكن معجزة ، وذلك لأن التصديق قبل الدعـوى لا يعقل ، ويطالب بذلك الخارق أو بغيره بعد ادعائه ، فإن عجز كان كاذبا فى دعوى الرسالة .

غير المشاهدين لها . هو طريق التواتر . وهو لا يفيد اليقين ، لجواز الكذب على جميع الأفراد الذين ينعقد بهم التواتر ، كما هو جائز فى حق كل فرد على حدة .

ويجاب عن الأمر الأول ، بأن المعجزة أمر ممكن فى نفسه . وإن كان يمتنع فى العـادة وإظهارها بقدرة الله على يد مدعى النبوة ليس أبعد من خلق السموات والأرض على غير مثال سابق .

ويجـاب عـن الأمـر الثانى بأن المتواترات قسم من أقسام القضايا الضرورية والقدح فى الضروريات غير صحيح فلا يستحق الجواب .

ثانيا : وجه دلالة المعجزة على صدق الرسالة :

مـنزلة المعجـزة من الرسالة كمنزلة قول الله صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى ووجـه دلالتها على صدق الدعوى ، أن الله يخلق عقب ظهورها العلم الضرورى بصدق الرسول [1] ، فى نفس من يريد لهم الهداية ، أما من لم يرد لهم ذلك ، فلن يصدقوا ولو جاءهم مدعى النبوة بأدلة متعددة محسوسة .

ثالثا : كيفية حصولها :

يمكـن أن يؤخـذ من تعريف المعجزة ، كيفية حصولها ، فهى فعل مخلوق لله تعـالى ، وليس للعبد دخل فى حدوثه ، يظهره الله على يد من يريد تصديقه فى دعوى الرسالة. وذلك بمشيئته واختياره، ولا يشترط لإظهارها- على يد من تظهر على يديه - اسـتعدادا خاصا ، لأن النبوة منحة من الله تعالى إلى من يختاره لها ، دون أن يكون له دخل فى استحقاقها .

[1] انظر المقاصد للتفتازانى جـ٢ ص ١٧٥ .

وقـد يقـال : إذا كان من شروط المعجزة أن تكون مقارنة لدعوى الرسالة فما تقولون فى الأمور الخارقة التى تسبق دعوى الرسالة ، مثل كلام عيسى عليه السلام فى المهـد صـبيا . وتسـاقط الرطـب الجنى عليه من النخلة اليابسة ، ومثل إظلال الغمام وتسليم الحجر والمدر على محمد – صلى الله عليه وسلم –؟

والجـواب : أن تلـك الخـوارق المتقدمة على دعوى الرسالة ليست بمعجزات وإنمـا هـى إرهاصات . إن ظهرت على أيدى الأنبياء قبل نبوتهم . وكرامات إن ظهرت علـى أيـدى الأولياء [1] ، وسنبين هذا بشكل أكثر وضوحا – فيما يأتى – عند حديثنا عن الفرق بين المعجزة وبين الخوارق الأخرى .

هـذه هـى شـروط المعجزة كما ذكرتها كتب العقائد ، وإذا كان من الثابت أن المشـروط لا يـتحقق إلا بوجـود شروطه . بخلاف العكس فقد يوجد الشرط ولا يوجد المشروط ، كالوضوء مع الصلاة . فقد يوجد الوضوء – وهو شرط للصلاة – ولا توجد الصـلاة . أمـا الصلاة فلا تتحقق بدون وضوء أو ما يقوم مقامه ، وإذا كان الأمر كما ذكرنا ، فما حكم المعجزة فى حد ذاتها ، إذا تحققت شروطها ؟

يكـاد يتم إجماع علماء العقيدة على أن المعجزة أمر ممكن فى حد ذاته وأن إمكانها ضرورى .

وهـنا أمر ينبغى أن نبينه ، وهو أن بعض المنكرين للنبوة قد بنوا إنكارهم هذا علـى القـدح فـى المعجـزات . كما ذكرنا ذلك من قبل ، عند الكلام عن حكم الرسالة، وحجتهم فى ذلك أن تجويز خوارق العادات يؤدى إلى تجويز قلب حقائق الأشياء ،فيجوز أن ينقلـب الجـبل ذهـبا والـبحر زئـبقا ، ويـرون أيضـا أنـه علـى تقديـر ثـبوتها فـى حـق مـن رآها، فلا تثبت فى حق الغائبين، لأن أقوى طرق نقلها إلى

---

[1] راجع بالتفصيل : المواقف للايجى ج٨ ص٢٢٢ ، والمقاصد للتفتازانى جـ ٢ ص ١٨٥ .

٣- أنــه أخـبر بـأمور غيبـية لم تكن قد وقعت حين نزوله ، وأثبتت الأيام صدق الإخـبار بها ، مثل قوله تعالى : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾.

٤- أن التشـريعات الـتى جاء بها كانت وسطا بين التشريعات السابقة ، فلم يكلف نفسا إلا وسعها ، ولم يحرم الطيبات من الرزق .

٥- أنه يتعبد بتلاوته ، ويتقرب إلى الله بتعلمه .

٦- أن الله قـد تكفـل بحفظـه إلى أن تقوم الساعة ، قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (سورة الحجر: آية ٩) ومن مظاهر حفظه ، أن القوم قد حملوه جيلا بعد جيل ، بطريق التواتر .

٧- أنه المعجزة الكبرى الخالدة ، التى تحدى بها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فصحاء العرب وبلغائهم .

إعجاز القرآن :

نـزل القـرآن فـى عصـر تواترات الأخبار على أنه أرقى العصور عند العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة والبلاغة ، وأنه المتميز من بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال الـبلاغة ، وفرسـان الخطـاب . وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه ، من ثمار العقل . ونـتائج الفطـنة والذكـاء هو الغلب فى القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول .

كمـا تواترت الأخبار بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، والتماسهم الوسائل لإبطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله وإتيانهم فـى ذلـك علـى مبلغ استطاعتهم . ولكى يتأكد القوم أن ما جاء به محمد هو الحق ، طلـب الله إلـيه أن يـتحدى القـوم بـأن يأتوا بمثله ، وتدرج معهم فى التنزل ، حتى إلـى طلـب الإتـيان بمـثل أقصـر سـورة مـنه فعجـزوا عـن كـل مـا طلـب

الغمام له ،وتسليم الحجر والمدر عليه وقد حدث أيضا لعيسى عليه السلام ، فقد تكلم فى المهد صبيا ، كل ذلك قبل الرسالة .

وعلـــى هــذا فالفـــرق بين المعجزة والإرهاص هو أن المعجزة مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الإرهاص .

حكم الكـرامة ودلـيل وقوعهـا : الرأى الراجح أن الكرامة أمر ممكن فى ذاته ، لأنــه لا يترتــب علـــى وقوعــه محــال ، كالمعجــزة ، وأمـــا دلـــيل وقوعها ، فهو : مـــا جـــاء فـــى القـــرآن الكـــريم مـــن قصـــة مـــريم [1] ، وقصـــة أهـــل الكهـــف [2] وقصـــة عـــرش بلقـــيس [3] ، فهـــذه كلهـــا أمـــور خارقـــة للعـــادة وقـــد وقعت فعلا .

٢- السحر :

يــبدو الســـحر فـــى ظاهـــره أنـــه أمر خارق للعادة ، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلـــك ، لأنـــه يـــنال بالـــتعلم ، ويســـتعان فـــى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان ، وذلك بارتكـــاب القبائح ، إما بالقول ، كالرقى التى فيها ألفاظ الشرك ، ومدح الشيطان ، وإما بالعمل ، كعبادة الكواكب ، والتزام الجنابة ، وإما بالاعتقاد كاستحسان ما يوجب التقرب إلـــى الشـــياطين . وكل هذا لا يحدث إلا إذا كان بين الذى يباشر السحر وبين الشيطان تناسب فى الشر[4]

والفـــرق بيـــن المعجـــزة والســـحر – بعـــد هـــذا البيان – ظاهر ، فالمعجزة أمر خـــارق للعـــادة يظهـــر على يد مدعى النبوة ، وهذا الأمر مخلوق لله ، أما السحر فأمر

---

(1) أنظر تفصيلها فى سورة مريم الآيات ٢٢: ٢٦ .
(٢) انظر تفصيلها فى سورة الكهف الآيات ٩: ١٢ .
(٣) انظر تفصيلها فى سورة النمل الآيات ٤٢ : ٤٤ .
(٤) راجع بالتفصيل ، مذكرات الشيخ أبو دقيقة جـ ٣ ص ١٩ .

لــيس خارقا للعادة فى الواقع ، وهو من اختراع العبد ، بمساعدة مردة الشياطين ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا فى قوله تعالى : **﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، ومـا كفـر سـليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنـزل علـى الملكين ببابل هاروت ، وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحـن فتـنة فـلا تكفـر ، فيتعـلمون مـنها مـا يفـرقون بـه بـين المـرء وزوجه ... ﴾** (البقرة ١٠٢) .

٤- غرائب المخترعات :

هـــى أمـــور ليست خارقة للعادة ، ولكنها تحصل بالتعلم ، ومعرفة القوانين الـــتى تحكـــم المادة ، وكل ما فى الأمر أن الشىء قد يكون غريبا فى وقت ، وعاديا فى وقت أخر ، وذلك بفضل تقدم العلوم والصناعات ؛وكلما ترقى النوع الإنسانى فى مضـــمار العلـــم ، تبين له أن ما كان غير عادى بالأمس هو عادى اليوم وعلى هذا فجميع الاختراعات ، التى توصل إليها الإنسان بجهوده ، ليست من خوارق العادات مطلقـــا ، وبهـــذا يتضـــح الفرق بينها وبين المعجزة ، وبينها وبين كل من الكرامة والسحر .

أقسام المعجزة

للمعجـــزة أقســـام باعتـــبارات مختلفة ، فباعتبار كونها قولا أو غيره تنقسم قسمين :

- **قــول** : كالكتـــب الســـماوية التى أنزلها الله على لسان أنبيائه ، وهى التوراة والإنجيل والقرآن.
- **فعــل** :كانقلاب العصا حية تسعى على يد موسى عليه السلام ، ونبع الماء من بين أصابع نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

- **ترك** : وذلك كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام .

وتنقسم المعجزة باعتبار طريق ثبوتها :

أ- ما ثبت بالتواتر ، كالقرآن الكريم .

ب- ما ثبت بطريق الآحاد ، كباقى المعجزات .

جـ- ما أخبر به القرآن من معجزات الأنبياء .

وتنقسم المعجزة باعتبار كونها حسية أو معنوية :

أ- **حسية** : وهى خوارق العادات التى شوهدت بإحدى الحواس ، وهى التى تحت قسمين الفعل والترك فى التقسيم الأول .

ب- **معنوية** : كالقرآن ، والأحاديث ، التى تحض على الفضائل ، وتنذر من يفعل الرذائل ، وبالجملة ، هى جوامع الكلم التى تنظم علاقة الفرد بربه ومجتمعه .

معجزات الأنبياء

بعد أن ذكرنا المعجزة وشروطها وكيفية حصولها ووجه دلالتها على صدق الرسالة وأقسامها ، نبين كيف أيد الله سبحانه من أختارهم ليكونوا رسلا بالمعجزات .

لقد كان من الحكمة ، أن يؤيد الله سبحانه رسله وأنبياءه بمعجزات تصدق دعواهم ، كما كانت هذه الخوارق من جنس ما نبغ فيه القوم فى زمان كل رسول ، حتى يكون أدخل فى باب التحدى ، وطلب المعارضة ، إذا كان فى مقدورهم ذلك ، وسنتكلم بإيجاز عن معجزتى موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم بعد ذلك نتكلم عن بعض معجزات سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

١- **معجزة موسى عليه السلام :**

نبغ قوم موسى فى السحر ، وكان مقتضى الإعجاز أن تكون معجزته عليه السلام ملائمة لما نبغ فيه القوم ، لقد أخبر قومه أنه رسول رب العالمين ، فلما سمع فرعون قوله هذا ، قال له : " **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** " ولكن موسى عليه السلام لم يعبأ بهذا التهديد ، وانتهى الآمر إلى أن يقدم موسى ما عنده مما يؤيد دعوى الرسالة ، فطلب إلى فرعون أن يجمع السحرة لكى يفحمهم ، ويبين أن ما جاء به أقوى مما هم عليه ؛ لأنه من عند الله ، فلما اجتمعوا قالوا لموسى :" **إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** " فأصر موسى عليه السلام على أن يبدأوا فألقوا حبالهم وعصيهم . حتى خيل للحاضرين من سحرهم أنها تسعى ، فلما جاء دور موسى عليه السلام ألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان عظيم ، يلقف ما يفعله السحرة من الحبال والعصى، هنالك أيقنوا بأن موسى ليس ساحرا مثلهم ، وأن ما ظهر على يديه لم يكن سحرا ، وإنما هو أمر خارق للعادة ، إنه معجزة ، تدل على صدق موسى عليه السلام فى دعوى الرسالة وكان من ثمرة هذا الموقف أن ألقى السحرة ساجدين ، قائلين : **﴿ آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾** (سورة الشعراء ٤٧ ، ٤٨) .

٢- **معجزة عيسى عليه السلام :**

وأما معجزة عيسى عليه السلام فكانت أيضا من جنس ما نبغ فيه قومه وهو الطب . ولقد أنكر بنو إسرائيل على عيسى عليه السلام بدعوى الرسالة ، ولكن الله سبحانه أيد دعواه بما أظهر على يديه من المعجزات ، ردا لإنكارهم ، ولقد حكى القرآن الكريم معجزات عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : **﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك**

لآيـة لكـم إن كنـتم مؤمـنين ﴾، (آل عمران ٤٩) وبظهور هذه الخوارق على يديه ، يتأكد للمنصفين أن ما جاء به هو من عند الله ،وأنه رسول الله حقا.[1]

٣- معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

أ- المعجزات الحسيه : هذا النوع من المعجزات كثير ، نذكر منه ما يأتى :

١- إنشقاق القمر :

يكـــاد يتم إجماع المسلمين على أن الله تعالى أيد رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم – بمعجزة انشقاق القمر ، وقد ورد بهذه المعجزة الكتاب والسنة ، فأما الكـــتاب فقد جاء فيه قوله تعالى : **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾**، وأما السنة فقـــد روى غير واحد من الصحابة أن أهل مكة ، سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر نصفين ، حتى رأوا حراء بينهما .

٢- نبوع الماء من بين أصابعه :

روى بطـــريق التواتر أن جماعة من الناس طلبوا ماء لوضوء فلم يجدوه ، فـــأتى النـــبى – صلى الله عليه وسلم – بفضل[2] ماء فصبه فى إناء ووضع يده فى الإنـــاء ، فســـار الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فتوضأ الناس جميعا ، وقد ورد فى بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان يبلغ الثلاثمائة .

٣- إبراء بعض المرضى :

أصيب " قتادة بن النعمان " يوم أحد فى إحدى عينيه ، حتى وقعت على وجنته ، فلمـــا علـــم بذلـــك النبى – صلى الله عليه وسلم – ردها ، فكانت أحسن عينيه

---

[1] يمكن الرجوع إلى المطولات عن معجزات موسى وعيسى عليهما السلام لمن يريد المزيد .

(٢) البعض اليسير .

وأحدهما بصرا ، كما نفث فى عينى " علي " كرم الله وجهه يوم خيبر فشفيتا ، حـتى كأن لم يكن بهما ألم ، وأصيب " سلمة بن الاكوع " بضربة فى ساقه يوم خيـبر أيضـا فنفـث النبى – صلى الله عليه وسلم – ثلاث نفثات . فى موضع الضربة . فشفى منها وما اشتكى بعد ذلك قط .

وليس لأحد أن يشك فى هذه الخوارق ، لأنها قد وردت بطريق التواتر . والتواتر نوع من القضايا الضرورية ، التى لا ينازع فى صدقها أحد .

ب - المعجزات المعنوية أو العقلية :

يذكر مؤرخو العقائد من هذا النوع ما يأتى :

١- سـيرته – صـلى الله عليه وسلم – قبل البعثة وبعدها : أثر عن النبى – صلى الله عليه وسلم– أن سيرته العطرة قبل البعثة كانت تدل على أنه أهل لـتحمل عبء الرسالة ، فقد نشأ فى وسط كانت العادة فيه تقضى بأن يتأثر بأخلاقـه ، مـن لهو وتعظيم أصنام وتعلق بالأوهام . كما هو شأن القوم ، الذين نشأ فيهم .

ولكـن الله سبحانه قد حفظه من اللهو والمجون ، وعبادة الأصنام ، والإيمان بالأوهام ، كما ابتعد عن الفحش والأخلاق الذميمة ، وتحلى بالصفات الحميدة من الصدق فى القول ورجاحـة الـرأى . والأمانة وحسن المعاشرة ، إلى غير ذلك من حميد الصفات وكريم الأخـلاق ، ولقد تحدث – صلى الله عليه وسلم– عن منبع هذه الأخلاق الفاضلة فقال : " أدبـنى ربـى فأحسـن تأديـبى " ، وقـد بيـن أيضـا أن رسالته إنما جاءت لإتمام مكـارم الأخـلاق فقال : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . ولا شك أن كل عقل راجح منصـف يـدرك أن إنسـانا أراد الله له أن يكـون مـبلغا لأخـر رسـالات

السماء . لابد من أن يكون أهلا لهذه الرسالة ، فكانت كل هذه الصفات الحميدة هبة من الله تعالى له ، ونعمة أنعم بها عليه .

ولقد كانت هذه الخلال الفاضلة ، والسجايا الكريمة ، عاملا مهما فى دخول كثير من الناس فى دين الله أفواجا ، لأنها من أقوى الأدلة على صدق دعواه .

٢- البشارات به فى الكتب السابقة :

جاء فى السفر الخامس من التوراة : " أقبل الله من سيناء ، وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ،" وفى هذا النص إشارة إلى نبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– لأن " سيناء" منزل وحى موسى عليه السلام ، و"ساعير " المكان الذى ظهر منه عيسى عليه السلام و" فاران " هى مكة التى ظهرت فيها أولا دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا القول مجمع عليه [١] .

وجاء فى الإنجيل ، أن المسيح عليه السلام قال لحوارييه : " أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط [٢] روح الحق ، لا يتكلم من قبل نفسه ، وإنما هو كما يقال له ، وهو يشهد على ، وأنتم تشهدون له " وفى إنجيل برنابا آيات كثيرة تشير إلى أن نبيا سيظهر أخر الزمان ، يفتك بعبادة الأصنام ، فليحذر العالم أن ينبذه ، ويعترف فيه يسوع بقوله : " والحق أقول لكم إن نبي الله حينئذ سيأتى " .

---

(١) انظر بالتفصيل : الملل والنحل للشهرستانى جـ١ ص١٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، والفارقليط هو روح الحق كما فسر به ، وهو النبى ، ولكن بعض اللئام من اليهود قالوا إن المراد به "الرجل العالم " وغايتهم من ذلك نفى أي رسالة جاءت بعد اليهودية ، ولا يعترفون لعيسى ومحمد عليهما السلام إلا بكونهما علماء ، بناء على هذا التفسير الخاطئ .

وهـناك أيضا كثير من النصوص المباشرة التى تحدد شخصية النبى الذى سيبعث آخـر الزمان ، من ذلك ما ذكر عن أشيعا أنه قال :" إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد " [1] .

ولقـد جـاء فى القرآن بعض النصوص التى تؤكد ما جاء فى الكتب السابقة ، من البشـارة بالرسول الخاتم ، محمد – صلى الله عليه وسلم– من ذلكم قوله تعالى : **﴿وإذ قـال عيسـى بن مريم يابنـى إسرائيل إنـى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى مـن الـتوراة ومبشـرا برسول يأتـى من بعدى اسمه أحمد ﴾** (الصف : ٦) ومن الثابت أن " أحمد " أحد أسماء النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – .

٣- القرآن الكريم :

أظهـر المعجـزات العقلـية علـى صدق رسالة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– ، هى معجزة "القرآن الكريم " . ولقد أخرنا الحديث عنه ، لما يقتديه المقام من بعض التفاصيل ، نذكرها فيما يأتى :

إن المتتبع للآيات التى أظهرها الله على يد أنبيائه قبل محمد – صلى الله عليه وسلم– يلاحظ أنها كانت أشياء مادية لا تدخل فى صميم الرسالة التى جاء بها الرسول ، بل هى دلـيل خـارجى على صدق دعواه ، وهذا يعنى أنها تنقضى بزمانها ، أى أنها مرتبطة بـالحدث الـتى سـيقت مـن أجلـه ، وكـذا الحـال فـى معجـزات رسـولنا علـيه الصـلاة والسـلام التى من هذا القبيل ولكن مع انقضاء زمانها فنحن نؤمن بحدوثها ، لأن الخـبر الصـادق قـد قـال بهـا . أمـا معجـزته الباقـية ، والـتى سـتظل دائمـا موضوعا للتحدى ، لأنها فوق أن تكون حدثا ماديا ، فهى " القرآن الكريم " وفى

---

[1] انظر بالتفصيل . مذكرات الشيخ أبو دقيقة جـ٣ ص ٣٧.

هـذا المعنى يقول ابن رشد : "إن دلالة القرآن الكريم على نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ليست كدلالة انقلاب العصا حية ولا كدلالة إحياء الموتى وإبراء المرضى . فإن تلك وإن كانت أفعالا لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء ، وفيها ما يقنع الجماهير من العامة، إلا أنهـا مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحى ، ومعنى الشريعة . أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين ، مثل دلالة الإبراء على الطب ، ومعرفة السطوح علـى الهندسـة ، ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أنى طبيب أنى أطير فى الجو ، وقال الآخر : الدليل على أنى طبيب أنى أشفى الأمراض، وأذهـب الأسـقام ، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعا ، وعند من طار فى الجو مقنعا فقط [1] .

خصائص القرآن :

من أبرز خصائص القرآن الكريم ما يلى :

١ – أنه كتاب عام ، صالح لكل زمان ومكان ، فلا كتاب بعده حتى ينسخه ، وقد نسخ الكتب التى سبقته ، وقد اختص القرآن بهذه الميزة لأنه من عند الله ، الذى يعلم أحوال خلقه ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، شرقيها وغربيها ، وكون القرآن من عند الله فيه نقض لدعوى المشركين ، حين فاجأهم ما فيه من بلاغة وفصاحة ، أنه من كلام البشر .

٢ – أن مباحث العقائد فيه ذكرت مقرونة بأدلتها الكونية أو العقلية بخلاف الكتب الأخرى فإنها ذكرت فيها مجردة عن الأدلة ، اللهم إلا مجرد الإخبار بها عن طريق الوحى .

---
[1] الكشف عن مناهج الادلة . ص٧٥ .

الفرق بين المعجزة والكرامة والإرهاص
والسحر وغرائب المخترعات

لعـل أحسـن مـا يوضح الفرق بين هذه الظواهر الخمس ، هو تعريفها ، وقد مر تعريف المعجزة فلنعرف الباقى .

١ - الكرامة :

هـى أمـر خـارق للعادة ، يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ، غير مقـرون بدعوى النبوة . والفرق بينها وبين المعجزة – حينئذ – هو أن المعجزة تظهر علىيد مدعى النبوة مقرونة بدعواه ، بخلاف الكرامة ، فإنها لا تقترن بدعوى .

وأولـياء الله الذين تظهر على أيديهم الكرامات كثيرون ، وقد ذكرهم الله فى القـرآن الكريم بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما جعل لهم البشرى فى الحياة الدنـيا وفى الآخرة ، قال تعالى :﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذيـن آمـنوا وكـانوا يـتقون لهـم البشـرى فـى الحـياة الدنـيا وفـى الآخـرة** ﴾ (سورة يونس : ٦١، ٦٢ ،٦٣)

٢- الإرهاص :

الإرهـاص معناه : التأسيس والمقدمات ، التى تمهد لمجئ النبى ، وعلى هذا فالإرهـاص يشارك الكرامة فى نفس التعريف ، ولا يختلف عنها إلا بالاعتبار الزمنى ، وهـو قـبل دعـوى الرسـالة كـرامة ، ويسـمى بعد ظهورها إرهاصا ، وقد شاءت حكمـة الله ألا يفاجـئ القـوم بالرسـول ولكـنه يمهـد السبيل لرسالته بظهور بعض الخـوارق علـى يديـه ، وقـد حـدث ذلك لنبينا – صلى الله عليه وسلم – ، كإظلال

مـــنهم . وحقــت للكـــتاب العزيـــز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه على جميع الأحكام [1] .

ونذكر من وجود الإعجاز للقرآن ما يأتى :

١- مـــن جهـــة الأسلوب والصياغة : اتفق العقلاء على أن للقرآن فى هذا المقام القـــدح المعلى ، بحيث يرون أن مجرد المقارنة بينة وبين غيره من الأساليب ، هى انتقاص من قدره .

٢- مـــن جهـــة المعـــانى والأفكار : يرى العقلاء أيضا ، أن للقرآن فى ذلك قصب الســـبق ويضربون مثلا لذلك بقول الله تعالى **﴿ولكـم فـى القصاص حياة﴾** ، وقـــول بلغـــاء العـــرب " القتل أنفى للقتل " ويستنتجون من ذلك أن القرآن قد اشـــتمل علـــى الدقة المتناهية فى المعنى وأداء الغرض أداء تاما ، بأقل الألفاظ مع عدم الإخلال بالمعنى ، بحيث لا يمكن أن يطاوله فى ذلك القول المأثور الذى ذكرناه منذ قليل .

٣- الإخـــبار بالمغيـــبات : وذلك كما جاء فى سورة الروم فى قوله تعالى :**﴿غلبت الـروم فـى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾** : وما تضمنته الإشـــارات إلـــى الآيـــات الكونية التى أودعها الله سر هذا الكون العجيب ، مما يكشـــف عنها العلم تباعا ، كما ترشد إليه الآية : **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ....﴾** (فصلت : ٥٣)

إن العلـــوم الكونية فى تطورها واطرادها تكشف عن حقائق أشار إليها القرآن الكـــريم فـــى محـــاور كثـــيرة ، كعلـــم الأجـــنة ، وطـــبقات الأرض ، وعلـــم الـــبحار والفضـــاء الكونـــي الـــخ ، ولـــيس هذا ببعيد على كتاب إلهى محفوظ بحفظ الله تعالى

---

[1] أنظر بالتفصيل : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٤٥ وإعجاز القرآن للرافعى .

لـــه ، يفـــتح عقـــل الإنسان وقلبه أمام سنن الله البادية فى الآفاق ، وفى النفس ليتأكد للباحـــث المحايد ، والناظر المتأمل ، أن آيات الله المسطورة فى كتابه المكنون " القرآن الكـــريم " هـــى صـــنو آياتـــه المنشورة فى كونه الرحب الفسيح الممتد . فالقرآن كتابه والكـــون خلقه ، وما احتواه كونه من أسرار تحفز العقل البشرى لاكتشافها ، كان كتابه داعيا لها ومرشدا إليها .

وللقارئ أن يطلع على ما جاءت به بعض البحوث الحديثة والمعاصرة فى كتابات بعض الأثبات من أمثال :

١- موريس بوكاى : فى كتابه الكتب المقدسة فى ضوء المعارف العلمية الحديثة .
٢- وحيد الدين خان فى كتابه : الإسلام يتحدى .
٣- مجموعة من الباحثين الغربيين : الله يتجلى فى عصر العلم .
٤- كريسى موريسون : العلم يدعو للإيمان .

إنـــه سيخرج من قراءة هذه الكتب وغيرها ، بنتيجة تؤكد له أن العلم فى اكتشافه إنما يدعـــم الإيمان ويقويه ، وأن الإلحاد ، باسم العلم كان بدعة يتبرأ منها العلم والدين على الســـواء ولعل فى هذا ما يجعل دلالة القرآن الكريم على صدق الرسالة الإسلامية قضية مستمرة باقية ما بقيت الحياة .

مضمون الرسالة :

- وأما عن مضمون الرسالة ، وهو الأمر الثالث ، من ضمانات التأكيد من صدق دعوى النبوة فإنه يمكن تركيزه فى قضية واحدة . ، ولكنها عامة وشاملة لكل جوانب الإنسان ، حياتيه الأولى والآخرة . إنها "قضية الإصلاح" فى الاعتقاد ، فى السلوك ، فى الاجتماع على مستوى : الفرد – الجماعة – الإنسانية . ومن الثابت أن مراتب الإصلاح متفاوتة ، ولما كان على رأسها ، إصلاح العقيدة ،

فقـد بـدأت بهـا جمـيع الرسـالات الإلهـية ، ثـم تـأتى بعد ذلك المراتب الأخرى للإصلاح .

ونشير هنا إلى معنى ينبغى التأكد عليه . وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل ، هو : أن المعيار الحقيقى للإصلاح ، هو ما جاء به الحق سبحانه وتعالى ، وتضمنته رسالاته، ولا يمكـن أن يـتخذ مـن أهـواء المدعوين معيار لذلك .، وإلا كان فى مجئ الرسالة مصادرة على المطلوب كما يقولون . أى : أن يكون وجودها لا معنى ، بل يكون الضرر مـن وجودها آكد ، حيث تكرس الاعوجاج والانحراف ، وتقر ما ألفه البشر مما لا يقبله العقل والفطرة .

وقد حدثنا تاريخ الأنبياء أن العقبة الكؤود التى وقفت أمام الحق الذى جاءوا به ، هو : الإلف والتقليد غير البصير ، والغفلة عن الحق ، بعد أن طمست معالم الفطرة الصحيحة .

الفصل السادس

الإسلام خاتم الرسالات ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين

ختـم سلسـلة الرسالات الإلهية بالإسلام ، وانتهاء مواكب الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام بمحمـد صـلى الله عليه وسلم ، مما أجمع عليه العقلاء من كل الأمم ، ومما يؤكـده الوقع الصحيح ، كما جاءت به نصوص الكتاب والسنة . وكون الأمر هكذا يعنى أن الإسـلام كامل فى ذاته . مكمل للرسالات قبله . وأنه يحمل فى مضمونه ما يمكن أن تطـب بـه البشرية لكل أدوائها فى جميع عصورها الباقية ، حتى يرث الله الأرض ومن علـيها . لقـد أكمل الحق تبارك وتعالى به الدين .، وأتم به النعمة ، ورضيه لنا الدين الصـحيح، المهيمـن علـى كـل الرسـالات السابقة، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا . ﴾ (المائدة : ٣) .

وكمال الإسلام يعنى :

أولاً : أنـه يملك فى ذاته من المؤهلات ما يتفق وجميع المطالب الإنسانية ، على مسـتوى الفـرد والجماعـة ، بحيـث يشمل الحياة كلها ، فى صورتيها : الأولى والآخرة .

ثانـياً : أن أصـوله وثوابـته باقية راسخة . إما من حيث مصدره وإما من حيث المقومـات الأساسية والأركان العامة ، وإما من حيث منهج وطريقة خطابه بحيث يشمل كل المدارك الإنسانية الراشدة .

ثالثاً : أن العقلية الإسلامية مطالبة بأن تكون فى مستوى التبعة والمسئولية لقضية " الإسلام الخاتم " صدق بلاغ وحسن توجيه ، وقيادة حياة فى كل جوانبها ، حتى يتلاءم هذا كله مع طبيعة هذا الدين .

رابعاً : ليس لحاضر الإنسانية ومستقبلها من منهج سوى الإسلام ، بعد أن أفلست كل من : اليهودية والمسيحية ، فى علاج الأمراض البشرية ، وقيادة الحياة بطـريقة صـحيحة ، وبعـد أن فقدتـا معا عناصر المعقولية فى بناياتها وأنسـاقها الروحـية والفكـرية ، وذلك كله بسبب ما اعتراهما من عوامل التغيـير والتبديل ، الأمر الذى قرر معه كثير من الباحثين الغربيين فى هذا القـرن انعـدام الـثقة فيهما والبحث عن دين جديد يطب للبشرية أدواءها ويرسم لها طريقها إلى الخلاص الصحيح .[1]

وإذا كانـت الـيهودية والمسيحية هكذا ، فإن الديانات الوضعية والمذاهب البشـرية الاجتماعية تكون أدخل فى عدم كفايتها لقيادة الحياة بطريقة صحيحة [2]. ولا يخفى على كل ذى عقل ما تعانيه اليوم أمم الحضارة والمدنية من ويلات ، وما تقاسـيه مـن صـعوبات ، فى ظل أنظمة يدعى لها التقدم والتطور ، ذلكم لأن تلك الأنظمـة يوم أن اتخذت من الإنسان محورا لها ، لعلاج مشاكله وتنظيم حياته ، لم تـنظر مـنه إلا إلـى القشرة الظاهرة ، والمطالب المادية ، وأما أشواقه الروحية : نفسه – روحه – مشاعره وجدانه – أهدافه الحقيقية – ، فلم تصب من ذلك شيئا ، فأصـبح إنسان اليوم فى ظلها يعانى من شقائه وتمزقه ، أكثر مما يجنيه من صعود فى الجانب المادى فقط .

---

(1) انظر : عباس العقاد . عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص٣٥.
(2) انظر : رجاء جارودى : الإسلام دين المستقبل ص ٧٥ .

إن هذا الذى أقوله ليس وليد عاطفة من إنسان ينتمى إلى دين يريد له أن يستعلى ولكنها قبل ذلك – حقيقة واقعة ، أقرها أساطين العلم ، فى مجال الحضارة وفلسفة التاريخ : أرنولد توينبى – جوستاف لوبون – رجاء جارودى – محمد اقبال – محمد أسد – وغيرهم .

الأصول الدينية لختم الأديان بالإسلام والنبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم :

قبل أن نبين هذا الموضوع بجلاء ، ينبغى أن نشير إلى قضية هامة ، هى : أن هناك تلازما فى الواقع وفى العقل ، وفى الدين ، بين ختم الإسلام للأديان ، وختم محمد صلى الله عليه وسلم للأنبياء ، بحيث لا ينفصل أحد طرفى القضية عن الآخرى ، وبالتالى فإن الحديث عن أحدهما حديث عن الأخر . وعلى هذا سيكون علاجنا للموضوع. ومن ثم يظهر – أيضا – أن كل الدعاوى التى ظهرت ، يزعم أصحابها النبوة قديما وحديثا ، هى من قبيل الكذب الصريح ، كما سنشير إليه بإيجاز فى نهاية هذا البحث .

يقول الله تعالى :﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما** ﴾ (الأحزاب: ٤٠) وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه إلا موضع لبنة فيه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) وقوله – أيضا – فيما رواة الشيخان (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى) وفيما رواه الإمام أحمد

فـــى مســـنده أنـــه صلى الله عليه وسلم قال : لا نبوة بعدى إلا المبشرات . قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الحسنة أو قال : الرؤيا الصالحة .

وجمهور المفسرين على أن لفظ "خاتم " يقرأ بفتح " التاء " وكسرها على أنه " اســم فاعل " ويفيد الأول المعنى المراد لأنه يعنى : الطبع بمعنى أنه لا نبى بعد ذلك ، من حيث إن الله تعالى ختم به سلسلة النبوات وطبع تلك السلسلة بخاتمها ، ويفيد الثانى نفــس المعــنى المـــراد بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم آخرهم ولا ينقض هذا ، نزول عيســـى فـــى آخر الزمان ، كما جاء به بعض الآثار ، لأنه لن يكون أكثر من داعية إلى دين الإسلام ، الذى بشر به فى حياته، كما جاء فى " الإنجيل " وسيتصرف فى بعض ما آلت المسيحية بعده ، حتى تتفق مع معطيات الإسلام ، ذلك الدين القيم .

المبررات العقلية :

لا نشــك فـــى أن النصوص الدينية كافية فى صدق القضية التى معنا، وإنما نـــردف إيرادها بالمبررات العقلية تأكيدا وتدعيما لهذا الصدق ، ونقطع الطريق أمام كل الأدعياء الذين يقولون بخلاف ما نذهب إليه . على أي مستوى يكون ذلك القول ، ولعل أخـــر هـــذه الأقوال ، ما نسمعه من أولئك الأغرار، الذين يزعمون كفاية العقل فى قيادة الحـــياة ، ويحصرون الدين – إن آمنوا به – فى دائرة ضيقة جدا ، هى دائرة العلاقات الفـــردية بيـــن العـــبد وربـــه ، ممن يسمون أنفسهم بأصحاب المشروعات الحضارية ، ويلقـــبون ذواتهـــم بالتنويريين . هؤلاء لهم موقف من الدين واضح لا ينكر ، وأخفهم حملـــة عليه ، يحصره فى الدائرة التى أشرنا إليها . وأما أراذلهم وجهالهم فلا يحملون له أى توقير واحترام ، بل يرون أنه سبب تأخر الأمة وتراجعها .

ويعـــنى هـــذا كلـــه إحـــلال العقـــل محـــل الدين ، وكأنهم يفتحون باب النبوة من جديد ولكن بمفهوم جديد ، يقوم على وحى العقل ، لا على وحى السماء ، ولما كان

هــذا خبطا وقولا بلا علم ، وإفلاسا روحيا ونفسيا ، فإن مقولة هؤلاء تلتقى عند الهدف الــذى يسعى إليه أدعياء النبوة الجدد ، لاتحاد الصورة فى أذهان هؤلاء وأولئك صورة عــدم الأقتــناع بــأن الإسلام هو الدين الخاتم ، وأن محمدا – كذلك – هو أخر سلسلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

لكــن حرصنا الشديد على تصفية الحساب مع كل فكر فيه دخل وكل قلب فيه زيــغ ، وكــل نفس فيها مرض ، يحملنا على إبراز المبررات العقلية التى تؤكد قضيتنا ويمكن أن نلمس ذلك فى الجوانب الآتية :

١ – الجانب العقدى
٢ – الجانب التشريعى
٣– الجانب الأخلاقى .
٤ – الجانب التنظيمى .

الجانب الأول :

فأمــا عــن الجانب الأول . فقد أقام الإسلام عقائده على أساس من العقل وحرية الإرادة والاتساق التام مع الفطرة الصحيحة . وفى ترسيخ هذه العقائد ، أقام الإيمان بالله تعالى على أساس من الوحدانية التامة الشاملة لكل معانى الوحدانية ، وحدانية فى الذات وفــى الصفات ، وفى الأفعال ، وبذلك رفض كل مظاهر الوثنية والشرك التى جاءت بها الديانــات الوضعية والفلسفات المادية ، والتى آلت إليها الأديان السماوية قبل الإسلام – اليهودية والمسيحية – وقد انعكست الوحدانية الاعتقادية حين تمكنت من قلوب المؤمنين ومشــاعرهم إلــى وحدانــية فــى الواقــع ، فــتوحدت القلوب والنفوس والصفوف ، كمــــا توحــــدت الوجدانــــات والمشــــاعر والأهــــداف والغايــــات . فكانت الأمــة المسلمة ، التى عبر عنها القــرآن الكــــريم بقولـــه **﴿كنتم خير**

أمة خرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .....)
(آل عمران : ١١٠) .

لقـد كانـت عقيدة " الوحدانية " التى جاء بها الإسلام واسطة العقد فى الجانب الاعـتقاد فاتسـقت معهـا بقـية الأصول الاعتقادية من الإيمان بوحدة الأهداف الكبرى للرسـالات السـماوية كلها . وما نزل على الرسل السابقين من الكتب والصحف ، فكان الإيمـان بجمـيع الرسل والكتب من بين تلك الأصول ، كما كان الإيمان بالملائكة واليوم الآخـر والقـدر مـن أركان الإيمان الصحيح الكامل . كل هذا قام على أساس من العقل والفطرة .

لقـد كـان القـرآن الكـريم محوراً لبيان صدق ما جاء به الإسلام من عقائد . مرتـبطة بأدلـتها الواضحة الجلية ، وبطلان ما سبقها من العقائد التى مسخت الإنسان وحولته إلى كائن لا يعقل ، وسلبت منه إرادته ، يوم أن كان التقليد لما كان عليه الآباء والأجـداد هـو المعيار الذى قاس به هؤلاء ما جاءتهم به أنبياؤهم . لقد طمست معالم الفطـرة الصـحيحة لـدى الجاهلين من أقوام الأنبياء . حتى غدا الإنسان أقل بكثير فى مراتـب الوجود مما يعتقد فيه ، فقد كان الصنم والحجر والوثن أعلا منه ، وهذا أمر لا يعقـل ، إذ الإنسـان فـى وضعه الصحيح ، إنما خلق ليكون خليفة الله فى أرضه ، وقد سخر له الحق تبارك وتعالى الكون كله ، ليكون فى خدمته ، وليتوجه إلى الإله " الحق " بالعبودية الصحيحة ، المبنية على العقيدة السليمة . وليتخذ من الآيات الكونية والنفسية مـراقى تعـرج بـه الإيمـان الصـحيح . ولتضـعه فى رتبته اللائقة به فى الوجود ، وباختصـار: فـإن عقيدة الإسلام هى الضمان الحقيقى لنجاة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة .

الجانب الثانى :

وأما الجانب التشريعى ، فقد أقامه الإسلام على أساس من الملائمة بين التكاليف الشـــرعية والطاقة الإنسانية(**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**)واليسر الذى لا عسر معه (**يـريد الله بكم اليسـر ولا يريد بكم العسر**) ورفع الحرج(**ما جعل عليكم فى الديـن مـن حـرج**) ودفـــع الضرر (**لا ضـرر ولا ضرار**) وعدم المحاسبة على الخطأ والنســيان (**ربـنا لا تؤاخذنـا إن نسـينا أو أخطأنا**) ومراعاة الظروف الاستثنائية (**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه**) والموازنة بين ما يجلب الخير وما يدرأ الشر "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح "

هـــذا بالنســـبة لأســـس التشريع فى الإسلام ، وأما بالنسبة لعلاقة ذلك التشريع بالإنسان ، فقد وازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، فلم يقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، كما تفعل النظم الرأسمالية ، ولم يهمل مصلحة الفرد ويعنى بمصلحة الجماعـــة كما تفعل النظم الاشتراكية ، بل راعى مصلحتهما معا وكتب الفقه التى أبرزت فلســـفة التشريع الإسلامى حافلة بما يؤكد هذا المعنى ويوضحه ويظهر فى هذا الجانب ، شـــمول التشـــريع الإسلامى لكل مطالب الإنسان ، فهو ممتد عبر حياته كلها ، ظاهرها وباطـــنها كما أنه ممتد عبر الزمان والمكان ، فليس تشريعا خاصا بعصر بعينه ولا ببيئة بذاتهـــا . يضـــاف إلى ذلك أن الإسلام جعل لاجتهاد العلماء مدخلا واسعا فى ربط الدين بالحياة ، فى الوقائع المتجددة ، نظراً لتناهى النصوص ، وعدم تناهى المستجدات .

الجانب الثالث :

هـــذا الجانـــب له فـــى الإســـلام شـــأن عظيم ، وهو جانب الفضائل النفسية والســـلوكية والاجتماعـــية ، ومـــن الطبيعى أن يكون الجانب الأخلاقى فى الإسلام ثمرة لعقـــيدة صـــحيحة ، إذ الخلـــق كمعنى باطنى والسلوك الذى يترجم عنه ، إنما يكونان

من حيث الصحة وعدمها ، من آثار العقيدة التى بنيا عليها . والمدقق فى القرآن الكريم يـرى أن الفضـائل التى دعا إليها ، وطلب من المؤمنين تقديرها فى النفس والواقع قد ارتبطـت بالعقيدة ارتباطا وثيقا . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة التى تكون إشارة ومدخلا إلى غيرها .

المثل الأول : يقول الله تعالى : **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا . وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾** (النسـاء : ٣٦) إن الآية هنا ربطت بين العقيدة والأخلاق برباط محكم . وكان المظهر الحقيقى للتوحيد فيما توحى به إنما يكون فى الإحسان . الإحسان بكـل مستوياته : إلى الوالدين – الأقربين – اليتامى الخ ، ثم تأتى الآية فى عجزها بما يفيد ذم الرذائل ، ومنها : الخيلاء والفخر بما يؤكد أن الله سبحانه وتعالى يحب الفضائل ولا يرضى عن الرذائل .

المثل الثانى : يقول الله تعالى :**﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . ﴾** (المؤمنون : ١ – ٨) .

إن نسـق الفضائل العليا فى الآيات مرتبط بالإيمان الصحيح ، كما نرى ، وفى هـذا مـن الإيحـاء مـا يجعـل هذه الفضائل من الناحية الواقعية فى مستوى العقيدة الصـحيحة، وكأن تلك العقيدة هى الضمان الحقيقى لوجودها على أساس صحيح . وكأن تلـك الفضـائل مـن جانب آخر ، هى الدليل الظاهرى على رسوخ العقيدة وتمكنها من القلب.

إنـــنا نقـــول بكـــل ثقة : إن الإسلام قد أرسى مبادئ السلوك القويم ، بعد أن وضع الأســـس النظرية والقواعد الكلية لذلك السلوك ، كما حدد العلاقات بين المرء ونفسه – والمـــرء وأســـرته – والمرء والمجتمع – ثم العلاقات الأسرية – علاقة الحاكم بالمحكوم والمحكوم بالحاكم ، ثم علاقة الدول بين بعضها وبعض ، فى الأحوال: العادية – السلم – الحـــرب كمـــا أمـــرنا باحترام المواثيق والمعاهدات [1] الخ ، ومن قبل ومن بعد ، أوقف المســـلم أمـــام مسئوليته تجاه كل ما يتصرف فيه ، ووضع الضوابط لذلك كله . كما بين فى علاجه لقضية الأخلاق ، الصورة المقابلة ، لما يدعو إليه من الفضائل ، حتى يتضح أثرها فى الحياة الأفراد والجماعات وليرينا إلى أى حد يمكن أن يظل الإنسان إنسان فى ظـــل تمســـكه بـــتلك الفضائل ، وأما إذا انفلت منها فإنه لا يكون إنسانا إلا بضرب من الـــتجوز ، لأنـــه يكـــون قد فقد عقله وإرادته ، وهما الدعامتان الأساسيتان للمسؤولية الخلقية .

الجانب الرابع :

الجانـــب التنظـــيمى فـــى الإســـلام ، مظهر من مظاهر احترام ذلك الدين لعقلية المســـلم، كمـــا يعد كذلك من الأدلة الواضحة على أنه دين مفتوح ، وليس مغلقا ، ذلكم لأن دستور الإسلام ، وهو القرآن الكريم ليس كتابا خاصا بعلم بعينه ، بل هو فى المقام الأول كـــتاب هدايـــة ، غـــير أنه احتوى على توجيهات ومحاور يمكن أن يتخذها العقل المســـلم منطقـــيا له ، يبـــنى عليها ما يصل إليه بالبحث والدراسة ، ضمن منهج سليم وغاية محددة .

مـــن ثـــم نـــرى أن الجانـــب التنظـــيمى فى الإسلام ليس وليد أصول إسلامية فحســـب بـــل تفاعلـــت مع حقائقه فى هذا الجانب ، ما استخلصته العقلية المسلمة من

(١) انظر :د. محمد عبد الله دراز . دستور الأخلاق فى القرآن الكريم . وهو أحسن الكتب التى ألفت حديثا فى هذا الباب . وفيه تفسير شامل للنظرية الأخلاقية كما جاء بها الإسلام .

علوم الأوائل وتجاربهم ، فى الاقتصاد . والتجارة والتربية ، والحرب والسلم – والإدارة – والــزراعة – .... الــخ وباختصار يمكن أن يقال : إن كل التنظيمات التى ترقى بها الأمـــة والــتى مـــن شـــأنها أن تقود الحياة إلى أهدافها بطريقة صحيحة . كان الإسلام مـــنطلقها ، وقد استثار العقل كى يكون له الأثر الواضح فى ذلك . ولا بأس فى هذا بعد أن تكون الأهداف قد تحددت .

إن هـــذا الذى قلناه يؤكد أن الإسلام – وبحكم عالميته –ليس دينا فحسب ، كما يتصور بعض الناس ، أعنى بذلك : أنه لا يعنى بالجانب الاعتقادى والعبادي فحسب ، بل إنـــه – كذلـــك – ديـــن الحـــياة ، يأخذ بكل ما يرقيها وينميها من نظم سابقة ، ويضع الضـــمانات الواضحة لعدم الانحراف إلى غير ما يريد . ودور العقل المسلم هنا واضح، ولعـــل فى هذا ما يجعلنا نؤكد أنه بهذا المنهج الصحيح ، يظل الإسلام قابضا على زمام الحـــياة وحركـــتها ، وبهـــذا يتأكد أن ختم الإسلام للرسالات الإلهية ، له من المبررات العقلـــية بجانب النصوص الدينية ما يجعل هذه القضية مقبولة فى نظر العقل . وتصبح دعاوى من يقول بخلاف ذلك غير مقبول ، لأنه لا مبرر لها .

علـــى أنا نقول لكل من يقول فى الإسلام بغير علم : من الناحية المنهجية تكون أحكـــامك غـــير صحيحة ، وعليك إذا أردت أن تكون منهجيا . أن تقرأ هذا الدين بمنهج المحايد ، ومتى فعلت ذلك ، فنحن مطمئنون إلى النتيجة التى ستصل إليها ، إنها ستكون لصالح الإسلام ، لأنه يحمل من الأدلة على صدقه ما لا يرده عقل عاقل .

لقـــد كـــان بوسعنا أن نتكلم كثيرا فى الجوانب ، وحسبنا هذا القدر ليكون مدخلا لمـــن يـــريد المـــزيد ، والقـــرآن الكـــريم والســـنة الصـــحيحة وتراثـــنا الزاخـــر ، فيه الكثير مما يجد فيه طالب الحـــق ضالته ، وأما من ليس كذلك فلن ينتفع بشـــئ مما

فى هذا كله ، لأن شأنه – فى حالته هذه – كمن أغلق بصره فى نور الشمس الواضح ، ثم قال : إن الشمس غير طالعة . لقد حق فى هؤلاء قول الشاعر :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة **** ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

إذا تقـررت القضية كلها على الوجه الذى ذكرنا، فإن المنكرين لختم الرسالات بالإســلام وخــتم النــبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يملكون شيئا من البراهين يقدمونـــه بيــن يدى إنكارهم ، أنها – حينئذ – دعاوى غير مبرهن عليها ، ومتى كانت كذلك ، كانت ساقطة ، من ثم نرى أن أدعياء النبوة قديما وحديثا يظلون هكذا – أدعياء – لا سند لهم من عقل ، ولا أثارة معهم من علم .

إن الإنســان فى ظل الإسلام لن يحتاج إلى دين جديد ، لأنه بلغ من الكمال والتمام مــالا ينــتظر معه العقل دينا آخر سواه . وهو فى نفس الوقت يحمل أتباعه المسؤولية الكبرى أمام قضية ختم النبوة ، ذلكم لأن هداية البشرية لن تكون إلا بمثل هذا المنهج – مــنهج الإســلام – وهــذا يحتم بالضرورة على أتباع هذا الدين أن يبلغوا به العالمين ، دعوة وتبشيراً به ، وسلوكا وتطبيقا له ، وأن يقيموا دولته فى نفوسهم حتى تقوم على أرضــهم ، فــتكون الــنموذج الذى يحتذي ، والمثل الذى يقتدى ، بعد أن أفلست النظم المعاصرة فى قيادة الحياة على أساس صحيح على الوجه الذى ألمحنا إليه من قبل .

حديث عن المتنبئين قديما وحديثا :

كــدت أمسك القلم عن الكتابة فى هذا الموضوع ، لأنى أومن بأن ما مع المدعين لــيس أكثر من دعاواهم ، وهذا يعنى أنهم ساقطون عن رتبة الخطاب ، إذ لو كان لديهم أدلة لناقشناهم فيها ، غير أن الحديث عن هؤلاء – ولو على سبيل الإيجاز – مما يعرى مواقفهــم ويكشــف عوراهــم حــتى لا يــنخدع بهــم أحــد ، وقضـــية

الانخــداع هــذه يعانى منها أصحاب الحق كثيرا ، ذلكم لأن حزب الشيطان قد يملك من الأســاليب والمؤثــرات ، ما به يلبس على الجماهير ، حتى ينقلب الباطل حقا ، والحق باطلا . والنفس البشرية تواقة إلى الجديد حتى ولو كان فيه حتفها ودمارها ، وهى إلى الانخــداع بالــباطل ، أكــثر ميلا من استبصار الحق ومعرفته والتمسك به . وإذا كان أنصــار الحق يقبضون على آلة البناء بكل قوة ، فإن أنصار الشيطان يملكون -كذلك - معاول الهدم . وهكذا تظل قضية الصراع بين الحزبين قائمة ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

المدعون قديما :

لقــد ادعى النبوة – فى عصر النبوة الحقيقية – مسيلمة الكذاب ، وهو من بنى حنــيفة وزعم أن الوحى ينزل عليه ، وقد قال فى ذلك أسجاعا ، تدل على خبل فى العقل وركاكــة فى اللغة ، ويظهر منها الكذب واضحا ، ادعى بها معارضة القرآن الكريم . لقد زعم أن الله سبحانه جعله ردءا لمحمد صلى الله عليه وسلم ونصيرا لدعوته ، وأنه قسم الأرض بيــنهما لــيحكم كل واحد منهما نصفها ، وقد عرض على النبى صلى الله عليه وســلم هذه الفكرة الساذجة ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض هذا العرض بكل قوة ، لأنه يعلم مدى كذبه وادعائه .

ولــنا أن نقول : إن الادعاء الكاذب أمر سهل وميسور لكل أحد ، والفارق الذى يمكــن أن يحــدد الصادق من الكاذب -فى قضيتنا – هو ما جاء به كل منهما ، فمحمد صــلى الله علــيه وســلم قــد نــزل علــيه القــرآن الكــريم ، وقــد احــتوى علــى كــل المطالــب الــتى يحــتاجها الإنســان ، فمــاذا قــدم الكاذب من منهج يفيد من يدعوهم إلى نبوته ، فى حياتهم سوى تلك الكلمات الهزيلة ؟

كمـــا ادعـــى النبوة كذلك فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم "الأسود العنسى" فى اليمن ولم يكن معه أيضا سوى ادعائه ، وكان الخلاص منه على يد زوجته التى ضاقت ذرعا بكذبـــه علـــى الله ورســـوله ، حين عاونت أناسا آخرين على قتله ، ولو كان على حق لكانـــت أولـــى الناس باتباعه . ولكن الحق لا يتعدد . وقد قال الله تعالى : **فمـاذا بعد الحق إلا الضلال** ...

ثم ادعاها كذبا – أيضا – " طليحة الأسدى " وزعم أن جبريل ينزل عليه بالوحى كمـــا يـــنزل على محمد ، وقد عاش بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وظل فى غيه حتى هداه الله فى عهد عمر رضى الله عنه فتاب .

ويجمـــع هـــؤلاء هـــدف واحد ، هو تحقيق مآربهم الخاصة ، ومنها : الزعامة والقـــيادة والمكانة الاجتماعية ،. ومنها كذلك ، الناحية المادية ، ولم نقرأ عن واحد من هـــؤلاء أنـــه كـــان يملك مشروعا نهضويا كما يفعل الزعماء الحقيقيون بين يدى دعوة الـــناس إلى الإيمان بهم وبوجودهم .، وهذا كله يؤكد أن دعاواهم عارية عن الصدق بل هى صريحة فى أنها كاذبة .

إن الـــروح العربـــية التى كانت تقدس مشاعر القبيلة وتقاليدها ، ومكانتها بين القبائل قد تكون من الأسباب الداعية إلى ذلك . وإذا كان من المعلوم أن اتصال السماء بالأرض لتبليغ رسالة من رسالات الله لا يخضع لمثل هذه العوامل الهابطة ، فكيف ساغ لهـــؤلاء أن يدعـــوا ذلـــك ؟ لقـــد كـــان الأولـــى لهـــم أن يفهموا طبيعة الرسالة . وما تهـــدف إلـــيه ، ولـــو أنهـــم فعلـــوا ذلـــك ، لما رأينا فى التاريخ حديثا عن مواقفهم ، الـــتى يمكـــن أن توصـــف بأنهـــا مواقـــف الـــبلهاء والمعتوهيـــن ، وهـــؤلاء وأولئك لا تسمع لهم كلمة . ولا يصدق لهم قول .

مدعو النبوة من الشيعة :

كانـــت الشيعة مرتعا من لكثير من الأفكار والعقائد الضالة ، وكان السبب فى ذلك راجعـــا إلـــى غلاتهـــم وعلى رأس هؤلاء الغلاة :" عبد الله بن سبأ" " وبيان ابن سمعان التميمى " لقد بدأ فكر هؤلاء بالقول بالوصية ، وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بـــن أبى طالب من بعده بالخلافة ، ثم تدرج منها إلى القول بمشاركته فى النبوة ، على أن تكـــون له بعـــد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى القول بأن النبوة كانت لعلى ولكنها أخطأته ونزلت على محمد ، وأخيرا إلى الزعم بأن عليا فيه جزء إلهى الخ . ولم يكن بدعا فى هذا الإطار الذى صورت فيه حياة على بن أبى طالب على غير حقيقتها أن تظهـــر حركات يدعى أصحابها أنهم أنبياء ، وأنهم فى ذلك أخلاف لإمامهم الأكبر – على بـــن أبى طالب – وهو من هذا الادعاء برئ ، أمثال : المختار الثقفى وعبد الله بن عمر بـــن حـــرب الكندى والمغيرة ابن سعد العجلى ، وابن الخطاب محمد بن زبيب الأسدى ، والحارث بن سعد الدمشقى ، والحسين بن حمدان الحصيبى وإسحق الأخرس .

ويظهـــر من تاريخ هؤلاء أنهم لم يكونوا مخلصين للإسلام ، فقد كان أكثرهم ينتسب إلى أصول مجوسية ، وقد ظلت بقية من عقائدهم القديمة مستورة وراء القشرة الظاهـــرة – إســـلامهم – كما كان للشعوبية دور واضح فى إذكاء عملية نقض الإسلام ، وتقويـــض أركانه لأنه – فى نظرهم – دين عربى ، بعروبة لغته ورسوله . وليس هناك أولـــى – فى اعتبارهم – من دعوى النبوة ، كما ادعاها الرسول العربى . ونسى هؤلاء أن الفـــارق واضح بين دعاواهم الكاذبة ، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوى الرسالة حيث أيد الله بالمعجزة الدالة على صدقه .

مدعو النبوة فى العصور الحديثة :

نقــول فى اطمئنان : إذا كان قد حرك مدعى النبوة قديما عوامل نفسية وتقاليد اجتماعــية ومواريث دينية قديمة تعادل الإسلام وتنهض لمقاومته والقضاء عليه ، فإن الأسباب وراء ادعاء المحدثين للنبوة قد درات حول سببين لا ثالث لهما :

أولهما : داخلــى ، يــتجلى فــيما تنطوى عليه نفوس هؤلاء الأدعياء من حب للشهرة وتطلع إلى الزعامة والقيادة .

وثانــيهما : خارجى ، وهو الاستعمار الغربى . لقد أراد أن يستعيد الغرب مجده الأدبى والسياســى بعــد أن انتزع منه الإسلام زمام المبادرة ، وأصبحت مواريث الإمبراطورية الرومانــية خاضــعة للحكم الإسلامى فى أكثر البلاد ، يضاف إلى ذلك تلك الوقفة القوية الحاســمة ، التى كشفت أمام التاريخ كيف استغلت المسيحية ، لتكون ذريعة ضد الإسلام يــوم أن رفعت الجيوش الغربية الصليب ، ليكون رمزا لها تدافع تحت لوائه ، فيما سمى بالحــروب الصليبية . وكانت المسيحية الحقيقية براء من كل التبريرات التى سيقت فى هــذا السبيل ، لأنها دين المسالمة والموادعة ، كما لم يكن العالم الإسلامى آنذاك بل فى كــل زمــان إلا واحــة وارفة الظلال لكل الأديان السماوية ، يتعامل معها بالمنهج الذى رســمه لذلــك ، فى إطار حرية الأديان ، مع تطبيق مبدأ " الولاء والبراء " الذى أكدته الآيــة الكريمة وهى قوله تعالى :**﴿ لا يــنهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فــى الدين ولم يخــرجوكم مــن ديــاركم أن تــبروهم وتقســطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، وإنمــا يــنهاكم الله عــن الذيــن قاتلوكم فــى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾** (الممتحنة :٨ ، ٩)

ولا نشك فى أن الاستعمار قد يكون وراء التماس ذريعة من التراث الاسلامى تجعل باب النـبوة مفـتوح أمـام من يدعيها ، فقد كان علماء الغرب ومفكروه من الممهدين له ، والداعيـن إليه ، وكان الكثيرون منهم على علم بتراثنا ومن بين العناصر التى يمكن أن تكون موضع استغلال من هؤلاء ، ما ذهب إليه ابن عربى من القول بنبوة الإلهام ونبوة التشـريع . وأن الأولـى لم يغلق بابها ، وأن الثانية قد ختمت بمحمد . فقد أثبت البحث العلمـى أن " غـلام أحمد القاديانى " أحد أدعياء النبوة حديثا قد قال بمثل ذلك . ويمكن الحديث عن أدعياء النبوة من المحدثين لدى ثلاثة ، هم :

١- **الباب والبابية** .

٢- **البهاء والبهائية** .

٣- **غلام أحمد القاديانى والقاديانية** .

أولا : **الباب والبابية** :

" الباب " لقب أطلقه على نفسه " ميرزا على محمد " الذى ولد فى القرن الماضى سـنة ١٢٣٥ هـ ببلاد فارس ، ثم انتقل منها إلى العراق ، بعد أن بلغ سن العشرين ، وفـى كـربلاء تلقـى علومـه علـى يد " كاظم الرشتى " الذى كان تلميذا للشيخ أحمد الإحسـائى ، زعـيم طائفـة " الشيخية " . وقد كان لتعاليم هذا الشيخ الأثر الواضح فى تكوينه النفسى والعقلى ودعواه النبوة .

كانـت للباب منذ شبابه الباكر رياضاته الروحية وقراءاته الكثيرة ، وكان ملهمه فـى ذلـك : الـتراث الشيعي ، وما فى عناصره من حديث عن الوجود وتفاعله ورتبه الإنسـان فـيه ، وذلك ما فيه عن الحديث عن " الملخص " أو " المهدى " المنتظر . إن هـذه الفكـرة تحـرك الـنفس - مـتى لـم تجـد لهـا عاصـما - إلـى التطلع لهذا الدور ، فإذا حاز بعض الأشخاص - مع ذلك - قدراً من الذكـاء وحسن التصرف

وقــوة التأثــير ، فــإن هــذا كلــه يحمله على القول بأنه ذلك " المنتظر " على أنه قد يــنظر إلى تلك المهمة بمعنى أوسع من كونه آتيا لتجديد دعوة قد خبا ضوؤها ، بل قد تفســر علــى أنهــا دعوة إلى دين جديد ، جاء لينسخ الدين السابق . وهذا ما كان من " الباب " .

لقــد كان فى بدء شأنه يدعو من آمن به على أنه " واسطة " إلى الحقيقة ، وكان اللقــب الــذى اخــتاره لنفســه " الــباب " مشيرا إلى هذا المعنى ، فقد جاء فى بعض أقوالــه " ادخلــوا البــيوت مــن أبوابها . وأنا مدينة العلم وعلى بابها " . وقد آمن به وبدعوتــه بعض ممن انخدع ببريق كلامه . فأرسلهم كدعاة له إلى بلاد فارس ، مسقط رأسه ، وطلب إليهم ألا يذكروا اسمه .

لقد تصور " الباب " أنه قد حل فيه جزء روحانى كما حل في "علي" من قبل ونحــن لا ننكر ذلك لجميع البشر ، ولكن الشيعة عموما ، والغلاة منهم على وجه أخص لهــم تفســير معروف لهذه المسألة ، إن هذا التفسير يصعد بهم إلى مقام يتجاوز مقام النبوة أحيانا .

لقــد تكونــت عقــيدته فى نفسه وفى دعوته على وجه جعله يشعر أنه فى موقف مع الحق ، ينبغى الدفاع عنه ، فناظر كثيرا من العلماء الذين أنكروا عليه دعوته كمــا اعــتورت حــياته مراحل كانت السلطة ترى فيه خطرا على الدين الصحيح ، فكان السجن مقره ، ولكنه لم يلبث أن يخرج منه ، حتى يعود إلى دعوته مرة ثانية .

ومــن أظهر ادعاءاته أنه كان يقول : إن كتابه " البيان " ورسائله الأخرى ، لم تكــن مــن عمــل عقلــه بــل مــن وحــى السماء ، وأن علمه لم يكن علما تقليديا ، بل كان إلهاما روحيا من الله تعالى . ومن الغريب حقا أن يزعم أن كتابه هذا، أفضل من

القرآن الكريم ، ومن مزاعمه - كذلك - أنه أى ذاته ورسالته ، فى مقام " النقطة " وأن محمد صلى الله عليه وسلم فى مقام "الألف " يعنى بذلك أنه نهاية ما تنتظره البشرية من توجيه ، بحيث لا تنتظر بعده أحدا ، كما يقف القارئ عند النقطة التى تعبر عن تمام الكلام . وأما محمد فلم يكن - فى زعمه- إلا بداية للطريق . بذلك كله كان العلماء الأثبات ما بين قائل بكفره وقائل بنقص فى عقله واضطراب فى نفسه .

ما يحويه " البيان " من ضلالات :

أ- فى الجانب الاعتقادى : تعرض لكثير من القضايا الاعتقادية فى التراث الشيعى وغيره مثل : الرجعة - القيامة - الحياة- الموت - الجنة - النار - وكان فيها مرددا لآراء من سبقه من الشيعة ، وبخاصة غلاتهم من أصحاب الفكر الباطنى .

ب- فى الجانب التشريعى : تجلى فى هذا الجانب الكذب الصريح فى شريعة " الباب " حيث جاء ينقض كثيرا من شعائر الإسلام المعروفة ،.من ذلك : دعوته إلى أن تكون الصلاة وقتا واحدا فى الصباح ، وتغيير مطالع الشهور بحيث لا يعرف شهر الصوم وأشهر الحج والأشهر الحرم . لقد جعل الصوم شهرا من آخر نزول الشمس برج الحوت حتى يتوافق مع عيد " النيروز " كما غير نظام الزكاة ، حيث أوجب أداءها له أولا ، ولشيعته . وأما عن الحج فقد جعل بيته هو الكعبة التى يحج إليها أتباعه.

وأما عن النظم الدينية الاجتماعية ، فقد غير نظام الزواج ، حيث جعله برضا الطرفين دون ولى ، وقصره على اثنتين ، وجعل الطلاق تسعة عشر مرة ، كما غير نظام المراجعة ، بحيث لا تصح إلا فى العام الأول للطلاق ، كما حرم الزوجة مطلقا

بعد استنفاد عدد الطلقات . وأما الغنائم فقد قرر فيها أنها من حقه كاملة ، إن أخذت من الـبلاد المفـتوحة عن طريق المظالم ، ولو جاءت عن غير هذا الطريق ، فتكون لتعمير المشاهد المقدسة وما بقى منها يوزع على الجند .

ومـن التشريعات التى جاءت بها البابية فى هذا الجانب ، أنه لا يجوز لمن آمن بها أن يتصرف فى أمواله إلا بعد أن يزكيها " الباب " أو أحد أمنائه ،وأن من يسمع بالباب ولم يؤمن به فأمواله حلال له ولأمنائه . كما زعم أنه لا يسأل عن أمواله .، وأن على كل بابى أن يكتب وصيته وجوبا ، بشرط أن يصدق عليها .

وفـى الجانـب الأخلاقـى له بعض التصرفات التى تخرج عن إطار الأخلاق الإسـلامية فـى بعض الأحيان ، مثال ذلك : أنه أحل الدية محل الحد عند ارتكاب حدى القذف والزنا ، كما أحل التمتع بالحرير والذهب للرجال والنساء على السواء . كما جعل المطهـرات خمسـا ، ومنها " البيان " وحكم بطهارة كل الأشياء ، حتى النجاسات كما حرم على أتباعه التعليم إلا الاشتغال بكتبه [1]

نظرة واقعية إلى الباب والبابية :

إذا نظـرنا إلـى ما دعا إليه الباب فى الجانبين الاعتقادى والتشريعى فماذا نـرى ؟ نـرى من الجانب الفكرى اضطرابا وتناقضا ، ومن الجانب العملى سعيا وراء فكـرة واحـدة هى :ذاته ، بدءا من ادعاء البابية – كمدخل إلى الحق ثم إلى المهدية ثم إلى النبوة – وقد أكد الجانب التشريعى فى كتابه " البيان " دعوته للنبوة كذبا . وإذا كنا من الناحية المنهجية نؤكد على أن الإسلام ، قد أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وأن الواقـع يشـهد بذلـك ، فمـاذا يمكـن أن نقـول عـن أى مـنهج يـأتى بخلاف ما شرع الله ؟ إنه الضلال المبين ؟ لأن القرآن الكريم حين تعرض لقضية الحسم

---

(1) انظر : مهدى خان . مفتاح الأبواب ص٢٥١ وما بعدها .

بين الحق والباطل والهدى والضلال ، لم يعط لنا طرفا ثالثا يمكن أن يكون بين الحدين . مـن ثم نفهم أنه ليس بعد الحق الذى جاء به الإسلام إلا الضلال ، وليس بعد هدى الله مـن هدى ، فإن رضى بهذا الحكم هؤلاء الأدعياء فقد ناقضوا أنفسهم ، وإن أعرضوا ، فقـد ثبت خروجهم عن الإسلام ، لأنهم نصبوا من أنفسم – وبغير مبرر صحيح من عقل أو دين – أوصياء على العقل الإنسانى .

ثـم إن الـباب لـم يكن لديه من الأدلة والقرائن ما يؤيد مدعاه وكم طلب منه مـناظروه ذلـك فصمت ، ولم يحر جوابا . وكم ضاقت به " السلطة " ذرعا فكان يتنازل عـن أرائـه حيـن يـرى أن سيفها سيناله ، فهل يمكن أن يكون – والحالة هذه – من أصـحاب الدعـوات الصادقة ، التى تحمل أصحابها على التضحية فى سبيلها ؟ كلا ولا يعترض على ذك بكونه خرج من الدنيا على يد " السلطة " فقد كان يعلم أن هذه نهايته ، ولمـاذا لا يكـون هذا الموقف نوعا من إضفاء الصدق على ما يدعى ، حتى ينال لدى المؤمنين به المكانة التى يرجوها بعد موته ، كما نالها منهم فى حياته .؟

ثانيا : البهاء والبهائية:

كـان ميرزا " حسين على " الملقب بالبهاء أحد أتباع " الباب " ولو أنه كان يعلم أن صـاحبه علـى " الحـق " لمـا ادعـى أنه موحى إليه من جديد ولما زعم أن معه شـريعة نسـخ بهـا شـريعته . إنهـا الادعـاءات الكاذبة ، والزعامات المتطلعة إلى القـيادة دون أن يكـون معهـا رصـيد يـبرر مدعاهـا . ولـو أن ذلك كان فى دائرة السياسـة أو الاجـتماع أو الاقتصـاد أو الفلسـفة لمـا كـان لتلك الدعاوى وجه من الاسـتغراب .، لأنهـا لا تحتاج إلى تبرير إلهى ، بخلاف النبوة ، فإن الأمر الحاسم فى الكشـف عـن الصـادق والكـاذب مـنها هـو وجود ذلك التبرير المشار إليه ، إنه : المعجزات التى يظهرها الله على أيدي الصادقين فى دعوى النبوة .

ولد "البهاء " فى بلاد فارس سنة ١٢٣٣ هـ . نشأ محبا للتصوف ، ثم مالبث أن انضم إلى دعوة "الباب " وصار أحد دعاتها . وبعد هلاكه ، ادعى "النبوة " وألف كتابه " الإيقان " الذى قرر فيه أن الوحى الإلهى لا يزال مفتوحا ، وأن النبوة بعد محمد لم يوصد بابها ، كما زعم أن الذين يقولون بختم النبوات بمحمد بن عبد الله ، يشاركون اليهود فى كونهم ينكرون النبوة بعد موسى عليه السلام . وله فى قول اليهود " **يد الله مغلولة** " والرد عليهم بقوله " **غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان** ... " تفسير خاص ، إذ يفسر بسط " اليد " هنا بمعنى : إمتداد الوحى وعدم انقطاعه . ضاربا صفحا بما أجمع عليه الجمهور المسفرين ، حين فسروا الآية على وجهها الصحيح . وعنده أن النبوة واحدة من حيث الحقيقة ، وإن أخذت مظاهر متعددة . ولا عبرة بالأشخاص وذواتهم ، إلا من حيث إنهم حاملون لها . ومبلغون عن الله رسالته . وهذه الفكرة تعد مدخلا واضحا لهدم ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم .

أما الجانب التشريعى فقد جاء فى كتابه " الأقدس " وفيه نلاحظ تغير كثير من الشعائر التى جاء بها الإسلام ، على غرار ما فعل " الباب " قبله ، مع خلاف بينهما فى نظرتهم لتلك الشعائر ، سواء ما يتصل بالصلاة أم بالصيام والزكاة والحج . وكذلك نظام الميراث والعقوبات ... الخ .

وباختصار يمكن أن نقول : لقد كانت " البهائية " امتداد للبابية مع تعديل فى بعض الشعائر . وقد كان كتاب "الإيقان " تبريرا لفتح باب النبوات ، كما كان كتاب " الأقدس " تفسيرا للشريعة الجديدة التى ادعى البهاء مجىء الوحى الإلهى بها . وهو فى هذا وذاك يفسر النصوص الدينية الصحيحة على غير وجهها الصحيح ، حتى توافق هواه ومزاعمه ، وليس معه من الأدلة العقلية ما ينهض ليكون حجة لهُ ، بل يمكن أن يقال إن كل ما ساقه من أفكار وأراء ، هى إلى الهذيان أقرب منه

إلـــى القـــول المعقـــول ، أما أنصاره اليوم فلا يزالون يسيحون فى بلاد كثيرة فى العالم الإســـلامى والغـــربى . وقـــد تلقى أعداء الإسلام مثل هذه النحل الباطلة بالقبول ، لأنها تـــؤدى عنهم المهمة التى يتعلقون بها ، وهى تشويه الإسلام وتخريبه ، ومما يؤسف له أن معارف الغرب عن الإسلام ، قد تكون عن طريق مثل هذه الفرقة الخارجة ، ولعل فى هـــذا ما ينبه أبناء الإسلام ، حتى يقاوموا تلك الضلالات ، ليظل هذا الدين على صفائه ونقائه .

ثالثا : القاديانى والقاديانية :

غلام أحمد القاديانى ، وهو زعيم هذه الطائفة ، ولد فى اقليم البنجاب بالهند سنة ١٢٥٣هـــ نـــال قسطا من التعليم ، وكان يميل إلى قراءة الكتب الدينية ، ثم عمل مع المـــندوب الســـامى الـــبريطانى فى " سيالكوت " ثم ما لبث أن استقال من هذه الوظيفة عندما شعر بدنو أجل والده ، وقبل موته بقليل ادعى أنه أوحى إليه أن أباه سيموت بعد الغروب فكان هذا القول بداية ادعائه النبوة .

زعـــم فـــي أول أمره أنه " المسيح " المنتظر وأنه يوحى إليه . وقد عمل على نشر دعوته خارج مسقط رأسه ، فى حماية السلطة الإنجليزية .

لقد وصل به الحال إلى درجة أن اتباعه يزعمون أنه أفضل من أولى العزم من الرســـل ، إلى غير ذلك من الضلالات ، ومظهر ذلك أنه ادعى أنه أوحى إليه ليصلح ما فـــى الدينين : المسيحية والإسلام ، من أخطاء ، إما لأنهما كانا فى الأصل كذلك . وإما لســـوء فهـــم أتباعهما لهما ، غير أن أتباعه يزعمون أنه لم يدع أنه أتى بشرع جديد . ولكـــن كـــيف يفهـــم هـــذا مـــع الإقـــرار بأنـــه جـــاء ليصـــلح ما اعوج فى المسيحية والإســـــلام ؟ إن الإصـــــلاح لا يكـــــون إلا بشـــــئ جديـــــد ،وهـــــذه إحـــدى التناقضات التى تحملها هذه النحلة وما أكثرها ، ولو ذهبنا إلى نهاية الشوط مع

تلـــك الفـــرقة لطـــال بـــنا الحديث ، وإنما نقول باختصار : لقد كانت القاديانية صنيعة الاســـتعمار ، والـــيد الـــتى تحركت لتشويه الإسلام ، بدعوى الإصلاح والتجديد ، ومن المعلـــوم أن للإسلام ثوابته وأركانه ، وأن التجديد أو الإصلاح فى دائرته إنما يكون فى تجديـــد روح المسلمين ، كى تتلاءم مع مبادئه وثوابته ، ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الذى يقرر فيه الرسول صلى الله عليه السلام أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها ومن المؤكد أن القاديانية لم تكن كذلك .

وبعـــد : فهـــل أغنت هذه النحل الثلاث شيئا فى مجال الفكر الإسلامى أكثر من التشـــويه ومحاولـــة طمـــس معـــالم هذا الدين ؟ وهل كان معها من المبررات ما يجعل ظهورهـــا أمـــرا طبيعـــيا ؟ أعتقد أن الإجابة هى : النفى المطلق ، لأنها تجاوزت الحق وليس بعد الحق ، إلا الضلال .

إن عقيدة " ختم النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم " مما أجمع عليه المسلمون الذيـــن يعتد بإجماعهم . أما أولئك الذين مر ذكرهم من القدماء والمحدثين فلم يكن معهم إلا دعـــاواهم ، ولا عـــبرة كذلك بما ذهب إليه " اليزيدية " من الخوارج الذين زعموا أن الله عز وجل سيبعث آخر الزمان نبيا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء ، ويكون دينه كدين الصابئة ، ينسخ به شرع القرآن .[1] .

ولا عـــبرة كذلك بإنكار اليهود لكل رسالة بعد نبيهم موسى ، لأن هذه الدعاوى لـــيس معهـــا أى دلـــيل علـــى صـــدقها ، فـــى الوقـــت الـــذى رأيـــنا فـــيه ثـــبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأكثر من دليل ، وكذا ختمه للنبوات على الوجه الذى بيناه .

---

(١) البغدادى : أصول الدين . ص١٦٢ .

إن عالمــية الإسلام ، وشموله لكل مطالب الإنسان ، ووسطيته ، ووثاقة مصدره وكونه الدين الذى أتم الله به النعمة ، وأكمل به الأديان ، ورضيه لنا دينا ، كل هذا يؤكد ختمه للأديان . بحيث لا ينتظر – عقلا – بعده من دين ولا بعد رسوله من رسول.

والله أعلم

الباب الثالث

الغيب

ويشتمل على :

تمهيد : فى مفهوم الغيب

الفصل الأول : الملائكة والإيمان بهم

الفصل الثانى : الجن والإيمان بهم

الفصل الثالث : المعاد (اليوم الآخر)

الفصل الرابع : القضاء والقدر

تعـد النـبوة طريقا أصيلا فى معرفة الغيبيات وعالمها ، وبين مدى الدور الذى تلعبه فى توثيق الصلة بين الله تعالى وخلقه .

ولقـد درج علمـاء العقـيدة عـند دراسـتهم لأركـان الإيمـان علـى دراسـة الموضوعات التالية :

١ - **الإلهـيات** : وفـيها تـدرس ما يجب إثباته لله تعالى وما يجب نفيه عنه من صفات وأسماء وأفعال ، وما يتعلق بذلك من مسائل وأبحاث .

٢ - **النـبوات** : ويـدرس فيها كل ما يختص بالرسل والأنبياء وما أنزل إليهم من كتب وما حرف منها وما حفظ .

٣ - **السـمعيات** : [1] وفـيها تدرس مسائل المعاد أو اليوم الآخر والملائكة ، والقدر . وجرت عادة المتكلمين فى بحث القدر فى قسم الإلهيات أثناء الحديث عن صفة العلم والقـدرة ، ومـن هنا فهو لا يعتبر من السمعيات ؛ نظرا لأن إثبات وجود الله تعالى وصـفاته يعـتمد علـى دلـيل العقـل ، وإذا كـان القـدر يـرجع فـى النهاية إلى صفتين من صفات الله تعالى فهـو أيضا إنما يدرج تحت الإلهيات

[1] يقصد "بالسمعيات " عند علماء الكلام – الأمور أو المباحث التى يتوقف عليها السمع وهى مباحث النبوة وما إليها من مباحث المعجزات وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم إلخ وكذلك المباحث التى تتوقف هى على السمع مثل مباحث المعاد ، فإن إثباتها كما هو معلوم – متوقف على السمع ، بخلاف مباحث النبوة ، فإن الدليل فى إثباتها دليل عقلى ، وهو : دلالة المعجزة على صدق دعوى النبى ، وإذن فعنوان السمعيات يطلق على مبحثين أصليين هما : النبوة والمعاد ، ويأتى الحديث عن " الملائكة " و"الجن" والعوالم الخفية الأخرى عرضا فى مباحث النبوة ، مثل الكلام عن الملائكة أثناء الحديث عن أفضلية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومن الحديث عن الملائكة يتفرع الحديث عن الجن باعتبار اختلاف مادة الخلق بين هذين العالمين الغيبيين .

ولـيس السـمعيات ، أعـنى المباحـث الـتى تثبت بدليل السمع وليس بدليل العقل ، ولابـد مـن الإشارة هنا إلى أن التفرقة بين الدليلين مراعى فيها مصدر كل منهما ، لا طبيعة الدليل .

ويحسـن بـنا قـبل الدخـول فـى موضـوعات الغيب أن نتعرف على مفهوم الغيـب فى الدين الإسلامى وهل يختلف عن الإيمان بالغيب فى الأديان الأخرى أو يتفق معها .

الغيبيات فى الإسلام :

يعد الإيمان بالغيب من أخص خصائص العقيدة الدينية الصحيحة ، وهى تتميز بـه عـن غـيرها مـن المذاهـب الفكرية المادية ، التى تنكر الغيب ، ولا تؤمن إلا بالحس والـتجربة . والإيمان بصفة عامة فى الإسلام يقوم على الإيمان بأصول غيبية لا ينالها الحس المباشر ، ولا يصل إليها العقل إذا ترك وشأنه دون هداية من الوحى الإلهى ومع ذلك فإن الإيمان بالأمور الغيبية لا يناقض العقل ، لأنه لا يستطيع ردها ولا تفنيدها ، بل يقـبلها ويصـدقها ، ويثبتها القلب ويوقن بها . ذلك أن المعارف فى عالم الشهادة إنما تنال بواحدة من طرق ثلاثة : العقل أو الحس أو الخبر الصادق .فإذا غاب الحس والخبر الصادق لم يكن أمام العقل إلا بدهياته وقواعده النظرية ، يحارب الوصول بها إلى معرفة مـا ، وهـذا أمر لا حرج فيه فى عالم الشهادة ؛ لأن المعرفة فيه قد تنبنى على اليقين الـذى يصـل إلـيه العقـل اعـتمادا على الحواس ، أو على البداهة،أو على الاستنتاج والاستنباط المرتبطين بالبداهة فى آخر الأمر .

ولكـى نوضـح مـا سـبق مـن إجمـال عن العلاقة بين عالمى الغيب والشهادة نقـول :إن عـالم الشـهادة الـذى هـو مجلـى المـدارك البشـرية ، إنما يحمل فى

عناصـــره أدلـــة عـــالم الغيب – على سبيل الجملة لا على سبيل التفصيل – فالكون كله بجمـــيع عناصـــره ، والعلاقـــات المـــتوازنة بين تلك العناصر من جهة ، وبين كواكبه وأفلاكـــه، وأرضه وسماواته ، من جهة أخرى ، كل ذلك أدلة واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا – وإن كان غيبا بالنسبة لبعض مداركنا . فهو مشاهد لا بذاتـــه ، ولكـــن بآثـــاره التى تدل عليه ، والقرآن الكريم بمنهجه الفذ الفريد ، قد أحدث تـــرابطا وثـــيقا بين عالمى الغيب والشهادة ، وذلك حين جعل هذا العالم مجلى ومسرحا تتراءى فيه أمام الناظريين الآيات الباهرات التى تدل على عظمة الله سبحانه وتعالى .

غـــير أن تفصيلات عالم الغيب – من حيث طبيعة هذا العالم – يتوقف العلم بها والإيمـــان بحصولها على الخبر الصادق . وحسب الدارس أن يعلم مثلا – أن الجنة دار المتقيـــن ، وأن النار دار الظالمين الكافرين . لأن الجزاء مرتب على العمل ، فى عرف العقل والشرع معا ، غير أن تفصيلات ما سيجده فى الآخرة أمر يتوقف على ما يجئ به السمع .

والإشـــارات الـــتى جاءت بها بعض النصوص الشرعية إلى بعض الأحداث التى ســـوف تكون فى الآخرة ، كصور نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار فى مثل قوله تعالى فـــى حـــق الأولين : ﴿ **مـــثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهـــار مـــن لـــبن لم يـــتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصـــفى ولهـــم فـــيها مـــن كـــل الـــثمرات ومغفـــرة مـــن ربهـــم ......** ﴾ (سورة محمد : آيه ١٥) .

وقولـــــه تعـــالى فـــى حـــق الآخريـــن :﴿ **وللذيـــن كفـــروا بـــربهم عـــذاب جهـــنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من**

الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير﴾(الملك:٦-٩)
وقولـــه :﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناها جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب....**﴾
أقـــول : هذه الإشارات إنما كانت من قبيل تقريب البعيد المغيب إلى الذهن ، وذلك بعقد صـــلة بيـــن صورة هذا المغيب وبين مماثله فى الواقع . إذن القدر المشترك بين حقائق الدنـــيا (عالم الشهادة) وبين حقائق الآخرة (عالم الغيب) إنما هو فى الأسماء فقط . كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : " ليس فى الآخرة من الدنيا إلا الأسماء " أما عالم الغيب فالأمر فيه يختلف من حيث إن الحواس لا دخل لها فى معرفته ، وكذلك لا يخضع عالم الغيب لما يخضع له عالم الشهادة من دلالة البديهات دلالة يقينية ، ومن هنا امتنع علـــى العقـــل اســـتثبات هـــذا العالم بغير معونة الخبر الصادق إذ المطلوب فيه المعرفة اليقينية . إذن فعالم الغيب لا يخضع للحس ولا يدركه الخيال العلمى أو الفلسفى للعقل ، ولكـــن القلـــب هـــو الذى يثبت عنده الغيب ويوقن ويؤمن به ، أما العقل فلا ينكره ولا يجحده ، بل يصدق به ، ويقصد القلب فى إيقانه به .

والأديـــان الكتابـــية والوضعية جميعها تؤمن بالغيبيات ، ولكن نؤكد على خصوصـــية الدين الإسلامى فى موضوع الإيمان بالغيب ، وذلك لأن الغيبيات فى الإسلام تختلف عن الغيبيات فى غيره من الأديان : فالإيمان بها عنده لا يناقض العقل والمنطق ولا يرهق القلب والنفس كما هو الحال عند الأديان الأخرى[1] .

---

[1] انظر د/ محمد السيد الجليند – منهج السلف بين العقل والتقليد - دار قباء – القاهرة ١٩٩٩م ص٥٩، وأيضا د/ محمود محمد مزروعة دراسات فى الدين - دار الطباعة المحمدية – القاهرة – ط ١ ١٩٨٩م ص ١٢١ .

والغيبيات فى الإسلام تنقسم نوعين : غيب مطلق وغيب نسبى . فالمطلق لا ينكشف لأحد على الإطلاق ، ولا سبيل للعقل ولا للحس العلم به ، وقد قيده بعض العلماء بالذات الإلهية فقط ، فلا يطلع عليها نبى ولا ملك ولا إنس ولا جن . وبعضهم جعلها للذات الإلهية . من ناحية ولعلم الله تعالى المستأثر به فى عالم الغيب من ناحية أخرى . فالذات لا يعلمها ولا يعرفها إلا هو تعالى ، والعلم الإلهى قد يظهره الله تعالى إذا شاء لبعض خلقه كما فى قوله تعالى : **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾** (الأنعام : ٥٩) **﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾** (النمل : ٦٥) **﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾** (البقرة : ٢٥٥) **﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾** (النساء : ١١٣) .

فالعلم الإلهى غيب مطلق لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله تعالى شيئا منه ، أى من لدنه **﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾** (البقرة : ٢٨٢) ،أما ذات الله تعالى فما يذكره القرآن الكريم والسنة المطهرة عنها إنما هى غيب لا ينكشف لأحد ولم يعلمه الله تعالى لأحد على الإطلاق ، وقد قيل فى قوله تعالى **﴿ آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقيين الذين يؤمنون بالغيب ﴾** (البقرة : ١-٢) قال ابن تيمية وجماعة من الحنابلة المقصود بالغيب هنا هو الله . [1]

وأما الغيب النسبى : فهو ما خفى علينا ولم يخف على غيرنا أو ما خفى علينا فى وقت ولم يخف فى وقت آخر . وهذا النوع من الغيب لأركان العقيدة الخمسة دون الله تعالى . فالإيمان بالملائكة غيب نسبى ؛ لأن بعض الملائكة رآهم بعض البشر ، مثل سيدنا جبريل عليه السلام ، مع كثير فى الأنبياء ، وكذلك مع

[1] انظر دقائق التفسير – تحقيق د/ محمد السيد الجليند – جـ ١- ص ٢٠٢ .

الســـيدة مريم أم السيد المسيح ، وسارة زوجة سيدنا إبراهيم ، وسيدنا إبراهيم وسيدنا لوط ، وهكذا .

وكذلـــك الكتب غيب نسبى لأننا نؤمن بالكتب المقدسة السابقة ولكننا لم نرها فهى بالنسبة لنا غيب ولغيرنا من الأقوام الذين نزلت فيهم ليست غيبا .

وأمـــا الرســـل فهم – أيضا – غيب نسبى ، لأننا لم نرهم ، وأما أقوامهم الذين جاءوا فيهم فقد رأوهم وعاشوا معهم وعاشروهم ، وكل نبى ورسول بالنسبة لغير قومه يعد غيبا .

ويوم القيامة غيب نسبى بمعنى أن " أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تحدثت عن وقائع سوف تقع يوم القيامة وعن أحداث سوف تكون ، وهى لم تقع بعد ، لكن الله تعالى علم أنها ستقع ، فنقلها على هيئتها التى سوف تقع عليها ، إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فنقلها صلى الله عليه وسلم لنا فأصبحت معلومة لنا " [١]

والقـــدر غيـــب نســـبى – أيضـــا – وذلك لأن الله تعالى أخبرنا عن أقدار العشرة المبشـــرين بالجـــنة ، وأخبرنا كذلك عن قدر أبى لهب فعلمناها علما يقينيا ، أما أقدارنا وأقـــدار الآخريـــن فلا نعلم عنها شيئا ، إذن الله تعالى أخرج لنا بعض هذا الغيب لنعلمه وأخفـــى علينا أمورا أخرى فى القدر.[٢]وسنتحدث الآن عن عوالم الغيب النسبى ، وذلك على النحو الآتى :

---

[١] د/ محمود مزروعة - المرجع السابق – ص ١٢٤ .

[٢] انظر د/ محمود مزروعة - المرجع السابق – ص ١٢٢ – ١٢٤ ، وأيضا د/ محمد السيد الجليند منهج السلف بين العقل والتقليد – ص ٦٠- ٦٣ .

الفصل الأول

الإيـمـان بالمـلائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثانى من أركان الإيمان ، ولا يقبل إيمان المرء إلا إذا آمــن وأيقــن بوجودهــم على الإجمال ، وبمن ذكرت أسماؤهم على التفصيل مثل : جــبريل ، ميكائــيل ، إسرافيل ، عزرائيل ، رضوان خازن الجنة ، ومالك خازن النار ، ومنكر، ونكير ، وهكذا .

كمــا يجــب الإيمان بصفاتهم وخصائصهم وطبائعهم ووظائفهم ، حسبما وردت به نصــوص القــرآن الكريم والسنة النبوية . وهذا الإيمان قائم على النقل - أولا - وأما العقــل فــلا دليل لديه على هذا النوع من الموجودات . وأيضا لا دليل عنده على نفيه ، ولأن هــذا الموجود لا يدركه بملكاته ، فإذا آمن العقل بالرسول وصدق به ، وأخبره هذا الرســول عن هذا النوع من الكائنات العلوية الخفية ، فإنه لا يملك إلا التصديق والإيمان بما أخبر به الرسول .

وقــد نص القرآن على الإيمان بالملائكة وجعلهم فى الرتبة الثانية بعد الإيمان بالله تعــالى ، وكذلك فعلت السنة المطهرة ، قال تعالى :﴿ **آمـن الرسول بما أنزل إليه من ربـه والمؤمـنون كـل أمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) وقال تعالى ﴿ **يـا أيها الذين آمـنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكـتاب الـذى أنـزل مـن قـبل ومـن يكفـر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخــر فقــد ضــل ضــلالا بعــيدا** ﴾ (النســـاء : ١٣٦) . وفـــى الحديث الشريف يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جوابا عن سؤال جبريل -عليه

الســـلام – عـــن معـــنى الإيمان: " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١)

إذن فوجـــود الملائكـــة ثابـــت بالنصـــوص القطعـــية ، وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة . وبذلك يصبح منكرهم كافرا ضالا كما بينته الآية الكريمة السابقة .

من هم الملائكة وما هى طبيعتهم ؟

يسمى عالم الملائكة بالملأ الأعلى ، أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم عن ربه عـــز وجل قال " يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه " (٢)

وقد استأثر الله تعالى فى علمه بحقيقة الملائكة وكيفية خلقه إياهم ، كما إستأثر تعـــالى بعلـــم الكثـــير من أحوالهم ، وهذه خاصية من خصائص العقائد الإسلامية التى تناولت الحقائق الكونية ، والتعريف به ، فى حدود ما يحتاج إليه البشر ويصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد وما تطيقه عقولهم "(٣) .

وعالم الملائكة عالم معروف من قبل فى الملل والنحل السابقة على الإسلام ، وفـــى الاعتقادات التى سادت فى بيئات وجماعات مختلفة مثل العقيدة الوثنية والبرهمية والـــبوذية والصـــابئة وبعـــض قـــبائل العـــرب الوثنـــية ، إلا أن هذه الاعتقادات دخلها شـــئ غـــير قلـــيل مـــن الخطـــأ والانحـــراف والتشـــويه ، ومـــن أصـــحاب هذه العقائـــد من نظر إلى المـــلائكة على أنهم آلهة فعبدوها ، ومنهم من جعلهم إناثا

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .
(٢) صحيح البخارى – كتاب التوحيد – باب ١٥ – ص ١٧١ – جـ ٧ .
(٣) د/ محمد نعيم ياسين - الإيمان - دار الفرقان – الأردن ١٩٩٧ م – ص ٣٠ .

ونســبهم إلــى الله تعالى . ومنهم من زعم أن بعضا من الجن تزوج ببعض من الملائكة الذين هم بنات الله . والإسلام هو العقيدة الوحيدة التى تمدنا بالقول الفصل الذى ينقض كل تلك التصورات المنحرفة ، وذلك فى بيانه أن الملائكة خلق من مخلوقات الله تعالى ، وأنهــم عــباد الله تعالى خاضعون له سبحانه كما تخضع له كل المخلوقات قال تعالى : **﴿ولا يأمـركم أن تـتخذوا الملائكـة والنبـيين أربابـا أيأمـركم بالكفـر بعـد إذ أنتم مسـلمون﴾** (آل عمــران : ٨٠) **﴿ فاسـتفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقـنا الملائكـة إناثـا وهـم شـاهدون ألا أنهـم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكـاذبون أصطفى البـنات علـى البـنين مـا لكـم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ﴾** (الصافات : ١٤٩ – ١٥٤) **﴿وجعلـوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾** (الزخرف : ١٩)

طبيعة الملائكة وصفاتهم :

لــم يــتحدث القرآن الكريم عن طبيعة المادة التى خلقت منها الملائكة ولا عن كيفــية خلقهــم ، وأمــا السنه فقد أبانت أنهم كائنات مخلوقة من نور . فهم موجودات نورانــية لا تخالطهم المادة ، ولذلك فالحس والعقل لا يستطيعان أن يصلا عن أى طريق من طرق إدراكاتهما إلى معرفة ذلك العالم . روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ." خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم " [1]

وتدلنا النصوص الصريحة على أن الملائكة موجودات قبل خلق الإنس قال تعالى **﴿وإذا قـال ربـك لـلملائكة إنـى جـاعل فـى الأرض خلـيفة قـالوا أتجعـل فـيها مـن يفسـد فـيها ويسـفك الدمـاء ونحـن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم**

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الزهد – باب ١٠ رقم الحديث ٢٩٩٦ – جـ ٣ .

مالا تعلمون ﴾ (البقرة : ٣٠) ﴿**وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ (ص :٧١ – ٧٢) ففى الآيتين ذكر لإخبار الله تعالى للملائكة وإعلامهم بأنه سيخلف إنسانا وسيكون مكرما بالنفخة الإلهية وسيجعله خليفة له فى الأرض ، ليعمرها ، هو وولده من بعده . وهذا الحوار دليل قاطع على أسبقية وجود الملائكة على وجود الإنسان .

من طبيعتهم المخالفة للجن والإنس ، أى أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، ولا يتصفون بالذكورة ولا بالأنوثة ، ولا بصغر ولا كبر إلا فى تفاوت أقدارهم .

وما نعلمه من طبيعتهم أنهم خلقوا للطاعة فقط . ولم يخلق فيهم الشر على الإطلاق ولا يعصون الله ما أمرهم ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (التحريم : ٦) ﴿ **ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (النحل :٤٩ – ٥٠) .

إذن فهم لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم وليس لهم إرادة ومشيئة حرة كإرادة ومشيئة الإنس والجن ، لذلك فأفعالهم مخلوقة لله تعالى وليس لهم فيها كسب ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ (الأنبياء : ٢٦ – ٢٧) فالملائكة كما يقول ابن تيميه لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ، ووصفهم فى القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر[1] .

---

[1] مجموع فتاوى شيخ الإسلام - مفصل الاعتقاد – جـ ٤ ص ١٢١ .

ومـــن صفاتهم الخلقية أن لهم أجنحة لا نعلم كيفيتها ، لأنها من الأمور الغيبية ، نؤمن بهـــا خضـــوعا وانقيادا وتسليما لما جاء به الصادق الأمين ، قال تعالى ﴿ **الحمـد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير** ﴾ (فاطر :١) فالملائكة متفاوتون فى عـــدد أجنحتهم فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك لا يعلمهم إلا الله تعالى ، وقد روى ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صـــلى الله علـــيه وســـلم رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية له ستمائة جـــناح (١) وهناك العشرات من الأحاديث الشريفة الدلة على اتصاف الملائكة بالأجنحة مـــثل : " إذا أقضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا بقوله " (٢) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم " (٣)

ويفســـر بعـــض علمائنا كثرة الأجنحة لبعض الملائكة على أنها دليل على كثرة الحركة ، والقدرة على السرعة ، فى تنفيذ أوامر الله تعالى وتبليغ رسالته . (٤)

كثرة الملائكة :

لا يعلـــم إحصـــاء عـــدد الملائكة إلا الله تعالى ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكـة وما جعلنـا عدتهـم إلا فتـنة للذيـن كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويـــزداد الذيـــن آمـــنوا إيمانـــا ولا يـــرتاب الذيـــن أوتـــوا الكـــتاب والمؤمـــنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك**

---

(١) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق – باب ٧ – جـ ٤ – ص ٨٣ .
(٢) صحيح مسلم كتاب التفسير – سورة الحجر – باب ١ – جـ ٦ .
(٣) سنن أبى داود – كتاب العلم – باب ١ – رقم الحديث ٣٦٤١ .
(٤) انظر السيد سابق – العقائد الإسلامية - دار الفكر – ط٢ - بيروت ١٩٨٢ – ص ٧٥ .

يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر﴾ (المدثر : ٣١) فجنود الله تعالى فى هذه الآية ، المقصود بهم الملائكة . ويرى الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية : أنه قرأ فى بعض كتب التذكير أنه عليه الصلاة و السلام حيث عرج به إلى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة سوق ، بعضهم يمشى تجاه بعض ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين يذهبون فقال جبريل عليه السلام : لا أدرى ، إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أدرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ، ثم سألوا واحدا منهم وقيل له : منذ كم خلقت ؟ فأجاب : لا أدرى غير أن الله يخلق كوكبا كل أربعمائة ألف سنة يخلق مثل ذلك الكوكب منذ خلقنى أربعمائة ألف مرة [1] .

وجاء فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم إشارة إلى كثرتهم فقال " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضعا جبهته ساجدا لله "[2]

المفاضلة بين البشر والملائكة ؟

هناك نصوص دينية قد يفهم منها أفضلية البشر على الملائكة ، وقد وقف علماء الإسلام من هذه النصوص فريقين : فريقا يرى إمكان تأويل تلك النصوص بما يعنى أن المقصود بها فضل وشرف سيدنا آدم عليه السلام والأنبياء ، غير أن هذا الفضل لا يعنى أفضليتهم على الملائكة ، وفريق يرى أفضلية البشر على الملائكة ، لكنه يحصر دائرة البشر ويقيدها بدائرة الأنبياء ودائرة صالحى البشر من أولاد سيدنا آدم عليه السلام ، فقط دون غيرهم ، وبعضهم يقيد الأفضلية بزمان

---

(١) نقلا محمد فتح الله عبد الكريم - الإيمان فى القرآن - الدوحة ص ٧٢ .

(٢) صحيح البخارى – مع فتح البارى جـ ٦ ص٢٣٣ ، وسنن الترمذى – كتاب الزهد باب ٩ – وقال الترمذى فيه : حديث حسن غريب .

معيـــن ، فـــيقول : إن هؤلاء أفضل من الملائكة فى الدار الأخرى وليس فى دار المعاش والفـــناء ، ولكل من الفريقين حجج وأدلة ، ونميل إلى رأى شيخ الإسلام ابن تيمية فى هـــذه المســـألة وهو أننا نؤمن أن سيدنا آدم والأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة باعتـــبار كمـــال الـــنهاية وأما الملائكة فأفضل من البشر باعتبار البداية ، يقول الشيخ ابـــن تيمـــية رحمـــه الله : " إن الملائكـــة الآن فى الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بـــنو آدم ، مستغرقون فى عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشـــر ، وأمـــا يـــوم القـــيامة بعـــد دخـــول الجنة فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة . [1]

للقائلين بأفضلية البشر على الملائكة حجج كثيرة منها :

أولاً : أن جمـــيع ملائكـــة السموات والأرض سجدوا لأدم عليه السلام ، ولم يخرج منهم أكابـــر الملائكـــة ولا غيرهم، وهذا الدليل ، فيما يقول ابن تيمية " استدل به أهل الســـنة علـــى أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة ، لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراما له ، ولذا قال إبليس– "أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ" – فدل على أن آدم كرم على من سجد له " [2] وأن هذا السجود كان سجود تشريف وتكريم لآدم من ناحية ، وامتثالا لأمر الله تعالى من ناحية أخرى ، وعلى ذلك فلا يعد السجود له عبادة إذا لا سجود عبادة إلا لله تعالى.

ثانـــيا : أن الله تعـــالى أمر الملائكة بالسجود لأدم عليه السلام ولم يأمر آدم بالسجود إلا لذاتـــه المقدســـة ، قـــال تعالى **﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾** (البقرة : ٣٤) .

---

[1] مجموع فتاوى شيخ الإسلام - مفصل الاعتقاد – جـ ٤ - ص ٣٤٣ .
(٢) نفس المرجع – ص ٣٤٧ .

ثالثا : أن الملائكة كانوا عاجزين عن معرفة الأسماء التى عرضها عليهم سيدنا آدم بعد أن أعلمه الله تعالى بها ، وأنه قد خصه الله تعالى بذلك العلم الذى هو معرفة الأشياء ، قال تعالى﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يآدم أنبئهم بأسماءهم فلما أنبائهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ،** ﴾ (البقرة :٣١ – ٣٢) .

رابعا : أن الله تعالى قد خلق البشر من طبيعتين : روح ومادة ، وخلق فيه الخير والشر ، والمادة فى قوتها ونزعاتها وشهواتها ورغباتها قد تغلب الروح فى كثير من الأحيان ، فإذا استطاع الإنسان أن يجاهد ذلك المنزع ويتغلب عليه ويصل إلى صفاء الروح وطهارتها كان أحق بالأفضلية من الملك الذى جبلت طبيعته على الطاعة ولم ترهقه المادة بمطالبها ولم يبذل جهدا ولم يذق حرمانا ولم يعرف مشقة وعناء .[١]

أصناف الملائكة ووظائفهم :

وكما ذكرت سابقا فإن الإيمان بالملائكة يستوجب الإيمان بعمومهم وخصوصهم، فنؤمن بمن ذكرتهم النصوص بالاسم وبالعمل الموكل إليه ونؤمن بعموم كثرتهم وأعمالهم دون أسمائهم . فمنهم ملائكة السماوات وملائكة الأرض وملائكة الجبال والسحاب والمطر والأفلاك والشمس والقمر والجنة والنار الخ أصناف الملائكة وتصنيفاتهم ، وفيما يلى كلمة مختصرة عن الوظائف والأعمال المسندة إليهم :

---

[١] انظر فى هذا المعنى : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٣ وما بعدها .

١- مــن أهــم أعمـــال الملائكة التى يشترك فيها جمعهم بلا استثناء ، الطاعة الدائمة بالتسـبيح والخضــوع التام لله تعالى وتقديسه **﴿وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون﴾** (الصافات :١٦٥ - ١٦٦) **﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾** (الأعراف :٢٠٦) .

٢- حملــة العرش والحافون به من حوله ، قال تعالى **﴿ ويحمـل عرش ربك فوقهم يؤمـئذ ثمانـية ﴾** (الحاقة :١٧) **﴿ وتـرى الملائكة حافين من حول العرش ﴾** (الزمر :٧٥) ٠

٣- ذكرت النصوص أكابر الملائكة وهم:

أ- جـبريل عليه السلام : وهو رسول أو ملك الوحى ويسمى الروح الآمين وروح القـدس **﴿ قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بـين يديـه ﴾**(الـبقرة :٩٧)**﴿ قـل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾** (الـنحل :١٠٢)**﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (الشعراء :١٩٣) وقد كان جبريل يــنزل بــالوحى على رسول الله عليه وسلم فكان يأتى أحيانا فى صورة بشر ، وأحــيانا يأتيه فى صوت كصلصلة الجرس وأحيانا يأتى فينفث فى روح رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلك مهمة سيدنا جبريل العظمى فى وساطته بين الله تعالى ورسله .**

ب- ميكائــيل عليه السلام : وهو أحد وزيرى الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الســماء قال صلى الله عليه وسلم "إن لى وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهـل الأرض ، فوزيــراى مــن أهل السماء جبريل وميكائيل ووزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر" [1] .

---

[1] سنن الترمذى كتاب المناقب - باب ١٦ رقم الحديث ٣٦٨٠ - جـ ٥ - ص ٦١٦ .

ووظيفة ميكائيل العظمى القيام على النبات والمطر ينزله بإذن الله تعالى حيث أمره .

جـ - إسرافيل عليه السلام : وهو المكلف بالنفخ فى الصور يوم القيامة النفخة الأولى ليموت الخلق جميعا وينفخ النفخة الثانية ليبعث الموتى جميعا قال تعالى **﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾** (الزمر :٦٨)

د - ملائكة الموت : ورئيسهم عزرائيل عليه السلام ويسمى ملك الموت : وهو الموكل بقبض الأرواح بإذن الله تعالى **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾** (السجدة :١١) فبالرغم من أن الآية لم تصرح بإسم ملك الموت إلا أن الآثار تذكره على أنه سيدنا عزرائيل عليه السلام . وآيات أخرى من الذكر الحكيم تأتى بصيغة الجمع ، فيفهم منها أن الموت لا يختص به ملك واحد ، بل هم جماعة من الملائكة **﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾** (الأنعام :٦١) ويميل أستاذنا الدكتور محمد نصار إلى أن الموكلين بقبض الأرواح جمع من الملائكة وليسوا ملكا واحدا بناء على الآية السابقة ، ويفسر الآية الأولى على أن المراد بالملك فيها الجنس ، لأن هناك آيات أخرى تدل على ذلك، فقد وصفهم بالنازعات التى تقبض أرواح العصاة والناشطات التى تقبض أرواح الطائعين .[1]

ويرى شارح العقيدة الطحاوية أنه لا تعارض بين الآيتين من حيث إن ملك الموت هو واحد ، وحيث يقبض الروح ويستخرجها من الجسد ثم تأخذها منه

---

[1] انظر عناصر العقيدة الإسلامية - مجلة المسلم المعاصر - العددان ٦٩ - ٧٠ . ١٩٩٤ - ص ٤٦ .

ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولون أمرها بعد ذلك فصحت إضافة التوفى إلى كل بحسبه .[1] وصار هناك ملك يكلف بقبض الأرواح ونوعان من الملائكة معاونان له يتوليان أمر الروح بعد أن يخرجها ملك الموت من الجسد .

واختلف في ملك الموت هل هو من أكابر الملائكة أو لا على وجهين : أحدهما : يرى أنه منهم ، والآخر : يرى عكس ذلك وحجته أقوى ، ومن هؤلاء شارح الطحاوية الذى يرى أن رؤساء الملائكة ثلاثة وهم فيما يقول - الموكلون بالحياة ، وعلى ذلك يخرج ملك الموت من بينهم يقول "رؤساء الملائك الثلاثة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل الموكلون بالحياة . فجبرائيل موكل بالوحى الذى به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ فى الصور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم" .[2]

٤- ملائكة الجنة : ومهمتهم خدمة أهل الجنة وإدخال السرور على أنفسهم والتسليم عليهم ....﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ (الرعد :٢٣ - ٢٤)

٥- ملائكة النار : وهؤلاء موكلون بتعذيب أهل النار ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعو ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾ (غافر : ٤٩) ﴿**عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ (التحريم :٦) ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ﴾ (المدثر :٣١) .

٦- وهناك الكرام الكاتبون ، وأيضا الحفظة لبنى الإنسان ، وهم الموكلون بتسجيل أعمال الإنسان منذ تكليفه ، ويستفاد من الآية الكريمة وجود ملائكة كتبة

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٠ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

يحيطون الإنسان عن يمين وعن شمال ومن أمام ومن خلف **﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** (ق :١٧ – ١٨) **﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾** (الأنفطار : ١٠ – ١٢) . وقد جاء فى بعض كتب التفسير: إثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وواحد من أمامه ، وعلى ذلك فالإنسان بين أربعة ملائك بالنهار وأربعة اخرين بالليل ، مهمتهم يكتبون أعماله ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه .[1] **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** (الرعد :١١) .

٧– ومنهم من هو مكلف بتطوير خلق الإنسان ، بدءا من الطور الأول وحتى نفخ الروح فيه ، إضافة إلى ما يتعلق بعمله ورزقه وأجله وسعادته وشقاوته فى بطن أمه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح" [٢]

٨– ومن الملائكة من هو مكلف بالدعاء للمؤمنين والتأمين مع المصلين ، ومنهم الموكلون بحضور صلاة الجمعة وصلاة الجماعة وصلاة الفجر والعصر يثبت المؤمنين ، ومنهم من يبشر المؤمنين بالجنة ، ومنهم من هو موكل بسؤال القبر وهما منكر ونكير .

---

[١] انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٩ .
(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق – باب ٦ – جـ ٤ ص ٧٨ .

وإذا كـنا لا نسـتطيع أن نحصى أعداد الملائكة ونحصرها . فكذلك لا نستطيع أيضـا أن نحصـى وظـائفهم ومهامهم . التى لا يعلمها إلا الله تعالى . عالم الغيب والشهادة .

وخلاصـة القـول فى هذه المسألة أن الإيمان بالملائكة يرسخ فى نفس المؤمن الإيمان بالله تعالى . الذى كرم الإنسان ، ولطف به وتفضل عليه بأن سخر له الكون بمـا فيه لخدمته . إضافة إلى تسخيره هذا العالم الغيبى أيضا لخدمته فى كل أطوار حـياته ومماته وبعده . وقد رأينا نوعية وصفة تلك الخدمة التى تختص بالمرء منذ تكويـنه الأول . وهو فى بطن أمه وفى مراحل حياته كلها وحيث يموت وفى قراره فى الدار الآخرة فى الجنة كان أم فى النار .

ومن ناحية أخرى : فإن هذا الإيمان فيه فائدة كبرى للمؤمن .، حيث أراد ربنا عـز وجـل اطلاعنا على هذا العالم ليجنبنا الوقوع فى الخرافات والأوهام التى وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ولا يتلقون معارفهم من الوحى الإلهى .

ومن فوائده إعانة المرء على الاستقامة ، حيث يشعر أن كل أعماله وحركاته وسـكناته تحت المراقبة ، وأنه محاسب عليها ، ومجازى على كل صغيرة وكبيرة . ومن تلك الفوائد تدريب وتعليم المرء الصبر والشعور بالأنس والرضا والطمانينة . لإيمانه بأن الله تعالى يرسل جنوده لتشد من أزره وتنصره وتذكره بالخير عند ربه. وهذا غيض من فيض . من فوائد الإيمان بالملائكة التى لا نعرفها . [1]

---

[1] انظر فى ذلك – وهبى سليمان الألبانى – أركان الإيمان – مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٩٩٧ م ص ١٢٨ ، وأيضا د. محمد نعيم ياسين الإيمان ص ٤١ .

الفصل الثاني

الإيمان بالجن

وكما نؤمن بالملائكة فعلينا أيضاً أن نؤمن بالجن، غير أن الإيمان بهم ليس ركنا من أركان الإيمان التي وردت في حديث الإيمان السالف الذكر وإنما هو فرع عن الإيمان بالملائكة، إضافة إلى أن وجودهم ثابت بالنصوص القطعية الصريحة والصحيحة وهم لا يظهرون للبشر بل وجودهم خفية، وهم من المخلوقات العاقلة المريدة المكلفة، وعلينا أن نؤمن في موضوع الجن بما يلي:

١- طبيعة الجن طبيعة مخلوقة من نار، قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ (الحجر : ٢٦ - ٢٧) فهذه الآية الكريمة تدل على طبيعة خلق الجن، كما تدل على أن خلقهم سابق على خلق عالم الإنس ، قال تعالى : ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ (الرحمن : ١٥) . ولكن ذلك لا يعني أن طبيعة ذوات الجنى نارية كما لا يعني أيضاً خلق الإنسان من تراب أن طبيعة أجسادهم ترابية، يقول بعض العلماء " اعلم أن الله تعالى أضاف الشياطين والجن إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين. والمراد به في حق الإنسان أن أصله الطين وليس الآدمي طينا حقيقة، ولكنه كان طيناً، كذلك الجان كان ناراً في الأصل وهم على أشكال ليست ناراً "[1] .

---

[1] الدكتور عدنان زرزور – في الفكر والثقافة الإسلامية ، المكتب الإسلامي – ط٤ – ١٩٩١م – ص١٩٠ نقلا عن د. يحيى هاشم أساسيات العقيدة الإسلامية – ص ٩٧ .

٢- وكما عبد الناس في الملل والنحل السابقة على الإسلام الملائكة ، كذلك عبدوا الجن وجعلوهم شركاء لله تعالى **﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾** (الأنعام : ١٠٠) .

٣- الجن خلق مكلف مثله مثل الإنس قال تعالى : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾** (الذاريات : ٥٦) ، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن والإنس معاً **﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾** (الأنعام : ١٣٠) .

٤- بناء على هذا التكليف وتلك المسؤولية أعطى الله تعالى الجن الإرادة الحرة فكان منهم : المؤمن المطيع المستقيم ومنهم البله المغفلون ومنهم الكفرة قال تعالى حكاية عنهم **﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ﴾** (الجن : ١١) **﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾** (الجن : ١٤ - ١٥) .

٥- من صفات الجن وطبائعهم أنهم يتصفون بالذكورة والأنوثة ويتزوجون ويتناسلون ويأكلون ويشربون وتجرى عليهم حالات الحياة والموت **﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾** (الأحقاف : ١٨) وورد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام؛ فإنه زاد إخوانكم من الجن"[1].

---

[1] سنن الترمذي - كتاب الطهارة - باب١٤ جـ١ - ص٢٩ وانظر في معناه: صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار - باب ٣٢ - جـ٤ - ص ٢٤٠.

٦- الجــن يــرون الإنس والإنس لا يرونهم ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ (الأعراف : ٢٧) ولكن الله سبحانه وتعالى سخر الجن لسليمان عليه السلام مما يعني أنه عليه السلام كــان يــراهم هو دون غيره. قال تعالى : ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ (سبأ : ١٢ – ١٣) وقــد قال النبي صلى الله عليه وسلم، كما ورد في حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع على صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلــى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سـليمان ﴿ **رب أغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي** ﴾ (ص : ٣٥) ﴿ **فرددته خاسئاً** ﴾ [1].

٧- وممـــا يجــب الإيمان به في مسألة الجن أنهم لا يعلمون الغيب، وذلك لأن العلــم بالغيــب من الأمور التي استأثر الله تعالي بها، ولم يطلع أحدا علي غيبه إلا بمشيئته لمن شاء ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحدا إلا من ارتضي من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ (الجــن : ٢٦-٢٧) . فــإذا اخــتار الله تعالي واصطفي من يطلعه علي بعــض مــن أمــور غيــبه من رسله أرسل من أمامه وخلفه من الملائكة مــن يحفظــون ذلــك الغيــب لكي لا تطلع عليه الشياطين ولا تسترق له السـمع، والدليل القاطع علي جهل الجن بالغيب أنهم قد جهلوا موت سيدنا سـليمان علــيه الســلام ولــم يعلمــوا بــه إلا بعــد عــام كــامل، وهم فــي تلــك الفــترة يقومــون بمــا كلفهــم إيــاه من خدمة، ولو علموا

[1] صحيح البخاري – كتاب الصلاة باب ٧٥ – جـ ١ ص ١١٨ .

بموتــه لتوقفوا عن العمل . قال تعالي ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾(سبأ : ١٤) .

٨- الشـيطان أو إبليس : صنف من أصناف الجن وهو مثلهم مخلوق من النار إلا أنـه مـن العصـاة المتمردين الكافرين بنعمة الله تعالي وهو من أشد مخلوقات الله تعالي عداوة للإنسان، ويقال إن إبليس وهو الذي بدأ العداوة لسيدنا آدم وأمنا حواء وأخرجهما من الجنة بوسوسته، يعد أبا الشياطين، ويطلـق لفظ الشيطان على كل متمرد من الإنس أو الجن أو الحيوان. [١] قـال تعـالى ﴿ **كذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ (الأنعام : ١١٢) ولذلك حذر الله تعـالى مـن غوايـة الشيطان ووسوسته. وكما أن الله تعالى وكل بكل إنسـان ملائكـة تحفظـه وتهديه كذلك جعل لكل إنسان قرينا من الشيطان يوسـوس له ويزين له السوء، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنـه قـال " مـا منكم من أحد إلا وكل به قرين من الجن قالوا : وإياك يا رسـول الله ، قـال : وإيـاي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"[٢] قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ (فاطر : ٦) .

---

[١] انظر : السيد سابق – العقائد الإسلامية ص١٣٩ .

[٢] صحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين باب ٦٩ – رقم الحديث ٢٨١٤ – جـ ٣ – ص ٢١٦٧ .

الفصل الثالث

المعاد (اليوم الآخر)

قد اقتضت حكمة الله تعالى وعدله ألا تتوقف حياة الإنسان عند موته ومفارقة روحه لجسده، وذلك لأن الله تعالى حمل هذا الإنسان أمانة التكليف، فركب فيه العقل وبعث إليه الرسل والأنبياء، يأمرونه بأفعال وينهونه عن أفعال، فكان بذلك مسؤولا. والمسئولية تستلزم انتهاء المهمة المكلف بها المسؤول، ولا يكون ذلك إلا بعد انتهاء أجله وعمله من الدنيا. حيث تبدأ حياة من نوع آخر مختلف تسمى بالحياة البرزخية وهي حياة القبر، وفيها يتعرض المرء لشيء من المحاسبة وبعض الجزاء ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحياة الأخرى وفيها تتم محاسبته ومجازاته على الأمانة التي كلف بها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وحياة الإنسان – حسبما تقتضيه أصول الإيمان بالغيبيات في الإسلام – تتوزع على حيوات ثلاث، ويكون مسكنه في دور ثلاث أيضاً تبعاً لهذه الحياة في درجاتها الثلاث : الحياة الدنيا ، وحياة القبر ودارها البرزخ ، وحياة الآخرة ، ودارها القرار أو البقاء، "وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها وركب هذا الإنسان من بدن وروح وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً"[1].

وعلمنا بأحكام الدنيا القائم على منهج العقل أولا،ويستمد يقينه من الحس والمشاهدة ، والنقل مصدق له ، وأما علمنا بأحكام البرزخ واليوم الآخر فقائم على

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .

منهج الوحي؛ لأنه من الأمور السمعية، التي تثبت عن طريق الكتاب والسنة، والعقل يصدق ما جاء به السمع، ويؤكده ولا ينكر عليه، قال تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ (المؤمنون : ١١٥ – ١١٦).

فالعودة إلى الله تعالى تتمثل بدايتها منذ اللحظة الأولى لمفارقة الروح للجسد فيقال : قامت قيامة المرء إذا مات، أي أنه بدأ فيما يسمى باليوم الآخر الخاص به، وذلك في مقابل قيامة عامة للمخلوقات وهي : القيامة التي يتحدث عنها القرآن الكريم ويسميها باليوم الآخر، وقد اعتنى البيان الإلهي في القرآن الكريم بتقرير حقيقة هذا اليوم والتأكيد عليه حتى أنه لا تكاد تخلو سورة من ذكره أو التدليل عليه وبخاصة في القرآن المكي، وكثيراً ما يقرنه بالإيمان بالله تعالى ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ (البقرة : ١٧٧) ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ (البقرة : ٦٢) ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ (العنكبوت : ٣٦) وأيضاً يربط القرآن الكريم الإيمان بذلك اليوم بالعمل الصالح ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ (التوبة : ١٨) ﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ (الطلاق : ٢) .

أسماء اليوم الآخر :

ومما يدل على عناية الإسلام باليوم الآخر كثرة أسمائه التي أطلقها عليه القرآن الكريم ، بحسب كل حالة من الحالات التي تحدث في ذلك اليوم ، من هذه الأسماء :

١- **اليوم الآخر** : وهو أول أسمائه وأشهرها، ويطلق في مقابل الحياة الدنيا،وهي الحياة الأولى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾ (الأعلى : ١٦ - ١٧)

٢- **البعث** : وسمى بذلك لأن الله تعالى يبعث فيه حياة الإنسان من جديد بعد موته وفنائه، ويبعث الخلائق جميعا﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾ (الروم: ٥٦)

٣- **الخروج** : لأنه يخرج فيه الناس من قبورهم، حيث يسمعون النفخة في الصور ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج** ﴾ (ق : ٤٢)

٤- **القيامة** : حيث يقوم الناس فيه لرب العالمين ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ (الزمر : ٦٠)

٥- **الدين** : لأن الله تعالى يدين فيه الخلائق ويجازيهم على أعمالهم ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ (الفاتحة : ٣)

٦- **الساعة** : ومعناه أن ذلك اليوم سيكون في زمن معين وساعة معينة لا يستقدم في أجله ولا يستأخر.﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ (القمر : ١)﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم** ﴾ (الحج : ١) ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون** ﴾

٧- **الفصل** : في هذا اليوم يفصل الله تعالى بين الحق والباطل، ويفصل بين الناس بالقسط والعدل ﴿ **هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون** ﴾(الصافات : ٢١). ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ (النبأ : ١٧)

٨- الحســـاب : أي يحاسب الله فيه الناس على أعمالهم وما كسبت أيديهم في الحــياة الدنيا ﴿ **وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ (غافر : ٢٧).

٩- الـــتلاق : بمعنى اليوم الذي يلتقي فيه أهل السموات وأهل الأرض ويلتقي فـــيه أهـــل الـــنار مـــع بعضهم بعضا، ويلتقي فيه أهل الجنة مع بعضهم بعضا ﴿ **رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** ﴾ (غافر : ١٥).

١٠ - الفتح : أي يوم يفتح الله تعالى باب الحكم والمحاسبة ﴿ **قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ (السجدة : ٢٩).

١١- الحشر : ففـــي هذا اليوم تحشر الخلائق أى : تساق إلى المحشر ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا** ﴾ (مريم : ٨٥-٨٦).

١٢- الجمـــع والتغابـــن : لأن الله تعالى يجمع فيه الخلائق ويغبن فيه أهل الجـــنة أهـــل النار ، أي يستنقصون عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان، ولذلك نالهم النعـــيم ونال أهل النار العذاب ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** ﴾ (التغابن : ٩).

١٣- الوعـــيد : لأنه يتحقق فيه وعيد الله تعالى وتوعده للكافرين ﴿ **ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد** ﴾ (ق : ٢٠).

٢١- **القارعة** : أي التي تقرع قلوب العباد بأهوالها ، والقرع هو الضرب الشديد ﴿ **كذبت ثمود وعاد بالقارعة** ﴾ (الحاقة : ٤)

٢٢- **الواقعة** : أي التي ستقع قطعاً لا محالة ، ولا شك في وقوعها ﴿ **إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة** ﴾ (الواقعة : ١ – ٣)

٢٣- **الصاخة** : وهي التي تصم الآذان من شدتها ﴿ **فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ (عبس : ٣٣ – ٣٧)

٢٤- **القرار** : أي المستقر الأخير الدائم ﴿ **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار** ﴾ [١](غافر : ٣٩)

وقد ذكر الإمام الغزالي حشدا كبيرا من أسماء يوم القيامة ويرى أن لكل اسم من أسمائها سراً، وفي كل نعت من نعوتها معنى ومنها : يوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة والزلزلة والدمدمة والصاعقة والراجفة والرادفة والمساق والقصاص والمآب والعذاب والفرار والبقاء والقضاء والبلاء والعرض والوزن والحق والحكم والصيحة والنفخة والرجفة والزجرة والسكرة والفزع والانكدار والافتقار، [٢]إلى آخر تلك الأوصاف التي توصف بها أحداث يوم القيامة وما يحدث فيها من تغيير في الكون كله إضافة إلى ما يحدث للخلق في أنفسهم وما يجهز لهم من أنواع المحاسبة والمساءلة والمحاكمة، وبعد ذلك القرار في

---

(١) راجع في أسماء اليوم الآخر : الغزالي – إحياء علوم الدين – جـ ٤ ص ٥٠٠ وما بعدها، وأيضا السيد سابق – العقائد الإسلامية – دار الفكر بيروت ط٢ ١٩٨٢م ص ٢٦١ – ٢٦٤، وأيضا حبنكة الميداني – العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٢) انظر أحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٥٠٠ .

المـــنزل الأخــير الــذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلود لا موت فيه وهو الجنة أو النار .

الحياة البرزخية :

وهــي الحــياة الثانــية للإنســان، التــي يحــياها في القبر، فهي مقدمة للحياة الآخــرة، ومــنزلها يعــد أول مــنازل الــيوم الآخــر، وقد كان سيدنا عثمان بن عفان رضـــي الله عنه إذا ذكر القبر بكى ، فسئل فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "القبر أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا فمن نجا منه فما بعده أيسر"[1]

سميت هذه الحياة برزخية نسبة إلى البرزخ قال تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ (المؤمنون : ٩٩ – ١٠٠) . ومعنى البرزخ فـــي اللغـــة: الحاجـــز بين الشيئين، وعلى ذلك فهو المكان والزمان الفاصل بين الدنيا والآخـــرة مـــن وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ .[2] والنجاة المذكورة فـــي الحديـــث هي نجاة عذاب القبر، وهذا الدليل قاطع على أن تلك الحياة التي يحياها صـــاحب القـــبر إما أن تكون في عذاب أو في نعيم، أي أن محاسبته ومجازاته المبدئية تكـــون فـــي قـــبره، وعلى ذلك إجماع المسلمين، وقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وســـلم: "إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشياً إما النار وإما الجنة، فيقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة"[3].

---

[1] سنن الترمذي – كتاب الزهد باب ٥ – جـ ٤ – ص ٥٥٣ .

[2] انظر مختار الصحاح – مادة (برزخ).

[3] صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب ٤٢ – جـ ٧ – ص ١٩٣ .

يقول الإمام الغزالي في الإحياء : "وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال"[1]. وهذه عقيدة أهل السنة التي ترى أن للقبر فتنة وأن له عذاباً ونعيماً للجسد والروح معاً، لأن الروح يعود للجسد بعد أن يقبر الميت وتجرى عليه أحكام القبر، سواء قبر أو لم يقبر، يقول شارح الطحاوية: "واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيب منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور" .[2]ويفهم من ذلك أن القبر قد يطلق على الحقيقة فيراد به حفرة في الأرض وقد يطلق مجازاً ويراد به بطن حيوان مفترس أو البحر أو الهواء إذا نثر فيه رماد جسد الميت المحترق .

عودة الروح :

نؤمن أن الروح تعود للجسد بعد قبره . والعقل لا ينكر تلك العودة عند السؤال، لأنه ثابت في العقل أن الروح لها تعلقات بالجسد متنوعة. والشرع يقر بذلك ويؤكده، وللروح بكل تعلق حكم يختلف عن حكم الآخر. ولذلك التعلق خمسة أنواع كما يراها شارح الطحاوية يقول : "فإن عود الروح إلى الجسد ليس على

---

(1) وقد اختلف فيه هل يكون النعيم والعذاب للروح والجسد معاً، أم للجسد وحده أم للروح وحدها . وقد ذهب الفلاسفة إلى أن العذاب والنعيم روحاني لأن الجسد يفنى ولا يعود ، أما الروح فباقية لا يمسها الفناء ، وهي جوهر الإنسان وحقيقته ، أما البدن فهو وعاء للروح ، لذلك استحقت الروح الجزاء وحدها . يقول شارح الطحاوية : وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال : إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً ، باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به " (ص ٤٠٠ شرح العقيدة الطحاوية) .

(2) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٠ .

الوجــه المعهــود فــي الدنــيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة التعلق وهذه هي أنواع تعلق النفس بالبدن.

أولـها : تعلقها به في بطن الأم جنينا.

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث : تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الـــرابع : تعلقهـــا به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كلــيا بحيث لا يبقى التفات البتة، فإنه ورد ردها إليها وقت سلام المسلم،وورد أنه يسمع خفق نعالهم حيث يولون عنه وهذا الرد إعادة خاصة لايوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخـــامس : تعليقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قــبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً.[1]

والدليل من الكتاب والسنة على عودة الروح إلى الميت في قبره قوله تعالى :

﴿ ولا تحسـبن الذيـن قـتلوا في سـبيل الله أمواتـا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (آل عمــران : ١٦٩). وكذلــك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشركي قــريش الذيــن قــتلوا وألقــوا فــي القليــب يوم بدر، فقد وقف صلى الله عليه وسلم علــى حافــة القليــب يــناديهم بأســمائهم "يــا فــلان يــا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنــي ربــي حقــا فهــل وجدتــم ما وعد ربكم حقا، فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أمــوات فقــال صــلى الله علــيه وسلم: والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم

---

[1] نفس المصدر – ص ٣٣٩ .

إلا أنهـم لا يقـدرون علـى الجـواب"[1]. ودليل آخر على عودة الروح إلى الجسد في القـبر وعذابهـا ونعـيمها مع الجسد قوله صلى الله عليه وسلم "إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"[2].

فتنة القبر وضغطته :

تكـون فتـنة القـبر بسـؤال الملكيـن، وهما منكر ونكير، وذلك يكون بعد قبر الميـت مباشـرة، وعودة الروح إليه، يفهم ذلك لما : روى عن الرسول صلى الله عليه وسـلم :"إن العـبد إذا وضـع فـي قـبره وتولـى عـنه أصـحابه وإنه ليسمع قرع نعـالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل [محمد صلى الله علـيه وسـلم]؟ فأمـا المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعـدك مـن الـنار قـد أبدلـك الله بـه مقعدا من الجنة فيراهما جميعا، وأما المنافق والكافـر فـيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقوله الـناس، فـيقال: لا دريـت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين الإنس والجن"[3]

وبعـد ذلـك يفسـح له فـي قـبره ويـنور له وتفـتح له طاقة يأتيه من روح الجـنة وريحانهـا أو يضـيق علـيه قـبره ويظلم وتفتح له طاقة يأتيه من لهيب النار ولفحها

وبعـد مسـاءلة مـنكر ونكـير يضـغط القـبر علـى المؤمن والكافر، غير أن الضـغطة علـى المؤمـن تكـون لوقـت قصير، أما ضغطة الكافر فيطول وقتها ، قال صـلى الله علـيه وسـلم فـي سـعد بن معاذ رضي الله عنه حيث استشهد بعد حكمه

---

(1) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب ٨ – جـ٥ – ص٨ .
(2) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة – باب ٢٦ – جـ٤ – ص ٦٤٠ .
(3) صحيح البخاري مع فتح الباري – جـ٣ – ص ١٨٤ .

على رجال بني قريظة بالقتل بسبب غدرهم بالمسلمين يوم غزوة الأحزاب: "هذا الذي تحرك العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ثم خرج عنه"[١]. وعن عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن للقبر ضغطة ولو كان أحدنا ناجياً منها نجا سعد بن معاذ"[٢]

عذاب القبر ونعيمه:

وإذن فنعيم القبر وعذابه وسؤال منكر ونكير وضغطة القبر أمور ثابتة بالكتاب والسنة . تواترت بها الأخبار والنصوص؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عذاب القبر وشهد لذلك أهل الحق كما يقول الإمام الجويني، والعقول تجوز ذلك ولا تنكره بعد ما شهد له السمع وأكده، ولذلك يلزم المسلم الحكم بقبوله والإيمان به.[٣]

ومن الأدلة على عذاب القبر أن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال :" إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير فأما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة"[٤] والنووي في شرحه لصحيح مسلم يؤكد على أن مذهب أهل السنة إثبات العذاب والنعيم لأصحاب القبور، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى عن عذاب آل فرعون في قبورهم﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب**﴾ (غافر:٤٥ – ٤٦)

---

(١) سنن النسائي – كتاب الجنائز – باب ١١٣ – جـ ٤ – ص ١٠٠ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل جـ٦ - ص ٥٥ .

(٣) انظر الإرشاد – مكتبة الخانجي – تحقيق د. محمد موسى – ١٩٥٠م - ص ٣٧٥ .

(٤) صحيح البخاري – كتاب الوضوء – جـ ٣ – ص ١٢٣ .

فهناك إشارة إلى نوعين من العذاب: عذاب قبل قيام الساعة، وهذا لا يكون إلا في القبر، والعذاب الآخر يوم القيامة بعد قيام الساعة.

وأما عن كيفية عذاب القبر ونعيمه: فنحن غير مطالبين بأن نعرف عنه أكثر مما وردت به الآثار وفي ذلك يقول شارح الطحاوية "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتى بما تحيله العقول، ولكنه يأتى بما تحار فيه العقول"[1]

علم الساعة

نؤمن بأن هناك يوماً آخر وتسمى بدايته بالساعة أي الوقت والزمن الذي تقوم فيه قيامة المخلوقات. وقد استأثر الله تعالى بذلك العلم، ويعد علمه من مفاتيح الغيب الخمس، المذكورة في قوله تعالى: **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾** (لقمان : ٣٤)

وقد سجل لنا القرآن سؤال الناس للرسول صلى الله عليه وسلم وإجابته عليهم، كما علمه ربه، قال تعالى **﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها، قل : إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** (الأعراف : ١٨٧) . فهذه الآية ترد علم وقوع الساعة وثبوتها الذي سماه تعالى بالإرساء إلى الغيب الذي لا يعلمه إلا الله . وقد جعل

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٩ .

علمهـا ثقـيلا علـى أهـل السـموات والأرض ولذلك فهو تعالى يؤكد على أن رسوله الكـريم لـم يكـن يشـغل بالـه بوقتها، ولم يكن شديد الطلب في معرفة ذلك الوقت.[١] وهـو صـلى الله علـيه وسـلم لا يعلـم وقـت وقوعهـا ، ولكنه يعلم قرب وقوعها الإجمالـي، فقـد قـال "مثلـي ومثل الساعة كهاتين وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلـي الإبهـام"[٢] كـناية عـن قـرب السـاعة من زمنه صلى الله عليه وسلم. وحين سـأله جـبريل علـيه السـلام عـن الساعة قال " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسـأخبرك بأشـرطها "[٣] فهـذا يؤكـد علـى أن السـائل وهـو الملك لا يعرف عن وقوعهـا شـيئاً وكذلك المسؤول وهو محمد صلى الله عليه وسلم، لا يعلم عنها شيئاً . وقد أخفى الله علمها عن جميع المخلوقات لحكمة وقصد.

أشراط الساعة :

لاقـتراب موعـد السـاعة علامـات وإشـارات بعـيدة وقريـبة أو كما تسمى علامـات صـغرى وعلامـات كـبرى ، وقد سمى القرآن هذه العلامات بأشراط الساعة **﴿ فهـل يـنظرون إلا السـاعة أن تأتـيهم بغـتة فقـد جـاء أشـراطها فـأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾** (محمد : ١٨) . وقد عدّ كثير من الأحداث من العلامات الصغرى كانشـقاق القمـر فـي عهـد الرسـول صـلى الله علـيه وسلم، وصرح بذلك القرآن **﴿ اقتربـت الساعة وانشق القمر ﴾** (القمر : ١). وأيضاً من العلامات؛ خروج نار من أرض الحجـاز تضـئ مـنها أعـناق الإبـل فـي العراق، كما يقول الرسول صلى الله علـيه وسـلم "لا تقـوم السـاعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل

---

[١] انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" دار الكتب العلمية – بيروت جـ ١٥ – ص ٦٦ – ٧٧ .

[٢] مسند أحمد بن حنبل – جـ ٥ – ص ٣٣١ .

[٣] صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب ٣٧ جـ ١ ص ١٨ .

ببصرى"[1] وقد تحدث المؤرخ ابن كثير عن خروج تلك النار في أحداث سنة (٦٥٤ هـ) . وأيضاً من العلامات التي تحققت، توقف الجزية والخراج. وأيضاً الفتوحات والحروب وخروج الدجالين وأدعياء النبوة والفتن والفساد وإسناد الأمر إلى غير أهله وولادة الأمة لربتها وتطاول الحفاة العراة ورعاة الشاة في البنيان.. وآخرها خروج المهدي[2]، يخرج فيقيم العدل ويمنع الظلم والجور .

وأما أشراط الساعة الكبرى فهي كما روى حذيفة بن سعيد رضي الله عنه قال : طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال " ما تذاكرون قلنا : نذاكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسوف في المشرق وخسوف بالمغرب وخسوف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم"[3] وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام مؤكد للآيات الكريمة ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾ (الدخان: ١٠) وقال تعالى:

---

[1] صحيح البخاري كتاب الفتن باب خروج النار جـ ١٣ من فتح الباري ص ٧٨ .

[2] عند أهل السنة هو: محمد بن عبد الله من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم يقول ابن خلدون : " اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الاعصار أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل ويتبعه المسلمون .. يسمى بالمهدي. ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة وإن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدي في صلاته" (المقدمة جـ ٢ – ص ٧٨٧ – ٧٨٨) .
أما عقيدة الشيعة الإمامية في المهدي فهم يرونه آخر أئمتهم الإثني عشر ويسمونه بالمهدي المنتظر وهو محمد بن الحسن العسكري من ولد الحسين بن علي ويعتقدون أنه دخل سرداباً بسامراء وهو صغير السن وهو حاضر في الدنيا ولكنه غائب عن العيون وسيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا وفضلا .

[3] صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب ١٣ – حديث ٣٩ .

﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون ﴾ (النمل: ٨٢) وقال تعالى : **﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾** (الأنبياء:٩٦).

فإذا وقعت جميع أشراط الساعة أمر الله تعالى سيدنا إسرافيل وهو صاحب الصور أن ينفخ في الصور النفخة الأولى وبتلك النفخة يختل نظام الكون **﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾** (الحاقة: ١٣ – ١٨).

والنفخة الأولى تسمى : نفخة الصعق لأنه بوقوعها يصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله تعالى.

وأما النفخة الثانية فتسمى: نفخة القيام والفزع والخروج وعلى أثرها يقوم الناس لرب العالمين، قال تعالى: **﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾** (النمل: ٨٧). وهناك آية كريمة تجمع النفختين يقول عز من قائل: **﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾** (الزمر: ٦٨ – ٦٩).

وقد وصف الله تعالى لنا ما سيحدث في هذا اليوم من اختلال لموازين الكون فالسماء تنشق والنجوم تتناثر والشمس يذهب ضوئها والجبال تصبح

كالسـراب والوحـوش تجـتمع، والـبحار تفـيض وتتفجر، وفي أثناء هذا كله تخرج القـبور مـا فيها من الموتى أحياء، وهو ما يسمى بالبعث. قال تعالى: ﴿ **إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت، وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت** ﴾ (التكوير: ١ – ٧). وقال تعالى: ﴿ **إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾ (الانفطار: ١ – ٥).

البعث :

هـو إعـادة الـروح إلـى الجسـد وإخـراجهما معـا ليقوما لله رب العالمين، وذلـك بعـد الـنفخة الثانـية، وقد دلت النصوص الصحيحة على البعث وكيفيته وهو عـبارة عـن "مجمـوع أمريـن: الأول عـودة الأجسام إلى ما كانت عليه قبل الموت. والثانـي دخـول الأرواح فـي الأجسـام مـثلما كـان علـيه الأمر في الحياة الدنيا.. ومجمـوع هذيـن الأمريـن هـو المراد بالبعث الذي هو إحياء الموتى من قبورهم"[1].

قـال تعـالى : ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ (يس: ٥١ – ٥٣).

هذا هو البعث ويسمى أيضاً بالنشور ويسمى بالمعاد.

شبهات حول البعث :

لقـد كـان مجمـل شـبه المنكريـن للمعـاد، تتعلق بفكرتهم عن طبيعة القدرة الإلهـية. وقـد نـرى أن من ألحد قد يكون متسقا في منطقه واتجاهه في إنكار المعاد

[1] د / أحمد الطيب – بحوث في الثقافة الإسلامية – دار الحكمة – الدوحة – ط١ – ١٩٩٣ – ص ٢٩٤ .

مــن حيــث إنــه لا يؤمــن بالله تعالى بداية، إذن فإنكاره لقدرة الله تعالى على الإعادة أمــر فــيه شــيء مــن المــنطق، مع نفسه على الأقل، أما المؤمن بالقدرة المطلقة لله تعــالى ثــم يحصــر صــلاحيته فــي أمر دون غيره فهذا هو قمة التناقض التي يصل إلــيه عقــل إنســان. فــبالرغم من أن عقولهم لا تنكر النشأة الأولى وهي الإيجاد من العــدم، إلا أنهــم تصــوروا أن المرء بموته، يعود إلى العدم، وهو أمر مناف للحقيقة؛ لأن الفــناء لا يعنى العدم المحض، وقد بين القرآن الكريم ذلك بالنسبة للأبرار وبالنسبة للكفار أيضاً. فقال تعالى عن الشهداء :﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ (آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠). فوصف الله تعالى الشهداء بأنهم أحياء يرزقون، هو أقوى دليل على أنهم ليسوا في عالم العدم، بل هم في وجود يخالف وجود الحياة الدنيا. وكذلك من يعذب في البرزخ كمــا في قوله تعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ (غافر: ٤٥ – ٤٦).

وللإمــام الغزالــي فــي هــذه المســألة كــلام مــوزون، يرد فيه على كثير من الآراء المخــتلة حــول البعــث فــيقول :"وكــل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق، بل الــذي تشــهد له طــرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقــط، وأن الــروح باقــية بعــد مفارقــة الجســد ، إمــا معذبــة وإما منعمة، ومعنى مفارقــتها للجســد انقطــاع تصــرفها عــن الجســد بخــروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضــاء آلات للــروح تســتعملها، حــتى أنهــا لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعيــن وتعلــم حقــيقة الأشــياء بالقلــب، والقلب هنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشــياء بنفســها مــن غــير آلــة.. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقــة الجســد، ومــا هــو بهــا بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد

الــروح إلـــى الجســـد، ولا يـــبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم"[1].

وقــد ســـطر لـــنا القـــرآن الكـــريم إدعاءات الفريقين ورد على تلك الإدعاءات باســـتخدام الحجـــج البديهـــية العقلـــية، ذلـــك النوع من الحجج الذي لا يمكن معه إلا التسليم والتصديق.

أ- قــال تعــالى: ﴿ **قـالوا أئـذا كـنا عظامـا ورفاتـا أئـنا لمبعـثون خلقـاً جديـدا قل كونـوا حجارة أو حديـداً أو خلقـا ممـا يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعـيدنا قل الذي فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون مـــــتى هـــــو قـــــل عســـــى أن يكـــــون قريـــــبا** ﴾ (الإسراء : ٤٩ – ٥١) .

فهـــناك محـــاورة علـــى شـــكل ســـؤال وجـــواب، مـــبدؤها: الإيمـــان باستحالة إعـــادة الجســـد الـــذي أصـــبح عظاماً بالية ثم تحلل إلى تراب وغبار. ويرد الله تعالى علـــيهم "إن كنـــتم تـــزعمون أنـــه لا خـــالق لكـــم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقا لا يفنيه المـــوت كالحجـــارة والحديـــد ومـــا هو أكبر في صدوركم من ذلك؟ فإن قلتم : كنا خلقا علـــى هـــذه الصـــفة التـــي لا تقـــبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعـــادتكم خلقـــاً جديـــدا، وللحجـــة تقريـــر آخر وهو: ولو كنتم من حجارة أو حديد أو خلـــق أكـــبر مـــنهما، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومـــن يقـــدر علـــى التصـــرف فـــي هـــذه الأجســـام مـــع شـــدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها"[2] ؟

---

[1] إحياء علوم الدين - جـ٤ - ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .
[2] شرح العقيدة الطحاوية - ص ٤٠٧ .

ويثـنى بسـؤال بعـد ذلـك قـد يوهـم تسـليم السائل بالإعادة إلا أنه يتساءل عـن مـن هـو القـادر علـى تلـك الإعادة؟ فيرد عليهم بأن بديهة العقل تقول : إنكم خلقـتم مـن العـدم، والـذي خلقكم من العدم وأوجدكم لأول مرة هو الذي سيعيدكم في المـرة الثانـية. ولكنهم بعد ذلك كله لا يزالون يستهزئون ويكذبون ويأتون بعلل واهية فقالوا "متى هو؟" فأجابهم "عسى أن يكون قريبا" .

ب- قـال تعـالى : ﴿ **وضـرب لـنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رمـيم، قـل يحييها الذي أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذي جعل لكـم مـن الشـجر الأخضـر نـارا فـإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذي خلق السـموات والأرض بقـادر عـلى أن يخلـق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم، إنمـا أمـره إذا أراد شـيئاً أن يقـول له كـن فـيكون، فسـبحان الـذي بـيده ملكـوت كـل شـيء وإليه ترجعون** ﴾ (يس: ٧٨ – ٨٣). هذه الآيات الكريمة أشـد وضـوحاً فـي حجيـتها ودلالتها على البعث. وقد فند فيها القرآن حجة الملحـد أو شـبهته فـي إنكـاره قـدرة الله على إحياء العظام وإعادتها بعدما رمـت وفتـت وبليـت، وتعـتمد حجـة القـرآن الكـريم علـى قـياس النشأة الآخـرة علـى النشـأة الأولـى فـي تذكير الملحد المنكر بخلقه الأول أى خلقه فـي المـرة الأولـى وهـو خلـق محسـوس مشـاهد بداهـة للجميع "فاحتج بـالإبداء علـى الإعـادة وبالنشـأة الأولـى علـى النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلـم ضـروريا أن مـن قـدر علـى هـذه قدر على تلك ، وأنه لو كان عاجزاً عـن الثانـية لكـان عـن الأولـى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخـالق علـى المخلـوق وعلمه بتفاصيل الخلق، أتبع ذلك بقوله ﴿ **وهـو بكـل**

خلق عليم) ..[1] هـذا العلـم يشـمل جزئـيات المخلوق والمادة التي خلق منها والصورة أيضاً.

وقـد يعـترض الملحـد بـأن الجسـم الذي فنى كان ذا طبيعة حية رطبة حارة فـإذا ماتـت ويبسـت وبـردت فكيف تعود بعد ذلك لطبيعتها السابقة. وهنا يرد القرآن الكـريم علـى مـثل هذا الاعتراض ببيان أن قدرته تعالى لها خاصية خلق المتضادات وإخـراج بعضـها مـن الـبعض الآخر، وضرب لذلك مثلاً بإخراج النار والحرارة من الشـجر الأخضـر الرطـب الـبارد، فإذا كنا في عالم المشاهدة لا ننكر استخراج النار مـن الشـئ الأخضـر الرطـب، فكذلـك ينبغي ألا ننكر إعادة الجسم اليابس البارد إلى جسـم حـى حار، بعد ذلك يؤكد القرآن على أن العاقل – أيضاً – إذا علم أن الله تعالى قـدر علـى خلـق السـموات والأرض وخلقهـن عظيم فإنه قادر على ما هو أدنى من ذلـك وإن كانت الأشياء تتساوى عند قدرته "**إنمـا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فـيكون**". ثـم يؤكـد فـي آخـر تلـك الآيات على الإعادة وأنه تعالى مالك الملك وأن الخلق كله إليه سيرجع ويعود.

جــ– قـال تعالى : (**قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعثون ، لقد وعدنـا نحـن وآباؤنـا هـذا مـن قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ، قل لمن الأرض ومن فـيها إن كنـتم تعـلمون ، سـيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كـل شـيء وهـو يجـير ولا يجـار علـيه إن كنـتم تعـلمون ، سـيقولون لله قل فأنـى تسحرون ، بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون**) (المؤمنون : ٨٢ – ٩٠)

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية – ص ٤٠٧ .

هاهــنا يقــرر القــرآن الكــريم التــناقض الفكري والعقدي عند من يؤمن بالله تعــالى ويجحــد البعــث. فهــم يؤمـــنون بأن الأرض والسموات لله تعالى وأنه خالقهن وهــو ربهــن والمعتنـــي بهــن، والمالك لكل شيء فيهن، وهو الذي بيده حماية وحفظ مــن أراد مــن الســوء والحــاق الضــرر والسوء بمن أراد، إذن فما هي الحجة التي يســتطيع هــؤلاء تقديمهــا غير الظن والتخيل. ويطرح القرآن الكريم أدلته على البعث مــن ناحــية أخــرى فــي ربطــه إحــياء الموتى وإخراجهم من الأرض بإحياء النبات وإخــراجه مــن الأرض، وذلك للشبه الكبير بين هذا وذلك فيقول تعالى :﴿ **ونزلـنا من السـماء مـاء مـباركاً فأنبتـنا بـه جـنات وحـب الحصـيد والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾ (ق : ٩ – ١١).

فالإنســان علــى ذلــك فــي تطــور خلقــه وتحولـــه من حال إلى حال يشبه الأرض ومــا تخــرجه مــن نــبات . وهــذا دليل قاطع على علم الله تعالى وقدرته.[1] ومن الآيات الدالة على كيفية البعث مثالان يضربهما الله تعالى لعباده المؤمنين في آيتين متتاليتيــن قــال تعــالى : ﴿ **أو كـالذي مـر علـى قـرية وهـي خاوية على عروشها قـال أنـى يحـيي هـذه الله بعـد موتهـا فأماتـه الله مائـة عـام ثـم بعـثه قال كم لبثـت قـال لبثـت يومـا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشـرابك لم يتسـنه وانظـر إلى حمـارك ولـنجعلك آيـة للـناس وانظـر إلى العظام كـيف ننشـزها ثـم نكسـوها لحمـا فـلما تـبين له قـال أعلم أن الله علـى كل شـيء قديـر، وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلـى ولكن ليطمـئن قلـبي قـال فخـذ أربعـة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل علـى كل جبل مـنهن جـزءا ثـم ادعهـن يأتيـنك سـعيا واعـلم أن الله عزيـز حكـيم** ﴾ (البقرة : ٢٥٩ – ٢٦٠).

---

[1] انظر السيد سابق – العقائد الإسلامية – ص ٢٧٠ .

الحشر :

بعد البعث يجمع الخلائق في مكان يسمى المحشر، وهو أرض غير الارض المبدلة، فهي أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم ولم يظلم على ظهرها أحد وحيث يحشر الناس لا يكون لهم مال ولا أولاد ولا عصبة ولا جاه ولا قوة ولا ناصر، حفاة عراة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تحشرون حفاة عراة غرلا [دون ختان] قالت عائشة رضي الله عنها فقلت يارسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذاك؛ وتلا (**لكل منهم يومئذ شأن يغنيه**) .."[1]

ومن صور الحشر أن يحشر الخلق جماعات، كل طائفة يصحبها أولياؤها من الشياطين ﴿ **فوربك لنحشرهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ (مريم: ٦٨) ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وملأه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ (هود : ٩٦ – ٩٨) ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسؤلون** ﴾ (الصافات : ٢٢ – ٢٤). والحشر وهو ما يسمى بالموقف العظيم الذي يقف الخلائق فيه ويصيبهم الكرب الشديد ، حيث تدنو الشمس من رؤوسهم فيشعرون بالحر والضيق والأذى، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منه كمقدار ميل قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب ٤٥ – جـ ٧ – ص ١٩٥ .

مـــن يكـــون إلـــى ركبتـــيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، وأشار صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه"[1]

وحيـث يشـتد الكـرب علـى الـناس يتوجهون إلى أنبيائهم ورسلهم ليشفعوا لهـم عـند الله، وليخلصـوهم مـن هـذا الموقف، ويبدأ في حسابهم، ويبدأون بأبيهم سـيدنا آدم علـيه السـلام، فيحـيلهم إلـى سيدنا نوح، وهكذا كل نبي يحيلهم إلى من بعـده، حـتى يأتـي دور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع فيهم عند الله تعالى، وهـذه الشـفاعة تسمى بالشفاعة العظمى، التي اختص بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء والمرسلين.

• **الحوض** :

والـناس علـى حـالهم فـي المحشـر مـن الشـدة والعطش والحر والخوف يـرون حـياض الأنبـياء صـلوات الله علـيهم وسـلامه، ولكنهم لا يمكنهم الوصول إلـيها، ومـن أعظـم هذه الأحواض حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أعظمها وأحلاهـا وأكـثرها وارداً[2] هـذا الحـوض العظـيم يصـل إلـيه مـن هم على هدى صـاحبه، فيشـربون مـنه شـربة لا يظمـأون بعدهـا أبـدا، وهـناك أناس يحسبهم الرسـول صـلى الـه عليه وسلم من أصحابه أو من أمته ولكنهم يبعدون عن الحوض فـلا يشـربون مـنه، وقـد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله

---

(1) سـنن الـترمذي – كـتاب صـفة القـيامة – بـاب ٢ – جـ ٤ – ص ٦١٤ + صـحيح مسـلم - كـتاب الجنة وصفة نعيمها – باب ١٦ .

(2) شـرح العقـيدة الطحاويـة ص ٤٠٥ وقـد جـاء الحديـث في سـنن الـترمذي بلفـظ "قـال رسـول الله صـلى الله علـيه وسـلم: إن لكـل نـبي حوضـاً وإنهـم يتـباهون أيهـم أكـثر وارداً وإني أرجـو أن أكـون أكـثرهم وارداً قـال الـترمذي : هـذا حديـث غريـب – كـتاب صفة القيامة – جـ٤ – ص ٦٢٨ – باب ١٤ .

صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له: لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنه أنزلت على آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر، حتى ختمها ثم قال لهم: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء، يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"[1].

والحوض يكون قبل الصراط وقبل الميزان وقد قال القرطبي في ذلك "اختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل، قال القرطبي: والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم .. فيقدم قبل الميزان والصراط"[2].

الحساب :

فإذا قبل الله تعالى شفاعة الرسول الأعظم وشفعه في الخلق بدأ ما يسمى بالعرض على الله تعالى **﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾** (الحاقة:١٨). وتبدأ المحاسبة لكل نفس بما قدمت بين يديها من عمل، وتظهر الأعمال التي كتبت في صحائف الإنسان **﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾** (الإسراء: ١٣ – ١٤). والحساب له طرق مختلفة كأن يقرأ المرء ما كتبته الملائكة من أعماله، وهذا هو المعنى بالكتاب في الآية الكريمة ، كذلك من طرق

---

(١) مسند أحمد بن حنبل - جـ ٣ – ص ١٠٢ – وانظر صحيح مسلم – جـ ١ – ص ٣٠٠ - كتاب الصلاة باب ١٤ .

(٢) نقلا عن شرح العقيدة الطحاوية – ص ٢٢٩ .

المحاسبة أن تشهد الأرض على أعمال الناس ومنها شهادة الأعضاء: اللسان واليد والرجل والجلد بما فعلت ﴿ **حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون،وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾ (فصلت: ٢٠ – ٢١).

الميزان :

وزن الأعمال يعد نوعاً من الحساب "قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها"[1].

والميزان شيء حسي وهو عبارة عن كفتين حسيتين مشاهدتين توضع في كفة الحسنات، والأخرى السيئات قال تعالى: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وقد اختلف فيما يوزن: هل هي الأعمال فقط، أم الأعمال مع الإنسان بمعنى: أن الإنسان يوزن مع عمله، فقيل الثاني واستدل على ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه "إنه ليأتي الرجل العظيم الميت يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : إقرأوا إن شئتم ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا** ﴾ (الكهف: ١٠٥) "[2] وبعض العلماء يرى أن الوزن للأعمال فقط

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية – ص ٤١٧ .

(٢) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – سورة رقم ١٨ جـ ٥ – ص ٢٣٦ .

واستدلوا بعدة أحاديث منها "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان"[١] وقوله صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"[٢].

الصراط :

هو جسر ممدود على متن النار، أحد من السيف وأدق من الشعرة[٣]. وقد ورد لفظ الصراط في ست وأربعين لفظة في القرآن الكريم. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الألفاظ كلها لا تقطع بدلالتها على الصراط بمفهومه في السنة، وهو ذلك الجسر الذي يمر عليه النبيون والملائكة وكل بر وفاجر فلا يتخلف عنه أحد، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : **﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾** (مريم: ٧١ – ٧٢). وقد فهمت السيدة حفصة أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى "**وإن منكم إلا واردها**" أنه لا يمكن لأي كائن أن يتجاوز النار، بل لابد له أن يكون له نصيب في دخولها وسمعت أيضاً في ذلك فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة"[٤].

---

[١] صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب ١ – جـ ١ - ص ٢٠٣ .

[٢] صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب ٦٥ – جـ ٧ – ص ١٦٨ .

[٣] انظر : الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين - جـ ٤ - ص ٥٠٧ .

[٤] سنن الترمذي - كتاب المناقب - باب ٥٧ ، ٥٨ – جـ ٥ – ص ٦٩٥ ، وانظر تفسير الطبري للآيتين ٧١ – ٧٢ من سورة مريم دار الكتب العلمية - ط ١ بيروت ١٩٩٢ - جـ ٨ - ص٣٦٧ .

فقالت حفصة أليس الله يقول :"**وإن منكم إلا واردها**" فقال النبي صلى الله عليه وسلم "**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**" فأشار صلى الله عليه وسلم: إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها. والورود المقصود في الآية هو المرور على الصراط، وتكون فرصة اجتيازه كبيرة بالنسبة للمؤمنين، وأما الكافرون فتخطفهم النار فيهوون فيها "فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر كالمطر ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم مرورا رجل نوره على إبهام رجليه يمر يتكفأ الصراط"[1]

ويحبس المؤمنون قبل دخول الجنة على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص كل منهم من الآخر وهذا ما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله الذي كان في الدنيا"[2]

الجنة والنار :

هما المنزل الأخير من منازل اليوم الآخر، وهما دار القرار، يستقر في أحدهما المتقون وفي الأخرى الكافرون، وقد قال تعالى عن الجنة: ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ (آل عمران: ١٣٣). وعن النار ﴿ **واتقوا النار التي اعدت للكافرين** ﴾ (آل عمران: ١٣١).

---

(١) انظر : صحيح مسلم جـ ١ ص ١٦٩ – كتاب الإيمان – باب ٨١ ، كذلك سنن الترمذي – جـ ٥ ص ٣١٧ – كتاب تفسير القرآن – باب ١٩ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - جـ ١١ – ص ٣٣٦ .

وقد أخذ المفسرون من معنى الإعداد معنى خلق الجنة والنار ووجودهما الآن. وجميع أهل السنة يقرون ذلك، يقول الطحاوي: "والجنة والنار مخلوقتان، لاتفنيان أبدا ولا تبيدان"[1]

وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على خلقهما ووجودهما قبل يوم القيامة منها آيات الخلود، وأيضاً منها قوله تعالى: ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا** ﴾ (النبأ: ٢١ – ٢٢) ومنها ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى** ﴾ (النجم: ١٣ – ١٥).

وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من أنواع نعيم الجنة وكثيراً من أنواع عذاب النار. ففي نعيم أهل الجنة يقول: ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار** ﴾ (الرعد:٣٥) وفي عذاب أهل النار : ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم** ﴾ (الواقعة: ٤١ – ٤٤) .

وفي حديث لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول فيه: "لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"[2].

وللجنة درجات أعلاها جنة الفردوس الأعلى، التي يطلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله تعالى إياها. ومن درجاتها جنة المأوى وعليين

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية – ص ٤٢٠ .

[2] سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب ٥٨ – جـ ٥ – ص ٥١٠ .

ودار السلام وجنات عدن وجنة الخلد. وأما النار فلها دركات ومنها الجحيم وجهنم والسعير والهاوية وسقر والحطمة.

هل الجنة والنار باقيتان؟ :

ينقسم أهل السنة في ذلك رأيين: الأول : لجمهور أهل السنة، وهو الوارد في نص الطحاوية السابق "أنهما لا تفنيان ولا تبيدان أبدا" . أما الرأي الآخر فهو لبعض أهل السنة ومنهم الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهذا الرأي يقول بأبدية الجنة وبقائها وأما النار فليست لها أبدية، ودليلهم على الأولى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾ (هود: ١٠٨) . ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم "من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه"[١] أما فناء النار فلهم فيه قولان الأول "أن الله يخرج منها من يشاء ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه، والثاني أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له"[٢].

ويؤيد الشيخ محمود شلتوت الرأي الثاني ويرى أنه "ليس في القرآن نص قطعي صريح في دوام النار ، وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها وهو يتحقق بأنهم لا يخرجون منها مادامت موجودة أما أنها تنقطع أو تدوم فهذا شيء آخر ليس في القرآن ما يقطع به"[٣].

---

[١] صحيح مسلم - كتاب الجنة - باب ٢١ - جـ ٣ - ص ٢١٨١ .
[٢] شرح العقيدة الطحاوية - ص ٤٢٧ .
[٣] الإسلام عقيدة وشريعة - ص ٤٣ - ٤٤ .

خلاصة القول في الإيمان باليوم الآخر :

١- عقـيدة الإيمــان بـــالله تعالى تستلزم الإيمان باليوم الآخر، لأنه من مقتضى تصـــديقه تعـــالى أن يصدق المرء بعدل الله تعالى وأمره للإيمان بذلك اليوم ونهـــيه عن الكفر به، لأنه حقيقة ثابتة ولذلك فهو عقيدة معلومة من الدين بالضرورة. ومن أنكره فكأنه أنكر عدل الله تعالى وعطل صفاته وبذلك يخرج من دائرة الإيمان.

٢- الإيمـــان بالـــيوم الآخـــر يســـاوي تماما الإيمان بعدل الله تعالى المطلق في الجـــزاء، وبـــأن الكـــون ومـــا به من مخلوقات لا تترك هملا، تملأ حياتها الفوضـــى والظلم والفساد، بل لابد من أن يواجه الخير بالخير ويواجه الشر بشر الجزاء. ومن هنا فهذا الركن من الإيمان له أثر بالغ في التزام الإنسان بحـــدود الخير والنظام والصلاح والاستقامة وعمار الحياة على الأرض الذي لا يتحقق بصورته المطلوبة إلا بالإيمان بحياة أخرى .

٣- يرتبط الإيمان باليوم الآخر بمسؤولية التكليف التي اختص الإنسان بها دون غيره من الكائنات إلا الجن وقد خلق الله تعالى فيه القدرة على الفعل وركب فيه العقل وأعطاه حرية الإرادة ثم كلفه وجعله مسؤولاً بذلك التكليف . وهذه المساءلة تقتضي أن تكون بعد انتهاء العمل بانتهاء الحياة، أي أن تكون في يوم آخر وقد أخبر الله تعالى عن ذلك اليوم ورسم معالمه لكي يستبين المرء عمله وما يترتب عليه.

٤- وإذا خرج المرء من دائرة الإيمان لم تنله منفعة الإيمان باليوم الآخر ، وهي الإحســـاس بالطمأنيـــنة، لأهمية وجوده في الحياة وأنه لم يخلق عبثا ولكنه خلـــق لهـــدف عظـــيم وهو عبادة الله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات: ٥٦).

٥- هـذا الإيمـان يبعث في النفس حب العمل واتخاذ الأسباب والبعد عن الكسل والـتواكل ﴿ **فاستجاب لهـم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكـر أو أنـثى بعضـكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سـبيلي وقـاتلوا وقـتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جـنات تجـري مـن تحـتها الأنهـار ثوابـا من عند الله والله عنده حسن الثواب** ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

٦- هـذا الإيمان يجلب للمرء سعادة الدنيا والآخرة . فهو في الدنيا يخفف وقع الإحسـاس بالمصائب والمكاره على نفس المؤمن، قال رسولنا الكريم صلى الله علـيه وسـلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً لهوإن أصابته ضراء صبر فكان خير له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمـن"[1] فهذا الصبر وهذا الشكر لا يمكن أن يستقيما إلا بالإيمان باليوم الآخر الذي سيجد فه المؤمن نتيجة صبره وشكره.

---

[1] صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب ١٣ - جـ ٣ - ص ٢٢٩٥ .

الفصل الرابع

القضاء والقدر

لقـد دلت السنة النبوية المطهرة على الإيمان بالقضاء والقدر وجعلته ركنا من أركـان الإيمان ، كما سبق لنا معرفته عن حديث جبريل – أما القرآن الكريم فلم يصرح بهـذا الركـن كأصـل منفصل من أصول الدين ، بل أسهب فى الحديث عنه ضمن ركن الإيمـان بـالله تعـالى ذاتـا وصـفات وأفعـالا وأسماء وأحكاما . فهو علم الله تعالى وإرادتـه مـن ناحـية وهـو قـدرة الله تعـالى وفعلـه وخلقـه من ناحية أخرى .

وفـى القرآن الكريم آية صريحة يفهم منها القدر بطريقة مباشرة ، وهى قوله تعـالى :﴿ **قـل لـن يصيبنا إلا مـا كتـب الله لـنـا هـو مولانـا وعلـى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ (الـتوبة : ٥١) . ففى هذه الآية نرى تقديرا واضحا يفيد أن كل ما يقـع فـى الكون من أحداث ، إنما يكون وفق علم وتقدير إلهى سابق ، وخطة مرسومة مـن قبل وكأن الأحداث الكونية سواء أكانت فى عالم الإنسان أم فى عالم الحيوان أم فى عـالم النـبات أم عـالم الجمـادات ، إنمـا تقـع فـيما لا يـزال تطبـيقا لعلـم الله تعالى الأزلى وهذا يفيد :

أولاً : مطلق العلم الإلهى الذى لا يخضع للزمان والمكان .
ثانياً : مطلق القدرة الإلهية التى تستوى أمامها جميع الممكنات .
ثالثاً : مطلق الإرادة الإلهية التى ترجع بعض الممكنات فى الإيجاد والإحداث على بعض وكذلك فى عملية الإفناء والإعدام .

وهــذه المنظومة المطلقة من الصفات الإلهية تتناسق فى تعلقاتها ، لترينا إلى أى حد يمكن للتصور الإنسانى الرائق أن يذعن للكمال الإلهى المطلق وأن الكون – وهو أثــره الواضح– فى قبضته . وأنه لا تأثير لشئ سواه فى هذا الكون الفسيح . وليذعن العقــل أيضـــا – أن العناصــر الكونـــية الـــتى تؤثــر بعضها فى بعض لم يكن للمؤثر خاصــية التأثــير لذاته ، كما أن المتأثر منها لم تكن له هذه الخاصية لذاته أيضا ، لأن فـــاعل التأثـــير فـــى الصـــنف الأول هـــو الله ســـبحانه وتعـــالى ، وفـــاعل التأثير فى الصنف الثانى هو الله سبحانه وتعالى أيضا .

ولــنا أن نقف أمام آية واحدة تتصل بهذا المقام لنتأكد من هذه الحقيقة ، يقول الله تعالى فى سورة النحل :﴿ **هــو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شـجر فـيه تسـيمون . ينبـت لكم به الزرع والزيتون والنـخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ فظاهر الآية يفيد أن الماء الذى أنبت الله بـــه الزرع ليس هو سبب هذه الظاهرة فى الحقيقة والواقع ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى أودع فيه خاصية الإنبات ، كما أودع فى الأرض خاصية القبول لهذه العملية . والدليل على ذلك أن الفاعل للفعل " ينبت " ضمير مستتر يعود على الحق تبارك وتعالى.

القضاء والقدر لغة :

وقد رود لفظ القضاء فى القرآن الكريم بمعان مختلفة منها :

أ– الفــراغ مـــن الشئ وإتمامه كما فى قولـــه تعالى ﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ (القصص : ٢٩) .

ب – ومـــنها الأمـــر والإيجـــاب والإلزام ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ (الإسراء : ٢٣) .

ج- ومنها الإعلام والإخبار كقوله تعالى ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا .** ﴾ (الإسراء : ٤) .

د- ومنها الإيجاد على وجه الإتقان والاختراع والإبداع ﴿ **فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها** ﴾ (فصلت ١٢)

أما القدر فيراد به فى القرآن الكريم – أيضا – معان كثيرة منها :

أ – العلم والإدارة كقوله تعالى ﴿ **إنا كل شئ خلقناه بقدر** ﴾ (القمر ٤٩) .

ب- ومنها الترتيب والتنظيم كقوله تعالى ﴿ **وقدر فيها أقواتها** ﴾ (فصلت ١٠) . [١]

القضاء والقدر اصطلاحا :

القضاء والقدر متلازمان فى الاصطلاح ، ولذلك عرف ابن منظور القدر بأنه " القضاء المرفق فيقال قدر الإله كذا تقديرا ، وإذا وافق الشئ جاء قدره .

القدر والقضاء والحكم وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به الأمور " [٢] .

ولكن هذا التلازم لا يعنى أنهما شئ واحد بل هما معنيان لا ينفك أحدهما عن الآخر " لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه " [٣]

---

[١] انظر القاضى عبد الجبار شرح الأصول الخمسة - مكتبة وهبة - القاهرة ط ١ ـ ١٩٦٥ م . ص ٧٧٠ وما بعدها . وأيضا د / عوض الله حجازى - فى العقيدة الإسلامية والأخلاق - القاهرة ١٩٧٢ - دار الطباعة المحمدية ص ٥٣ .

(٢) لسان العرب ـ مادة قدر جـ ٥ - ص ٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ـ مادة قضى جـ ١٥ - ص ١٨٦ .

ولذلك إذا أطلق لفظ القضاء " بلا تقييد ولا إضافة فإنه ينصرف إلى معنى الخلق والتقدير والإيجاد لذلك فلا يستعمل لفظ القضاء مضافا إلى أفعال العباد حتى لا يظن إنسان أن الله خلقها فى العبد مجبرا على أساسها " [1] .

وإذا أطلق لفظ القدر فيعنى علم الله تعالى وتقديره للشئ وكتابته فى اللوح المحفوظ قبل وجوده ووقوعه ، وبذلك فهو يستلزم القضاء فيقال : بقضاء الله وقدره .

وخلاصة ذلك أن القدر والقضاء يعنيان فى تلازمهما الإيمان بعلم الله تعالى الأزلى بما كان وما هو كائن وما سيكون وإحاطة علمه بكل شئ ، وهذا الاعتقاد بالقدر لا يعنى " اعتقاد أن ما علم الله وجوده من المسببات لابد من وجوده ولو منقطعا عن أسبابه " [2] . ووجود المسببات – كما ذكرنا لا توجد دون أسبابها من سنن وقوانين عامة تربطها بمسبباتها ،. وكتاب الله تعالى يؤكد ذلك " فيقرر لنا أن النصر مع الصبر وأن الرزق مع السعى وأن الأمن فى إقامة الحدود وأن السعادة مرتبطة بالعمل لها قال تعالى ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾ (الأنفال ٦٦) ويقول ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ (الملك ١٥) [3]

عقيدة الجبر والاختيار :

علمنا بأن الإيمان بالقضاء والقدر لازم عن الإيمان بصفات الله تعالى وأنه وحده المتصرف فى هذا الكون وأن الأمور كلها بيده ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى**

---

(1) د/ محمد السيد الجليند - قضية الخير والشر فى الفكر الاسلامى - ط ٢ القاهرة ١٩٨١ م ص ٦١ .
(2) د/ محمد عبد الله دراز – المختار من كنوز السنة - قطر – ص ٢٢٠ .
(3) المصدر نفسه – ص ٢٢١ .

الملك منة تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾
(آل عمران ٢٦- ٢٧)

ولقد كانت محاولة التوفيق بين إيمان المسلم بقدر الله تعالى السابق ومسؤولية الإنسان عن فعله من أهم الأسباب لنشأة الفرق الإسلامية . لأن الإيمان بقضية التكليف مرتبط ارتباطا وثيقا بعقيدة الإيمان بقدر الله تعالى والإيمان بأن الإنسان حامل لتلك الأمانة ومسؤول عنها ركن من الإيمان بقدرة الإنسان وحرية إرادته . وعلى ذلك فهل قدرة الإنسان مؤهلة لأن يكون خالقا لفعله ، بمعنى أن القدر يكون بيده ، أو أن فعله مخلوق لله تعالى وهو ليس له من الخلق شئ ؟ للإجابة على هذا السؤال ظهرت طائفتان .

الأولى : الجبرية وهى التى ترى أن الإنسان وفعله مخلوق لله تعالى ، وهو ليس فاعلا ، بل هو كالريشة فى مهب الريح وأفعاله تنسب إليه على المجاز ، وليس على الحقيقة ، مثله فى ذلك مثل الجمادات وظواهر الطبيعة ، فيقال : فعل الإنسان كما يقال : أمطرت السماء وأشرقت الشمس وجرى النهر وزمجرت الريح وهكذا .

الطائفة الثانية : القدرية وهى ترى أن فعل الإنسان خلق له وأن القدر بيده ، وأن الله تعالى لا يعلم بفعل الإنسان إلا بعد وقوعه وكما قال قائلهم " لا قدر والأمر أنف " [١]

---

[١] القدرية فى الواقع والحقيقة طائفتان : طائفة تسمى : القدرية الأولى ، وهى التى تكر سبق علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها . وتخوض فى القدر بغير علم ، حتى بالغت فى نفيه ، وهى التى جاء على لسانها : لا قدر والأمر أنف ، أى مستأنف وهى طائفة ضالة مضلة والطائفة الثانية تسمى

وظهرت بعد ذلك فرق ينتمى بعضها إلى الفريق الأول وينتمى بعضها إلى الفريق الثانى وإن لم تكن جبرية مطلقة ، أو قدرية مطلقة مثال ذلك : الأشاعرة فهل وإن لم يكونوا جبرية مطلقة إلا أنهم يرون أن الإنسان ليس له فعل على الحقيقة واستدلوا بقوله تعالى ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ (الصافات ٩٦) . وهم بذلك أرادوا إثبات عموم المشيئة المطلقة لقدرة الله تعالى فى العبد وفعله . ولم يكن هدفهم من ذلك نفى المسئولية عن الإنسان ، بل هو مسئول عن فعله الذى اكتسبه وبذلك قالوا عبارتهم المشهورة فعل الإنسان لله خلقا وللعبد كسبا فالمسئولية هنا تنصب على اكتساب الإنسان لفعله لا على أنه خلقه .

وأما المعتزلة وإن لم يكونوا قدرية مطلقة إلا أنهم قالوا بخلق الإنسان لفعله وأكدوا على حرية إرادته فى ذلك الفعل ، الأمر الذى يتناسب مع عدالة الله تعالى فى التكليف ثم المساءلة والمجازاة . ولكنهم من ناحية أخرى لم يحدوا من القدرة الإلهية ، بل كان جل همهم تثبيت معنى العدل الإلهى .

موقف أهل السنة من القضاء والقدر :

١ - قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم : ((إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليله نطفه ثم يكون علقه مثله ثم يكون مضغة مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقة وأجله وعمله وشقى أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار

= بالقدرية الثانية وهى التى تنسب أفعال العباد إليهم ، بل تبالغ فتزعم الله تعالى لا يقدر على الفعل الذى يقدر عليه الإنسان ، وتلبس فكرتها الضالة هذه ثوب التنزيه المزعوم ، لأن القول بذلك يقتضى أن تكون قدرة الله تعالى محدودة ، والحق أن صفاته تعالى مطلقة . والطائفتان ضالتان ومضلتان كما ذكرنا .

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها [1] .

٢- وقال صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا وقد كتبت شقية أم سعيدة ، فقال رجل : يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكل ميسر " أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ : **﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾** (الليل ٥ - ١٠) [2]

والحق أن الجبرية الخالصة والقدرية الخالصة ليستا على حق ، فإذا كانت الأولى قد بالغت في عموم القدرة والفعل . فإن الثانية قد بالغت في عموم العدل ، وبمعنى آخر : كان فهم كل منهما لمعنى الصفة الذى انطلقت منه غير صحيح ، ولم ينظروا إلى تناسق الصفات الإلهية ، والنظر إليها في إطار كلى متكامل ، لأن تجزئة النظر إلى تلك الصفات يتعارض مع التنزيه الإلهى . ألا ترى أن تصور القدرة الإلهية على معنى يشمل تأثيرها فى الفعل الإنسانى على الحقيقة : يعنى أن الإنسان مجبر فى أفعاله . وفى هذا ما يصادم قضية التكليف والمسئولية ، لأنهما لا يكونان إلا حين تكون الحرية الإنسانية تجاه الأفعال والقدرة عليها ، كما أن تصور العدل الإلهى على معنى يؤدى إلى استقلال الإنسان تجاه أفعاله ، يؤدى إلى تحجيم

---

(١) صحيح البخارى - كتاب التوحيد - باب ٢٨ - جـ ٨ ص ١٨٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب التوحيد - باب ٥٤ - جـ ٨ ص ٢١٥ واللفظ لمسلم فى صحيحه كتاب القدر - باب ١ - جـ ٣ ص ٢٠٣٩ .

القدرة الإلهية ، وعدم إطلاقها ، وهذا ما يتعارض مع قوله تعالى :**﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ﴾** (أول سورة الملك) .

إن هذا التباعد بين الجانبين يؤكد وجود منطقة وسط بين مبالغة كل منهما وهى الـتى يعطى فيها للحق سبحانه وتعالى كمال القدرة والعدل ، وللإنسان القدر الكافى من الحـرية والقـدرة ، ممـا يؤهله لمسئوليته التامة أمام أفعاله الاختيارية ، ومن ثم فلا جبرية مطلقة للإنسان ، كما يرى الأولون ، ولا حرية مطلقة له كما يرى الآخرون ، بل الإنســان مجبر ومختار فى آن واحد وليس فى ذلك أدنى تناقض، لأن جهة جبره ، غير جهــة اختــياره والروح السائدة فى القرآن الكريم بالنسبة لهذه القضية يؤخذ منها هذا المعـنى الـذى أشـرنا إليه ، مثل قوله تعالى :**﴿ لها ما كسبت وعليها اكتسبت ﴾** (البقرة الآية الآخيرة) وقوله : **﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾** (المدثر : ٣٨) ومـا جـاء فى بعض النصوص مما يفيد ظاهره غير هذا المعنى ، فإنما ينبغى أن ينظر إليه فى ضوء : عموم القدرة والإرادة الإلهية ، ومسئولية الإنسان عن أفعاله الاختيارية

وللعلامـة ابـن قيم الجوزية مناظرتين فى كتابه القيم : شفاء العليل ، إحداهما بين جبرى وسنى والآخرى بين قدرى وسنى ، انتهى فيهما إلى أن القول بالجبر المطلق يتعارض مع الشرع والعقل . كما أن القول بالاختيار المطلق يتعارض مع الشرع والعقل كذلك فليرجع إليهما . [١]

٣- وقـال صـلى الله علـيه وسلم : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء " [٢]

---

(١) المناظرة من ص ١٣٩ – ١٥٢ والثانية من ١٥٢ – ١٧٨ ط دار المعرفة بيروت .
(٢) صحيح مسلم – كتاب القدر – باب ٢ – جـ٣ – ص ٢٠٤٤ .

نفهـــم مـــن تلـــك الأحاديث الشريفة أن تقدير الله تعالى للشئ يتضمن الإيمان بالآتى :

أ- علم الله تعالى المحيط بكل شئ زمانا ومكانا ومادة **﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلـــن ومـــا يخفـــى عـــلى الله مـــن شـــئ فـــى الأرض ولا فـــى الســـماء ﴾** (إبراهيم:٣٨) .

ب- كتـــب الله تعـــالى كـــل مـــا ســـيقع فى كتاب عنده وهو ما يسمى باللوح المحفوظ **﴿ مـــا أصـــاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نـــبرأها إن ذلـــك عـــلى الله يســـير ﴾** (الحديد : ٢٢) . **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا على الله فليتوكل المؤمنون ﴾** (التوبة : ٥١)

جـــ- الله هـــو الخـــالق لكل شئ وكل ما يقع لا يخرج عن مشيئته **﴿ ولو شاء الله ما اقتـــتل الذيـــن من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم مـــن آمـــن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾** (البقرة : ٢٥٣)

إذن فأفعـــال العبد الاختيارية هى من خلق الله تعالى ولكنها أيضا من عمل العبد وتقع بقدرته ومشيئته واختياره **﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها مـــا اكتسبت ﴾** (البقرة :٢٨٦) . فلا جبر يقدح فى مسئولية التكليف ولا اختيار يلغى القـــدر الإلهـــى [1] . وحـــول هـــذا المعـــنى قســـم شـــيخ الإســـلام ابـــن تيمـــية الإيمان بالقدر إلى درجتين " كل درجة تتضمن شيئين :

الدرجـة الأولى : الإيمـــان بـــأن الله تعـــالى علـــم مـــا الخلـــق عاملون بعلمه القديـــم .. وعلـــم جمـــيع أحوالهم من الطاعات والعاصى والأرزاق والآجال . ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق .

---

[1] محمد فتح الله عبد الكريم - الإيمان فى القرآن - قطر ص ١٢٨ .

أمـــا الدرجـــة الثانية : فهى الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وهو الإيمـــان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون فى ملكه ما لا يريد ، وأنه ســـبحانه علـــى كـــل شئ قدير من الموجودات والمعدومات .. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعـــته وطاعـــة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين .. ويرضـــى عـــن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاســـقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة ، والله خالق قدرتهم وإرادتهم [1]

إذن فهـــنا فرق بين الإرادة والأمر والوقوع والرضى ، فإرادة الله تعالى تشمل كـــل ما فى الكون ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، ولكنه يأمر بالخير ويحبه وإذا وقع من عـــباده ما أمرهم به رضى عنهم وأثابهم ، وينهى عن الشر ويكرهه وإذا وقع من عباده ســـخط علـــيهم وعاقبهم وهذا هو مذهب أهل السنة . إلا أنهم فرقوا بين الإرادة الكونية والإرادة الشـــرعية ، وعلـــى ذلـــك فـــالإرادة الكونـــية هـــى التى لا يتخلف مرادها ع لـــى الإطـــلاق، بمعـــنى أن المراد يقع أراد البشر أم لم يريدوا ومثال ذلك قوله تعالى : **﴿ إنمـــا أمـــره إذا أراد شـــيئا أن يقـــول له كـــن فـــيكون ﴾** (يـــس : ٨٢) . أمـــا الإرادة الشـــرعية فهـــى الإرادة الـــتى قـــد يـــتخلف مرادها وهى التى إذا وافقت أمـــره ونهـــيه رضـــى وأحب من استجاب وإذا لم توافق أمره ونهيه سخط وكره من لم يســـتجب ، وهـــذه الإرادة قـــد تـــتفق مـــع الأمـــر والرضـــى وهـــذا الـــتفريق بيـــن الإرادة الكونـــية والإرادة الشـــرعية فـــى تصـــورى – هـــى الفكـــرة الـــتى حـــل بها أهل السنة إشكال مفهوم الجبر فى إرادة الله تعالى بلا إرادة عباده وكأنهم بذلك

[1] الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

يؤكـــدون علـــى ارتـــباط إرادة الله تعـــالى الشرعية بأمره ومحبته ورضاه عن الأفعال الاختـــيارية للإنســـان دون غـــيرها من الأفعال الاضطرارية المتعلقة بالإرادة الكونية .

هل يوصف الله تعالى بأنه خالق للشر كما هو خالق للخير ؟

الإجابـــة علـــى هذا السؤال : لا يجوز إضافة الشر إلى الله تعالى مفردا وإنما يجوز أن يدخل الشر فى العموم ، أى فى عموم خلق الله تعالى كقوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل** ﴾ (الزمر : ٦٢)

ويجوز أن يذكر بحذف فاعله كقول الجن : ﴿ **وأنـا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهـم ربهـم رشـدا** ﴾ (الجـن : ١٠) ويجوز أن يضاف إلى السبب كقوله تعالى : ﴿ **من شر ما خلق** ﴾ (الفلق : ٢) .

إذن فالخـــير يضـــاف إلـــى الله تعالى جملة وتفصيلا ، والشر لا يضاف إليه ، وتوضيح ذلك يأتى فى تفسير الآيتين التاليتين قال تعالى ﴿ **وإن تصبهم حسنة يقولوا هـذه مـن عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمـال هـؤلاء القـوم لا يكادون يفقهون حديثا ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصـابك مـن سيئة فمـن نفسـك وأرسـلناك للـناس رسولا وكفى بالله شهيدا** ﴾ (النساء ٧٨ - ٧٩) .

والحســـنة هـــنا بمعـــنى الرخاء والسعة ، والسيئة بمعنى الشدة والضيق ، ولا تناقض بين الآية الأولى والآية الثانية فى قوله تعالى﴿ **قـل كـل من عند الله** ﴾ وقوله ﴿**ومـا أصـابك مـن سـيئة فمـن نفسـك** ﴾ لأن كل الأفعال مخلوقة لله تعالى ، والله تعـالى يـــنعم على عباده بالحسنات ابتداء وبلا سبب كالرزق والعافية والنصر، أو بعمل المـــرء للخـــير ، وعملـــه ذلـــك هـــو إحســـان مـــن الله تعـــالى علـــيه بأن من عليه

بالهدايـــة والإيمـــان : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ (الأعـــراف : ٤٣) . فقولـــه ما أصابك من حسنة فمن الله ، حق من كل وجه ظاهرا وباطنا على مذهب أهل السنة [١] .

أمـــا السيئة والشر فهو يصيب المرء عقوبة على ذنبه أو ابتلاء واختبار . فإن أصـــابه عقوبة فذلك عدل من الله تعالى والشر هنا حسن من وجه العدالة ، وإن أصابه الشـــر ابـــتلاء فهـــذا أيضا خير وحسن من وجه آخر وهو أن الله تعالى يجازى الإنسان بالخير على كل مشقة يبتليه بها . لذلك فالشر لا يضاف إلى الله تعالى وإن كان خلقا له على العموم .

وهـــو تقـــدس اســـمه مـــنزه عـــن الشر المطلق وأما الشر الجزئى فله وجوه خـــير – كمـــا ذكـــرنا – ولذلـــك نقـــول إن فعل الله تعالى كله يتصف بالخيرية بطريق مباشـــر أو غـــير مباشـــر ، ولابـــن تيمـــية فى ذلك تحليل قيم يقول فيه : "إن الحسنة مضـــافة إلـــيه ،لأنـــه أحســـن بهـــا من كل وجه .. فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضـــى الإضـــافة إلـــيه ، وأمـــا الســـيئة فهو إنما يخلقها بحكمة ، وهى باعتبار تلك الحكمـــة مـــن إحســـانه ، فـــإن الـــرب لا يفعل سيئه قط ، بل فعله كله حسن وحسنات وفعلـــه كلـــه خـــير . ولهـــذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح " والخـــير بـــيديك والشر ليس إليك " [٢] فإنه لا يخلق شرا محضا بل كل ما يخلقه ففيه حكمـــة هـــو باعتـــبارها خـــير ، ولكـــن قـــد يكـــون شر لبعض الناس وهو شر جزئى إضـــافى ، فأمـــا شـــر كلـــى أو شـــر مطلق فالرب منزه عنه وهذا هو الشر الذى ليس إليه " [٣] .

---

(١) ابن تيمية - الحسنة والسيئة - دار الباز - مكة المكرمة ص ٤١ .
(٢) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين - باب ٢٦ ج١ ص ٥٣٥ .
(٣) الحسنة والسيئة- ص ٤٤ .

وتظهـــر أهمية الإيمان بالقدر عند أهل السنة فى صحة الفهم لهذه العقيدة التى يزداد فى ظلها الإيمان بوحدانية الله تعالى وتتمثل فى الإيمان بصفاته وعلى رأسها العلم والقـــدرة والإرادة . ومـــن هنا فلا يعبد إلا الله ولا يرجى ولا يسأل إلا الله ولا يتوكل إلا علـــيه ولا يســـتعان إلا به . وبنظرة متوازنة للآيات التى يوهم ظاهرها التناقض فيجمع ويوفق بين الآيات التى يثبت ظاهرها الجبر كقوله تعالى : ﴿ **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله** ﴾ (الإنســـان : ٣٠) والآيـــات الكـــريمة الـــتى تثبـــت الاختـــيار كقولـــه تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (الكهف :٢٩) .

موقف الرسول الأعظم من المجادلة فى القدر :

لقـــد نهـــى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم عن الخوض فى القدر وذلك بسبب خفائه وعدم إدراك العقل لحقيقته الغيبية ، وقد كانت صعوبة إدراك حقيقة القدر سببا فى ســـوء الفهم عند كثير من المسلمين ، ومن ثم فى تفرقهم وضلال الكثير منهم ، لذلك لم يكـــن التوجـــيه النـــبوى فـــى الإمساك عن القدر وعدم البحث فيه غضا من قيمة العقل الإنســـانى أو الفكر البشرى ، بل كان صونا للعقل عن الدخول فى مستوى يعلو على كل طاقاتـــه وإمكاناتـــه الفكـــرية ، وعصـــمة لأحكـــام العقـــل نفسه عن الوقوع فى الخطأ والتناقض والضلال ، من هنا جاء نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كثرة المحاورة والمجادلـــة والممـــاراة حـــول القـــدر والتعمق فيه ، والاكتفاء بمعرفة معناه ودرجاته ، وأن يؤمـــن المـــرء بـــه فـــى إطـــار حقـــيقة محددة هى : أن الله تعالى عالم بكل شئ وخـــالق كـــل شـــئ، وأنه عادل لا يظلم أحداً وأنه حكيم منزه عن العبث ، وأن الإنسان مسير فى أمر ومخير فى أمر .

فهـــو مســـير فـــى إطـــار إرادة الله تعـــالى الكونية ولذلك لا يساءل عن أفعاله الاضـــطرارية ، أو مـــا يقـــع من أقدار الله تعالى عليه ، وهو مخير فى إطار إرادة الله

تعالى الشرعية التى تدخل تحتها أفعال الإنسان الاختيارية وهو مسؤول عنها وسيحاسب عليها . وعلى الإنسان أن يجتهد فى عمله خلال هذا الإطار وأن يطمئن قلباً ونفساً لقضاء الله وقدره ، ولا يرهق عقله فيما ليس تحته طائل من أمور القضاء والقدر الغيبية التى لا يستطيع عقله أن يصل إليها .

وفى كراهية الرسول صلى الله عليه وسلم للنزاع حول القدر يروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقىء فى وجنيته حب الرمان فقال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حيث تنازعوا فى هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه "(١) .

وقد سئل على بن أبى طالب عن القدر فأجاب سائله ، مقتفيا هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طريق مظلم لا تسلكه ، فكرر السائل عليه السؤال فقال له : بحر عميق لا تلجه . فكرر عليه السؤال فقال : سر الله قد خفى عليك فلا تكلفه. (٢)

مفاهيم تتفرع على الإيمان بالقضاء والقدر :

أولا : الهداية والإضلال :

لا يعنى مفهوم الهداية والإضلال فى قوله تعالى : : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون** ﴾ (النحل : ٩٣) الإجبار على الإضلال أو الهداية ، بل معنى الهداية العون والدلالة على

---

(١) سنن الترمذى – كتاب القدر – باب ١ - حديث رقم ٢١٣٣ .
(٢) انظر سيد سابق – العقائد الإسلامية – ص ٩٩ .

الطـريق الموصل إلى الخير لمن أراده وجاهد فى الوصول إليه . ومعنى الإضلال العون والدلالـة علـى الطـريق الموصـل إلـى الشـر لمن أراده وجاهد فى الوصول إليه .

فمـن شـاء الهدايـة أعانـه الله تعالى عليها ، ومن شاء الضلال أعانه عليه فالهداية والإضلال هى نتائج لمقدمات ومسببات لأسباب .. وإسناد الهداية والإضلال إلى الله مـن حيـث إنـه وضـع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلال والهدايـة " [1] يؤكـد ذلـك المعنى كثير من الآيات الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **والذيـن جـاهدوا فيـنا لـنهديهم سـبلنا** ﴾ (العنكبوت : الآية الأخيرة)، ﴿ **يضـل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ (البقرة : ٢٦)، ﴿ **يثبت الله الذين آمـنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مـا يشـاء** ﴾ (إبراهـيم : ٢٧)، ﴿ **فـلما زاغـوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ (الصف : ٥) .

فإجمـال النصوص يهدينا إلى أن الله تعالى لا يبدأ العبد بالهداية أو الإضلال إلا إذا اتخـذ الإنسـان أسبابا لهدايته أو إضلاله ﴿ **إنـا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا**﴾ (الإنسان :٣) ، ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاهـا وقـد خـاب مـن دسـاها** ﴾ (الشمس: ٧ - ١٠) . فقد خلق الله تعالى نفس الإنسـان قابلـة للفجـور والتقوى فإلهامه لها متساو فى جانبيه ، وهو سبحانه أعطى الإنسان القدرة على اكتساب أحدهما ، وأبان له طريق الخير والشر وأمره ونهاه ، وترك لـه الاختيار بعد ذلك وهو ييسر له اختياره بهدايته وإضلاله ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصـدق بالحسـنى فسنيسـره لليسـرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسـره للعسـرى** ﴾ (الليل: ٥ - ١٠) . فالتيسير فى الأولى يتوقف مع الهداية والتيسير فى الثانية يتوقف مع الإضلال .

---

[1] المصدر نفسه – ص ١٠٦ .

ثانيا : بطلان الاحتجاج بالقدر :

إذا آمــن المــرء بالقدر على النحو الذى بيناه لم يسوغ له الاحتجاج بالقدر فى أفعالــه الاختيارية ، كأن يعتقد مثلا اشتمال القدر على الجبر والقهر ، الأمر الذى يجعله غــير مطمئن النفس من ناحية عمله الصالح وطاعاته ، ويجعله من ناحية أخرى يتعلل بــالقدر فى تخليه عن مسؤولية التكليف ويحاول دفع اللوم عن نفسه على ما اقترفه من ذنوب ومعاص .

والمحــتج بالقدر على هذه الصورة شبيه فى حاله بحال المشركين حيث احتجوا بالقدر على شركهم فيما حكاه عنهم القرآن الكريم **﴿سـيقول الذيـن أشـركوا لوشاء الله مــا أشــركنا ولا أباؤنــا ولا حرمــنا مــن شــئ ، كذلــك كــذب الذيــن مــن قبــلهم حــتى ذاقــوا بأســنا ، قــل هــل عــندكم مــن عــلم فــتخرجوه لــنا ، إن تتبعون إلا الظــن وإن أنــتم إلا تخرصــون . قــل فلــله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾** (الأنعام ١٤٨ – ١٤٩) . فالله تعالى يذم المشركين وينكر عليهم احتجاجهم بالقدر .. واســتنتاجا مــن هــذه الآية الكريمة ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى إبطال الاحتجاج بالقدر شرعا وعقلا وطبعا على النحو التالى :

١- لــو كان الاحتجاج بالقدر حجة لكان للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فإن كــان كــل مــا يحــدث فى الوجود فهو مقدر ، فالمحق والمبطل يشتركان فى الاحتجاج بالقدر إن كان الاحتجاج به صحيحا .

٢- ولــو كــان القــدر حجة وعذراً للزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وحينــئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم فى نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصــر مــن الظــالم ولا يغضــب علــيه ولا يذمــه . وهذا أمر ممتنع فى الطبيعة ولا يمكن لأحد أن يفعله .

٣- لو كان القدر حجة وعذراً لم يكن إبليس ملوماً ومعاقباً ، ولا فرعون وقوم نوح وعـاد وثمود وغيرهم من الكفار ، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ولا إقامة الحدود ولا القصاص ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً فى فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء " [١] .

والله تعالى فى رده على المشركين ومواجهته لكذبهم واعتمادهم على الظن دون العلـم ، يعمـد إلى تصحيح منهج الفكر والنظر القيم وذلك بإرشادهم إلى التفكير والعمل فـيما يجـدى ويـنفع وعـدم الخوض فيما يختص بمشيئة الله تعالى من الأمور الغيبية وفـى ذلك يقول سيد قطب : " إن لله أوامر ونواهى معلومة علماً قطعيا ، فلماذا يتركون هـذه المعلومـات القطعية ليمضوا وراء الحدس والخوض فى واد لا يعلمونه ؟ هذا هو فصـل القـول فى هذه القضية .. إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه ، وإنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ليكيفوا أنفسهم علـى حسـبها ... وهـم حيـث يحـاولون هـذا يقـرر الله سبحانه أن يهديهم إليه ويشـرح صـدورهم للإسـلام .. وهـذا حسـبهم فـى القضـية الـتى تـبدو عـندئذ فـى واقعهـا العلمـى يسيرة واضحة بريئة من غموض الجدل وتحكماته "[٢] .

ثالثا : الرضا :

عقـيدة القـدر تسـتلزم بمـا ينـتج عنه ، بل تستلزم ما هو أكثر من التسليم وهـو " الرضـا " ومعـنى الرضـا بالقضاء والقدر هو عدم الاعتراض على الله تعالى فـى تصـرفه وفـى إيجـاده للأشـياء سواء أكانت خيرا أم شرا ، إن الرضا بالقضاء

---

[١] انظر رسائل وفتاوى شيخ الإسلام - تحقيق محمد رشيد رضا - مكتبة وهبة ط٢ - القاهرة ١٩٩٢- ج١ - ص ١٣٧ ١٣٨ .

(٢) فى ظلال القرآن - دار الشرق - ط ٨ القاهرة ١٩٧٩م - ج٨ ص ١٢٢٧ .

والقـــدر يســـتلزم العمـــل بكل ما كلفنا الله به أو نهانا عنه من غير تبرم أو ضجر [1] . فالرضــا يعـــنى ســـكون الـــنفس وطمأنينة القلب ، ولا يعنى الإحباط والسخط والانهزام وخور العزيمة .

رابعا : اتخاذ الأسباب والتوكل على الله .

الرضــا بقضـــاء الله وقـــدره يســـتلزم العمل والتوكل . فإذا حسن إيمان المرء بمســـألة القضـــاء والقـــدر وأيقـــن أن كل ما يقع فى هذا الكون بعلم الله تعالى وقدره وإرادتـــه كـــان فـــى حالة من الاستسلام الصحى السليم ، يظهر ذلك فى طمأنينة نفسه ورضـــا قلـــبه وعقلـــه ، وإذا كان مطمئنا لعدل الله تعالى رأى أن لكل ما يقع عليه فى هـــذا الكـــون مـــبرراً مـــن عدل الله ، وأن الوجود كله يسير وفق حكمة عادلة فتسكن نفســـه لا تفـــرح فـــرح الـــبطر والكبر والعجب إذا أقبلت عليها الدنيا ولا تحزن وتجزع وتســـخط إذا أدبرت عنها وفى ذلك يقول تعالى : **﴿ مــا أصاب من مصيبة فــى الأرض ولا فــى أنفســكم إلا فــى كــتاب مــن قــبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأســوا علــى مــا فــاتكم ولا تفــرحوا بمــا آتــاكم والله لا يحــب كــل مخــتال فخــور ﴾** (الحديـــد ٢٢ – ٢٣) . وقال تعالى **﴿ وعســى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحــبوا شــيئاً وهــو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** (البقرة :٢١٦) .
ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول " عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ،إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له "[2]

وهـــذه الطمأنيـــنة المتمـــثلة فـــى الشكر والصبر مرجعها إلى الاعتقاد الجازم بخـــيرية فعـــل الله تعـــالى وبأنـــه هـــو الفـــاعل على الحقيقة كما قال صلى الله عليه

---

(١) د/ عوض الله حجازى - فى العقيدة والأخلاق - ص ٥٦ .
(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب ١٣ – ج٣ ص ٢٢٩٥ .

وسلم : يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف "[1]

ألا يبعث هذا الكلم الطيب على الشجاعة والإقدام والكرامة وعزة النفس ، فلا يخشى المرء إلا الله ، النافع الضار ولا يستعين إلا بالله الناصر والمعز والمذل .. ألا يزود هذا الكلم الطيب النفس بالتوكل على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب من سعى إلى الرزق وجد واجتهاد فى تحصيل العمل الصالح واجتناب عمل الشر والمعاصى . هذه دعوة رئيسية واضحة المعالم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)** (الانفعال : ٦٠) .

وسيرة الرسول الأعظم وأصحابه حافلة باتخاذ الأسباب ثم التوكل على الله تعالى . قال صلوات الله عليه وسلامه :" المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان " [2]

وقال صلى الله عليه وسلم " ما أنزل الله داء إلا أنزل له الشفاء "[3] وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رحلته إلى الشام وعلمه بأن الطاعون منتشر فيها ، قرر العودة إلى المدينة المنورة خشية انتقال هذا الوباء له

---

[1] سنن الترمذى – كتاب القيامة - باب ٥٩ – ج ٤ – ص ٦٦٧ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) صحيح مسلم – كتاب القدر - باب ٨ - ج ٨ - ص ٢٠٥٢ .

(٣) صحيح البخارى – كتاب الطب – باب ١ - ج ٧ - ص ١٢ .

ولصـــحبه فقـــال له أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله يا عمر ؟ فقال له عمر : نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله .

لقــد فهــم عمر بن الخطاب القدر على حقيقته ، فاتخذ الأسباب ولم يلق بنفسه إلـــى التهلكة وعد عمله ذلك من وجود الإيمان الكامل بقدر الله تعالى الذى أمره أن يتخذ لكل شئ سببا ليصبح بعد ذلك توكله عليه .

سوء الاعتقاد فى القدر :

إن سوء عقيدة المسلمين فى القدر هى من أسباب تخلفهم فى يوم الناس هذا ، حيث قعدت بهم هممهم عن الأخذ بالأسباب الحقيقية للنهضة والتقدم ، ناسين أو جاهلين أو متجاهلين أن هناك حقيقة واضحة هى : أن الله سبحانه وتعالى أقام الوجود كله على قـــانون الأســـباب والمســـببات . وأن القول بخلاف ذلك ليس صحيحا . وفى تقدير هذا القانون ما يحفز النفس الإنسانية إلى التطلع لتصل إلى درجة من الكمال الإنسانى . وفى إهمال هذا القانون يكون التخلف عن ركب الحياة . من ثم نرى فى اطمئنان أن المسلمين هــم الذيـــن يملكون بيدهم عوامل ضعفهم أو قوتهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن لهم عقيدة صحيحة متسقة مع الفطرة الصحيحة والعقل الصريح . وأن الكون مبسوط بعناصره لهم ولغـــيرهم كى يستغلوه فى ما يسعدون به ويسعد به غيرهم . فإن المحصلة النهائية لهذا كله تجعلنا فى حل من القول بأن الإسلام العظيم هو منهج الله الذى لا يتبدل ولا يتحول ، وأن أحـــوال المســـلمين مـــن قوة وضعف . وتقدم وتأخر أمر يرجع إليهم وحدهم . ولا يمس الإسلام فى شئ .

أهم المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : صحيحا البخاري ومسلم وبقية كتب السنة.

ثالثاً : المصادر والمراجع المتخصصة.

١- الأرناؤوط "الشيخ شعيب" : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان. ط. بيروت سنة ١٩٩٠ .

٢- الأعسم "الأستاذ الدكتور عبد الأمير" : ابن الراوندى في المراجع العربية الحديثة ط بيروت سنة ١٩٧٨ .

٣- الألباني : وهبي سليمان. أركان الإيمان. مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٩٧ .

٤- الايجى "عضد الدين" : المواقف. ط. ساسى . سنة ١٩٠٧ .

٥- ابن تيمية "شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم" :

١- النبوات. ط بيروت سنة ١٩٨٥ .

٢- الحسنة والسيئة : دار الباز – مكة المكرمة سنة ١٩٩٣ .

٣- درء تعارض العقل والنقل ط. السعودية سنة ١٩٨٦ .

٤- مجموعة الفتاوى – ط. السعودية سنة ١٩٧٥ .

٦- ابن خلدون "عبد الرحمن" المقدمة. فصل علم الكلام. القاهرة بدون تاريخ.

٧- ابن خلكان "أبو العباس شمس الدين حسين محمد" : وفيات الأعيان. ط دار صادر بيروت.

٨- ابن منظور : لسان العرب : ط . بيروت سنة ١٩٩٥ .

٩- ابن كثير "أبو الفداء إسماعيل" :

١- تفسير القرآن العظيم . ط. بيروت سنة ١٩٨٦ .

٢- قصص الأنبياء . ط. القاهرة سنة ١٩٨١ .

١٠- أبو زهرة "الشيخ محمد" :

١-محاضرات في النصرانية. ط. دار الفكر العربي. القاهرة سنة ١٩٦١ .

٢-تاريخ المذاهب الإسلامية. ط. دار الفكر العربي. القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٣-خاتم النبيين. ط. دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩٣ .

١١- البهى : الأستاذ الدكتور محمد : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي القاهرة سنة ١٩٦٧ .

١٢- بينيس "المستشرق المعروف" مذهب الذرة عند المسلمين. ط. القاهرة سنة ١٩٤٦ .

١٣- البغدادى "أبو منصور عبد القاهر بن طاهر" :

١-أصول الدين . ط. استانبول سنة ١٩٢٨ .

٢-الفرق بين الفرق. بيروت سنة ١٩٩١ .

١٤- البيجوري الشيخ إبراهيم : تحفة المريد على جوهرة التوحيد - القاهرة سنة ١٩٧٠ .

١٥- التفتازاني "سعد الدين" : المقاصد. ط. استانبول سنة ١٣٧٧ هـ .

١٦- الجاحظ "ابو عثمان عمرو بن بحر" : الحيوان . ط. القاهرة سنة ١٩٦٦ .

١٧- الجليند : الأستاذ الدكتور محمد السيد : قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي. القاهرة سنة ١٩٨١ .

١٨- الجويني "إمام الحرمين" : الإرشاد إلى قواطع الأدلة. ط. القاهرة سنة ١٩٥٠ .

١٩- جولد زيهر "المستشرق المعروف" : العقيدة والشريعة في الإسلام . ط. القاهرة سنة ١٩٥٩ .

٢٠- حجازي : الأستاذ الدكتور عوض الله : في العقيدة الإسلامية والأخلاق . القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٢١- الخياط "أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد" : الانتصار والرد على ابن الـراوندى الملحد . ط. بيروت سنة ١٩٨٨ .

٢٢- دراز : "الأسـتاذ الدكـتور محمـد عـبد الله" - المخـتار من كنوز السنة - قطر سنة ١٩٨٢ .

٢٣- دنـيا "الأسـتاذ الدكـتور سليمان" : الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين. ط. القاهرة سنة ١٩٥٨.

٢٤- الرازي "فخر الدين" التفسير الكبير. ط. دار الفكر - بيروت سنة ١٩٨١ .

٢٥- زقـزوق "الأسـتاذ الدكـتور محمـود" : دراسـات في الفلسفة الحديثة. ط. دار الفكر العربي. القاهرة سنة ١٩٩٣ .

٢٦- سابق "الشيخ سيد" : العقائد الإسلامية - بيروت سنة ١٩٨٢ .

٢٧- السنوسـي "الإمـام أبـو عـبد الله محمـد بـن يوسـف" : شـرح السنوسية . ط. الكويت سنة ١٩٨٢ .

٢٨- الشهرستاني "أبو الفتح بن عبد الكريم" :

١- الملل والنحل . ط. بيروت سنة ١٩٨٠ .

٢- نهاية الاقدام ط. الفرد جيوم .

٢٩- شلتوت : الإمام الأكبر الشيخ محمود : الإسلام عقيدة وشريعة - دار الشروق القاهرة سنة ١٩٧٧ .

٣٠- عطـوان "الدكـتور حسـين" : الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول. ط. دار الجيل - بيروت .

٣١- عـبد الجـبار "قاضـي القضـاة" شـرح الأصـول الخمسـة . ط. القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٣٢- الغزالـي "ابـو حـامد" : المنقذ من الضلال . تحقيق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود . ط. بيروت سنة ١٩٨٥ .

٣٣- قطـب : الأسـتاذ سـيد : فـي ظـلال القـرآن - دار الشـروق - القاهرة سنة ١٩٧٩ .

٣٤- كـرم "الأسـتاذ يوسـف" : تـاريخ الفلسـفة الحديثة. ط. دار المعارف القاهرة ١٩٨٦ .

٣٥- مدكـور "الأسـتاذ الدكـتور إبراهـيم" في الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه ط. دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٣٦- الماتـريدى "محمـد بـن محمـد بـن محمـود أبو منصور" : التوحيد - تحقيق د / فتح الله خليف .

٣٧- مـزروعة : الأسـتاذ الدكـتور محمود محمد : دراسات في الدين - القاهرة سنة ١٩٨٩ .

٣٨- المغربـي "الدكـتور علـى عـبد الفتاح" : إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدى . ط. القاهرة سنة ١٩٨٥ .

٣٩- الميدانـي : الشـيخ عبد الرحمن حبنكة ، العقيدة الإسلامية وأسسها . ط. المكتب الإسلامي - دمشق سنة ١٩٨٥ .

٤٠- الـندوى "أبـو الحسـن" : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ط. الدوحة سنة ١٩٨٦ .

٤١- نصار "الأستاذ الدكتور محمد" :

١- العقيدة الإسلامية : أصولها وتأويلاتها . جـ١ ط. القاهرة - ١٩٨٩ .

٢- في الفلسفة الإسلامية : قضايا ومناقشات ط. القاهرة - ١٩٨٢ .

٣- العقيدة الإسلامية : أصولها وتأويلاتها - جـ٤ ط. القاهرة سنة ١٩٩٥ .

٤٢- النيسـابوري "أبـو سـعيد عـبد الرحمن" : الغنية في أصول الدين . ط. بيروت ١٩٨٧ .

٤٣- الـنجار "عـبد الوهاب" : قصص الانبياء . ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت سنة ١٩٧٥ .

٤٤- هاشـم "الأسـتاذ الدكـتور يحيى" : مداخل إلى العقيدة الإسلامية . ط. أولى سنة ١٩٨٥ .

فهرس الموضوعات

الباب الثاني : النبوات (١٢٧ – ٣٠٢)

رقم الإيداع بدار الكتب و الوثائق المصرية
١٥٤٩٤ / ٢٠٠٠